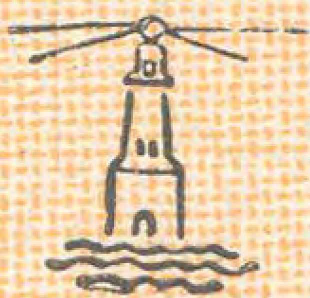
المكتبة
التاريخية

عصر الخلفاء الراشدين

التاريخ الديني ، والسياسي ، والحضاري

تأليف
الدكتور عبد الحميد بخيت
استاذ بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر



دار المعارف بمصر

المكتبة التاريخية

عصر الخلفاء الراشدين

التاريخ الديني ، والسياسي ، والحضاري

تأليف

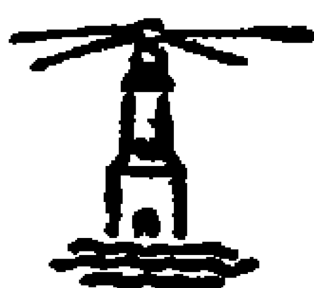
الدكتور عبد الحميد بخيت

أستاذ بكلية اللغة العربية

جامعة الأزهر

الطبعة الثانية

١٩٦٥



دار المعارف بمصر

فاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

مقدمة الطبعة الثانية

منذ صدرت الطبعة الأولى فى عام ١٩٦٣ لهذا الكتاب ، وأحسسنا بضرورته لطلاب التاريخ والثقافة الاسلامية بما وصلنا من خطابات ، وماشهدناه من إقبال شديد على دراسة مابسطناه من حقائق جديدة ومناقشات عديدة لمن تصدوا للتأليف فى هذا العصر ورجاله ، وحضارته ، ولاسيما أولئك المستشرقين ، وأشباه المستشرقين من ذوى المراهقة الفكرية فى الاسلام وتاريخه ، حتى ولو اشتهرت أسماؤهم فى بعض الأوساط ، أو بسبب انتمائهم إلى بعض الطوائف من ذوى الصبغة السلوكية والادعائية الخاصة ، ونحن نوالى البحث والدرس ، والمراجعة حتى نقدم تصحيحا أو جديدا من الدراسات ، تليق بجلال هذا العصر ، الذى هو - بدون ريب - مثل أعلى للبشرية كلها منذ أقدم العصور حتى كتابة هذه السطور .

وحسما للاستطراد نبادر إلى القول : إن هذه الطبعة قد أضيف إليها ثلاثة فصول كبار ، أحدها فى الحضارة الاسلامية ومقوماتها وملامحها ، واسفارها عن المثالية الحقة فى الحرية والعدالة والمساواة ، أو بعبارة العصر ، فى الاشتراكية والديمقراطية والايجابية على جميع المستويات .

أما الفصل الثانى من الجديد ، فقد جعلناه لدراسة « جمع القرآن » إبّان عصر الراشدين ولم ننس أن نقدم تعريفا — ولو كان موجزا — لاولئك الرجال الذى فتحوا الدنيا ونشروا مبادىء الدين الاسلامى ، وثقافته وحضارته فى أقطار الأرض ، وقد كان هذا ما اشتمل عليه الفصل الثالث من الاضافات إلى الطبعة الأولى ، وهى محتويات القسم الثانى .

أما القسم الأول من الكتاب ، فلم يحدث فيه تعديل كبير ، بل ظلت جملة أبوابه وفصوله كما كانت فى الطبعة الأولى ، باستثناء تعقيب واحد عن المقوقس ، اقتضته أمانة البحث العلمى ولكن ذلك لم يغير من أمر الحقيقة القيرسية[1] شيئاً .

ولا يفوتنا فى هذه المناسبة أن نقدم واجب الشكر لجميع الذين تفضلوا ببذل المعونة لنا أثناء البحث والمراجعة سواء بتقديم ما فى اختصاصهم من مراجع ووثائق ، أم فى تنظيم الفهارس والرسوم ونخص بالتقدير السيد الاستاذ كامل كامل أمين مكتبة كلية أصول الدين ، والسيد الاستاذ مدير مطبعة لجنة البيان العربى ، وسائر الأصدقاء والزملاء ، شاكرين لمؤسسة دار المعارف والسادة المشرفين على إدارتها معونتهم الصادقة فى إخراج هذا الكتاب[2] .. والله ولى التوفيق

(١) الحقيقة القيرسية ، هى حقيقة قيرس (المقوقس) وهل هو زعيم القبط أم كان نائب الإمبراطور البيزنطى . لأنه على أية حال كان أمير مصر للدولة البيزنطية . وقد شرحنا ذلك بالتفصيل فى موضعه فى فتح مصر ، وفى التعقيب .

(٢) فى عام ١٩٦٤ شرعت بعض دور النشر فى لبنان فى ترجمة القسم الأول من عصر الراشدين ، وكتاب ظهور الإسلام ، إلى الإنجليزية والألمانية والفرنسية .

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

لعصر الخلفاء الراشدين فى نفوس المسلمين ، تقدير خاص ، لا يتمتع به عصر آخر فى تاريخ الإسلام ، اللهم إلا عصر النبوة الصافى .

ولكن العجيب فى أحداث هذا العصر ، أنها لم تصل إلينا محررة من الزيف والافتراء ، بل والتناقض الذى يبدو واضحاً فى تلك الروايات والمدونات التى لا تكاد تحصى .

ولذلك ، فإن الصعوبات الهائلة قد تواجه الباحث فى تاريخ ذلك العهد ، وتجعله أحياناً فى حيرة شديدة أمام خضم الأخبار التى تحكى حادثة معينة ، بعدة أوضاع ، وأساليب ينبو كثير منها حتى عن مشارب العرب ، وآداب الإسلام بله الحقيقة التاريخية التى قررها المحدثون ، وفقهاء السلف ، وتعتقدها جماهير الشعوب الإسلامية فى جميع أنحاء الأرض ، إذ نقلت إليهم بالتواتر العملى ، الذى لا يعرف الكذب أو التزييف ، أو الكيد .

وعلى سبيل المثال ، يؤمن المسلمون جميعا على اختلاف مذاهبهم فى الأصول والفروع ، بأن القرآن نزل قبل الهجرة النبوية ببضعة عشر عاما ، كما يرى جمهور الأمة أن أمر الخلافة ورياسة الدولة شورى ، وأنه لا وراثة ولا وصية ولا شىء مما يناط بالنظم الملكية أو الامبراطورية ، فى الدولة الإسلامية ، وإنما الأشبه بنظامها ، هو النظم الجمهورية فى أمثل صورها ، وأنقى أشكالها .

وبالرغم من هذه الحقيقة الثابتة ، فإن السبئية تمكنوا من تلقين الأعراب

والسذج أن رياسة الدولة قد أوصى بها النبي (ص) إلى على بن أبى طالب ، وأنها مسألة منصوص عليها فى القرآن ، وأن عثمان قد انحرف عن ذلك وبدل النصوص الدينية ومن ثم ثارت الأمصار عليه ، وهاجمت العاصمة وخلصت الدولة منه ، ومن تحريفه ؟

إن مثل هذا الافتراء ، تفيض به المصادر التاريخية التى ألفت إبان حكم الروافض وغلاة التشيع الشعوبى فى العالم الإسلامى ، ثم وصلت هذه المزاعم إلى المستشرقين فى العصر الحديث ، فنقلوها فى اسفار كبيرة ، ومجلدات ضخمة وكان ذلك إبان إغراق المسلمين فى رواسب النزاع الدينى والتخاصم السياسى والأمية الثقافية والعلمية .

وأخيراً وبعد عصر اليقظة الراشدة التى أسفرت عن مباهجها فى أوائل القرن الحالى قام المثقفون بتعريب كتب المستشرقين فى تاريخ الإسلام وحضارته وتدريسها فى المدارس والجامعات العربية والإسلامية ، وقد كان ذلك مرحلة لا بد منها فى محاولة الاطلاع على تاريخ السلف الصالح لهذه الأمة .

بيد أن ذلك نجم عنه أثر عكسى ، إذ أن المستشرقين لم يستقوا الأخبار والحقائق التاريخية من مصادر تعتبر موضع ثقة من المسلمين ، بل هى محل شك وارتياب منهم وليست معروفة للجماهير التى وصلت إليها الحقائق بالتواتر العملى جيلا عن جيل .

ولهذا ، فقد حدث التضارب والتناقض بين المثقفين بثقافة المستشرقين ، وتلاميذهم ، وبين الجماهير التى لا تعرف من تاريخ الاسلاف ، إلا ما تلقته عن المسلمين الأولين ، وهنا حدثت فجوة عميقة الغور ، بين الأقلية الضئيلة جدا من خريجى الجامعات وبين الكثرة الساحقة من جماهير الشعب المتدين إلى درجة التعصب .. وهذا فى الواقع هو أول الطريق فى العمل على اصلاح الأوضاع وإزالة التناقض الملحوظ بين طوائف الأمة الواحدة ، لبناء مجتمع متماسك سليم .

(٢)

من عادتى حين أشرع فى دراسة موضوع ما ، أن أقرأ كل ما كتب فيه مما يقع تحت يدى أو مما قد يوجد فى بلاد نائية إذا تيسر الحصول عليه .

ولقد قرأت فى بعض المؤلفات التى تدرس فى الجامعات العربية هذه العبارة « القرآن : هو الكتاب المقدس ، ظهر فى السنين الأولى من الهجرة [1] » .

وقرأت لنفس المؤلف — وهو أستاذ للتاريخ الإسلامى تلك العبارة وفى نفس الكتاب المذكور « وقد وجد بنو هاشم لهم داعية جريئا فى شخص رجل يعرف باسم عبد الله بن سبأ ويتلقب بابن السوداء . فقد اتهم عثمان بتبديل بعض السور التى تشير إلى وصية النبى لعلى فى إمامة المسلمين » .

وهكذا نجد بعض الكتاب المعاصرين ، يتهمون عثمان بن عفان أحد صحابة رسول الله (ص) وأحد العشرة المبشرين بالجنه ، وأحد السابقين الأولين من المهاجرين . بأنه انحرف ، واركب بنى معيط وأمية رقاب المسلمين ، وأنه تصرف فى أموال الأمة تصرف الظالمين ، فأعطى الأموال لأقاربه وأصهاره وحاشيته فنجم عن ذلك كله تلك الأحداث ، التى كان هدفها الإصلاح ، ومناهضة الفساد ، ولكن من سوء حظها أن تساق معاوية بن أبى سفيان إلى منصب الخلافة .

ومع أن هذه الأفكار ليست عربية ولا إسلامية ، فإن بعض الكتاب فى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى ، قد أثبتوا ذلك فى مؤلفات لهم على أنه حقائق لاريب فيها ولعل من هؤلاء من زعم أن السبئية انما ثاروا لتحقيق عدالة الاسلام واستقامة سياسة الدولة ؟

---

(١) التاريخ السياسى لعبد المنعم ماجد .

ومن البدهيات لدى جماهير المسلمين ، أن ما حدث إبان عهد عثمان لم يكن ثورة هادفة ، وإنما كان «فتنة» ومؤامرة دبرها أعداء الدين والدولة بقصد تمزيق وحدة الأمة الإسلامية حتى يمكن القضاء عليها بأيدى أبنائها أنفسهم وهذا هو الذى يدين به جمهور المسلمين وهو الذى حققه المحدثون والعلماء ، والمؤرخون العرب والمسلمون ، فهؤلاء جميعاً وعلى رأسهم الصحابة والتابعون وأتباع التابعين، وسائر المسلمين قديما وحديثا على أن الذى كرثت به الأمة فى أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، كان فتنة ومؤامرة اشترك فى تدبيرها اليهود والفرس والروم ، وسائر أعداء الدولة الاسلامية . وفرق ما بين الفتنة والثورة ، كما أن ثمة فرقاً بين الظلام والنور ، وبين ضلال التآمر ، وهدى الإصلاح الثورى وقد بسطنا هذه المسألة فى باب خاص من هذا القسم . وناقشنا تلك المهاترات الخطيرة التى أسرف فيها من كتبوا فى عدالة الاسلام ، وتقويم الحكم فى خلافة عثمان .

فهرس الموضوعات

القسم الأول

المقدمة

الباب الأول

دراسات عامة عن الخلفاء الراشدين

الباب الثاني

الفتوح الإسلامية فى عصر الراشدين

الباب الثالث

الفتنة الكبرى

القسم الثاني

(ش)

القسم الأوّل

ويشمل : التاريخ السياسى

حركة الفتوح . أطوار الفتنة فى عهد عثمان

الباب الأول

دراسة عامة عن الخلفاء الراشدين

الفصل الأول

الصديق أبو بكر

سيرته قبل الإسلام :

كان اسم أبى بكر — رضى الله عنه — عبد الله بن عثمان وهو أبو قحافة بن عامر بن كعب بن سعد تيم بن مرة بن كعب وفى مرة يجتمع برسول الله ﷺ . ولقبه عتيق ، لبشارة النبى (ص) أنه عتيق الله من النار ، فسمى يومئذ عتيقا وأم أبى بكر سلمى ، وتكنى أم الخير بنت صخر بن عمر بن عامر بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة[1]،

ولد أبو بكر لسنتين وستة أشهر من عام الفيل ، وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة ، وكان ذا يسار ، يحمل الكل ، ويكسب المعدوم وكان محببا إلى قريش ، يعرف من أنسابهم مالا يعرفه غيره . وكان مصاحبا لرسول الله ﷺ قبل النبوة[2].

تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها — تذاكر رسول الله (ص) وأبو بكر ميلادهما عندى ، فكان النبى (ص) أكبر ، وصحب النبى (ص) سنة قبل البعثة وسبق إلى الإيمان به واستمر معه طول إقامته بمكة ، وكان اسمه الذى سماه به أهله عبد الله ، ولكن غاب اسم عتيق ، وذلك أن رسول الله (ص) كان مع أصحابه بفناء الكعبة ، إذ جاء أبو بكر ، فقال النبى (ص) : من سره أن ينظر إلى عتيق من النار ، فلينظر إلى أبى بكر ، وكان لأبى قحافة ثلاثة أولاد ، ويقال

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٤١٢ — ٤١٣.

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ١٧١ والإصابة ج ٤ ص ١٠١.

أنه سمى أحدهما معتقا ، وسمى الثانى عتيقا بالتصغير ، والثالث عتيقا وهو أبو بكر.

ويذكر بعض المؤرخين أن السبب فى تسمية أبى بكر عتيقا أن أمه أم الخير لم يكن يعيش لها ولد ، فلما ولدته استقبلت به البيت فقالت : اللهم أن هذا عتيقك من الموت فهبه لى .

ويروى ابن حجر عدة أقوال فى سبب هذا اللقب ، فعن الليث بن سعد أن أبا بكر سمى عتيقا لجماله ، ويرى غيره أن مرد هذا إلى ماضى أبى بكر فى الخير ، كما ذهب آخرون إلى نقاء نسب أبى بكر ، وأنه لم يكن فيه شىء يعاب[1]

يقول ابن إسحاق ، كان أبو بكر رجلا مؤلفا لقومه محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش والعرب ، كما كان أعلمهم بما كان منها من خير أو شر ، وكان تاجرا ذا خُلُق ومعروف ، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته وكان إلى جانب هذا ، يملك ثروة طائلة ، تبلغ أربعين ألف درهم ، ولما أسلم انفقها كلها فى سبيل الله . وتقول عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : مات أبو بكر وما ترك دينارا ولا درهما .

كانت إليه الأشناق — وهى الديات — فى الجاهلية ، فكان يتحملها وكانت قريش تجيزما تحمله أبو بكر ، فكان إذا حمل شيئاً من ذلك ، فسأل فيه قريشا مدحوه وأمضوا ما تحمله ، فإن احتملها غيره لم يصدقوه .

وكان أبو بكر من أولئك العشرة الذين انتهت إليهم المكارم من قريش ، وكان عف النفس واللسان ، حرم على نفسه شرب الخمر فى الجاهلية ، وكان كريما معوانا للضعيف ، باراً بأقاربه ، صريحا فى الحق ، صدوقا فى القول ، ويؤكد المؤرخون أن الصداقة انعقدت بينه وبين الرسول قبل الإسلام — كما أبنا آنفا

(١) الإصابة ج ٤ ص ١٠٢ وما بعدها.

هذا وقد تزوج أبو بكر فى الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر بن لؤى ، فولدت عبد الله وأسماء امرأة الزبير بن العوام كما تزوج أم رومان بنت عامر من بنى غنم فولدت له عائشة أم المؤمنين ، وعبدالرحمن .

كان أشبه الناس برسول الله ﷺ وأدناهم إلى خلقه وخلقه . يقول ابن حجر : من أعظم مناقب أبى بكر أن ابن الدغنة[1] وصفه بنظير ما وصفت به خديجة رسول الله (ص) لما بعث ، فتواردا فيهما على نعت واحد ، من غير أن يتواطآ على ذلك ، وهذا غاية فى مدحه ، لأن صفات النبى (ص) منذ نشأ كانت أكمل الصفات[2]

ومن ذلك يتضح أن أبا بكر — رضى الله عنه — كان قبل الإسلام رجلا مرموقا من قريش والعرب ، إذ كان نسابتهم الحجة ، ومؤرخهم العلامة ، كما كان الرجل العظيم فى قومه ، العزيز فى عشيرته ، وناهيكم بالثقة التى أسبغتها عليه قريش زعيمة العرب ، فى أخطر مسألة تتهاوى فى ثناياها جميع الخصائص والمقومات ، وهى التصدر لتحمل الديات التى يكثر تجددها ، فكان وحده الأمين على جبايتها من العرب يدفعونها إليه راضين مطمئنين ، ولا يتهمه واحد منهم أو يشكك فى حسن سيرته ، بل يبذل له الجميع كل مايطلب إليهم دفعه من خالص أموالهم ، وأعز ما يملكون من الذهب والفضة والإبل والشاة .

على أن التوافق العجيب فى المقومات الخلقية بين النبى العظيم (ص) وبين ابن أبى قحافة ، جعل قطوف الألفة والتجاوب بينهما جد دانية.

---

(١) كان ابن الدغنة من سادة العرب ، وزعيم الأحابيش بمكة ، وكان حازماً حكيما تسير أقواله فى القبائل سير الأمثال ، وكان الأحابيش من القبائل العربية الأصيلة التى تعيش فى مكة وما حولها ، فتكاثر عددها ، وبرز كثير من رجالها .

(٢) يشير ابن حجر إلى قول السيدة خديجة — رضى الله عنها — للنبى صلى الله عليه وسلم وقد أخبرها بما حدث له مع الملك فى الغار . فقالت له : كلا والله ما يحزنك الله أبدا . أنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتقرى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق.

وإذا أضفنا إلى هذا ، تمتع الصديق بالثراء البالغ والتجارب الفائقة فى مختلف الشئون التجارية والقومية والإنسانية ، وغيرها وضحت لنا تلك الصورة الرائعة التى تجلت بعد الإسلام،سواء فى عنفوان الدعوة،أو فى مراحلها الحرجة المتأزمة ، أو بعد الهجرة وإبان القتال الدائب فى الغزوات والسرايا ، أو فيما بعد ذلك،حيث قبض الرسول (ص) وفزع الأبطال ، وزلزل الإيمان من قلوب الأشبال،ثم ارتدت العرب ، واشرأبت أعناق الرجعية واليهودية والمجوسية ، وكاد يخفت صوت الحق والإيمان ، لولا ذلك العتيق الذى انقذ الموقف فى السقيفة ، وجمع الأمة فى المسجد وقضى على الردة وأخمد أنفاسها ، ثم نفخ فى العرب من روحه القوية ،فاندملت الجراح ، وعادت الوحدة إلى الأمة ، والتف العرب حول لواء واحد يمثل القومية والاسلامية ، ويلقى على الشرق والغرب ، واليهود والمنافقين ، درسا بالغ الشدة، كان مقدمة لتلك الفتوح الكبرى التى ثلت العروش ، وأنزلت التيجان،وقضت على الحدود المصطنعة بين الشعوب المعذبة ، سواء فى بلاد العرب،أو ملك كسرى وقيصر كما سنوضح ذلك فى موضعه إن شاء الله .

أبو بكر بعد الإسلام :

ولما أكرم الله محمداً (ص) بالرسالة ، كان أبو بكر أول رجل استجاب لدعوة الحق ، ولم يتردد ساعة من نهار . حتى لقد قال النبى (ص) فى ذلك : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر[1]

وروى أبو هريرة — رضى الله عنه — أن النبى (ص) قال : ما لأحد عندنا يد ، إلا وقد كافيناه بها ، ماخلا أبابكر ، فإن له عندنا يداً يكافيه الله تعالى بها يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر ، وما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة إلا أبابكر ، فإنه لم يتعلثم . ولو كنت متخذا خليلا ، لاتخذت أبا بكر .

(١) تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ١٧١ .

ويقول أبو الدرداء — رضى الله عنه — : كنت جالسا عند النبى ﷺ إذ أقبل أبو بكر — رضى الله عنه — آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته . فقال (ص)أما صاحبكم فقد غامر (خاصم) فسلم أبو بكر وقال : انه كان بينى وبين ابن الخطاب شىء فأسرعت إليه ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لى ، فأبى على، فأقبلت إليك . فقال (ص): يغفر الله لك يا أبابكر — ثلاثا — ثم ان عمر ندم ، فأتى منزل أبى بكر — رضى الله عنه — فقال : أثم أبو بكر ، فقالوا : لا . فأتى إلى النبى(ص) فسلم ، فجعل وجه النبى (ص) يتمعّر (يتغير من الغضب) حتى أشفق أبو بكر — رضى الله عنه — فجثا على ركبته وقال : يارسول الله،أنا كنت أظلم فقال النبى ﷺ . ان الله بعثنى إليكم فقلتم : كذبت وقال أبو بكر : صدق، وواسانى بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركون لى صاحبى . قال ذلك مرارا .

وأخرج البخارى عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال: لما اشتد بالنبى(ص) المرض ، قيل له فى الصلاة ، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت عائشة — رضى الله عنها — : ان أبابكر رجل رقيق القلب ، وانه إذا قام فى مقامك ، لا يكاد يسمع الناس من البكاء ، فلو أمرت عمر . . فقال (ص) .مروا أبابكر فليصل . فعاودته عائشة فقال(ص):مروه فليصل . فإنكن صواحب يوسف(1)

يقول أنس — رضى الله عنه — كان أبو بكر يصلى لهم (يعنى اماما) فى وجع النبى ﷺ الذى مات فيه ، فلما كان يوم الاثنين وهم صفوف فى الصلاة، فكشف (ص) ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كان وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم يضحك

---

(1) لعل المراد بذلك أنهن يحسن للرجال مالا يجوز , ويغلبنهم على رأيهم . والغرض من ذلك أن تكف عائشة أم المؤمنين عن مراجعة النبى صلى الله عليه وسلم ولا تحاول صرف الأمر عن أبيها بما احتجت به لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ولا ينطق عن الهوى .

فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبى ﷺ فنكص أبو بكر على عقبيه (تأخر عن مكانه من الإمامة) ليصل الصف ، وظن أن رسول الله (ص) خارج إلى الصلاة فأشار إلينا النبى (ص) أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر فتوفى من يومه.

وبالجملة فإن أبا بكر كان من أشد الناس ملازمة لرسول الله (ص) وغيرة على شخصه ودينه ، وقد تحمل بسبب ذلك مالم يتحمله غيره .

أخرج البخارى عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن أشد ماصنع المشركون برسول الله (ص) فقال : رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبى (ص) وهو يصلى ، فوضع رداء فى عنقه ، فخنقه خنقا شديداً ، فجاء أبو بكر — رضى الله عنه — حتى دفعه عنه . ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول : ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم .

ويقول سفيان الثورى . من زعم أن عليا أحق من أبى بكر وعمر ، فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار [1]

ويؤكد بعض الرواة ، أن أبا بكر آمن بالنبى (ص) فى زمن بحيرا الراهب ، وأنه اختلف بينه وبين خديجة حتى بنى بها النبى (ص) وذلك قبل أن يولد على [2] .

ومما لاريب فيه ، أن الرجل الوحيد الذى صحب الرسول (ص) فى الغار إبان الهجرة ، إنما هو أبو بكر ، ولذلك فقد صرحت الآية الكريمة بهذا ، يقول تعالى فى القرآن الكريم من سورة التوبة (آية ٤٠) « إلاَّ تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا

(١) كتاب تيسير الوصول ج ٢ ص ٢٦٣ — ٢٦٦
(٢) الاصابة ج ٤ ص ١٠٤

السفلى ، وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

أراد أبو بكر أن يهاجر إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين للمسلمين فمنعه من ذلك ابن الدغنة ، سيد القارة ، وأجاره على قريش ، على شرط أن لا يستعلن بصلاته ، ولكن أبا بكر لم يستطيع الاستمرار على إخفاء عبادته ، فرد إلى ابن الدغنة جواره ، وأقام راضياً أن يصيبه ما يصيب جماعة المسلمين من أعدائهم.

شهد بعد الهجرة جميع المشاهد الحربية، واشترك فى جميع الغزوات، ولم يتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة منها .

وفى غزوة تبوك كان صاحب راية المسلمين ، وأمره النبى (ص) على الحج فى السنة التاسعة .

تزوج أبو بكر فى الإسلام، أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن ترملت بوفاة زوجها جعفر بن أبى طالب، فولدت له محمداً الذى تربى فى حجر على فيما بعد .

وتزوج بعد إسلامه كذلك ، حبيبة بنت خارجة بنت زيد من الخزرج ، فولدت له بعد وفاته أم كلثوم بنت أبى بكر وقد كانت جملة أولاده ستة ، ثلاثة ذكور ، وثلاث من الإناث .

أما الذكور فهم . عبدالله ، وعبد الرحمن، ومحمد. وأما الإناث فهم : أسماء أم عبدالله بن الزبير ، وعائشة أم المؤمنين وأم كلثوم من حبيبة بنت خارجة .

خصائصه وأخلاقه :

يروى المسعودى أنه لم يستخلف أحد من الأربعة وأبوه حى غير أبى بكر، وأنه كان أزهد الناس ، وأكثرهم تواضعاً فى أخلاقه ولباسه ومطعمه ومشربه . وكان لبسه فى خلافته الشملة والعباءة [1] .

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٤١٣ .

قدم عليه زعماء العرب وأشرافهم ، وملوك اليمن ، وعليهم الحلل الموشاة ، بالذهب ، والتيجان ، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك ، وما عليه من الوقار والهيبة ، ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم. وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ، ومعه ألف عبد ، دون ما كان معه من عشيرته ، وعليه التاج والبرود الموشاة بمثاقيل الذهب ، فلما شاهد من أبى بكر ما وصفنا ، ألقى ما كان عليه ، وتزيا بزيه ، حتى أنه رؤى يوما فى سوق المدينة على كتفيه جلد شاة ، ففزعت عشيرته وقالوا : فضحتنا بين المهاجرين والأنصار . قال : أردتم أن أكون ملكا جبارا فى الجاهلية جبارا فى الإسلام . لا والله . لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع لله ، والزهد فى هذه الدنيا .

بلغ أبا بكر عن أبى سفيان صخر بن حرب ، أمر ، فأحضره وأقبل يصيح عليه ، وأبو سفيان يتماقه ، ويتذلل له . وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبى بكر ، فقال لقائده (وكان أبو قحافة قد كُفّ بصره) : على من يصيح ابنى . فقال له ، على أبى سفيان فدنا من أبى بكر وقال له : أعلى أبى سفيان ترفع صوتك ياعتيق ، لقد تعديت طورك ، وجزت مقدارك فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار ، وقال : يا أبت ان الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذل به آخرين (١) .

كان إذا نزل بأبى بكر أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأى وأهل الفقه ودعا رجالا من المهاجرين والأنصار ، دعا عمر وعثمان وعليا وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وكان يشاورهم فى جميع الأمور العامة ، مع أنه كان عالماً بدقائق الشريعة ، وأخبار الناس ، وأيامهم وأنسابهم وسياساتهم إلى ما رزق من صدر رحب ، وحزم وعزم (٢) .

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٤١٣ .

(٢) أنظر كرد على فى الإدارة الإسلامية ص ٢٤ .

أوصى أبو بكر يزيد بن أبى سفيان،لما أرسله إلى الشام . فقال : إذا دخلت بلاد العدو ، فكن بعيدا من الحملة فانى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسربا لادلاء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات، وأقلل من الكلام .. وإذا أتاك كتابى فانفذه،وإذا قدمت عليك وفودالعجم، فأنزلهم معظم عسكرك،وأسبغ عليهم النفقة وامنع الناس عن محادثتهم ،ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا تلحف فى عقوبة فإن أدناها وجع ، ولا تسرع بها وأنت تكتفى بغيرها. واقبل من الناس علانيتهم،وكلهم إلى الله فى سرائرهم.

كان أبو بكر شوريا بفطرته ، حتى إذا وضح له الحق ، لا يثنيه عنه شىء كما كان مهتما بأمر الناس ، يفرح إذا فرحوا ، ويألم إذا حزنوا .

لقد تمتع بالرقة الفائقة ، والعزيمة الصادقة ، وبحق أشبه رسول الله ﷺ فى خلقه وَخُلقه .

الفصل الثاني

الموقف العربي قبل السقيفة

يخطىء كثيراً من يظن أن الصديق، لم يظهر على مسرح السياسة العامة، إلا بعد أن ذهب مع عمر وأبي عبيدة إلى سقيفة بني ساعدة [1] حيث تمت له البيعة بالخلافة في رياسة الدولة .

فى غزوة تبوك :

أشرنا فيما سبق، إلى أن الراية - وهى رمز سيادة الدولة — قد سلمها رسول الله ﷺ إلى أبى بكر فى آخر غزوة خرج النبى فيها، وهى غزوة تبوك، مع وجوده - (ص) — وقيادته المباشرة لجيش الدولة الإسلامية، وقد جرى التقليد الدولى، على أن تكون الراية فى يد رئيس الدولة .

حدث أبو هريرة عن ظروف فتح مكة فقال : أقبل رسول الله (ص) فدخل مكة، فبعث الزبير على إحدى المجنبتين، وبعث خالداً على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة بن الجراح على الجيش، فأخذوا بطن الوادى، ورسول الله (ص) فى كتيبة، وقد وبشت قريش أوباشها (المرتزقة والمأجورين) وقالوا نقدم هؤلاء فإذا كان لهم شىء كنا معهم، وان أصيبوا أعطيناه الذى سألنا فقال رسول الله (ص) : يا أبا هريرة . فقلت لبيك يا رسول الله . قال : اهتف لى بالأنصار، ولا يأتينى إلا أنصارى فهتفت بهم، فجاءوا، فأطافوا برسول الله (ص) فقال:

---

(١) زعم هذا بعض المستشرقين، وعلى رأسهم ماسية، ولامانس وأرنولد وسنذكر تفنيدا لهذه المزاعم فى موضعها من الكتاب إن شاء الله تعالى.

أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم — ثم قال بيديه احداهما على الأخرى — أحصدوهم حصدا ، حتى توافونى على الصفا . قال أبو هريرة . فانطلقنا ، فما يشاء أحد منا أن يقتل منهم ما شاء إلا قتل . ور كزت راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح ، ثم نهض المهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر فاستلمه ، ثم طاف بالبيت وفى يده قوس . وحول البيت ثلثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول «جاء الحق ، وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » والأصنام تتساقط على وجوهها . وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرما يومئذ فاقتصر على الطواف . فلما أكمله ، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت فدخلها فرأى فيها الصور ، ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام . فقال «ص» « قاتلهم الله . والله إن استقسما بها قط » وأمر بالصور فمحيت ، ثم أغلق عليه الباب ، هو وأسامة وبلال فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب وكبر فى نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ، ينظرون ماذا يصنع بهم ، فأخذ بعضادتى الباب ، وهم تحته فقال « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » ألا كل مأثرة أو مال ، أو دم ، فهو تحت قدمى هاتين ، إلا سدانة البيت ، وسقاية الحجاج . الا وقتل الخطأ شبه العمد ـ السوط والعصا ـ ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل وأربعون منها فى بطونها أولادها . يا معشر قريش . إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . والناس من آدم ، وآدم من تراب » ثم تلا هذه الآية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . ثم قال يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم . قالوا خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم . قال : فإنى أقول لكم كما قال يوسف

لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم . اذهبوا فأنتم الطلقاء « ثم جلس فى المسجد فقام إليه على — ومفتاح الكعبة فى يده — فقال يارسول الله : اجمع لنا الحجابة مع السقاية ،صلى الله عليك ، فقال ﷺ : أين عثمان بن طلحة ، فدعى له . فقال : مفتاحك ياعثمان .. اليوم . يوم بر ووفاء .

وأمر بلالا أن يصعد على الكعبة فيؤذن وأبو سفيان بن جرب وعتاب بن أسيد ، والحارث بن هشام ، وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة — فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا . فقال الحرث .اما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته فقال أبو سفيان : لاأقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء، فخرج عليهم النبى (ص) فقال : لقد علمت الذى قلتم ثم ذكر ذلك لهم . فقال الحرث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك .ثم دخل — (ص) — دار أم هانىء فاغتسل وصلى ثمان ركعات، صلاة الفتح وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا بلدا صلوا هذه الصلاة .

والمهم أن الراية يوم الفتح كانت مع رسول الله باعتباره رئيس الدولة ، والقائد الأعلى لقواتها المسلحة ، وهكذا نجد هذا التقليد لدى جميع الدول منذ أقدم العصور إلى اليوم .

وإذن فلم يكن تسليم أبى بكر الراية فى أكبر وآخر معركة حاسمة خاضها الرسول مع أعدائه ، إلا لأمر خطير يناط بسيادة الدولة وسياستها العليا ، وكأنما يلفت أنظار المسلمين إلى الصديق ليقدروا مواهبه وعبقريته ، وعلمه ، وشجاعته ، فلا يعدلون به أحدا بعد رسول الله (ص).

على أن ذلك فى التقاليد الحديثة ، يعتبر ترشيحا من النبى (ص) للصديق فى رياسة الأمة ، وخلافة رسول الله — (ص) — ولو بالرمز والتوجيه . يقول ابن

اسحاق[1] « وكانت عزوة تبوك فى زمان عسرة من الناس وجدب من البلاد ، حين طابت الثمار ، فالناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، وكان (ص) ـ قلما يخرج فى غزوة إلا ورى بغيرها . إلا ما كان منها ، فإنه جلاها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان .

قال ـ (ص) ـ ذات يوم للجد بن قيس ـ أحد بنى سلمة : يا جد ، هل لك فى جلاد بنى الأصفر (الروم) . فقال يا رسـول الله ، أو تأذن لى ولا تفتنّى ، فقد عرف قومى ، أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ، أن لا أصبر فقال (ص) : قد اذنت لك . يقول أصحاب المغازى ، ففيه نزلت « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ـ الآية[2] » .

وقال المنافقون « لا تنفروا فى الحر ، وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ، فلم يعذرهم .

هذا وقد استخلف الرسول (ص) على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري وخلف على أهله ، على بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون . وقالوا : ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه ، فلما قال ذلك المنافقون ، أخذ على ابن أبى طالب سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله (ص) وهو نازل بالجرف فقال : يانبى الله . زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى ، لأنك استثقلتنى وتخففت منى . فقال (ص) : كذبوا ولـكننى خلفتك لمـا تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك . أفلا ترضى أن تـكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى .

---

(١) انظر مختارات من سيرة ابن اسحاق بعنوان « نبى البر » نشر كتاب الشعب بالقاهرة.

(٢) سورة التوبة آية ٤٩ .

يقول المؤرخون : وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت « سويلم اليهودى » يثبطون الناس عن رسول الله (ص) فى غزوة تبوك فبعث إليهم النبى (ص) طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة ، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا (نجوا)

ثم إن رسول الله (ص) جد فى سفره وأمر بالجهاز ، وحض أهل الثراء على البذل والنفقة ، فأنفق عثمان مالا كثيرا وثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وعدتها ، وألف دينار عينا .

وبلغ عدد الجيش الإسلامى ،فيما قيل ، ثلاثين ألفا ، ما كاد ينتهى إلى تبوك حتى سارع صاحب أيلة ، وأهل أذرح بطلب الصلح على أن يدفعوا الجزية ، وكذلك تمكن خالد بن الوليد من أسر أمير دومة ، فقبل الصلح ودفع الجزية ، ثم أقام رسول الله (ص) فى تبوك بضعة عشر يوما ، انصرف بعدها إلى المدينة فوصلها فى شهر رمضان من سنة ٩ للهجرة .

أبو بكر أمير الحج :

بعد عودة النبى (ص) من تبوك أقام بالمدينة بقية رمضان ، وشوالا وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج من سنة تسع ليقيم المسلمين حجتهم، فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين .. ونزلت سورة « براءة » فى نقض ما بين رسول الله (ص) وبين المشركين من العهد .

وقد حج فى هذه السنة كثير من المشركين ، وهم على دينهم ، ولعل ذلك هو السبب فى عدم خروج النبى (ص) للحج فى هذا العام ، إذ كانت بعض

القبائل العربية ، لاتزال على جاهليتها وتقاليدها المنحرفة في أداء مناسك الحج .

ولما أنزلت سورة « براءة » بعث بها النبي ﷺ إلى أبي بكر ليعلنها للناس ، وكان مبعوث النبي (ص) هو علي بن أبي طالب على ناقة الرسول المضباء ، فلما لقي أبا بكر ، فسأله : أمير أم مأمور . فقال علي : بل مأمور ، وبهذا يكون أبو بكر نائب النبي الوحيد في الحج .

وفي يوم النحر ، قام علي بن أبي طالب وخطب في الحجيج ، فقال « أيها الناس لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله (ص) فهو إلى مدته » .

وإمارة أبي بكر للحج بعد حمله « الراية » يوم تبوك ، ترشيح آخر له ولفت للأمة إلى فضائله ، وكفايته ، والالتفاف حوله ، إذا حدث للرسول (ص) شيء .

سقوط الرجعية والوثنية :

قد لايدرك البعض صلة هدم الأوثان ، ووفود الملوك والرؤساء على النبي (ص) بعد فتح مكة ، وغزوة تبوك بالحديث عن الصديق أبي بكر ، لأن مثل هذه المسائل تدرس ضمن السيرة النبوية عادة . . ولكن من يتتبع الأحداث التي وجدت بعد وفاة النبي (ص) من جدل في السقيفة ، وحول بعث أسامة ، ثم حركة الردة الخطيرة بغية الانفصال عن الدولة ، فإنه لا بد أن يدرك العروة الوثقى بين هذه السلسلة المتصلة الحلقات ، إلى جانب أن عهد أبي بكر يعتبر جزءا لا يمكن فصله عن عهد النبي (ص) إلا من جهة واحدة ، وهي انقطاع الوحي عن الأرض ، وختم النبوة والكتاب والشرائع السماوية .

ومما لا ريب فيه أن القضاء على سلطات الإقطاع الديني والسياسي ، الممثلين

فى سدانة الأوثان ، وماكان لرؤساء القبائل من امتيازات ، من أهم العوامل فى حدوث الحركة الرجعية الانفصالية التى عرفت بحركة الردة فى عهد أبى بكر .

يقول المؤرخون : كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وأمر رسول الله ﷺ . إذ كانت قريش إمام الناس وهداتهم وأهل الحرم والبيت ، وصريح ولد اسماعيل . . وقادة العرب لا ينكرون ذلك . . وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله (ص) فلما فتحت مكة ودانت له قريش ، عرفت العرب ، أن لاطاقة لهم بحرب رسول الله (ص) ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله أفواجا كما قال الله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره . إنه كان توابا » .

ونضيف إلى ذلك ، أن منطقة مكة ، كانت البقعة الوحيدة فى بلاد العرب كلها ، التى لم تطأها قدم مستعمر ، ولم تدخل فى إطار الأحلاف العسكرية ، والنفوذ الاقتصادى أو الدينى لأية دولة أو أمة أو نحلة ، بينما كانت جميع أطراف البلاد العربية ، بل كانت يثرب نفسها ، تتعثر فى هذه الفجوات .

ولعل من يتتبع تاريخ العرب قبيل الإسلام ، وماكان يحدث بينهم من حروب ومهاترات ، سيؤمن حتما بهذه الحقيقة .

على أن اليهود ، ولاسيما فى يثرب ، كان لهم — رغم وجود الأوس والخزرج ، نفوذ عريض فى هذه المنطقة التى تضم « يثرب » وضواحيها وما حولها . إذ أقام اليهود الحصون والمستعمرات حول يثرب ودربوا أعدادا من شبابهم وكهولهم ، وكادوا يحتكرون التجارة والزراعة والصناعة ، ثم حاولوا أن يقدموا أحد عملائهم — وهو عبد الله بن أبى بن سلول — عظيم الخزرج ، وعميد عرب المدينة ، ليتوجوه ملكا عليها وعلى العرب تحت إشرافهم وتوجيهم ، وبأموالهم وأسلحتهم ، وذلك بعد فشلهم فى إقامة دولة يهودية ، فى يثرب العربية .

لمن — إذن — يتقدم اليهود بهذا السخاء والبذل الذين لم يعرفا عنهم .. هل ذلك لمصلحة عميلهم المذكور ، أم لأهدافهم التى قدموا لها ، وأسفروا عنها ، بإنشاء المستعمرات والحصون فى أرض يثرب ، وإقليم الحجاز .

على أن الحصون اليهودية التى أقاموها قبل البعث الإسلامى ، هى كالقواعد العسكرية والصاروخية التى خلفتها اليوم وحلت محلها فى العالم المعاصر ، وأصبحت تشكل خطراً داهما على مصير الأمن والسلام فى العصور الأخيرة ولا سيما فى الوطن العربى ، والأماكن المقدسة .

عبد الله ابن أبى :

ومن هنا ندرك خطر العملاء على الدين والدولة، فإن هذا الرجل العربى الذى باع نفسه لأعداء العرب ، وهو عبد الله بن أبى بن سلول ، أصبح بعد الهجرة شوكة حادة قاتلة فى وحدة العرب وتعاليم الإسلام .

والذين درسوا تاريخ الدولة الإسلامية منذ تأسيسها فى عصر الرسول ، يشهدون نشاط هذا العربى العجيب، وغيرته على اليهود، وخيانته لأمته ودينه . . ففى كثير من الغزوات والحروب، كان مصدر التعويق والتخذيل والشائعات الضارة.

وفى غزوة تبوك كان المنافقون من حزبه ، هم الذين يعقدون الاجتماعات ، ويطبخون الإشاعات لصرف الناس عن حرب الروم ومشركى الشام ، حتى لقد أمر النبى ﷺ بإحراق بعض الأوكار على المتآمرين .

ومن ثم ، فسوف نشهد إصراراً شديداً من أبى بكر فى السقيفة على ابعاد عرب المدينة من الأنصار، عن رياسة الدولة ، وإن وعدهم بأن يكونوا «الوزراء» فيها ، والمشتركين فى مسئولياتها ولكن « الخلافة » عن رسول الله، بعد وفاته مباشرة ، وفى ظروف تكتنفها الأخطار والهزات ليس من المصلحة العامة أن يتولاها ، من سبق أن دخل فى اطار النفوذ أو التبعية ، أو ارتبط مع الأعداء،

بأحلاف أو ارتباطات ضد مصلحة الأمة ، مهما تطورت الأوضاع ، وتغيرت الظروف .

ومما لاريب فيه ، أن ماضى الأنصار يفيض بهذه المسائل وعشرات غيرها . أما قريش ، فليست لها فى عموم العرب ، هذه الوضعية أو ذلك الماضى المشوب بشبهات الخضوع والتبعية .

ولعل هذا يفسر لنا كما سنبسط ذلك فى موضعه — حقيقة موقف «العتيق» إذ ينأى بدولة الإسلام إبّان تأسيسها عن كل مظان الشبهات . ونعود إلى مكاننا من البحث .

قصة الوفود وهدم الأصنام :

ومرة أخرى ، نؤكد وثيق الصلة بين أعضاء هذه الوفود ، وبين الحركات الانفصالية التى واجهت أبا بكر بعد عشرة أيام فقط من مبايعته خليفة لرسول الله ﷺ . . ولذلك ينبغى أن نقدم بين يدى مؤتمر السقيفة ، قصة الوفود،وهدم الأصنام حتى يتضح السبب الحقيقى فى حركة الردة التى قامت فور وفاة النبى (ص) ، وكان محركوها سدنة الأوثان و بعض الزعماء وبخاصة من قبائل بنى حنيفة وبنى تميم وأشباههم .

وفود العرب إلى رسول الله (ص) :

فى السنة التاسعة من الهجرة ، وبعد انتصار الرسول على الروم فى تبوك ، أسلمت ثقيف ، ثم أخذت وفود القبائل تترى ، لتظفر بلقاء النبى صلى الله عليه وسلم ورضاه والإيمان برسالته ، والانضواء تحت راية الدولة الإسلامية .

بنو تميم :

فهذه قبيلة بنى تميم صاحبة « سجاح » تبعث بعطارد بن حاجب التميمى ، فى أشراف من قومه ، فيقدمون على رسول الله بالمدينة ، فيخرج الرسول للقائهم ، فإذا بهم يقولون :

جئنا لنفاخرك ثم يطلبون الإذن لشاعرهم وخطيبهم أن يتكلما فيأذن لهم رسول الله ، ويخطب عطارد بن حاجب ويفاخر بقومه ، ثم يتلوه شاعرهم الزبرقان بن بدر ، فيبالغ فى مدح قومه حتى ليقول :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا   منا الملوك وفينا تنصب البيع
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا   من الشواء إذا لم يؤنس الفزع

إلى أن يقول :

إنا أبينا ولم يأبى لنا أحد   إنا لذلك عند الفخر نرتفع

وهنا ينظر النبى (ص) إلى هؤلاء فى عجب ، ثم يلتفت إلى الشاعر الإسلامى حسان بن ثابت ويقول : قم فأجب الرجل : فقام حسان ، فقال :

إن الذوائب من فهر واخوتهم   قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله ، وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم   أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة   إن الخلائق فاعلم شرها البدع

إلى أن يقول :

لا يبخلون على جار بفضلهم   ولا يمسهموا من مطمع طبع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم   وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم   إذا تفرقت الأهواء والشيع
اهدى لهم مدحتي ، قلب ووازره   فيما أحب ، لسان حائك صنع

وقال الزبرقان مرة أخرى :

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا   إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
فإنا ملوك الناس فى كل موطن   وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم
وإن لنـا المرباع فى كل غارة   تغير بنجد أو بأرض الأعاجم

وقد أجاب حسان بن ثابت قائلا :

هل المجد إلا السؤدد العود والندى   وجاه ملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينـــا النبى محمدا   على أنف راض من معد وراغم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا   على دينه بالمرهفات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظيمها   ولدنا نبىّ الخير من آل هاشم
بنى دارم لا تفخروا إن فخركم   يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم . علينا تفخرون . وأنتمو   لنـا خَوَلٌ ما بين ظئر وخادم
فإن كنتمو جئتم لحقن دمائكم   وأموالكم أن تقسموا فى المقاسم
فلا تجعلوا لله ندا واسلموا   ولا تلبسوا زياً كزى الأعاجم

ولما انتهى حسان من كلماته ، قال الأقرع بن حابس :

إن هذا الرجل لمؤتى له (موحى إليه) . لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا . . . ثم أسلموا وجوزهم رسول الله فأحسن جوائزهم .

ولكن أصحاب سجاح ، حسبما كشفت كلماتهم ، إنما جاءوا ليفاخروا

وينافروا ، ويخيل إلينا أنهم لم يسلموا على علم ، بدليل ما أسفروا عنه في حروب الردة فى عهد أبى بكر رضى الله عنه .

وفد طيء :

وقدم على رسول الله وفد طيء، فيهم زيد الخيل الذى يروى أن النبى (ص) قال فيه : ما ذكر لى رجل من العرب بفضل، ثم جاءنى ،إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كل ما فيه . وقد سماه رسول الله (ص) زيد الخير .. وقد أسلم قوم زيد وكانوا درعا لأبى بكر إبان الردة فيما بعد. بعكس بنى تميم الذين كانوا من أشد المرتدين بقيادة سجاح اليربوعية .

عبد القيس :

ووفد على النبى (ص) بالمدينة الجارود العبدى فى وفد عبد القيس ، فقال : يارسول الله ، إنى على دينى، وإنى تارك دينى لدينك، فهل تضمن لى بما فيه . قال : نعم . أنا ضامن لذلك . ان الذى أدعوك إليه ، خير من الذى كنت فيه .. فاسلم واسلم وفد عبد القيس .

وكان فى الوفد «الأشج» الذى قال له رسول الله (ص) : إن فيك لخصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة .

البحرين :

وقد أسلم أمير البحرين ، وسلم الإمارة إلى العلاء بن الحضرمى أميرها من قبل رسول الله (ص) ولكن البحرين ارتدت فيما بعد .

مسيلمة وبنو حنيفة :

أما بنو حنيفة فقد بعثوا مسيلمة بن حبيب فى جماعة منهم حيث نزلوا خارج المدينة، ثم تركوا مسيلمة فى رحالهم، وذهبوا لمقابلة النبى (ص) وأعلنوا إسلامهم، ثم ذكروا للنبى ﷺ أن صاحباً لهم ، وهو مسيلمة بن حبيب ، قد خلفوه فى رحالهم ليحفظها فأمر له ﷺ بمثل ما أمر لهم به من الجوائز وقال : أما إنه ليس بشركم مكاناً . . يعنى لحفظه أمتعة أصحابه ، ثم انصرفوا . فلما وصلوا اليمامة ، ارتد مسيلمة ، وادعى النبوة ، وقال : إنى أُشركت فى الأمر معه . وقال للوفد : ألم يقل لكم : اما إنه ليس بشركم مكاناً . ما ذاك إلا لما كان يعلم أنى شريكه فى هذا الأمر ، ثم أنشأ يسجع لهم كسجع الكهان ليضاهى به القرآن ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله بالنبوة :

ويروى أنه كتب إلى رسول الله (ص) بعد بضعة أشهر يقول : من مسيلمة رسول الله ، إلى محمد رسول الله . أما بعد . فإنى أُشركت معك فى الأمر ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم لا يعدلون .

هذا . وقد كتب النبى (ص) ردا على كتابه : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب « السلام على من اتبع الهدى » أما بعد . فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . .

تحطيم الأصنام :

على أن من الأسباب الأساسية فى الاضطرابات التى حدثت فى عهد أبى بكر هو هدم الأوثان والأصنام ، والغاء الوظائف المادية والشرفية ، التى كان تمتع بها سدنتها والقوامون على شئونها يقول المؤرخون :

بعث رسول الله (ص) عمرو بن العاص إلى صنم هذيل (سواع) لهدمه ،

ويقول عمرو — رضى الله عنه : فأتيته وعنده السادن فقال : ما تريد . قلت ، أهدمه ، قال : لاتقدر على ذلك . قلت: لمَ . قال : تمنع . قلت : حتى الآن أنت على الباطل . ويحك ، وهل يسمع أو يبصر ، فدنوت منه فكسرته ، وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزائنه ، فلم نجد فيه شيئاً . فقلت للسادن : كيف رأيت .. قال : أسلمت لله .

صنم مناة :

وبعث ﷺ سعد بن زيد بن مالك بن عبد بن كعب بن عبد الأشهل الانصارى ، فهدم مناة التى يعظمها الأوس والخزرج ، وكانت عند قديد ، وكان مع سعد عشرون فارساً فلما انتهوا إلى مناة ، وعندها سادنها ، قال لزيد ماتريد : قال : هدمها . قال : أنت وذاك ، فأقبل سعد يمشى إليها ، حتى هدمها ولم يجد فى صندوقها شيئاً .

ويقال أنه حينما وصل إليها ،خرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها ، فضربها فقتلها (١) .

وهكذا واصل الرسول (ص) بعث أصحابه لتطهير الجزيرة العربية من أدران الوثنية ، مما ألب سدنة الأصنام ، ومحترفى الكهانة من حولها ، فتظاهر كثير منهم بالإسلام ، ولكنهم لم يؤمنوا حق الإيمان ، مما جعل كثيراً منهم ينضم إلى الرجعية الانفصالية فى حركة الردة بعد فترة قصيرة .

حجة الوداع :

وفى سنة ١٠ من الهجرة ، تجهز رسول الله (ص) يريد الحج ،وأمر الناس

---

(١) أنظر مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ص ١٤٦ لابن عبد الوهاب

أن يتجهزوا ، فاجتمع في مكة جم غفير من المهاجرين والأنصار ، وكثير من القبائل العربية .

وفى هذا الموسم بالذات ، بل ولأول مرة ، أقام الرسول مناسك الحج ، وشرحها عملياً للأمة ، ثم ألقى فى « منى » خطبته الجامعة التى بين فيها كل ما يهم الناس . قال ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه « أيها الناس. اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا .

أيها الناس ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم . وكل ربا موضوع . وأول ربا أضعه . ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله وان كل دم فى الجاهلية موضوع وأول دم أضعه ، دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وإنى تركت فيكم ما ان اعتصمتم به لم تضلوا : كتاب الله ..وأنتم مسئولون عنى . فما أنتم قائلون . قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال (ص) : اللهم اشهد — ثلاث مرات »

ولما انتهى النبى (ص) من أداء مناسك الحج ، رجع إلى المدينة فأقام بقية ذى الحجة ، وشهرى المحرم وصفر ، وفى أواخر صفر ابتدأ برسول الله (ص) مرضه الذى قبض فيه .

الفصل الثالث

مؤتمر السقيفة

تمهيد :

أبنّا فيما سبق ، أن الرجل الوحيد الذى اتجهت إليه الأنظار بعد رسول الله ﷺ انما هو أبو بكر ، لأنه — فوق سبقه بالإسلام والهجرة والجهاد ، ومركزه العامى والاجتماعى — كان ملازما للنبى (ص) فى أشد الظروف حرجا ، وهو الرجل الوحيد الذى رافق الرسول (ص) فى الهجرة من مكة إلى المدينة ، بعد أن ظل معه فى الغار بضعة أيام . .

ولهذا فقد كان ينبغى أن نفصل الظروف والأحداث التى سبقت مؤتمر الأنصار يوم وفاة النبى صلى الله عليه وسلم حتى نقدر مواقف أبى بكر الحاسمة ، فى صدر الإسلام .

وقد أوجزنا كلمة عن وفد بنى حنيفة وبنى تميم ، وغيرهما ، لأن هؤلاء الذين تحدثوا عن أنفسهم ومفاخرهم ، كانوا بعد ذلك حربا عوانا على الدين والدولة فى عهد أبى بكر .

كذلك أشرنا إلى عدد كبير جداً من المنافقين واليهود ممن كانوا يجتمعون فى بيوت أفراد من الأوس والخزرج ، ليخذلوا المسلمين عن لقاء غساسنة الشام ، وحلفائهم الروم ، ولكننا لم نكد نعثر على عربى واحد من أهل مكة أو حتى الطائف ، يتواطأ مع اليهود ليطعن الرسول والمسلمين فى ظهورهم ابان الحروب العربية الرومية ، سواء فى غزوات مؤتة أو ذات السلاسل . أو فى تبوك التى قاد الجيوش

فيها محمد رسول الله بنفسه ، وفيها كذلك قدم أبا بكر ليحمل الراية نيابة عنه فى حضوره و بأمره .

وإذن فقد كان مؤتمر السقيفة — رغم حسن ظننا البالغ بالأنصار — مشوبا بظروف وملابسات ، ليس من السهل على المؤرخ إغفالها أو الغَضُّ منها ، أو تجاهل فاعليتها فى الدعوة إلى ذلك المؤتمر .

يقول المستشرق بروكلمان : والحق أن جميع الأحقاد السياسية التى كان النبى ﷺ قد كبتها بنفوذه الأدبى ، لم تلبث أن ذرقرنها . فمن ناحية كان عدد المنافقين لايزال فى المدينة كبيراً جداً ، ومن ناحية أخرى كان الأنصار العريقون فى المدينة يتوقون إلى التحرر من سلطان الأغلبية المتمثلةفى المهاجرين ، ليصبحوا سادة موطنهم الوحيدين ، كرة أخرى ، ثم ان عليا ابن عم النبى (ص) وزوج بنته ادعى لنفسه الحق فى خلافته كرئيس للدولة ، بوصفه أقرب الناس رحما إليه ، ولكنه كان كسعد بن عبادة سيد الأنصار الذى طمع فى الخلافة أيضاً ، ولايملك من القوة أو من النفوذ ، ما يساعده على تحقيق طلبته ، ومن هنا لم يلبث أصحاب محمد السابقون أن وفقوا إلى اقناع الناس بالاعتراف بأبى بكر ، والدعائشة زوج النبى،وكان يتمتع مع عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح بنفوذ كبير عند محمد ، خايفة له ، فلم يعد فى وسع الأنصار ، إلا أن يبايعوا للأميراً الحديد[1] »

وبروكلمان — فى الواقع — ليس بدعا من المستشرقين الكثيرين ، الذين كتبوا هذه الأساطير ، ولاسيا ما يناط منها بحق على فى رياسة الدولة التى قررت مبادئها الدستورية أن الأمر شورى ، وأن لافضل لأحمر على أسود أو أبيض ، وأنه لا أنساب ولا أحساب ، ولارحم تخول حقوقا فى خلافة النبى (ص)

(١) أنظر كتاب تاريخ الشعوب (معرب) ج ١ ص ٩٨ — ٩٩

ورياسة الدولة ، بل ذلك كله منوط بالكفاية والمصلحة العامة ، وسنناقش هذه المسائل كلها فى موضعها من هذا البحث .

أما نظرة الأنصار إلى المهاجرين ، فإن من الحق أن نقرر ، أن الكتب العربية الموثوق بها ، قد سجلت كلمة الحباب بن المنذر الخزرجى فى السقيفة ، وكانت تدور حول هذا المعنى ، ولكن الذى أملاها عليه — فى رأينا — إنما هو محض العاطفة القومية ، ثم تأثير الدسائس ، والألاعيب اليهودية والرجعية فى جو الكارثة التى حلت بالدولة بوفاة رسول الله ﷺ .

على أننا لا نستطيع إخلاء طرف الروم ، وغساسنة الشام من المساهمة فى خلق هذا الجو ، إذ مما لا ريب فيه ، أن بين عرب المدينة من الأوس والخزرج ، وغساسنة الشام ، وشائج من الدم والقربى . والإسلام — رغم تطويره للضمائر والقلوب — فإنه لم يستأصل جميع الرواسب التى غرست منذ قرون فى الأرض والناس بدليل بقاء شرذمة من عرب المدينة نفسها ، يعملون دائبين على وقف الانطلاق والتحرر ، ويحالفون اليهود ، والروم ، ويواجهون النبى بالمنكر ، وهم من عرفوا بالمنافقين .

ولكن ، هل نستطيع اتهام الأنصار ، وهل كانت كل الدوافع لهم على اجتماع السقيفة ، وليدة الدس والوقيعة ..

ان الواقع التاريخى يؤكد براءة الأنصار من الكيد للدين والدولة ويقرر أنهم من خيرة المؤمنين المجاهدين ، ولكنهم ظنوا أن لهم حقا فى رياسة الدولة ، فقاموا يطلبونه بالشكل الذى هداهم إليه تفكيرهم ، فهم — بدون شك — مجتهدون ، ولهم أجرهم ولهم كذلك عذرهم .

وفاة رسول الله ﷺ:

فى يوم الاثنين الثالث عشر او الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونيو سنة ٦٣٢ م) إختار نبى الله جوار ربه وصعدت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، وقد كان الرسول فى حياته يضطلع بالقيام بأمرين خطيرين :

أحدهما لا يستطيع القيام به غيره وهو تلقى الوحى عن الله وتبليغه إلى الناس ، والثانى القيام بأعباء الشئون الدنيوية المتعلقة بكل ما يختص بالتنظيم العام لشتى شئون الدول والأفراد فى حياتهم العامة والخاصة - فلما نعى الناعى رسول الله (ص) ، جزعت نفوس المسلمين واهتزت قلوبهم لهذا الحادث الجلل ، فلم يقو على الصبر على ألم ذلك الخطب الجسيم إلا رجل واحد هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، أما باقى المسلمين فقد جزعت نفوسهم ، فهذا عمر بن الخطاب يقوم خطيباً فى الناس ويقول : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله (ص) توفى - وإن رسول الله (ص) والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب أربعين ليلة عن قومه ثم رجع بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن[1] رسول الله (ص) فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله (ص) مات :

وهؤلاء سادة الأنصار وعلى رأسهم سعد بن عبادة والحباب بن المنذر يدعون إلى مؤتمر عام للأوس والخزرج فى سقيفة بنى ساعدة ليحددوا موقفهم من المهاجرين الذين يطمعون فى رياسة الأمة بعد رسول الله . وهذا فيما نظن لم ينشأ إلا بسبب جسامة الصدمة بوفاة رسول الله أحب الناس إلى قلوبهم جميعاً .

أما أبو بكر فإنه حين وفاة الرسول كان بالسنح من ضواحى المدينة فلما بلغته

---

(١) ونحن نشك فى صحة هذا الخبر الذى نسب إلى عمر رغم كثرة رواته من مؤرخى العرب .

الوفاة أسرع إلى المدينة حتى نزل على باب المسجد ، فوجد عمر يخطب الناس بما أسلفنا ، فلم يلتفت إليه ، ودخل على رسول الله فى بيت عائشة ، ورسول الله مسجى فى ناحية البيت عليه برد حِبَرَة فأقبل حتى كشف عن وجهه . ثم قال : بأبى أنت وأمى . أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدا . ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج . وعمر يكلم الناس ، فقال له أبو بكر على رسلك يا عمر ، أنصت . فأبى عمر وواصل كلامه ، فتركه أبو بكر واتجه إلى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس . من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . ثم قرأ قول الله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين

بهذا أعلن أبو بكر وفاة رسول الله ، وآمن الناس بالله ثم بوفاة رسوله الكريم وأخذوا يعيدون قراءة الآية الكريمة التى تلاها أبو بكر ، وثاب عمر إلى رشده وعرف أن الرسول حقيقة قد مات وكان يوماً على المؤمنين من أشد الأيام بل أشدها وأفظعها فى حياتهم كلها .

وقبل أن ننتقل بكم إلى حديث السقيفة يحسن بنا أن نشير إلى مواقف لأبى بكر تتعلق بوفاة الرسول ، وتشهد لهذا الرجل بالعلم والرسوخ وفى مقدمتها حفظه عن الرسول قوله : ما مات نبى إلا دفن حيث مات[1] وقد رواه أبو بكر للناس حينما اشتد خلافهم فى الموضع الذى يدفن فيه الرسول حتى كادت تكون فتنة . كذلك

---

(١) الطبرى ح ٣ ص ٢٠٥ ونص الحديث بسند الطبرى " ما قبض نبى إلا يدفن حيث قبض .

موقفه فى الردة وبعث أسامة مما سنفصله فى موضعه من هـذا الـكتاب إن شاء الله تعالى .

مؤتمر الأنصار :

أما عن مؤتمر الأنصار فإن حديثنا عنه ينحصر فى نقطتين

أولا : وصف هذا المؤتمر والأسباب الدافعة إلى انعقاده

ثانياً : النتائج النظرية والعملية التى نجمت عنه لخطورة هذه النتائج فى الدولة الإسلامية فيما بعد — بيد أننا قبل الـكلام عن هاتين النقطتين نرى أن نوجز جملة عن السقيفة التى كانت مكاناً لهذا الاجتماع .

سقيفة بنى ساعدة :

كانت تلك السقيفة مجاورة لسوق المدينة ، وهى عبارة عن ظلة كبيرة مبسطة الجوانب ، وتقع فى أرض بنى ساعدة بن كعب من الخزوج وكانت من الأمكنة التى اعتاد أهل المدينة الاجتماع إليها والتشاور فى شئونهم الخاصة والعامة فهى ناد يشبه دار الندوة لدى قريش فى مكة ، ولقد كان لهذه السقيفة فى توجيه الحـكم الإسلامى أثر بعيد الغور لا يقل عن أثر ثور أو حراء فى توجيه الرسالة المحمدية مع فارق واضح وهو أن ثوراً وحراء يتصل أمرهما بأقدس رسالة أنزلها الله على أشرف إنسان خلقه الله ، والسقيفة أمرها متصل بسياسة الدنيا وحماية مقدسات الدين ، ولـكل خطره ولـكل آثاره .

وإن مما تنبغى الإشارة إليه لفتة الأنصار القومية حينما أعانوا عن مكان اجتماعهم فى صميم أرض منسوبة إلى بعض بطونهم ولم يشاءوا عقد مؤتمرهم فى مسجد الرسول مثلا أو غيره من الأماكن العامة ، وليس مما يستساغ فى المنطق أن

يقال إنهم أرادوا بهذا أن يبعدو عن اجتماعهم غير المرغوب فيهم، فإن حتى هذا القول يحمل فى ثناياه نفس الجواب عليــــه ، وهو أنهم كانوا يريدون إعلان القومية المحلية فى المدينة وإختيار رئيس على المجتمعين فى السقيفة من أصحاب السقيفة دون المهاجرين من غير أهل المدينة ، وذلك إلى جانب أنه لا يعقل أن يــكون بحثهم فى أخطر مسألة تهم الأمة كلها مما لايذاع إلا بعد إبرامه ، إذ على فرض هذا فإنه لن يكون ملزماً للأمة. ولا مقبولا لدى الجماعة ولــكن المقبول أن يكون اختيار الأنصار لهذا المــكان لإعلان أنهم أصحاب البلد وأمراؤه .

مادار فى المؤتمر :

فى ساعة رهيبة من ساعات اليأس القاتل ، ساعة نعى الرسول الـكريم ظن الأنصار أن الأرض تموج من تحتهم وأن الزمن الذى اختطف أحب الخلق إليهم من بين أظهرهم ، وقد كان بلسم شفاء لنفوسهم ، وراحة رحمة لقلوبهم، وإكسير حياة لأرواحهم ، لا يمكن فيه الثقة بصديق مهما بلغ من الوفاء .

فى هذه الساعة الرهيبة نفر الأنصار إلى طبيعة عربية قديمة فدعوا إلى اجتماع السقيفة، وثابوا إلى هذا المــكان وَجَسَدُ الرسول مسجى فى حجرة عائشة والمهاجرون وبنو هاشم مشغولون بتجهيزه وأداء مراسم الجنازة، ولقد أوشك الأنصار أن يختاروا سعد بن عبادة أميراً على المؤمنين أو على الأقل على الأنصار من المسلمين، لولا أن المنافسة التى كانت بين الأوس والخزرج إلى جانب عدم موافقتهم على الاجتماع قد دفعت بعضهم[1] لأن يتسللوا إلى المهاجرين لاخطارهم بما يصنع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة.

---

(١) هذا البعض هما : عويم بن ساعدة الأنصارى، وعاصم بن عدى الأنصارى (الطبرى جـ ٣ ص ٢٠٨) .

فكان أن قابل بعض الأنصار أبا بكر وعمر وأخبروهما خبر الأنصار فى السقيفة ؛ فأسرع الرجلان إلى حيث الأنصار والتقى بهما فى الطريق أبو عبيدة بن الجراح وقيل وسالم مولى أبى خذيفة ، وفاجأ الثلاثة الأنصار فى السقفية فوجدوهم قد أصغوا لخطاب سعد ابن عبادة الذى كان مريضاً جالساً يبلغ عنه ابنه مايقول ، وكان من قوله: يامعشر الأنصار: لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، وكان ما يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة . وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والأعزاز لهولدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس وأثقله على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخراً حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ودانت بأسيافكم له العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين ـ استبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس ، فأجابوه بأجمعهم : أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القول ولن نعدو مارأيت نوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى (١) .

على أن أبا بكر وصاحبيه ما كادوا يستقرون فى السقيفة حتى قام خطيب آخر من الأنصار وأخذ ينادى بقوله . أما بعد : فنحن أنصار الله تعالى وكتيبة الإسلام وأنتم معشر المهاجرين رهط منا وقد دفَّت دافة من قومكم فإذا هم أرادوا أن يختزلونا من أصلنا وأن يخضنونا من الأمر .

---

(١) الطبرى جزء ٣ ص ٢٠٨ .

ولم يكد هذا الخطيب ينتهى من إلقاء كلمته حتى ثار عمر وأراد أن يخطب فى الأنصار ليضع الأمور فى نصابها ، ولكن أبا بكر رجا عمر أن يتريث وأن يدعه هو يتولى الحديث مع الأنصار فوافق عمر فقام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه وشهيداً على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم شافعة ولهم نافعة وإنما هى من حجر منحوت وخشب منجور ثم قرأ : ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله: وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم وكل الناس لهم مخالف زار عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم وإجماع قومهم عليهم فهم أول من عبد الله فى الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم.

وأنتم يامعشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور (١).

فقام الحباب بن المنذر فقال: لا والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر: لا ولكننا الأمراء وأنتم الوزراء .. لن يعرف هذا الأمر ، إلا لهذا الحى من قريش . هم

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٠٨ .

أوسط العرب داراً وأعربهم أحسابا[١] فقام الحباب بن المنذر فقال: يامعشر الأنصار إماكوا عليكم أمركم فإن الناس فى فيئكم وفى ظلكم ولن يجترى مجترىء على خلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم. أبى هؤلاء إلا ماسمعتم فمنا أمير ومنهم أمير. فقال عمر: هيهات.. لا يجتمع اثنان فى قرن[٢].)

والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم و نبيها من غيركم ولكن العرب لاتمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورها منهم. ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين. من ذا ينازعنا سلطان محمد (ﷺ) وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لاثم أو متورط فى هالكة. فقام الحباب بن المنذر فقال: يامعشر الأنصار: إملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر.. فإن أبوا عليكم ماسألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين. ثم قال فى ثورة وانفعال.

أنا جزيلها[٣] المحكك وعزيقها [٤] المرجب والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة فقال عمر: إذاً يقتلك الله تعالى. قال الحباب: بل إياك يقتل. فقال أبو عبيدة: يامعشر الأنصار. إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير.. فقام بشير ابن سعد ابو النعمان بن بشير فقال: يامعشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة

---

(١) ابن الديبع فى التيسير ج٢ ص٢.

(٢) القرن بفتح القاف والراء الحبل الذى يقرن به البعير ويقصد به أميران على دولة.

(٣) الجزيل تصغير جزل وهو العود الذى يحك به الجرب

(٤) العزيق النخلة الكثيرة التمر ومعنى العبارة أنه عظيم الرأى مجربه.

في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً، فإن الله ولي المنة علينا بذلك، ألا ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) من قريش وقومه أحق به وأولى وايم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدا. فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم.. فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة : فأيهما شئتم فبايعوا فقال عمر لا والله لا تتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثانى إثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ، أبسط يدك تبايعك، فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد . فبايعه ، فناداه الحباب بن المنذر . يابشير بن سعد ما أحوجك إلى ماصنعت؟ أنفست على ابن عمك الإمارة فقال : لا والله ولكني كرهت أن أنازع قوما حقاً جعله الله لهم .

وببيعة بشير الخزرجي كسر على سعد بن عبادة ما كان ينتظر وتقاطرت الأوس على بيعة أبي بكر ، وازدحم الناس على البيعة حتى لقد وطئوا سعد بن عبادة بأقدامهم وأقبلت أسلم بجموعها حتى تضايقت بهم السكك فبايعوا أبابكر واقبل الناس من كل جانب يبايعون لأبي بكر ولم يخالف عليه أحد سوى سعد ابن عبادة الذى كادت تؤخذ البيعة له وكان مريضاً فنقل من السقيفة إلى بيته بعد ملاحاة مع عمر حتى كادت تؤجج فتنة لولا تدخل أبي بكر .

وبهذا استطاع أبو بكر وصاحباه عمر وأبو عبيدة ، أن يسكنا هذه الفتنة التى كادت تهدد الدولة الإسلامية الناشئة فى احرج ظروفها .

وإذا كان لنا ان نتساءل عن الحافز لهؤلاء المؤمنين الذين صحبو الرسول فى أدق الظروف ، وكانوا عصب الدعوة وحماتها ، فإن من اول ذلك وأقربه إلى العقل ما نسجله فيما يأتى :

(١) تأصل الروح القبلية فى نفوس العرب ..

وقد كان المسلمون فى حياة الرسول ينتمون إلى قبائل شتى ، ويطوون مختلفة واجناس متباينة ، وكان إلى جانب هذا أخلاط من اليهود والمنافقين يساكنون هؤلاء المؤمنين فى المدينة وغيرها ، فلما نعى الناعى رسول الله وقع ذلك من نفوس المسلمين موقع الرعد والصواعق فهزها هزاً عنيفاً وكاد يأتى على بنيان الإيمان من القواعد .

أجل . . جزع الأنصار إذ قيل رسول الله قد مات وقلقت نفوسهم وغذى اليهود والمنافقون هذا القلق بإثارة الأحقاد العربية القبلية وأذكوا روح المنافسة القديمة بين قبائل العرب فتهدج صوت الإيمان في قلوب كثير من نقباء الأنصار فثار هولاء إلى سقيفتهم ، لا بوصفهم أنصار الإسلام ، بل باعتبارهم أصحاب البلد وأبناء الأوس والخزرج وأنه من الخير لهم أن يبرموا أمرهم فى غيبة من المهاجرين الذين وفدوا عليهم صحبة الرسول الكريم[1] عليه الصلاة والسلام .

(٢) تصريحات الرسول للأنصار .

ثم أن الانصار يتمسكون بأحاديث أثرت عن رسول الله (ص) تفيد أن الرسول رجل من الأنصار ، وأنهم آله وعشيرته فظن الأنصار أن رياسة المسلمين بعد رسول الله (ص) يجب أن تكون فيهم وحدهم ، ولهذا رأوا أن يولوا أمير المؤمنين منهم وأن يجتمعوا على زعيمهم سعد بن عبادة ، وأن المهاجرين إذا علموا بذلك لا ينازعون فى هذا .

الأنصار إذن متأولون مجتهدون ، فهم مأجورون وإن أخطأوا ؛ إذ غابتهم

(١) انظر خطاب الحباب تجد فيه هذا المعنى واضحاً جليا .

وضع الأمور فى نصابها ، وإن أخطأوا المحجة فى نظر الأغلبية .

أما تلك التصريحات التى استند إليها الأنصار فمن أهمها :

أولا : ماورد فى بيعة العقبة الكبرى . إذ قال الرسول لوفد المدينة مع مصعب بن عمير — الدم الدم والهدم الهدم — يعنى أنا منكم وأنتم منى أيها الأنصار . وهذا عندما قال الأنصار للرسول : فهل عسيت إن نحن بايعناك وقاطعنا اليهود ثم أظهرك الله تعالى أن ترجع إلى قومك وتدعنا : فعند ذلك صرح لهم ذلك التصريح الآنف .

ثانياً : ما حدث فى غزوة بدر الكبرى سنة ٢هـ (٦٢٤ م) فقد أخذ الرسول يستشير الناس فى لقاء المكيين فشاور المهاجرين فوافقوا على قتالهم ، وأحبوا مصادمتهم ، ولكن الرسول لم يقدم على الحرب ولم يهتم برأى هؤلاء المهاجرين.

ثم أعاد الاستشارة ووجهها إلى الأنصار فوافقوا فعند ذلك استطاع الرسول أن ينشب القتال وهو مطمئن إذ كان العدد والشوكة فى الأنصار ، وهم الأكثرية الساحقة فى جيش المسلمين ، وبهم كان النصر الذى كان سببا فى إلقاء هيبة المسلمين فى نفوس المشركين .

ثالثا : وفى فتح مكة ، كان الأنصار هم الذين أرغموا قريشا على الطاعة بما لهم من العدد والسلاح ، فهم عضد الرسول وساعده عند الشدائد ، وهم فاتحوا مكة فلهم السيادة بحكم الفتح على قريش .

ويوم حنين ، وقد غنم المسلمون مغانم كثيرة ، فأعطى الرسول ناسا لما يرى فيهم من ضعف ونفاق ، وترك الأنصار ، فظنوا أن ذلك لهوانهم على الرسول، فتحدثوا وأكثروا ، فعلم بهم رسول الله فجاءهم ، وحدثهم وطمأنهم مؤكدا لهم أن تصريحاته السابقة باقية ، وأنهم آله وعشيرته ، وأنه أصبح رجلا من أهل

المدينة . ثم قال : أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ، فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة ، لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار .

نقول : بأمثال هذه التصريحات ، والتضحيات تشبث الأنصار بأحقيتهم فى إمارة المؤمنين بعد رسول الله (ص) :

٣ — الروح القومية :

كذلك رأى الأنصار أنهم أصحاب العاصمة الإسلامية وهم ملاك الأراضى من قبل وأصحاب الضرع والزرع فى المدينة وأنهم .وقد أقاموا دولة الإسلام فى بلادهم وبسواعدهم ــ لاينبغى فى شرعة السياسة أن يتخلوا عن السيادة فى وطنهم لقوم ظنوهم أجانب عنهم ، وإن كانوا أعزة عليهم ، ومتفقين وإياهم فى دينهم وملتهم، لأن هذا معناه تسامح فى أبسط شئون الوطن مما يجعل الأجنبى يتحكم فى رب الدار،وهذا ليس من منطق المصلحة ولا أسلوب الحكم والإدارة بل ان الذى ترتضيه الجماعة فى التقاليد الأولى أن يكون أميرها من بينها . ومن أقربهم إلى أفرادها.

كان الأنصار إذن مدفوعين بعامل القومية إلى جانب ما سبق .ولذلك كانت ثورة أحد سادتهم تدور حول هذا المعنى . فهذا الحباب يقول : فإن أبى المهاجرون أن يؤمروكم عليهم ، فأجلوهم عن بلادكم .

وهذا لم يصدر من الحباب ــ فى أغلب الظن ــ إلا لاقتناعه بأنه صاحب البلاد ، والمواطن الأصيل ــ فى رأيه ــ ومن ثم فإنه إما أن يوافق المهاجرون على إسناد الرياسة إلى الأنصار ، أو فليخرجوا من المدينة التى هى بلاد الأنصار.

بيد أنه مع وضوح هذا السبب من الأنصار فى التقاليد السياسية نرى من الحق

أن نشير إلى أنهم قد غفلوا عن مبادىء أخرى وضعها الرسول ، ودعمها بالقول والعمل. وتلك هى أن رسول الله قد آخى بين المهاجرين والأنصار وجعلهم شركاء فى المدينة ؛ وبهذا أصبح المهاجرون مواطنين أصليين كالأنصار سواء بسواء .

كذلك نرى الرسول يصرح فى مناسبات متعددة بأن المسلمين كتلة واحدة وجسم واحد، وأن ذمتهم واحدة يقوم بها أدناهم وأن الإسلام يَجُبُّ ماقبله من حزازات ومنافسات وقوميات وأن كل من يعتنق الإسلام من أى جنس ولون يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وأن كل أمور المسلمين يجب أن تعرض عليهم ويبدى كل فرد فيها رأيه ، وان أكرم المسلمين اتقاهم سواء كان مكيا أو مدنيا ، وان المفاضلة فى جميع الشئون الدينية والسياسية وغيرها لا تكون إلا بالتقوى وهى التمسك بروح الإسلام وحسن التدبير وكفاية الشخص ، وقوة الصبر مع الله . والجهاد فى سبيل دينه ورسوله وتحمل المسئولية العامة .

ومن كل ذلك نستطيع أن نقول إن الأنصار كانوا دعاة قومية محلية وأما المهاجرون فكانوا يريدونها جامعة إسلامية شاملة ولعل الفرق بين الرأيين يتضح لنا إذا افترضنا نجاح الأنصار فى تأمير أحد المدنيين على مسلمة المدينة كما أراد الحباب ، فتكون دولة إسلامية فى المدينة تنفذ أوامرها على يثرب فقط .

أما المهاجرون فإنهم حالو دون هذا . إذ كانت نظريتهم أن ينتخب المسلمون جميعاً فى جميع أنحاء البلاد الإسلامية أميراً عليهم يوجههم ويشرف على مقدسات دينهم ودنياهم وهذا ما قد كان وهو الموافق لحكم التعاليم الإسلامية فى السياسة الثورية النابعة من جماهير الأمة .

بقى أن نشير إلى النتائج التى أسفر عنها مؤتمر السقيفة وما بقى منها فى العصور التالية .

الشورى : وأول هذه النتائج ، الشورى التى بدت واضحة فى مبايعة أبى بكر ، إذ عرضت المسألة على بساط البحث وأدلى كل برأيه ، ثم تغلب رأى المهاجرين فبويع أبو بكر ، وقد ظلت الشورى كمبدأ فى بيعة الخليفة طوال دولة الخلفاء الراشدين والدول التى تلتهم ، وان تطورت بتطور العصور . فنراها فى عصر الملك الوراثى زمن الأمويين والعباسيين مسألة رسمية شكلية يتظاهر الملوك بالعمل بها لا أكثر . والحقيقة سافرة عن الاستبداد ونبذ الشورى .

الانتخاب : كذلك سنت السقيفة مبدأ الانتخاب المباشر لأصلح الموجودين من كبار رجال الدولة . وقد عمل بهذا المبدأ أيام الأربعة الراشدين . وترك بعدهم مباشرة فلم تعمل به أسرة من الأسر التى حكمت المسلمين بوجه عام .

البيعة : ومن المبادىء التى سنتها السقيفة مبدأ البيعة ، وهى أن يصافح الناس أميرهم علامة على الرضا بامارته . وقد وظل هذا المبدأ ، وتطور مع الزمن ، بيد أنه ظل على كل حال .

تحديد برنامج الحاكم : ومما سنته السقيفة . أن يتقدم رئيس الدولة بخطاب بين يدى حكمه وبعد مبايعته يبين فيه منهجه وخطته فى الحكم ليطمئن إليه الناس ويعرفوا مسلكه فى الحكم . وقد ظل هذا المبدأ معمولا به حتى الآن وهذه السنة قديمة وجدها الإسلام عن الأمم السابقة ولم ينسخها بل أقرها واستحسنها المسلمون فساروا عليها .

نشوء الفرق : على أن من أهم النتائج التى أسفر عنها هذا المؤتمر نشوء بذور الفرق الإسلامية التى تشكلت فيما بعد .

فقد كان فريق الأنصار وهم الذين لا يريدون تأمير قريش ووافقهم بعد مدة طائفة الخوارج ، مع فارق بسيط وهو أن هؤلاء يدينون بالمبدأ الجمهورى المحض، والأنصار يريدون صرف الخلافة عن قريش لتكون فى أهل المدينة دون سواهم.

كذلك يقال أنه كان هناك فريق يرون حصر الخلافة فى آل البيت ، وهؤلاء هم الذين نظمت على أساسهم فرق الشيعة فى العصور التالية وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان الجمهور الأعظم الذى بايع لأبى بكر وهذا الجمهور هو الذى جاء على أساسهم فريق أهل السنة والجماعة .

وعلى هذا يكون مؤتمر السقيفة أساساً لنشوء مذاهب أهل السنة والشيعة ، والأنصار ثم الخوارج ، وأخيراً المعتزلة . إن صح أن فريقاً من المسلمين اعتزل المهاجرين والأنصار ورفض أن يبايع لأحد من هؤلاء أو هؤلاء وهذا لا يؤيده مستند يوثق به .

الفصل الرابع

مؤتمر المسجد، وموقف كبار الصحابة

بالشكل الذى أبناه تمت بيعة أبى بكر فى السقيفة ، ولكن هل يمكن أن يعتمد المسلمون خلافة أبى بكر بهذا الانتخاب العابر ، ولم يحضر جلتهم وجل كبرائهم هذه البيعة ، بل إنهم لم يدعوا إليها ولم يعلموا بها . الواقع أن هذا المعنى لم يغب عن أبى بكر ، ولذلك نراه بعد أن يتم تجهيز الرسول ومواراته ، يطلب من المسلمين أن يجتمعوا لأمر هام . فيحضر كبار المسلمين ، وكل ذى رأى فيهم ، ثم يقف عمر بينهم ويخطبهم قائلا :

أيها الناس ، إنى قد كت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيى وما وجدتها فى كتاب الله ولا كانت عهداً عهده إلى رسول الله ﷺ . ولكن قد كنت أرى أن رسول الله (ص) ، سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا ، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله (ص) ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله (ص) . وثانى اثنين إذ هما فى الغار . فقوموا فبايعوا ، فعند ذلك بايع الناس بيعة العامة بعد بيعة السقيفة[1] .

وعلى ذلك تعتبر بيعة أبى بكر ، ناشئة عن شورى واختيار من المسلمين كما يعتبر انتخابه حراً لاجبر فيه ولا استبداد لأنه بعد ما سكن الفتنة فى السقيفة وكانت حينئذ بيعة، لم يكتف أبو بكر بها. بل جمع الناس وعرض عليهم ما كان فى هذه السقيفة . فأيد المسلمون بيعته فيها وجدوا له التأييد بالبيعة له ، ولم يخالف عليه أحد

---

(١) أنظر الطبرى ج ٣ ص ٢٠٣

إلا من ذكرنا من مثل سعد بن عبادة والحباب بن المنذر ، وكان ذلك فى السقيفة أما حين بيعة المسجد العامة فى اليوم التالى ، فإن الطبرى يروى أنهما بايعا ، مختارين ، وإن كانت هناك روايات أخرى أيضاً تقول بامتناعهما مدى الحياة [١] .

أما ما يقال من امتناع بنى هاشم وعلى رأسهم العباس وعلى عن مبايعة أبى بكر فإننا سنتحدث عنه حديثا أو فى بعد قليل .

* * *

بعد أن انتهى عمر من خطبته السابقة بين يدى أبى بكر وقام المسلمون فبايعوا له . قام أبو بكر على المنبر فحمد الله ، وأثنى عليه بالذى هو أهله ، ثم قال:

« أما بعد : أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت»
« فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى : الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف»
« فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى منكم الضعيف عندى»
« حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله . فإنه»
« لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله »
« بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى»
« عليكم ، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله » .

وبهذا البيان البديع ، والخطاب المحكم افتتح أبو بكر خلافته وحدد منهجه، وأجمل برنامجه ، ولم ينس أن يؤكد لهم وجوب النصيحة للخليفة وطاعته متى أطاع الله ورسوله . كما أكد لهم فريضة الجهاد ، وأسهب فى الحث عليها .

من شمائله :

لما أسلم أبو بكر سماه الرسول عبد الله ، وكان أعداؤه يكنونه أبا فصيل، وهو أول من أسلم من الرجال ، وإذا شك أحد فى هذا ، فلا مجال للشك فى أنه من

(١) نفس المصدر السابق .

أسبق أعوان الرسول ، وأخلص المؤمنين بدعوته .. ذلك الإيمان الذى بلغ درجة اليقين المحض . يقول الرسول ﷺ : «ما دعوت أحد إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر . وفى حديث آخر : « ماطلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبى بكر إلا أن يكون نبى » وبلغ من إيمانه ، أنه لما نزل قوله تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) قال يارسول الله « لو أمرتنى أن أقتل نفسى لفعلت » . فقال الرسول ﷺ : صدقت .

لم يتسرب الشك إلى نفسه حتى فى حديث الإسراء ، حين كان الناس بين مصدق ومكذب ، وحين ارتد أناس ممن كانوا آمنوا . أما أبو بكر فقال : إنى لأصدقه فيما هو أبعد من هذا . أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة ، فسمى أبو بكر الصديق من يومئذ .

كان أبو بكر لين الجانب ، كريم الشمائل ، فاجتذبت هذه الصفات محبة الناس له ، وإجلالهم لقدره . فأسلم على يديه رجال عظماء منهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف .

ولم تكن تضحية أبى بكر قاصرة على إخلاصه للمبادىء الإسلامية . بل لقد انفق فى سبيل هذه المبادىء حوالى خمسة وثلاثين الف درهم من خالص ثروته . حتى إذا كانت الهجرة لم يبق له سوى خمسة آلاف درهم . انفق كل هذا فى طاعة الله . وقد اعتق سبعة كلهم يعذب فى الله ، فكان يعتق الضعفاء والنساء حتى قال له أبوه : « أى بنى : أراك تعتق أناساً ضعافاً ، فلو أنك أعتقت رجالا أقوياء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك . فقال : أى أبت : إنى أريد ما عند الله .

وعلى الجملة فإن أبا بكر ، كان نسيج وحده فى الدين والخلق والعلم والكرم ،

وكان آية للرجولة الجـادة فى أنقى صفحاتها وكان يجمع إلى دماثة الخلق ، شجاعة القلب وقوة الارادة .حدث على رضى الله عنه،قال : أخبرونى من أشجع الناس. فقالوا أنت . فقال : أما انى ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه . ولـكن أخبرونى بأشجع الناس : قالوا لا نعلم . فقال على رضى الله عنه : أشجع الناس أبو بكر ،ثم حدثهم عن تقدمه لحراسة النبى ﷺ ، يوم غزوة بدر ، وكيف انه صد هجمات أبطال المشركين عن رسول الله ، حتى كان لايدنو من النبى أحد من الأعداء ، إلا دفع به أبو بكر حتى يسقط على الأرض .

اشتراكية أبى بكر :

لما اختار الله رسوله.وخلفه أبوبكر على الأمة:سار سيرته فى المساواة بين الناس، وفى تنفيذ فـكرة « الاشتراكية الاسلامية ».اذ كانت الزكاة تجمع إلى بيت المال، فينفق منها ومن الصدقات والمغانم على شئون الدولة فيما يصلح الجيوش وغيرها فإذا بقى بعد ذلك شىء ، قسمه بين المسلمين بالسوية ،وقد طبق ذلك بدقة فى توزيع ذهب المنجم الذى اكتشف فى بنى سليم قرب المدينة.يقول ابن حجر : استقر أبو بكر خليفة بعد رسول الله (ص) ولقبه المسلمون « خليفة رسول الله » وكان أبيض نحيفا معروق الوجه ناتىء الجبهة ، لطيفا خفيف العارضين [٢] .

وسنعرض لمواقفه الـكثيرة المشهودة فى مواضعها من هذا الـكتاب إن شاء الله.

موقف على بن أبى طالب :

على الرغم من أن ثقات المؤرخين يذكرون أن أبا بكر كان متفقا عليه من

---

(١) انظر ص ٦٩ (٢) الاصابة ج ٤ ص ١٠٢ .

جميع المسلمين ؛ ولم يتخلف أحد عن بيعته ؛ حتى سعد بن عبادة نفسه يروى أنه بايع فى بيعة العامة كما أسلفنا .

بل على الرغم أننا لم نسمع فى التاريخ أن علياً ثار على أبى بكر — على الأقل كثورة الأنصار فى السقيفة . ولم يقف فى الجمع الحاشد حين بيعة العامة . يندد بأبى بكر ومن بذل له البيعة .

على الرغم من هذا كله نرى أن ابن الأثير وغيره يتحدثون عن خلاف على على أبى بكر ، وامتناعه وبنى هاشم عن مبايعته ، ويسندون هذا الحديث إلى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها (١) .

ومما ينبغى ذكره هنا ، أن صاحب الكامل ، ثم المرحوم الخضرى وغيرهما قد رجحا رواية هذا الخلاف . وتبعهما من لف لفهما فى ذلك .

ولكننا بعد الموازنة بين الحقائق التاريخية . نرى أن عليا بايع منذ البيعة العامة . وأن المسلمين جميعاً عدا سعد بن عبادة قد بذلوا البيعة مختارين لأبى بكر ولم يتخلف على ولا بنو هاشم عن مبايعة الخليفة الأول . وذلك لعدة أمور .

---

(١) أنظر تيسير الوصول ج ٣ ص ٤٦ ، وقد جاء فى هذه الرواية أنه : أتت فاطمة والعباس رضى الله عنهما أبابكر رضى الله عنه يلتمسان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . لا نورث ما تركناه صدقة... فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت بعد ستة أشهر فدفنها على ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر » وفى هذه الرواية أيضاً : فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبى بكر ، ثم تذكر هذه الرواية أن علياً تقابل مع أبى بكر وتعاتبا ثم بايع لأبى بكر ؛ وتبعه بنو هاشم ، فرضى الناس عن على حين راجع الأمر بالمعروف الخ — اهـ تيسير الوصول ج ٢ ص ٤٦ — ٤٧

أولا — ما ذكره الطبرى فى تاريخه[١] من أن عليا بايع من أول الأمر وقد رواه بسنده عن سعيد بن زيد [٢] وحبيب بن أبى ثابت [٣] وكذا مراجعته لأبى سفيان بن حرب [٤] .

ثانياً — أن عليا كان إلى جانب أبى بكر فى حروب الردة وكان على من جنوده المخلصين حتى لقد وكل إليه قيادة فرقة الانقاب مع الزبير وابن مسعود[٥] وهى الفرقة التى كانت مهمتها حراسة الطرق المفتوحة الموصلة إلى العاصمة ضد غارات المرتدين .

ثالثاً — أن عليا بايع فيما بعد لعمر بن الخطاب ووقف إلى جانب عمر ،

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٢٠١ وما بعدها .

(٢) نص الأثر الوارد « قال عمر بن حريث لسعيد بن زيد ، أشهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : نعم قال : فمتى بويع أبو بكر قال يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة . قال : فهل خالف عليه أحد . قال : لا إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد . لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الأنصار . قال . فهل قعد أحد من المهاجرين . قال لا . تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم »

(٣) نص حديثه « كان على فى بيته إذ أتى آت فقال له قد جلس أبو بكر للبيعة فخرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا كراهية أن يبطىء عنها حتى بايعه . ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله ولزم مجلسه »

(٤) ذلك أن أبا سفيان فيما يروى . قابل علياً بعد مبايعته لأبى بكر فى البيعة العامة وقال له : مالى أرى هذا الأمر فى أقل حى من قريش والله لئن شئت لنملأنها خيلا ورجلا ، فقال على : يا أبا سفيان طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذلك شيئاً . إنا وجدنا أبا بكر لها أهلا ، وطبيعى أنه متى وجد أبا بكر أهلا للخلافة ، فإنه لن ينازعه ، وذلك الذى قد كان فيما نرى ، رغم عدم ثقتنا فى مثل تلك الأخبار ولكنها هى التى تحت أيدينا .

(٥) الأمم والملوك للطبرى ح ٣ ص ٢٢٣ .

وصاهره عمر فتزوج أم كلثوم ابنة على من فاطمة وعمر هو التالى لأبى بكر وخليفة المسلمين من بعده فلا يعقل أن يمتنع عن بيعة أبى بكر ، ويبايع لعمر الذى هو أدنى منزلة وقدراً من أبى بكر .

رابعاً — أن علياً كان ملازماً للخلفاء الثلاثة السابقين عليه ، فبايع عثمان كما بايع لصاحبيه من قبل ، بل إنه كان أطوع لعثمان من بنانه فى الوقت الذى باعده البعيد والقريب ، وثارت عليه أمصار الدولة ولامته عائشة أم المؤمنين .

ولـكن علياً لم يخذل عثمان ولم يعن عليه ، بل صدقه إذ كذبه الناس، ودافع عنه إذ تركه معاوية نفسه .

فهل لمثل هذا الرجل يقال انه خالف ، فلما جفاه الناس وافق وهل فى التاريخ فرية أشنع من هذه على رجل كله خير وإعراض عن الباطل واستمساك بروح الإسلام .

ثم إن خلق على وسجاياه التى طفحت بها كتب التاريخ تجعلنا نعتقد أن علياً ليس من أولئك المتملقين الذين بالدين يأكلون وبالمداراة يعيشون ، ويبنون مجدهم على نفاق الغوغاء ومخادعة الدهماء .

لقد حدثنا التاريخ أن عيب على الوحيد ، يتركز فى سلوكه سبيل الحق فى معاملة الجميع ، فلا يعطى أحداً فوق ما يستحق ، ولو كان فى ذلك ضياع سلطانه ، حتى لقد كانت هذه السياسة من أهم الأسباب فى إخفاقه ضد خصومه .

هذا الذى أجمع عليه المؤرخون يرينا صورة على عَلِىّ نقائها فهو لا يداهن فى دين الله ، ولا يقبل غير الحق ولو كلفه ذلك فصل هامته .

فهل يمـكن لمثل هذا أن يجامل الناس فيطيعهم إذ يظفر بالسلطان ؛ ويعصيهم إذ ينصرف عنه الجاه والنفوذ . . اللهم لا . .

خامساً — وأخيراً فإن رواية الخلاف التى أشرنا إليه ، على ما بها من اضطراب وتفكك . هى متناقضة فى نفسها ، إذ بينما يتحدث الراوى عن الميراث إذا به يخلط بها مسألة الخلافة مما يدلنا على أن واضعها من الشيعة الغلاة الذين يقولون بأن الخلافة بالنص لا بالشورى .

ومن هنا كانت حملتنا عليها وعلى ما تضمنته من أمور لو صحت لغيرت تاريخ على من أساسه . وذلك قلب للحق ، ولما أجمع عليه المؤرخون وفى مقدمتهم الشيعة الغلاة الذين فيما نظن — هم المؤلفون لرواية هذا الخلاف .

حديث الأئمة من قريش :

وقبل أن نختتم الحديث عن السقيفة وما تلاها ، نرى أن نعرض لمسألة أخرى تشبه هذه المسألة تماما ، وتلك هى ما نسب إلى أبى بكر من أنه عندما ذهب إلى السقيفة وشهد حال الأنصار ، روى لهم حديثاً عن الرسول ، فعند ذلك بايعوا له ، وسكنوا وكفوا عن الخلاف .

أما هذا الحديث المزعوم فهو (الأئمة من قريش) . وقد ذكر ذلك الخضرى فى محاضراته ، وسبقه إليه بعض القدامى .

والذى يهمنا فى هذا المقام أن رأينا مخالف لرأى الخضرى وأسلافه ودليلنا على ذلك ما نوجزه فيما يلى :

١ — عدم وجود هذا الحديث ضمن خطب أبى بكر سواء فى السقيفة أو المسجد ، فى البيعتين العامة والخاصة ، ولا فى خطب عمر أو غيره ، كما أبنا آنفا .

٢ — أن اجتماع السقيفة ؛ وتداول الأنصار فى الأمر ومقارعة المهاجرين لهم

بالحجج الإقناعية يدل بوضوح على أنه لم تكن هناك نصوص تقيد المسلمين بقبيلة معينة أو بيت معين ، بل ترك الأمر للمسلمين يشكلونه حسب المصلحة العامة لدولتهم .

٣ — أن هذه الرواية لم نجد لها أصلا فى الصحيح من أحاديث الرسول بهذا النص وكل الروايات . على علاتها — التى وردت فى هذا الشأن بأساليب مختلفة ، لم تكن فيها رواية بهذا النص[1] .

٤ — كلمة (إمام) الواردة فى هذا الحديث لم تعرف بلغة ذلك العهد ، كعلم على خليفة الرسول (أمير المؤمنين) بل هى اصطلاح على إمام الصلاة فحسب : وبين يدينا ألقاب الرئيس الأعلى للدولة الإسلامية وتراه يلقب أولا «الخليفة» ثم « خليفة الخليفة » ثم « أمير المؤمنين » ، ويظل ذلك علماً على كل رئيس يتولى رياسة الدولة الإسلامية حتى كان العصر الثانى للدولة العباسية ، فنشأ هذا اللفظ (إمام) وأطلق على خليفة الإسلام ، وقد كان ذلك عندما أصبحت للشيعة دول تنافس الدولة العباسية ، وتنازعها السلطان،فاتخذهؤلاء كلمة الأئمة ؛ إحياء لذكرى أئمتهم الذين نكل بهم الأمويون والعباسيون. ثم جرى ذلك على السنة الشعراء وفى مؤلفات بعض المؤرخين ثم المستشرقين .

وأما اطلاق كلمة (الإمام) على إبراهيم بن محمد العباسى فى أواخر الدولة الأموية ، فلا ينافى ما ذكرنا إذ كان الامام المذكور مجرد رئيس للجمعية السرية التى تسعى للوصول إلى الحكم على أنقاض الأموية . ولذلك ترى أن أول خليفة يتولى الحكم يلقب بأمير المؤمنين ، ويظل يخاطب به سائر خلفاء العباسية .

٥ — على أن روح الإسلام ــ وهى شورية محضة ــ تنبو عن هذا الحديث ، لأن النص تستحيل معه الشورى والانتخاب ، و يترتب على ذلك ــ إن صح —

---

(١) أنظر تيسير الوصول (باب الخلافة) .

إلزام المسلمين بالوقوف عند حد النصوص طبقا للتعاليم الإسلامية ، ويكون جدل الأنصار مخالفة صارخة لمبادىء الدين ، كما أن خروج الإمارة من قريش يعتبر خروجا على الإسلام الذى ينص على أن الامارة يتحتم أن تكون فيها ، وكل ذلك مخالف للحق والتاريخ ، إذ الأنصار من خيار المسلمين ، والإمارة خرجت من قريش فى عصور كثيرة ، وروح الإسلام لا تتفق مع هذا الحديث المزعوم . والكتاب الذى هو ميزان الإسلام لا يشير على المسلمين إلا بعمل الأصلح فى دينهم ودنياهم ، بل انه ليصرح أن التقوى هى الاساس فى وزن الرجال (إن أكرمكم عند الله اتقاكم) . وكذلك الحديث الصحيح ينادى بأنه ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى : اسمعوا وأطيعوا ولو تأمر عليكم عبد .. ولهذا وأشباهه نرى أن هذا الحديث المزعوم، سواء كان على سبيل الخبر أو الإنشاء لا ينسجم مع روح الإسلام، ولا مبادىء النبى فى السياسة والإدارة ، فقد أمر زيدا وأسامة ابنه وهما من الموالى على كبار رجالات قريش ، وفعل ذلك أبو بكر وغيره من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم .

وإنما كل ما فى المسألة أن الشيعة الذين دبجوا مسألة امتناع على هم كذلك وضعوا هذا الحديث لينصروا به مذهبهم فى النص على الخليفة ، وذلك ليتوسلوا به إلى النص على عَلِىّ رضى الله عنه وهو ما يقصدونه وما نادى به السبئية من قبل ، وإن كانت السبئية تقول بالوصية إلى عَلى بالذات ، وترى رفض إمارة غيره .. أما عن مسألة المؤامرة المزعومة ، فإنا نوجز عنها جملة فيما يأتى :

شبه المستشرقين :

زعم لامانس وماسيه وبروكلمان وأشباه لهم ، أن أبا بكر تولى أمر رياسة الدولة الإسلامية وخلافة رسول الله ﷺ على أساس مؤامرة ، اشترك معه فيها عائشة وعمر وأبو عبيدة .

ونظرا لخطورة هذا الاتهام الملفق ، فقد رأينا أن نثبت هنا جملة الشبه التى

دعتهم إلى القول بهذا الافك المفترى ، ثم نردفها بالمناقشة والتفنيد ، حتى تتضح حقيقتها . وها هي ذي تلك الشبه التي تداولتها أيدي المؤرخين ، ونسبت إلى من ذكرنا في مؤلف لهم بعنوان «الحكومة الثلاثية» وفي تاريخ الشعوب لبروكلمان :

أولا — ما حدث من مراجعة أم المؤمنين عائشة لرسول الله ﷺ في مرضه الأخير ، وذلك عندما طلب أبا بكر ليقوم في مقامه في صلاة الجماعة ، فيؤم المسلمين . فلقد زعم هؤلاء أن النبي (ص) ما طلب أبا بكر إلا بإيعاز من زوجة عائشة ابنة أبي بكر ، وهذا يعتبر تمهيدا لأبيها في ارتقائه إلى منصب رئيس الدولة العربية الإسلامية ، بعد النبي محمد (ص) . وقد أيد ذلك انفراد أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بالذهاب إلى السقيفة ، وأخذ البيعة لأبي بكر ، بدون علم علي وآل البيت النبوي .

ثانياً — عندما طلبت فاطمة ابنة رسول الله ميراثها رفض أبو بكر أن يسلمها حقها وذلك خشية أن يتطرق الأمر الى فتح باب الميراث في الخلافة ، التي هي من حقوق آل محمد رسول الله (ص) — بزعمهم — يقول كارل بروكلمان «ثم ان عليا ابن عم النبي وزوج ابنته ، ادعى لنفسه الحق في خلافته كرئيس للدولة ، بوصفه أقرب الناس إليه رحما ، ولكنه لا يملك من القوة ما يساعده على تحقيق طلبته[1] »

وفي موضع آخر يقول « وكان أبو بكر — والد عائشة زوج النبي — يتمتع مع عمر بن الخطاب ، وأبي عبيدة بن الجراح ، بنفوذ كبير عند محمد ، فلم يسع الأنصار إلا أن يبايعوا الأمير الجديد[2] » .

ثالثا — مخالفة أبي بكر لتعاليم الرسول وأوامره ، التي منها — في زعمهم —

(١) كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ٩٨

(٢) نفس المصدر السابق

حديث « لكل نبي وصى ، وعلى وصى محمد »

رابعاً — مغاضبة أبى بكر لآل النبي ﷺ وهجرانهم . مع أن مودتهم وصلتهم مفروضة على جميع المسلمين .

خامساً — تولية أبى عبيدة القيادة العامة لجيوش الدولة — فى عهد عمر — وتنحية على وآل بيت النبي عن المناصب الكبرى

سادساً — تولية عمر الخلافة بعد أبى بكر ، وإبعاد على وبنى هاشم ، إلى جانب اضطهادهم .

تلك هى خلاصة الشبه التى أثارها جماعة الاستشراق الغربى ، وعلى رأسهم: الأب لامانس اليسوعى ، وهنرى ماسيه ، وتوماس أرنولد . ونذكر فيما يلى ردنا عليها بالحجة والبرهان

مناقشة هذه المزاعم :

قبل أن نفصل تفنيد هذه الإدعاءات ، نرى أن نقدم جملة قصيرة نكشف بها عن سبب هذه الأخطاء التى وقع فيها مؤرخون لهم مكانتهم مثل توماس آرنولد وبروكلمان ، فهذان — بدون ريب — على درجة عالية من الاطلاع والمعرفة ، ولكن قد يزول العجب ، إذا علمنا أن أصحابنا هؤلاء ، لم يفرقوا بين رجالات الدولة فى صدر الإسلام ، وبين الناس فى العصر الحاضر ، وهذا هو العامل الحقيقى — فى رأينا — فى انغماس بعض المؤرخين والباحثين فى هذه الشبهات . . ولذا فإننا نفضل قبل الدخول فى المناقشة أن نلقى بعض الأضواء على هؤلاء الرجال للحق والتاريخ .

لقد أسلفنا القول فى سيرة أبى بكر ، وابَنَّا مبلغ علمه وتقواه ، ونفوره من

الأعمال والوظائف ، إلا أن يرغم عليها ، كما حدث فى السقيفة وتكرر فى المسجد، وبحسبنا أن نؤكد هنا ما أسلفناه من ان أبا بكر ، لم يترك بعد وفاته دينارا ولا درهما ، ولا شيئا ، مع أنه كان يملك قبل الإسلام حوالى أربعين ألف درهم، وكان موسرا كذلك بعد الهجرة ، إذ كان تاجرا ماهرا ، كثير الربح ، على علم بفن التجارة وأساليبها الدقيقة .

كذلك نرى أبا بكر ، يرد إلى بيت المال ، كل درهم مما فرضته الأمة لمعاشه، نظير تفرغه لخدمة الدولة ، ولكن أبا بكر قد دفعه الورع ، إلى أن يؤدى خدمة لأمته بدون أجر أصلا وقال: إنه إنما قد عمل لله ، فلا يقبل أجرا على أداء هذا الواجب.

كذلك أبنا فيما سبق اتجاه الرسول إلى أبى بكر ، فسلمه الراية فى غزوة العسرة (تبوك) آخر غزوة خرج فيها النبى ﷺ ، وأمّره على الحج نائبا عنه فى سنة تسع وأسند إليه إمامة المسلمين فى الصلاة فى مرض موته (ص) .

على أن أبا بكر – كما أسلفنا – كان أعلم العرب بأنسابها وأحوالها ، وكان أول رجل آمن بالله وبرسوله ، حتى ليروى أنه آمن بالنبى منذ سمع قصة بحيرا الراهب، والنبى لم يبلغ الحلم بعد .

وأبو بكر شيخ المسلمين ، وأكبرهم سنا بعد رسول الله (ص)

أما عمر ، فإن من يتتبع تاريخه فى الجاهلية والإسلام ، لا يمكنه أن يشك فى نقاء سريرته وطهارة قلبه ، ووضوح مسلكه ، وبحسبه أنه لم يقبل أن يأخذ أجرا على خدمته للدولة ، مع أن هذا حلال طيب ، ولكنه الورع الذى لا يتوافر إلا للأقلين أو بالأصح النادرين وننتقل بكم إلى مناقشة هذه الشبه إجمالا فيما يلى :

١ — مسألة رأى النبي فى إسناد إمامة المسلمين فى الصلاة إلى أبى بكر لم تكن ناشئة عن تدبير من عائشة ، بل هى مسألة شخصية للنبى الذى لا ينطق عن الهوى وإنما هو يصدر فى جميع تصرفاته عن الله ووحى الله والحق وللحق وحده.

على أنه ثابت . فى التاريخ الصحيح . أن عائشة لم تكن أبدا مخادعة فى مراجعتها للرسول ﷺ ، وإنما كانت جادة كل الجد ، وصريحة إلى أقصى حدود الصراحة ، كما هو معروف من خلقها .

كذلك ثابت من القصة التى سجلها المؤرخون الثقات أن عائشة كانت تبغى صَرْف الأمر عن أبيها لا إسناد الأمر إليه .

وهذا يحتاج بطبيعة الحال إلى دراسة دقيقة للعصر الذى عاشت فيه عائشة وأبوها رضى الله عنهما . وهؤلاء التآمريون جهلة بتاريخ العصر النبوى ، وروحه وخلق رجاله . ومن ثم كانت فريتهم على خير قوم أنجبهم تاريخ البشرية .

على أن الذين قرأوا شيئاً من تاريخ سَلَف المسلمين يدركون مدى ما كانوا عليه من خلق ودين شهد به ألد الأعداء قبل أخلص الأصدقاء .

ولكن ماذا نفعل بقوم لا يتورعون عن طَعن رجال نشروا المدنية وأسعدوا الانسانية . ولا ذنب لهم الا أن يقولوا ربنا الله .

٢ — وأما عن منع أبى بكر فاطمة من ميراثها ، مما رتب عليه هولاء رمى الصديق بالتآمر ، فلم يكن أبو بكر يبغى من وراء ذلك سد الذريعة حول مسألة الخلافة — على فرض صحة هذه الرواية — فإن أبا بكر لم يمنع الميراث من تلقاء

نفسه؛ ولكن لأن الرسول نص على هذا المنع بدليل الحديث الذى رواه لهم كما فى الرواية التى أوردها القائلون به .

على أن هذه الرواية ليست من الصحة بحيث يترتب عليها ذلك الجدل الكثير الذى أثير حولها . فإن الظاهر من أسلوبها أنها من وضع الشيعة الغلاة وليست من الأخبار التى يمكن الاعتماد عليها فى إثبات حقيقة تاريخية .

٣ — ما يزعمه هؤلاء من أن أبا بكر جانب النصوص الإسلامية مثل حديث الوصية الذى يذكرونه ، جهل بالتاريخ فإن علماء الاسلام أبانوا فى صراحة وحزم وضع هذا الحديث ، وكشفوا عن واضعه وهو عبد الله بن سبأ اليهودى ولا يعرف التاريخ الصحيح أن أحدا من سلف المسلمين كان يسمع بهذا الحديث حتى كانت فتنة عثمان ونشأت المبادىء السبئية وذاعت مطاعنهم فى عثمان وأمرائه، والدعاية لآل البيت كستار لهدفهم الوحيد وهو القضاء على الدولة الإسلامية .

٤ — أما عهد أبى بكر بالخلافة إلى عمر ، وتعيين عمر أبا عبيدة قائداً عاماً للجيش ، فقد كان برضا آل البيت والمسلمين عامة ، ولم يثبت أن علياً ولا غيره أظهر إستياءه من هذا الصنيع . بل على العكس كان سرور المسلمين ومنهم آل البيت . لا يقدر حينما علموا بما صنعه أبو بكر ، ورأوا فى ذلك عين الصواب والسداد .

على أن هذا لا يعطى تآمر أبى بكر وصاحبيه كما يزعم المستشرقون بل يفيد أن الرجلين تأمّرا بكفايتهما وفضلهما . وسلوك هؤلاء معروف لدى جميع المسلمين حتى الشيعة والخوارج يترضّون على أبى بكر وعمر ، إلا نفرا من السبئية اليهود وبعض الرافضة من الشيعة فمن أين استقى الثلاثيون هذه المعلومات ، وكيف ساغ لهم أن يفتروا على الحق والتاريخ . إنهم فى نظرنا متحاملون يعمدون إلى كتب

الرافضة والغلاة ويستقون منها معلوماتهم ثم يسلطون عليها تعصبهم وجهلهم بالعربية والتاريخ ويخرجون على الناس بنظريات ، هى مزيج من الجهل والرفض والتعصب ، ويزعمون أنها الحقيقة المسفرة، ولكن الواقع التاريخى،والإسلامى، يقرران مجانبة هذه الآراء للحق والتاريخ ، ونرى أنها نابعة من مؤلفات روافض الشيعة .

الفصل الخامس

حركة الردة

أبنّا فيما سبق ، كيف ألغى الرسول الامتيازات بين القبائل ورؤسائها ، وكيف أمر بهدم الأصنام ، وإزالة السلطات الكهنوتية التي كانت لسدنتها والمحيطين بها ، وأوضحنا ما كان من قدوم الوفود العربيّة التي أخذت تترى بعد فتح مكة ، ثم بعد تسليم الطائف ودخول أشرافها في الإسلام،وكيف ان كثيراً ممن أعلنوا إسلامهم من الأعراب وأصحاب الامتيازات والمنافع المادية لم تشرب قلوبهم حلاوة الإيمان ، ولم يحسن إسلامهم بَعْدُ .

ولعل في كلمة وفد بني تميم السابقة ما يكشف عن مدى العناد والأنانية التي كانت تُسيطِر على بعض النفوس،كما أنَّ الأعراب في البوادي،لم يدخل الإيمان في قلوب كثير منهم ، مما جعلهم عرضة للسير مع كل ناعق يعدهم ويمنيهم .

وإلى جانب هذا كله ، كان هناك جم غفير من الساخطين على الدين الجديد، الذي جعل الناس سواسية كأسنان المشط ، وسوى بين أدنى القبائل وشيوخها ، وهدم السلطات المُزَيَّفة في الدين والدنيا ، وأقام مجتمعاً تتكافأ فيه فرص التقدم والرقي لكل عامل ، مهما بلغ نسبه أو انعدم حسبه .

ولهذا فقد انتهز المنافقون ،والموتورون،ممن مَسَّتْ شريعة الإسلام أموالهم بالزكاة والصدقات ، أو الموارد الهائلة التي تجبى إليهم بالعرافة والكهانة وحدمة الأصنام والأوثان أو طبقيتهم مثل رؤساء القبائل وملوك الحواضر ، وأعان هؤلاء يهود اليمن والشام،وعملاء الفرس والروم . فكانت تلك الردة الانفصالية في جزيرة العرب وأطرافها .

يقول سيد أمير على : ويمكننا أن نقول . ان إرتداد العرب عن الإسلام يرجع إلى سببين :

١ ـــ المبادىء الإسلامية التى فرضها الإسلام فرضاً .

٢ ـــ نفور العرب من الزكاة .

ولكن هل فريضة الزكاة لا تتفق مع تقاليد العرب؟ إننا نظن أن الذين امتنعوا عن أدائها ، إنما كانوا فى الواقع يريدون الرجوع بالمجتمع إلى الجاهلية حتى تعود إليهم امتيازاتهم الدينية والاجتماعية ، والاقتصادية، فاتخذوا من شريعة الزكاة التى تنهض بالأمة والدولة. ذريعة إلى أعلان الانفصال وتمزيق الوحدة التى بعثها الإسلام. أما فريضة الزكاة نفسها ، فلا تنفر منها العرب ، بل المسألة على العكس تماماً، لأن العربى كريم بطبيعته ، يحمل الكل ويقرى الضيف ، فلا يبخل على الفقراء والمعوزين بشىء بسيط من فضل أمواله .. تلك هى الروح العربية، وقد أسفر عنها الوعاة المؤمنون، ورأوا فى صنيع المجاهرين بمنع الزكاة، ارتداداً عن العروبة الأصيلة، ورفضاً للتعاون الذى جاء به الدين الحنيف فى تشريع الزكاة. ومع هذا فإن حركة الردة فى جملتها كانت حركة رجعية انفصالية، تهدف إلى إعادة الحكم والسلطان إلى الكهان من زعماء القبائل وملوك الشام واليمن والعراق، كما كان لليهود الذين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة يد طولى فى النفخ فى أبواقها .

على أن مما ساعد على تفاقم أمر المرتدين وجود قواد ساخطين على حكم المدينة ادعى بعضهم النبوة وحاول أن يقلد رسول الله (ص) فى جمع العرب من حوله، وتكوين دولة تحت زعامته. وكانت قبائل بنى حنيفة وبنى تميم، ومذحج باليمن، وبنى أسد فى نجد ، من أشد القبائل التى ادعى زعماؤها النبوة: ففى بنى حنيفة ظهر مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وادعى أنه نبىٌّ، وكان أول ظهوره فى حياة الرسول، وكانت بنو حنيفة تنزل باليمامة قرب البحرين ، فكانت بذلك بعيدة عن عاصمة

الدولة الإسلامية، وقد حاول مسيلمة هذا أن يصالح النبي على أن يكون له جزء من جزيرة العرب وللرسول الباقي ، فرفض النبي طلبه (١) .

كذلك قام قرب نجد ـــ طليحة رئيس قبيلة بني أسد وادعى النبوة وجمع له أتباعا فى حياة الرسول . ولكن لم تنجح هذه الحركات إذ أخمدها الرسول فى حياته ، وظل مسيلمة وطليحة مغلوبين على أمرهما طوال عهد الرسول فى الأمة الإسلامية ، مع تظاهرهما بالإسلام والطاعة .

أما فى اليمن ، فإن عيهلة الأسود من قبيلة مذحج ، عَنّ له أن يخرق على قومه ، فتبعه خلق كثير ممن يحبون الفوضى والأباحية ، ويبغضون النظام والسلوك الفاضل ، وبذلك تقوى الأسود وخرج مدعياً النبوة ، فأغار على أطراف الدولة الإسلامية باليمن ، واستطاع أن يخرج عمال النبي منها حتى أن المبعوث العام لأقاليم اليمن وحضرموت لم يستطع أن يأمن على نفسه إلا بجوار قبيلة قوية .

ومبعوث النبي (ص) هنا هو معاذ بن جبل الذى أقامه الرسول معلماً متنقلا بين جميع مخاليف اليمن وأمصارها ، وقد صاهر قبيلة السكون ليأمن شر الأسود حين تفاقم شأنه .

على أن خطر هذا المتنبىء الجديد ، لم يقتصر على اليمن وحضرموت ، بل تعداها إلى الحجاز حيث وصل نفوذه إلى الطائف بجوار مكة ، وخشى الرسول أن يصل نفوذه إلى المدينة نفسها .

لذلك اتخذ الرسول الحيلة وسيلة فى القضاء على هذا الدعى الذى أباح الايضاع والمحرمات ، وأشاع الفساد فى الأرض .

---

(١) أنظر الطبرى جـ ص ١٢٦ .

وكان عامل الرسول على اليمن منذ أسلمت ، باذام[1] أحد الأبناء ، فلما مات هذا فرق الرسول عمله بين رجال عدة ، ولكنه احتفظ لشهر بن باذام بإمارة صنعاء قصبة اليمن .

فلما كانت حركة الأسود ، قتل شهر بن باذام أثناء قتاله مع الأسود . وقد ملك الأسود صنعاء وتزوج امرأة شهر وهى من الأبناء[2] وقد دبرت هذه المرأة الفارسية الموتورة من الأسود لقتله زوجها شهر بن باذان ، حيلة مع بعض الأبناء ، وتمكن فيروز من قتل الأسود وتخليص صنعاء من شره وكان ذلك قبيل وفاة الرسول بأيام .

غير أن قتل الأسود لم يقض على حركته ، فقد اصطنع هذا الرجل كثيراً من عرب اليمن ، وجند جيشاً كثيفاً لغزو البلاد ، حتى ليقال أن فرقة الفرسان بلغت سبعمائة فارس مجهزة بأحدث الاسلحة فى عهده . وسبعمائة فارس عدد كبير فى ذلك الوقت وفى شبه الجزيرة بالذات .

ولذلك ظل الخطر على الدولة الاسلامية ماثلا فى أتباع الأسود وجنده المدربين حتى تولى الخلافة أبو بكر فى سنة ١١ هـ .

بعث أسامة :

وفى[3] المحرم من سنة ١١ هـ ضرب الرسول على الناس بعثاً إلى الشام ،

---

(١) كذا فى الطبرى ، وفى ابن الأثير باذان .

(٢) هم الجماعة التى أقامت باليمن من الفرس منذ احتلتها فارس قبل الإسلام وقد أطلق العرب على هؤلاء الإيرانيين لقب الأبناء .

(٣) هذه أرجح الروايات فى بدء الاستعداد ، ويقال أن ذلك كان فى أواخر صفر من سنة ١١ هـ

وأمّر على الجيش مولاه وابن مولاه ، أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره الرسول أن يدخل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، فتجهز الناس ، وانضم إلى البعث المهاجرون الاولون جميعاً ، واستعدوا للخروج .

وفى هذه الأثناء بدأ مرض الرسول ﷺ وشغل المسلمون بحركات مسيلمة والأسود ، واستأخر خروج البعث ، حتى لقد أكثر المنافقون فى عيب إمارة أسامة المولى الشاب ، على كبار المهاجرين ، ونقباء الأنصار وبلغت الرسول قالتهم ، فغضب ورد عليهم بقوله « لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبله ، وإن كان أبوه لخليقاً للامارة ، وإنه لخليق لها . فأنفذوا بعث أسامة لعن الله الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد[1] ».

ونظراً لتصميم الرسول على خروج بعث أسامة ، فقد فصل من المدينة وعسكر بالجرف خارجها . وظل أسامة وجنده يرقبون حركات المتنبئين ، ولا يبتعدون عن المدينة لاشتداد المرض على رسول الله ﷺ .

وبينما الحال على ذلك ، توفى الرسول ﷺ واشتدت الفاجعة على المسلمين فتفرق بعث أسامة . وكانت مسألة السقيفة وبويع أبو بكر ، فخفف من ألم الكارثة . وثاب المسلمون إلى رشدهم ، ودفن الرسول فى اليوم التالى لوفاته وفى نفس ذلك اليوم أعلن أبو بكر عودة بعث أسامة إلى مكانه بالجرف كما أمر رسول الله ﷺ ، واستأذن أبو بكر أسامة لبعض معاونيه الذين لا يستطيع الاستغناء عن رأيهم ومؤازرتهم مثل عمر بن الخطاب وغيره . وبعد أن استعرض الخليفة الجيش وزوده بتلك النصيحة الخالدة وسار ماشياً فى ركاب أسامة الذى عزم عليه أن

---

(١) الأمم والملوك ج ٣ .

يركب أو أن ينزل هو فيمشيا معاً ، ورفض أبو بكر طلب اسامة قائلا ، والله لا ركبت ولا نزلت . وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله . وبعد أن فصل جيش أسامة ، تواترت الأنباء من أنحاء الجزيرة بتمرد القبائل وارتدادها عن الإسلام ومحاولة بعضها تطويق المدينة وهدم الدولة الإسلامية ، فدعا أبو بكر كبار المسلمين وعرض عليهم ما وصله من أخبار الأطراف ، وتمرد العرب ، فأشار غالبيتهم بتركهم حتى تهدأ فورتهم ، فقال بعضهم إنه مادام هؤلاء قد رفضوا دفع الزكاة ، وأقروا بالمبادىء الأخرى فلا داعى لقتالهم ، ولاسيا وزهرة شباب الجيش الإسلامى مع أسامة فى مشارف الشام ، وهم مهددون بالفناء إن لم يقبلوا عرض المرتدين .

بيد أن أبا بكر رفض هذه الآراء وأخذ يناقشهم فى تعاليم الرسول وأنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ـ الحديث . ثم اوضح لهم أن من حق الإسلام الزكاة وأن الذى يقول لا إله إلا الله ويفرق بين الصلاة والزكاة هو والذى لا يقولها سواء إذ آمن ببعض وكفر ببعض والإسلام[1] بأصوله ومقوماته الذاتية التى بنى عليها كُلٌّ لا يتجزأ فأما أن تعمل به جملة واما ان ترفضه جملة ولا ثالث لهما . اللهم إلا من أكره مع اطمئنان قلبه أو اضطر غير باغ ولا عاد ، فلهؤلاء وضع آخر موضح فى نصوص الشريعة بكتابها وسنتها .

(١) نص النصيحة برواية الطبرى « يا أيها الناس قفوا : أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاه ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً . اندفعوا باسم الله (حـ ٣ ص ١٣٢) .

والمقصود بالإسلام طبعاً ما ورد فى حديث جبريل ، وهو الشهادتان والصلاة والزكاة والحج والصوم ، فهذه أركانه وأصوله التى بنى عليها .

وبمثل هذا المنطق أقنع أبو بكر كبار المسلمين وضمهم إلى جانب رأيه واستفاد الجميع بشرح أبى بكر، وآمنوا بأن الرأى الحازم هو الذى رآه وهو قتال المتمردين والمرتدين حتى يراجعوا الإسلام والطاعة ، أو يفتح الله بينهم وبين المتمردين بالحق .

ولكن نظراً لأن الجيش أكثره خارج المدينة ، فإن أبا بكر اتخذ خطة الدفاع مدة تغيب أسامة بالجند . وقد أغار فى هذه الفترة بعض القبائل على المدينة ، ولكن الله رد كيدهم إلى نحورهم ، واستطاع أبو بكر بحسن النظام ودقة الدفاع وإحكامه أن يجلى المغيرين إلى ذى القصة ، بل لقد التقى بهم فى هذا الموضع وهزمهم هزيمة منكرة ، وبذلك أبعد الخطر قليلا عن المدينة .

غير أن ماحدث كان من أمثال قبيلتى عبس وذبيان القريبتين من المدينة والذين قصدوا السلب والنهب.أما الخطر الحقيقى فكان ماثلا فى الجهات النائية مثل اليمامة التى قام بها مسيلمة بن حبيب الذى جمع حوله أعداداً كثيرة من بنى حنيفة ثم بنى تميم الذين قادتهم سجاح بنت الحارث وانضمت إلى جيوش مسيلمة وأصبحت وإياه يداً واحدة ضد المسلمين.

كذلك كانت هناك قبيلة بنى أسد ، وقد سارت وراء طليحة نبيها الدعى . هذا إلى جانب أتباع الأسود المتنبىء باليمن — وهؤلاء كثرة هائلة ، سبق لها أن اقتطعت من أملاك المسلمين ما لا يحصى .

وعلى الجملة فإن أبا بكر بمهارته وعزيمته استطاع أن يصد المرتدين عن المدينة ، وظل مدافعاً قوياً حوالى الشهرين وبعض الشهر .

عودة أسامة منتصراً :

وفى جمادى الأولى من سنة ١١ هـ قفل جيش أسامة إلى المدينة . وقدصاحبه النصرفى حملة الشام.فاستقبله المسلمون وعلى رأسهم الخليفة أبو بكر بالحفاوة والتقدير

ثم رأى الخليفة أن يأخذ الجند وقائده قسطاً من الراحة فأنابه أبو بكر عنه فى حكم المدينة . وأذن للجيش بفترة استجمام حوالى الأسبوعين ، أعلن بعدها الخليفة التعبئة العامة لمحاربة الذين أعلنوا العصيان على حكم المدينة ، فاجتمع عدد عظيم من المسلمين ، ولذلك رأى أبو بكر أن يضرب المرتدين فى وقت واحد وفى عقر دارهم . فقسم الجيش إلى فرق بلغت أحد عشر لواء ، وعين لكل لواء قائدا ، كما عين له الجهة التى يتجه إليها وكتب عهدا من نسخة واحدة لجميع القواد[1] كما أصدر منشوراً عاماً إلى جميع النواحى التى حدث فيها العصيان وزود القواد بالنصائح الإسلامية فى أدب الحرب والقتال[2] .

ومن أشهر القواد الذين اختارهم أبو بكر فى قتال المرتدين «خالدبن الوليد».

ووجهه أبو بكر إلى طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة[3] فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح .

---

(١) مما جاء فى هذا العهد « هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه ثم بعد أن يعظ القائد يبين له الطريقة التى يتبعها فى قتال المرتدين فيقول . « أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم . وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له . ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم » الخ . وهى نصيحة ثمينة راجعها فى الطبرى جـ ٣ ص ٢٢٧ » .

(٢) فى هذا المنشور دعا أبو بكر المرتدين إلى مراجعة الطاعة والجماعة ووعظهم بالله وذكرهم بآياته ، وأبان لهم — فى صراحة وحزم — أن الرسل بشر كسائر البشر ، وأن الله أرسلهم للاصلاح ، وأنهم يموتون كما يموت الناس جميعا وإن الله الحى القيوم هو وحده الباقى . ثم قال لهم : انى بعثت إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرت أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك » الطبرى جـ٣ص٢٢٦ .

(٣) بزاخة . ماء بالقرب من نجد لبنى تميم .

ومنهم عكرمة بن أبي جهل . وكان أمير الفرقة التي سارت إلى مسيلمة باليمامة وأرسل قائد فرقة أخرى في اثر عكرمة وهو شرحبيل بن حسنة ..

وكذلك كان من قواد أبي بكر المهاجر بن أبي أمية وسار إلى عصابة الأسود العنسي لمعاونة الأبناء باليمن .

ومن القواد العظام أيضاً حذيفة بن محصن الذى ذهب إلى عمان وعرفجة ابن هرثمة الذى أمر باخضاع مهرة اليمن على أن يجتمع مع عرفجة إذا انتهى أحدهما من مهمته قبل الآخر . والعلاء بن الحضرمى الذى توجه إلى البحرين . وطريفة ابن حاجز وميدانه بنو سليم وهوازن . وعمرو بن العاص وفرقته إلى قضاعة . وخالد ابن سعيد وميدان حربه مشارف الشام .

وسار هؤلاء القواد بفرقهم إلى الجهات التى عينها الخليفة ومجلس قيادته وحدثت بينهم وبين المرتدين مواقع كان النصر فى نهايتها للجيوش الإسلامية ، وقد ظلت الحرب بين المرتدين حوالى عام ، صبر فيه المسلمون ، وأبلوا بلاء حسناً ، حتى نالوا النصر فى النهاية .

أهداف الردة :

لانستطيع أن نبرىء تلك الحركة من أغراض الذين سعروها ضد الدولة ومقوماتها الذاتية التى قامت على أساسها ، وهى الإيمان بالله ، وأداء أركان الإسلام والتمسك بهدى القرآن ، ووحدة الأمة والدولة .

وإذا كان للفرس والروم ، واليهود ، ضلع فى إشعالها — ولو بالمعاونة والتحريض فإن القبائل العربية . وزعماءها ، وأعراب البوادى ، كانت لهم بدون ريب — أغراض وأمانى ، أسفرت عنها أقوالهم ، مواقفهم ..

ولنأخذ مثلا أدعياء النبوة ، هؤلاء الذين سبق لهم أن احترفوا الكهانة وعلم الغيب، وأثروا من هذا السبيل ، حتى غدا من له عصبية منهم ذا جاه وسلطان فى قومه، يطيعونه فى السلم والحرب ، ويأتمرون بأمره فى كل شاردة وواردة.

هل كانت دعوة النبوة من مسيلمة بن حبيب ، والأسود العنسى اليمنى ، وطليحة الأسدى النجدى والكاهنة التميمية سجاح بنت الحارث اليربوعية لمجرد أنهم يبغون التمتع بلقب « نبى » وحسب . . كلا

وإذن فكيف بقومهم من كبرى القبائل يتبعونهم، ويسيرون فى ركابهم، لا إلى الامن والسلم والترف . . ولكن إلى المدافعة ، وقتل الرجال ، وإتلاف الأموال .

وهل يمكن أن يجهل هؤلاء الأنبياء الكذابون ، أن فى دعواهم هذه أنكاراً لرسالة محمد من أساسها . وأنها تسفر فى ظاهرها وباطنها عن الإلحاح الشديد ، فى وجوب إلغاء الشريعة المحمدية وهدم الدولة الإسلامية ، وتشريد المهاجرين والأنصار ، وجميع المؤمنين بمحمد والقرآن .

وإذن ، فليست دعوى للنبوة ، سوى ستار من الدخان الملوث بدسائس اليهود والروم والفرس وفرض السيادة القبلية لعشيرة النبي الكذاب ، على الأمة العربية والدوله الإسلامية ، وبذلك تحل مذحج باليمن ، أو بنو حنيفة ، وتميم باليمامة ، أو بنو أسد فى نجد ، محل قريش — فى زعمهم — إذ كان رسول الله ﷺ من قريش ، ثم خلفه فى رياسة الدولة أبو بكر ، وهو من قريش كذلك.

قبيلة قريش — إذن — هى الهدف الأول فى نظر جمهرة القبائل التى ظهر بها الكذابون الكهان من أدعياء النبوة وقد أرادت تلك القبائل أن تظفر برياسة العرب، وزعامتهم، غصبا واقتدارا، على عادتهم القبلية الجاهلية التى هدمها الإسلام.

ولـكن . . . هل يستطاع ذلك فى الإسلام ..؟ وإذن فليـكن لهم أنبياء ، كما أن فى قريش محمداً الذى تمـكن من إقامة دولة، وبناء أمة ، وإخراج مجتمع قوى عظيم .

النبوة هى السبب المباشر فى سيادة قريش ، فى نظر مذحج ، وبنى حنيفة ، وبنى أسد ، وبنى تميم فليـكن لهم أنبياء ، ليـكونوا ملوكا ، وإن لم تقر قريش والمدينة بخاصة بنبوة هولاء ، فيجب أن يفرضوا نبوتهم بحد الحسام .

هـكذا فـكر أدعياء النبوة الـكاذبة ، وقبائلهم المغيظة المحنقة من خلو أيديها من السلطان الذى أنعم الله به على مهاجرة قريش بالإيمان والإسلام ، لا بالخداع والتضليل والبهتان .

ولهذا فقد استماتت فى القتال ضد المسلمين حتى لقد فقد الجيش الإسلامى فى حروب اليمامة وحدها أكثر من ألف بطل من خيرة أبطاله ، وذلك بسبب تعصب بنى حنيفة وتميم من أجل السيادة والسيطرة ، مع إيمانهم ــ فى أغلب الظن ــ بكذب مسيلمة وافتراء سجاح، ولـكنها العصبية الجاهلية فى حب الغلب ، والجاه والنفوذ .

إن عظمة أبى بكر الصديق ، لتسفر لنا عن معدنها الأصيل، فى هذا الموقف الخطير الذى يقف فيه العالم القديم ، جبهة واحدة ، ضد الدولة الإسلاميه القليلة العدد والعتاد فى تلك الفترة من تاريخها العظيم

إن حركة الردة ، ليست تمردا محليا من بعض الأعراب ، أو القبائل العربية ذات العصبية القديمة والقوة الهائلة ، فحسب ، وإنما هى فتنة رعناء ، ومؤامرة صاخبة أسهم فى تولى كبرها عدد كبير من الدول والامبراطوريات . واليهودية العالمية ، فى الشام واليمن ، وآسيا وأوربا وأفريقية ، كما قام فيها بنصيب كبير غساسنة الشام ومناذرة العراق ، وكان هدفها الطبيعى تدمير القوة العربية الإسلامية ممثلة

فى الدولة التى قبض رئيسها المعصوم ﷺ ، وخلفه عليها صاحبه وصديقه أبو بكر الصديق ، ذلك الرجل الذى فهم حقيقة هذه المؤامرة من أول لحظة ، فوقف وحده — فى حزم وشجاعة وإيمان — يقول : والله لو منعونى عقال بعير كانوا يُؤَدُّونَه إلى رسول الله ، لقاتلتهم عليه .

ولهذا نرى أبابكر يدرك مبلغ الخطر الذى يتهدد المسلمين ويقضى عليهم إن هو أصاخ لعمر وجمهرة الصحابة ، إذ طلبوا منه تأخير بعث أسامة ريثما يزول خطر «الردة» التى تواترت أنباؤها من كل فج فى جزيرة العرب ، ويشتد فى كلامه معهم ، ثم يرفض تأخير انفاذ البعث ، كما يصر على بقاء أسامة بن زيد قائدا لهذا الجيش حتى لقد قال لعمر بن الخطاب : عدمتك أمك وثكلتك ياابن الخطاب .. استعمله رسول الله ﷺ وتطلب منى أن انزعه ؟ ثم أنفذ البعث وفق اشارة رسول الله ﷺ فتوجه إلى أطراف الشام حيث اليهود الذين سبق أن أمم النبى ﷺ أرضهم وأموالهم ، وعاقبهم على جريمة الخيانة العظمى ضد الدولة الإسلامية وعلى الغدر ابان غزوة الخندق وغيرها ، مما اقتضى اجلاءهم نهائيا عن الوطن الإسلامى ، حتى تستروح الجماهير طعم الأمن ، والسلام ، والاطمئنان

على أن الغساسنة العرب ، كانوا كذلك بالشام ، وقد توجهم الروم ملوكا على العرب فى المنطقة واعتمدوا عليهم فى صد القبائل العربية ، وعرقلة انطلاقها ، وقد أشرنا فيما سبق ، كما أوضحنا فى السيرة كيف اشتبكوا مع العرب المسلمين فى عدد من المعارك مثل مؤتة وذات السلاسل ، كما خرج الرسول بنفسه على رأس جيوش تبوك ، لمناجزتهم والروم معا .

وغنى عن البيان ، أن اليهود كانوا موتورين بسبب إلغاء النظام الاقتصادى الربوى ، الذى كان من وضعهم ، واستهدفوا الإثراء الفاحش ، من التعامل على أسامة ، حتى تكدست لديهم مبالغ طائلة بسبب تطبيق هذا النظام ، فلما وضع الله

النص المحكم على حظره وتحريم التعامل به ، واعتباره جريمة خطيرة ضد المجتمع ، أصدر النبي ﷺ التشريعات المنظمة للنظام الاقتصادى الإسلامى ، حتى تمكن أخيرا من إلغائه بإصدار الإعلان الثورى الخطير فى سنة ١٠هـ وفى مؤتمر حجةالوداع إذ قال « وإن كل ربا موضوع . لكم رؤوس أموالكم . لاتظلمون ولا تظلمون » وبهذا حلّتْ التشريعات الاقتصادية الاسلامية ، محل النظم الربوية الاحتكارية اليهودية .

لقد كان ذلك — فى الواقع — من أهم الأسباب فى قض مضاجع اليهودية العالمية ، وعملها الدائب حتى اليوم ، ضد الإسلام ودولته ، وشعوبه .

وبالجملة ، فإن « الردة » لم تكن من العرب وحدهم ، وإنما كانت جبهة مشتركة ، تصم فى إطارها ، الفرس والروم واليهود ، والقبائل الناقمة على قريش والمسلمين ،ثم سدنة الأصنام السابقين، وأصحاب المرباع والصفى وسائر الامتيازات التى ألغاها الإسلام :

ومن ثم ، فإن اخماد أنفاس هذه الحركة، يعتبر نصرا قويا ضد جميع القوى العالمية ، التى اتحدت لأول مرة ، تريد القضاء على القوة العربية الإسلامية التى كونها محمد رسول الله (ص) لتدعيم العدلُ والكفاية ، وكرامة الإنسان .

نتائج حروب الردة :

لم تقتصر نتائج هذه الحرب على إخضاع الأعراب المتمردين ، وتوحيد شبه الجزيرة العربية تحت راية المدينة الاسلامية بل انها كانت لها آثارعظيمة فى توسيع رقعة الدولة الاسلامية ونشر حضارة الاسلام خارج جزيرة العرب .

ذلك أن بعض الفرق التى قاتلت فى الشمال والشمال الشرقى لجزيرة العرب ، حدث احتكاك بيها وبين الفرس على حدود العراق ، ثم بينها وبين الروم على حدود الشام .

وهذا التصادم الذى كان لابد من وقوعه بين الدولة الإسلامية، وبين الفرس والروم ، قد أدى فى النهاية ، إلى انهزام الدولتين الكبيرتين ، بل إلى انهيار أحداهما نهائياً — وهى دولة الفرس الامبراطورية — كما أدى بالمثل إلى إجلاء الروم عن الشام وأفريقية .

ومما لاريب فيه أن نصر الدولة العربية الاسلامية، قد تسبب من جهة أخرى فى انتشار المبادىء الاسلامية والحضارة العربية خارج الجزيرة مما جعل الفرس المجوس وغيرهم يفكرون جديا فى الدين الجديد ، ويحسبون حسابا لأتباعه بعد أن سخروا بالأمس القريب من سفراء النبى ﷺ فمزق امبراطورهم كسرى كتابه الذى بعث به إليه لا لشىء سوى أنه دعاه إلى الإيمان بالله، وشهادة الحق وتحرير الشعوب .

وإلى جانب هذا ، فقد انتهت بسقوط الامبراطورية الفارسية سطوة الوثنية المجوسية ، وتسلط الحكومة الفارسية على جماهير الشعوب التى كانت تحت سيطرتها ، فقامت تطلب الكفاية والعدل ، والديمقراطية ،السياسية والاجتماعية التى آمن بها العرب وطبقوها فى مجتمعهم الاسلامى الجديد .

ومن النتائج الهامة التى يؤكدها المؤرخون ، والمستشرقون ، أن الشعوب الفارسية التى تخلصت من الحكم الاقطاعى الامبراطورى، قد ارتاحت إلى العرب، واطمأنت إلى عدلهم ، وحسن معاملتهم ، وبذلك انتعشت الأحوال الاقتصادية، واستتب الأمن فى جميع الجهات ، وأقبل الفرس على التعرف على المبادى الاسلامية ، والموازنة بينها وبين المجوسية التى كان الأباطرة يفرضون استبدادهم باسمها .

على أن من المؤكد أن الحركة المزْدَكّية كانت من مقدمات اليقظة الجماهيرية فى المجتمع الفارسى.. ومهما قيل عن مَزْدك وأنه أباح كل شىء ، حتى الابضاع ، فإن هذا رغم عدم تسليمنا بصحته جملة لصدوره عن خصوم «مَزْدَك» لا يقدح فى أن

حركته — أياكانت مبادئها وأغراضها — قد أيقظت الوعى ، لدى جماهير الفرس وأشاعت التمرد على الأباطرة وأعوانهم .

ومما يدل على ذلك ، أنه عندما ذهب المغيرة بن شعبة ليفاوض يزدجرد امبراطور الفرس فى عهد عمر شهد الجماهير الشعبية،وهى تحاول تحيته والاحتفال به ، كما أنه صرح للامبراطور وأعوانه ، بأن ملكاً كملكه يقوم على الطبقية والفروق ، والعسف ، لن يستمر طويلا وأن العرب المؤمنين بالعدل ستكون لهم الغلبة فى النهاية .

ولهذا فإن سقوط الامبراطورية الفارسية ، جعل الجماهير تنطلق وتسعى إلى مبادىء الدين الجديد ، الذى تتمثل فى تعاليمه أرقى ضروب الاشتراكية الإنسانية النابعة من الإيمان بالله وتحقيق الإخاء الآدمى الرفيع . .

لقد كان الانتصار العظيم فى جبهة الردة ، التى تعاونت على الإثم والعدوان، من أهم العوامل فى يقظة الشعوب الاسيوية والأفريقية ، وقد وضح صداه الإيجابى الفعال ، إبان الاشتباكات المسلحة بين جنود الدولة الإسلامية الديمقراطية ، وجيوش كسرى وقيصر الامبراطورية .

الباب الثانى

الفتوح الإسلامية فى عصر الراشدين

تمهيد :

رأينا فيما سبق كيف قضى أبو بكر على المرتدين ، وأشرنا إلى أن جيوشه ما كادت تنتهى من حربهم حتى وجدت نفسها مرغمة على الاشتباك بدولتى الفرس والروم نتيجة وصول جنود الإسلام إلى حدود الدولتين .

ونريد أن نوضح فى هذا الباب ماحدث من حروب بين المسلمين وجيرانهم فى الشمالين الشرقى والغربى لشبه الجزيرة العربية .

بيد أننا قبل الدخول فى وصف الحروب ، نرى أن نوجز كلمة عن أهم الأسباب التى جعلت النصر من نصيب المسلمين ، ثم عن حال الفرس والروم لنستطيع أن تقدير نصر الإسلام على وجهه التاريخى .

١ — وأولى تلك الأسباب يجب البحث عنه فى هزيمة القبائل العربية فى حركة الردة إذ أن هذه القبائل لم يكن من المنتظر لها أن تواصل خضوعها للخلافة ، وقد هزمت أمام جيوشها . لذلك رأى الخليفة أن يستغل ذلك الميل الفطرى فى العرب إلى المقاتلة فى ناحية الفتح والتوسع ، ونشر الإسلام خارج شبه الجزيرة ودفاعا عن القومية والدين .

ولقد برهن العرب فى هذه الحروب على شجاعتهم التى يضرب بها المثل ، فدوّخوا جيوش الدولتين المتفوقتين عليهم فى العدد والسلاح .

٢ — على أنه كان إلى جانب ذلك ما لحق المرتدين من الندم والحسرة

على ما فرط منهم حين ارتدادهم بعد إسلامهم فأرادوا أن يكفروا عن خطاياهم في حق الله ورسوله بالاستشهاد في القتال في سبيل الله . ولهذا كان الموت أحب إليهم من الحياة — ومن أحب الموت وهبت له الحياة .

٣ — وهناك سبب يتعلق بالعرب أنفسهم . فقد كان هؤلاء محبوسين في عقر جزيرتهم قانعين بصحرائها ومفاوزها وأرضها الجرداء إلا ماشذ في اليمن وأمثالها .

وكان شغل القبائل العربية مقصوراً على الحروب القبلية لأتفه الأسباب ، مما زادهم ضيقاً على ضيقهم . وحفز كثيراً منهم لأن يئد ولده خشية الفقر والمتربة.

فلما جاء الإسلام ، وكرر الوعد لمن يسلم بالغنى والسيادة ، وَحَّد الجبهة العربية وجمع شملها ، ثم وجه أبو بكر هذه القوى الكامنة في القبائل إلى مايعود عليهم بالغنى الوفير ، والسيادة المطلقة ، إلى جانب إعلاء كلمة الله ولذلك استمات العرب في الحروب الفارسية والرومانية . ولمسوا نتيجة النصر ، فقويت روحهم المعنوية وقهروا عدوهم .

٤ — على أن دعوة الإسلام قامت على توحيد الله وإسناد كل الأمور إليه وحده ووضوح هذه الدعوة ، كان مما فتّ في عضد الوثنية التي دان بها الفرس والرومان حتى في العصر المسيحي ، وبذلك كانت مبادىء الإسلام سريعة الوصول إلى قلوب الأمم المجاورة .

وهذا إلى جانب كفالة الإسلام للعدالة المطلقة لسائر الشعوب التي انتصر عليها ، مما جعل رعايا الفرس والروم يتهافتون على الانضواء تحت راية الدولة الإسلامية ، وذلك بطبيعة الحال بفضل أولئك الرجال الأفاضل الذين وجهوا تلك الحروب ، ونشروا هذه المبادىء وكانوا هم أول العاملين بها المتمسكين بنصوصها وروحها .

وإذا كانت مبادىء الإسلام ، وندم المرتدين على ما فرط منهم من أهم الأسباب فى سرعة المسلمين فى فتح البلاد ، وتوسعهم فى ضم الأقاليم . فإن من عوامل انتصارهم السريع ما كانت عليه الدولتان الفارسية والرومانية من تفكك وانحلال نتيجة الحروب الأهلية والخارجية .

الروم : فهذه دولة الروم — وهى مجاورة فى الشمال والغرب لدولة الإسلام — أناخ عليها الضعف والهزال منذ أوائل القرن السابع الميلادى ، إذ مضى عهد جستنيان وفتوحه وتنظيماته .

على أن خطر الاضمحلال كان ماثلا حتى فى أيام جستنيان فقد توالت النوازل على الدولة حتى خشى عليها . فمن فساد خلقى إلى آخر سياسى ، وزادت عليها نكبات طبيعية إذ اجتاح الوباء أقاليم الدولة من الشرق ، فكانت الدولة عند ذلك كأنها سائرة إلى الدمار بخطى سريعة لا ينجيها منه شىء ، فكان حكم فوكاس حكما ظالما قائماً على جيش فاسد ، تسنده عصبة فاسدة من الأشرار .

ولذلك ثار هرقل على فوكاس واستطاع بمؤامرة محكمة أن ينزله عن عرش الامبراطورية ، وأن يوبخه ويعدمه ويمثل به .

ولكن فى الوقت الذى ألبس فيه هرقل تاج الامبراطورية . كانت دولة الإسلام قد أوشكت على البزوغ وبدت بوادر الانقلاب فى أفق السياسة الدولية العامة .

وحوالى سنة ٦٢٩ م سار هرقل يقصد الحج إلى بيت المقدس فى أول الربيع وأراد عند ذلك أن يعيد الصليب إلى محله ، وقد كان استلبه الفرس حينما غلبوا الروم منذ سنتى ٦١٤ ، ٦١٥ م وقد استرده هرقل الآن وفى هذا التاريخ أرسل الرسول كتبه ورسله لملوك العالم يدعوهم إلى اعتناق الإسلام ومبادئه ولم يكن ذلك كل ما أحاط بالدولة الرومانية فى ذلك الوقت — بل ان غارات المتبربرين من الشمال والشرق ، وتفاقم الخلافات المذهبية المسيحية فى طبيعة المسيح ، وسوء الإدارة الرومانية . كل ذلك ساهم فى

انحلال الدولة الرومانية فوق تقسيمها إلى شقين ، وانهيار القسم الغربى منه الذى مركزه « روما » .

الفرس : أما الفرس فلم تكن دولتهم أسعد حالا من الدولة الرومانية بل ان عوامل الإنحلال قد أخذت تنخر فى كيانها ، وتعجل بزوالها فقد خرج الثائر الغاصب بهرام على كسرى حفيد أنو شروان ، بعد ولايته بأيام قلائل وطرده من بلاده ، فلجأ إلى الدولة الرومانية وتلقاه الامبراطور موريق مرحبا به حتى ليقال ان كسرى تزوج ابنة الامبراطور الرومانى موريق .

على أن المهم فى هذا أن حفيد أنو شروان العظيم ، وعدو الامبراطور الرومانى قد استنجد الآن بدولة معادية لدولته . وبجيوشها استرد عرشه المغتصب فى دولة الفرس ، واتخذ مستشاريه من الروم .

ومع ذلك فإن العداء التقليدى بين الفرس والروم طفر من جديد وعادت الحرب بين كسرى وبين الروم ، وفى الجزيرة التى كانت ميدان النضال العنيف انتصر الفرس ، وضموا إلى أملاكهم بلاد الشام وفلسطين ومصر وأهدى كسرى الصليب إلى زوجته المسيحية وظل الحكم الفارسى يظل تلك الجهات من سنة ٦١٥م إلى سنة ٦٢٧ م أى ما يقرب من اثنى عشر عاما .

كانت عاصمة الفرس حتى أواخر حياة النبى « المدائن » على شطى الدجلة الشرقى والغربى . وقد بنيت هذه المدينة منذ ملك أردشير بن بابك ، ثم غلب على ملوك الطوائف واستبد بالأمر دونهم ، فوحد كلمة الفرس وأدخل فى ملكه العراق وما جاوره من بلاد العرب ، وكان يلقب شاهنشاه أى ملك الملوك .

وقد ظلت المدائن عاصمة الدولة حتى ولاية كسرى أنوشروان المتقدم ذكره ثم جاء بعده كسرى هرمز ، ثم كسرى ابرويز وهو الذى أرسل إليه الرسول كتابه فمزقه ، ودعا عليه الرسول واستجاب الله دعوة نبيه . إذ قام عليه ابنه شيرويه فقتله

واستلب ملكه ، ثم مات هذا وتولى العرش ابنه أردشير وهو طفل صغير ، فقام بعض القواد وقتل الإمبراطور الطفل وتولى الملك من بعده .

ولكن هذا الامبراطور المغتصب لم يهنأ بالعرش طويلا . إذا اجتمع أمراء البيت المالك وأجمعوا أمرهم على قتله فقتل لأربعين يوما من تملكه ، وبعدها تولى عرش الفرس أباطرة ضعاف بسبب اختلافهم وتفرقهم ، وهكذا حتى كان آخرهم يزدجر بن شهريار الذى زالت فى أيامه الدولة الفارسية وأضيفت إلى الجمهورية الإسلامية فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

الفَصْلُ الأَوَّلُ

فتوح أبى بكر

كان منشأ الحروب مع الفرس والروم فى خلافة أبى بكر — احتكاك المسلمين بجيرانهم بسبب حركة الردة التى انتهت مناهضتها إلى حدودهم ونوجز فيما يلى جملة تلك الحروب فى عهد أبى بكر رضى الله عنه .

الحرب مع الفرس : فى سنة ١١هـ وبينما العلاء بن الحضرمى قائد لواء البحرين يشتغل بإخضاع المرتدين فى تلك الناحية ، انضم إلى جيشه قائد عظيم من سادة العرب وهو المثنى بن حارثة ؛ فساهم فى تعجيل نصر العلاء على أهل البحرين .

ولما تم للمسلمين النصر فى البحرين ، زحف المثنى بفرقته البالغة ثمانية آلاف جندى ، صوب الشمال حتى وصل إلى نهر الفرات ، فأرسل إليه أبو بكر كتاب تشجيع بأن يواصل زحفه ، والتقى المثنى بالقبائل القاطنة فى مصبات الفرات وكانت تفوق جيشه فى العدد والعدة . لذلك اتبع خطة الدفاع عن مراكزه ثم أخطر المدينة بأمره طالباً المدد من الخليفة . فأرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد الذى كان قريباً منه ، أن يسير إلى المثنى لنجدته ، فسار خالد وضم جيشه

إلى جيش المثنى ، وقسم الجيش إلى فرق . تولى هو إحداها وتولى المثنى على فرقة أخرى ، وعياض بن غنم على الفرقة الثالثة .

وقد رابط خالد على الفرات ؛ وأرسل عياض بن غنم إلى كلدة لفتحها ، وبعث المثنى إلى بلدة الابلة على مصب الفرات لفتحها وضمها إلى الدولة الإسلامية . وقد حاصر عياض دومة الجندل مدة .

وفى المحرم من سنة ١٢ هـ (٦٣٣ م) وصل إلى خالد بن الوليد خطاب تعيينه قائداً عاماً على الجبهة الفارسية ؛ فسار إلى بلدة الحفير الواقعة على الحدود بين بلاد العرب وأملاك الفرس ، وكان معه عشرة آلاف جندى فضم إليه جند المثنى وقسمها إلى ثلاث فرق تولى هو إحداها وجعل على إحداها عدى بن حاتم ، وعلى الأخرى المثنى المتقدم . ثم كتب إلى هرمز عامل الفرس على كلدة والفرات كتاباً يطلب منه الدخول فى الإسلام ، أو دفع الجزية عن يد وهو صاغر ؛ فاتصل هرمز بملك الفرس وأخبره بكتاب خالد ، وأخذ فى الوقت نفسه يتجهز للقتال والدفاع عن بلاده ، فأعجله خالد على القتال، وبدأ بالمبارزة ، فصرع خالد هرمز قائد الجيش ، وبذلك وقعت الهزيمة على الفرس ، ففروا من وجه المسلمين ، ومن بقى من أهل البلاد خضعوا المسلمين وقبلوا حمايتهم ودفع الجزية التى فرضت عليهم .

أما الحيرة فلم تلبث عقب مناوشة طفيفة أن أذعنت بالتسليم ، وحذا حذوها دهاقين كلدة ، فأبقاهم الخليفة على أراضيهم مشترطاً عليهم دفع الجزية كما أقر الفلاحين على حالتهم .

غير أن استيلاء المسلمين على الحيرة أدى بحكومة الفرس إلى أن تدرك الخطر المحدق بها ، فحشدت جيشاً جراراً وأنفذته لإجلاء المسلمين عن كلدة والجزيرة ،

وفى هذه الأثناء أرسل الخليفة خالد بن الوليد على رأس قوة كبيرة إلى الشام كما أرسل المثنى الذى لم يلبث أن سحب مراكزه الأمامية وعاد مسرعا إلى المدينة ليحادث الخليفة فى أمر تعزيز قوته ؛ فوجده على فراش الموت . وإلى هنا وصل بنـــا المطاف إلى جمادى الآخر من سنة ١٣ هـ وفى ذلك التاريخ توفى أبو بكر الخليفة الأول لرسول الله ﷺ ، واستخلف بعده عمر بن الخطاب الذى لقب بأمير المؤمنين لأول مرة فى الدولة الإسلامية التى شرعت الشورى فى انتخاب رئيس الدولة ولم تعرف الرياسة البابوية أو الأمبراطورية .

وقبل أن نغادر هذا الميدان من الجبهة الفارسية ، نرى أن نقول كلمة انصاف لمسلك خالد بن الوليد القائد العام لجيوشها .

وقد كان خالد من الرجال الممتازين بين العرب ، فقد استطاع أن يخمد حركة الردة فى أكثر من ميدان ، وأخضع معظم أقاليم العراق ، والجزيرة وما جاورها فى بضعة عشر شهراً فقط . كما أن سياسته نحو البلاد المفتوحة ، ومـــا اتبعه من عدل وانصاف مكن للمسلمين فى هــذه الجهات وها هو ذا كتاب عهده لأهل الحيرة :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد ، عديا وعمراً ابنى عدى ، وعمرو بن عبد المسيح واياس بن قبيصة ؛ وهم نقباء أهـل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به وعاهدوهم على مائة وتسعين ألف درهم (١٩٠ ألف درهم) تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسيهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيساً عن الدنيا تاركا لهـا وعلى المنعة . وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم . وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة وكتب فى شهر ربيع الآخر من سنة ١٢ هـ وكذلك لم يمتنع خالد أن يعطى

عهداً لبعض القرى حينما طلب أهلها ذلك مثل بانيقيا . وباروسما وكذلك مع كل من طلب ذلك من دهاقين[1] البلاد .

ومما يستحق الذكر أن خالداً بعد أن استولى على الأجزاء السابقة من بلاد الفرس ، وضبطها وولى عليها الأمراء والجباة وأبقى بها مسالح لحمايتها أرسل إلى ملك الفرس كتابا ، وإلى المرازبة آخر . وقال فى الأول :

من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس . أما بعد . فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم . فادخلوا فى أمرنا ندعكم فى أرضكم ، ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

وقال فى كتاب المرازبة : بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس أما بعد . فاسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر .

وعلى الجملة فإن الحرب فى هذه الجبهة لم تكن بالسهولة التى قد تتصور فإن الفرس من الأمم القديمة ذات الحضارة والقوة ، وكانت تدافع عن تقاليدها بحرارة . بيد أن خالداً كان متفوقا بالمهارة والقوة الحربية مما عوضه عن الكثرة والأسلحة ، واستطاع بذلك أن يهزم الفرس منذ الجولة الأولى وأن يكسب الجولات التالية .

وبهذا فتح المسلمون كلدة والحيرة واستولوا على بانقيا وباروسما وأليس ؛ وأوقعوا بالفرس على نهر الثنى تلك الموقعة التى غنم منها جيش خالد بن الوليد مغانم كثيرة .

كذلك انتصر المسلمون فى معركة الولجة[2] ، واليس [3] ، وفرات بادقلى

(١) الدهاقين شيوخ القرى

(٢) الولجة تلى كسكر من البر

(٣) بلدة على نهر الفرات

على مصبات الفرات والانبار وعين التمر ودومة الجندل وكلها مواضع بالعراق .

كذلك استطاع هذا القائد العبقري أن يركز فتوح الإسلام فى دلتا الفرات وأن يعلى كلمته فى تلك الجهات التى دانت لأتباع زرادشت قروناً من الزمن .

وفى ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٢ هـ اختلس خالد هدأة النضال قليلا وانسل إلى الحجاز حاجا شاكراً انعم الله على ذلك النصر الذى توج به هامة الإسلام فى أرض كسرى ، وموطن المجوس ، فأدى نسكه وعاد وكأن لم يغادر ميدان القتال حتى إن الخليفة نفسه لم يعلم على التحقيق خبر حجه إلا بعد برهة حيث عتب عليه فى ذلك .

وأما ما ينسب إلى ذلك القائد من قتله لمالك بن نويرة وتزوجه من زوجته فإن الخطب لعمرى جد يسير . وجلية المسألة كما حققها ابن الأثير فى تاريخه أن خالداً بعد أن انتهى من طليحة ببزاخة نحو البطاح موطن بنى يربوع ، وسيدهم مالك بن نويرة الذى كان قد اتبع المرتدين وشايع سجاحا ووادعها ثم ندم وراجع الإسلام ، وغشيتهم خيل خالد وهم على تلك الحـــال ولم يعلم بهم خالد . لذلك عند مارآه بنو يربوع تفرقوا فى شعـاب واديهم وخشوا صولة خالد ، ولأن خالداً لم يعلم بتوبتهم ، أمر بأن يحبسوا حتى يرى فيهم رأيه ، ثم أن الجو كان بارداً شديد الرطوبة فنادى منادى خالد بأن يدفىء المسلمون أسراهم . وكانت عبارة ادفاء الأسرى بلغة كنانة يراد منها القتل ، بخلاف لغة قريش التى تفسر الدفء بمعناه المعروف . وهو إشعال النار لإزالة البرد ، وذلك ماقصد إليه خالد . بيد أن اليربوعيين ومنهم مالك — لسوء حظهم — كان الحراس عليهم من كنانة فما أن سمعوا نداء خالد حتى أسرعوا بقتل أسراهم فلما بلغت خالداً أنباء الأسرى وفيهم مالك غضب وتألم ثم أراد أن يواسى زوجة مالك فتزوجها وضمها إلى كنفه .

بيد أنه حدث بعد أن قتل مالك ومن معه أن كان أبو قتادة — وهو من صحابة الرسول الأولين — حاضراً فاحتج على خالد واتهمه بالغدر فغضب منه خالد ، وانتهره فذهب أبو قتادة مغاضباً حتى أتى المدينة والتقى بالخليفة وعمر بن الخطاب وقص عليهما قصة خالد مع الأسرى، وكيف قتل هؤلاء بعد أن شهدوا شهادة الحق ، فقال عمر لأبى بكر ان سيف خالد فيه رهق وأكثر عليه فى ذلك ، فقال أبو بكر هبه ياعمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد ، فانى لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين ، وأودى أبو بكر مالكا وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل ودخل المسجد وعليه قباء وقد غرز فى عمامته أسهماً . فقام إليه عمر فنزعها وحطمها وقال له : أرِ ئاء قتلت أمرءاً مسلماً ثم نزوت على امرأته والله لأرجمنك بأحجارك ، وخالد لا يكلمه . يظن أن رأى أبى بكر مثله ، ودخل على أبى بكر فأخبره الخبر واعتذر إليه فعذره وتجاوز عنه وعنفه فى التزويج الذى كانت العرب تكرهه أيام الحرب . فخرج خالد وعمر جالس فقال : هلم إلى يا ابن أم سامة ، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه فلم يكلمه (١) .

هذه هى القصة كما تبين من رواية ابن الأثير ، وهى المعقولة فى نظرنا إلى حد ما . أما حملة عمر على خالد ، فلعلها نشأت عن الاذاعات التى وصلت إلى المدينة ، والتى لم يقصد بها أصحابها مجرد الحق ، بل كانت مشوبة بالانفعال وعدم التثبت من الحقيقة . على أن خالداً لم يكن حين حبس بنى يربوع عالماً بأنهم قد راجعوا الإسلام ، وقد اختلفت أقوال ثقاته فى إظهار اليربوعيين لشعائر الدين إذ كان يكفى أن يشهد مثل أبى قتادة بآذانهم وصلاتهم حتى يخلى سبيلهم ، ثم بعد حبس القوم لاستجلاء حقيقتهم لم يكن ينبغى أن

(١) أنظر ابن الأمير ج ٣ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

يكون إعلان إكرام الأميرى بعبارات غامضة يتأولها الناس كما يشتهون مما سبب إراقة دماء هؤلاء القوم .

وأخيراً فإن مما يزيد السخط على خالد من مثل عمر أن يخرج خالد على تقليد عربى متبع وهو أن لا يتزوج الجندى أو القائد فى ميدان القتال ، وقد خالف خالد هذه العادة العربية وتزوج فى ميدان الحرب ، ولينه تزوج من غير من قتل أزواجهم خطأ ، بل عمد إلى امرأة سيد القتلى وتزوجها فزاد النار استعاراً .

ولذلك ظل عمر يفرك القتاد على عمل خالد طوال عهد أبى بكر حسبما رواه المؤرخون القدامى فما واتته الفرصة بعد توليته حتى سارع بعزل خالد من قيادة الجند وولاه أبا عبيدة عامر بن الجراح .

ومهما يكن من شىء فان ذلك لا يقدح فى كفاية خالد العسكرية ، ولا فى عبقريته كقائد مجرب . وإن نال من بعيد من ورع الرجل ، ووقاره كما ظن عمر ، وهذا بالطبع على فرض صحة كل مانسب إلى خالد وهذا ما لا سبيل إلى الجزم به .

ومما سبق نرى أن أهم الفتوحات التى كسبها المسلمون فى الميدان الفارسى أو الجبهة الشرقية إنما كانت بسبب المنهج الحربى الدقيق الذى وضعه خالد بن الوليد وهو القائد العام لتلك الجبهة ، ثم لبراعة ضباط الفيالق الذين عملوا تحت إمرة خالد مثل المثنى بن خارثة ، وعياض بن غنم وغيرهما .

الحرب مع الروم : أما حروب المسلمين مع الروم فى خلافة أبى بكر ، أو الميدان الغربى الذى انتصر فيه الخليفة وضم إلى دولته أجناد الشام وفلسطين ووصلت جنود الدولة إلى القلزم على حدود مصر . فلن أهم قواده فى هذا الميدان

هم عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبى سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، ثم معاوية بن أبى سفيان ويقود فرقة الامداد .

وأول اشتباك للمسلمين مع الروم كان على أثر الحملة التأديبية التى قادها أسامة ابن زيد إلى بادية الشام ، فأثارت هذه الحملة حفيظة القبائل الضاربة فى هذه النواحى وقام هؤلاء الأعراب يثأرون لإخوانهم الذين تربطهم بهم أو شاج الدم والقرابة .

وكانت البلاد الواقعة غربى الجزيرة وكلدة خاضعة يومئذ للدولة الرومانية الشرقية ، وكان للرومان فى تلك البلاد معاقل حصينة تحرسها حاميات قوية كقيصرية على البحر ، وأريحا ، والقلس وعسقلان وغزة ويافا ، وعكا وصور . كذلك كان يقع فى شمالى فلسطين ، سوريا أو بر الشام التى من أهم مدنها دمشق وحمص وحلب وأنطاكية ، وكانت تحرسها كلها حاميات رومانية مجهزة بأحدث الأسلحة إذ ذاك .

وفى ذلك الميدان منى المسلمون بهزيمة فادحة فى أول حملة أرسلها أبو بكر بقيادة خالد بن سعيد الذى لم يكن من المهارة بحيث يرتاح الخليفة إلى خططه وتصرفاته العامة ولذلك لم يلبث أن عزله ، ولم يعدل عن فتح الشام بل أخذ يتجهز جادا فى لقاء الروم بهذه الجهات . فجمع أبو بكر جيشاً بلغت عدته ٣٥٠٠٠ خمسة وثلاثين ألف مقاتل ولى عليهم أربعة قواد ، ووجههم إلى بلاد عينها لهم فى منطقة الشام وأطرافها .

فهذا أبو عبيدة يقود فرقة ، ويتوجه إلى حمص ، ومقره الجابية . وأسند إلى عمرو بن العاص قيادة فيلق فلسطين وهدفه فتح هذه الناحية .

وأمر يزيد بن أبى سفيان على جيش دمشق ؛ كما عقد لشرحبيل على جيش الأردن واتبع هذه الجيوش الأربع بعدد من الجنود كاحتياطى للجيش العامل وأسند رئاسته إلى معاوية بن سفيان .

زحف عمرو بن العاص على فلسطين السفلى مهدداً جيوش الروم فى منطقتى غزة وبيت المقدس ، بينما أخذت الجيوش الثلاثة الأخرى تناوىء بصرى [1] ودمشق وطبرية بيد أن مجموع جيش المسلمين القليل العدد ، قد أمكنه الصمود لجيش الروم الذى بلغت عدته حوالى ٢٤٠٫٠٠٠ جندى مجهزين بالسلاح والذخيرة، وقد كان من السهل على هرقل إمبراطور الدولة الرومانية أن يجمع هذا العدد. إذ كان يدين لحكمه عدا أسيا الصغرى الشام وفلسطين ومصر وأفريقية وغيرها .

ولذلك لما علم بزحف العرب أسرع إلى حمص وحشد فيها أربع فرق كبرى أما القواد المسلمين فلم يلبثوا هم أيضاً أن حشدوا قواتهم فى صعيد واحد فى « جولان » بالقرب من نهر اليرموك الذى ينبع من جبال حوران ، ويصب فى نهر الأردن على بضعة أميال من بحيرة طبرية ، ثم يستدير على بعد ثلاثين ميلا من التقائه بنهر الأردن ليكون شبه دائرة تحتضن سهلا فسيحاً منبسطاً يصلح لأن يكون معسكراً لجيش كبير . كذلك بالنهر انحناء يؤدى إلى فضاء مسطح يسمى « الواقوصة » .

ولقد رأى الروم فى ذلك الموقع المتقدم معسكراً طبيعياً محصناً فحشدوا جيوشهم فيه دون أن يحسبوا حسابا للمسلمين الذين ما كادوا يشعرون بخطأ عدوهم حتى عبروا النهر وعسكروا بجانب الوادى الضيق الذى يقع على استداراته ، وأخذ

---

(١) لبصرى تاريخ مشهور بسبب مرور النبى صلى الله عليه وسلم عليها ومقابلته لبحيرى الراهب الذى يقال أنه نصح أبا طالب بأن يرجع به فوراً خشية أذى اليهود له وأوضحنا ذلك فى كتاب ظهور الاسلام بالتفصيل .

الجيشان يتراقبان حوالى الشهرين حتى مل الخليفة الانتظار فأرسل إلى خالد بن الوليد الذى كان فى كلدة بالميدان الشرقى، فأسرع خالد إلى الشام : ومعه حوالى خمسة آلاف انضمت إلى الجيوش الإسلامية فى هذه النواحى فبلغ جيش المسلمين حوالى ٤٠٠٠٠ أربعين ألف جندى . وفى صباح آخر يوم من جمادى الآخر سنة ١٣هـ (٦٣٤ م) وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين. فحمل العرب على أعدائهم حملة صادقة وظلوا يوقعون بهم حتى أفنوا البعض وأغرقوا البعض الآخر فى النهر . . وبهذا تم النصر للمسلمين وفتحوا جنوبى الشام ، وهذه الموقعة تسمى موقعة « اليرموك » .

وهنا حدثت وفاة أبى بكر. الذى يقال ان خبر الوفاة وصلت إلى قائد المعسكر قبل إنشاب القتال فكتمه حتى كسب المعركة ، ثم أذاعه ، وكان القائد فى هذه اللحظة خالد بن الوليد، وسبب كتمان الوفاة أن الرسول الذى جاء بالخبر كان يحمل معه خطاب عزل من القيادة العامة لخالد ، و إسناد إمارة الجيش إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح وكان من المصلحة فى رأى خالد أن يظل هو ينفذ الخطة الحربية التى وضعها لهذه المعركة ، ثم يسلم الأمر إلى القائد الجديد ولذلك نرى أنه بمجرد أن تنتهى المعركة يسرع خالد إلى أبى عبيدة ويسلمه رسالة القيادة ، ويندمج هو فى الجيش كفرد عادى .

وبتولى أبى عبيدة قيادة الميدان الغربى نكون قد ودعنا عهد أبى بكر وأصبحنا فى خلافة عمر الذى ازدهرت الفتوحات فى عهده كما سنرى بعد .

الفصل الثاني

فتوح عمر بن الخطاب

ترجمة عمر :

يتحدث التاريخ عن عمر مفاخراً بفضائله وعبقريته والحق أن الرجل يستحق التقدير والاطراء إذ هو من أولئك القلائل الذين سجلت لهم صفحات المجد والخلود. في السلوك الشخصي ، والتنظيم الشعبي والدولي والسياسي .

وينتسب عمر إلى الخطاب بن نفيل من بني عدى كعب بن لؤى ، وأمه حنتمة[1] بنت هاشم من بني مخزوم ، فعمر قرشي أصيل ، ولد عمر بعد مولد الرسول بثلاث عشر سنة وتربى على الشهامة والجرأة ، والصراحة ، وكانت سنه حينما أكرم الله محمد بن عبد الله بالرسالة ، سبعاً وعشرين سنة ، فلما دعاه الرسول إلى الإسلام ، لم يقتنع في بادىء الأمر ، ولذا كان شديداً على المسلمين . وحاربهم حربا شديدة ، حتى كانت هجرة الحبشة ، وتحمل المسلمون الأذى في سبيل دينهم فأخذ يفكر في هؤلاء وحدهم وما يلقونه من عنت ، ثم في مبادىء الدين الجديد وأغراضه ومراميه ، ثم شرح الله صدره للاسلام . فأسلم وأعلن إسلامه في وقت لم يستطع غيره أن يقول كلمة الحق إلا مستخفيا أو من وراء جدر ، ولكن عمر قال لا إله إلا الله على ملأ من زعماء الوثنية وسادة قريش مما يدل على مبلغ الإيمان والغيرة في قلب الرجل ، وشجاعته وصراحته . وقد تحمل من أذى المكيين ما لا قبل لأحد باحتماله حتى أجاره العاص بن وائل السهمي.

ولما هاجر الرسول ، اشتد أذى المشركين للمسلمين حتى كان من يعرف أنه

---

(١) في مروج الذهب خيثمة بنت هشام بن المغيرة (ص ٤١٧) .

سيهاجر يعد له اللون المناسب من التعذيب والعقاب . وأما عمر فإنه حينما اعتزم الهجرة لم يستطع أحد أن يتبعه فيلحق به أذى .

حضر عمر جميع المشاهد مع رسول الله . وكان مع أبى بكر كالوزيرين للرسول الكريم وتزوج الرسول حفصة ابنته ، وظل موضع تقدير النبي وجميع المسلمين حتى توفى الرسول وكانت خلافة أبى بكر . فآزر أبا بكر ووقف إلى جانبه بل كان أسبق الناس إلى مبايعة أبى بكر ، وأعرفهم بحقه وقدره .

ولما اشتد على أبى بكر مرضه الأخير استشار المسلمين فى تولية عمر من بعده فكلهم رضى به وزكاه ، فأسند إليه خلافة المسلمين من بعده ، فكانت خلافته بركة للدولة ، وخيراً لجميع أفراد الأمة . وها هى ذى ناحية من أعماله نسجلها فى توجيهه لدفة الحروب فى الجبهتين الشرقية والغربية ضد الروم والفرس اللتين اقتسمتا ملك الدنيا حينئذ ، وقد استطاع أن يوقع الهزيمة بهاتين الدولتين ، وأن يزيل إحداهما من الوجود .

منهجـــه :

يتضح منهج عمر الذى اتبعه فى الحكم والإدارة من خطابه الأول الذى أذاعه وقت بيعته إذ قال :

«إنما مثل العرب كمثل جمل آنف اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده». وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق[1] » . يقول سيد أمير على : « تأثرت سياسة الدولة بأخلاق عمر على وجه خاص سواء كان ذلك فى حياته أم بعد مماته إذ كان هدفه الرئيسى هو توحيد شبه الجزيرة العربية، وصهر القبائل فى جامعة عربية إسلامية موحدة .. وثمة مناح أخرى من سياسته خليقة بأن نوجه إليها

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٦٢ .

اهتمامنا وأولها إجلاء جميع العناصر القادمة من شبه الجزيرة ، لكى تخلو للعرب وحدهم ، وثانيها عدم التطرف فى الفتح وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن يدرك أن توطيد دعائم الإمبراطورية وترقيتها ماديًا يتوقفان على رفاهية طبقة الفلاحين من سكان البلاد الأصليين . وتحقيقًا لهذه الغاية منع بيع الأراضى الزراعية فى الأمصار المفتوحة كما سن قانونًا يحظر فيه على العرب امتلاك الأراضى والضياع[1] .

وعلى الجملة فإن عمر كان فى الحقيقة الرجل الموهوب الذى جعل للاسلام دولة قوية مرهوبة الجانب ، ونشر فيها لواء العدل وثقافة الإسلام وخلقه ، وكان هو نفسه المثل الأعلى فى التمسك بتعاليم محمد رسول الله ﷺ ومبادىء القرآن الكريم .

الجبهة الفارسية :

أسلفنا القول بأن المثنى بن حارثة الشيبانى ، حينما رأى ملك الفرس قد حشد جيشًا كثيفًا ، لإجلاء العرب عن المراكز التى احتلوها ، انسحب إلى الوراء قليلا ، ثم أسرع وحده إلى المدينة يطلب المدد من الخليفة ، فوجده على فراش الموت وأنه قد أوصى أن يرعى عمر — وهو الخليفة بعد أبى بكر — جيش المثنى ، وأن يمده بما يطلبه . وقد نفذ عمر وصية أبى بكر فى اليوم التالى لوفاة أبى بكر . إذ ندب الناس مع المثنى إلى حرب فارس قبل صلاة الفجر[2] . وظل عمر ثلاثة أيام يجهز الجيوش ويستعرضها ، ثم أمر عليها أبا عبيد بن مسعود الثقفى . وهو والد المختار ابن عبيد ؛ ولما أزمعت الجيوش على التوجه شطر الميدان الشمالى الشرقى بالعراق ، قام المثنى فخطب خطبة مطمئنة للناس ، قال فيها :

---

(١) مختصر تاريخ العرب ص ٥ — ٥١ ، هذا وسنذكر رأيه فى الأراضى الزراعية فى باب الحضارة بعد قليل .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٩٧ .

أيها الناس : لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإنا قد فتحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى الوادى ، ونلنا منهم ، واجترأنا عليهم ، ولنا إن شاء الله ما بعدها » .

ولقد رفض عمر رجاء المسلمين فى تولية هذا الجيش لأحد كبار المهاجرين والأنصار قائلا : لا والله لا أفعل . إنما رفعهم الله تعالى لسبقهم ومسارعتهم إلى العدو . فإذا فعل قوم فعلهم وقاتلوهم ، كان الذين ينفرون خفافاً وثقالا ، ويسبقون إلى الدفع أولى بالرياسة منهم والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً ثم دعا أبا عبيد وسعداً وسليطاً وقال لهم : لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها إلى مالكما من السابقة . فأمر أبا عبيد على الجيش وقال له : اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد سرعاً حتى تتبين[1] .

موقعة الجسر : وصل المثنى إلى ميدان القتال ، ثم تبعه أبو عبيد بجيشه والتقت الجيوش بالحيرة ، فشنت الحرب على الفرس الذين ثار دهاقينهم بأمر رستم قائد جيش فارس ، والقابض على مقاليدها ، وكانت أولى المواقع بين الفريقين موقعة (المروحة) على الشاطىء الغربى لنهر الفرات ، وفيها قتل أبو عبيد الثقفى وسبعة ممن حمل اللواء بعده ، ويقال أن أبا زبيد الطائى النصرانى قاتل حمية للعرب ، وكان سبباً فى إنقاذ ما بقى من جيش أبى عبيد الذى لم يختر لجيشه موقعاً مناسباً كما نصحه المثنى ، مما نجم عنه هزيمة هذا الجيش .

موقعة البويب : بيد أن جند الفرس — رغم انتصارهم ، لم ينتهزوا فرصة هذا الفوز الباهر فى موقعة المروحة (الجسر) التى حدثت فى شهر شعبان من سنة ١٣هـ[2] وظلوا متمسكين بمواقعهم على جسر الفرات ، وبلغ عمر خبر هزيمة

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٩٨.

(٢) نفس المصدر السابق.

جيشه ، فأرسل جيشاً بقيادةجرير بن عبد الله البجلى،الذى استطاع أن يجمع من متطوعة بجيلة عدداً غير قليل على أن ينفلهم عمر ربع الخمس من الغنيمة .

كذلك أمد عمر المثنى بجيش آخر بقيادة عصمة بن عبد الله الضبي، واستنفر عمر والمثنى أهل المودة ، فأجابوا ونفر منهم جم غفير، وقصدت هذه الجموع إلى الحيرة حيث جيش فارس مرابط فى جسر الفرات .

وقد التقت الجيوش الإسلامية جميعها بمعسكرات البويب (١) المقابل لموقع الجيوش الفارسية ، وقد كانت هذه الجيوش محصورة بين نهر الفرات وفرع البويب .

كان قائد الفرس لهذا الجيش (مهران) فأرسل إلى المثنى يخيره بين العبور إلى الفرس ، أو عبور الفرس إليه ، فطلب المثنى منه أن يعبر هو بجنده ، فعبر مهران وصف جيشه إلى ثلاثة صفوف مع كل صف فيل عظيم ، والرجالة ، أمام الفيل ينشدون نشيد الإمبراطورية (٢) .

بيد أنه ، ما كادت تدور رحى المعركة ، حتى أنزل المسلمون بعدوهم هزيمة منكرة ويقال ان المثنى طلب من أنس بن هلال النمرى والذى لم يسلم بعد ، أن يعين المثنى على قتل مهران قائد الجيش ، ثم قتل مهران بيد غلام نصرانى من تغلب (٣) وفر من بقى من الفرس ، فتبعهم المسلمون إلى (ساباط) وراء

---

(١) البويب نهير بالعراق .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٤ ويقول وأقبل الفرس فى ثلاثة صفوف مع كل صف فيل ورجلهم أمام فيلهم ولهم زجل فقال المثنى للمسلمين « الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت » .

(٣) المصدر السابق .

الدجلة . ثم دخل المسلمون الحيرة عنوة ، وتم لهم النصر على هذا الجيش وكان ذلك فى سنة ١٣ هـ .

القادسية : فى هذه الأثناء اعتلى يزدجرد عرش الفرس — وكان شابا طموح النفس ، ولم يوطد العزم على طرد العرب من الحيرة فحسب ، بل عقد النية على اجتياح بلادهم ، فأرسل إلى كلدة جيشاً مؤلفا من ألف مقاتل ، فلما رأى المثنى قلة جيشه انسحب من كلدة إلى حدود الصحراء ، وأخذ ينتظر وصول الأمداد التى طلبها من المدينة والتى أخذ عمر يبذل مجهوداً جبارا فى جمعها وتجهيزها حتى لقد تظاهر بأنه سيصحب الجيش بنفسه ، وأوصى الجيش واهتم به غاية الاهتمام .

أما الفرس فإنهم بعد هزيمة جيش مهران ، نظروا إلى أنفسهم ، وعملوا على جمع شعثهم وتوحيد كلمتهم لمقابلة العرب جبهة متحدة ، ويداً واحدة . فاتفق رستم والفيرزان وسائر القواد على أن يعملوا تحت إمرة الإمبراطور الشاب (يزدجرد) حفيد كسرى وقد تبارى الرؤساء فى طاعته ، وجمع الجيوش وتجهيزها للدفاع عن الإمبراطورية التى سلخ منها العرب الحيرة وساباط وتكريت وهم بصدد احتلال المدائن : العاصمة الكبرى للامبراطورية .

ولذلك جهز الفرس جيشاً كثيفا ، وقسموه إلى فرق أسموها بأسماء النواحى التى فتحها المسلمون .

بلغ ذلك المثنى ، فكتب إلى عمر باجتماع الفرس على حرب المسلمين وطردهم من مراكزهم ولكن قبل وصول جواب عمر ، قام أهل السواد ونقضوا عهد المسلمين ، ورفعوا لواء التمرد والعصيان فانسحب هؤلاء من بلاد الفرس ، وعسكروا على حدود بلاد العرب وعلى مصبات الفرات .. وفى هذه الأثناء توفى المثنى متأثراً

بجراحه أو بحمى أصابته[1] .

قيادة سعد بن أبي وقاص : وتولى القيادة من بعده سعد بن أبي وقاص، وقد جاء على رأس جيش كبير لتعزيز جيش المثنى ، فبلغ بذلك جيش المسلمين حوالى ثلاثين ألفا .

أما عن السبب فى اختيار سعد للقيادة العامة ، مع أن الرجل الذى كان يجب تقديمه على الجميع هو أول من دخل هذه البلاد غازيا منتصرا . فهو أولا ما أسلفنا الحديث عنه من أمر خالد بن الوليد ونقمة عمر عليه مسلكه نحو مالك ابن نويرة مما دفعه لعزله عن القيادة حتى فى الميدان الغربى ، وعلى الرغم من أن أبا بكر قبيل وفاته أوصاه بأن يعيد جند الميدان الشرقى إلى حيث كانوا بعد أن انتدبهم أبو بكر إلى حروب الروم .

نقول على الرغم من وصية أبى بكر ، فإن عمر أصر على إبعاد خالد نهائيا عن شئون القيادة لأنه اعتقد أن فى سيفه رهقا ، وخالد كما بينا هو أول قائد عام هزم الفرس فى الميدان الشرقى .

ثم السبب الثانى أنه أراد أن يختار رجلا ذا خبرة وكفاية حتى يستطيع مواجهة جموع الفرس ، وتدبير أعظم جيش إسلامى منذ موقعة اليرموك فى سنة ١٣ هـ . يقول ابن الأثير فى ذلك «لما اجتمع الناس إلى عمر خرج من المدينة ، حتى نزل على ماء يدعى «صرار» فعسكر به ولا يدرى الناس ما يريد ، أيسير أم يقيم،

---

(١) يقول ابن الأثير أنه كان قد جرح وأن جراحه قد انفجرت فتوفى، ويقول سيد أمير على أن حمى كلدة هى التى فتكت بالمثنى (أنظر ج ٣ من الكامل فى التاريخ ، ومختصر تاريخ العرب (لسيد أمير على) .

وكانوا إذا أرادو أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف فإن لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب. فسأله عثمان عن سبب حركته فأحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم فى المسير إلى العراق، فقال العامة: سر وسر بنا معك، فدخل معهم فى رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه برفق، وقال اغدوا واستعدوا، فإنى سائر إلا أن يجىء رأى هو أمثل من هذا، ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله ﷺ وأعلام العرب وأرسل إلى على وكان قد استخلفه على المدينة فأتاه والى طلحة وكان على المقدمة فرجع إليه، وإلى الزبير وعبد الرحمن، وكانا على المجنبتين فحضرا، ثم استشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ، ويقيم ويريعه بالجنود، فإن كان الذى يشتهى فهو الفتح، وإلا أعاد رجلا، وبعث آخر، ففى ذلك غيظ العدو، فجمع عمر الناس وقال لهم، إنى كنت عزمت على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم. وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا فأشيروا على برجل، وكان سعد بن أبى وقاص على صدقات هوازن، فكتب إليه عمر بانتخاب ذوى الرأى والنجدة والسلاح، فجاءه كتاب سعد وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه يقول: قد انتخبت لك ألف فارس كلهم له نجدة ورأى وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم. إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم، فلما وصل كتابه ووافق مشورتهم قالوا لعمر: قد وجدته، قال: من هو؟ قالوا: الأسد عاديا. سعد بن أبى وقاص، فانتهى إلى قولهم وأحضره وأمّره على حرب العراق ووصاه وقال (لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فإن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته، والناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء. الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فألزمه، ووصاه بالصبر وسرحه فيمن اجتمع إليه من جند المسلمين وهم أربعة آلاف فيهم حميضة

ابن النعمان على بارق وعمرو بن معد يكرب وأبو سبرة ابن ذؤيب على مذحج. ورجال على قبائلهم، ثم خرج قرّ بفتية من السكون من حصين بن نمير ومعاوية ابن حديج ، فأعرض عنهم ، فقيل له ، مالك وهؤلاء ، فقال : مامر بي قوم من العرب أكره إلي منهم ، ثم أمضاهم ، فكان بعد يذكرهم بالكراهة [1] .

لم يدخر عمر جهداً إلا بذله في هذه الحملة . وأمر على الجيش سعد بن أبي وقاص الزهوى القرشي، وبعد أن نصحه وأوصاه أشار عليه بأن يعسكر في مكان حصين في زرود .

وصل سعد إلى المكان المذكور ، وفيه فض وصية المثنى وقرأها ، وفيها ينصحه أن يقاتل الفرس على حدود العرب ، وأن يحذر من خداع الفرس ، وإذ قد كان الفرس على أهبة القتال فقد سار سعد حتى التقى بهم بعد أن أرسل كتاباً إلى امبراطورهم يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فلما وصل الرسول بالكتاب إلى يزدجرد ومعه وزراؤه ، واستأذنوا بالدخول فأذن لهم وسألهم عما جاء بهم فقال لترجمانه : سلهم ما الذى دعاهم لغزو أرضنا وبلادنا . أمن أجل تشاغل الفرس عنهم أم ماذا ، فأجابه رئيس الوفد النعمان بن مقرن بقوله : « ان الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة فلم يدع قبيلة إلا وقاربه منها فرقة وتباعد عنه منها فرقة . ثم أمرنا أن نبتدىء بمن خالفه من العرب فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين . مكره عليه فاغتبط . وطائع فازداد فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمرنا أن نبتدىء بمن يلينا من الأمم فتدعوهم الى الإنصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله : فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

من آخر شر منه الجزية . فإن أبيتم فالمناجزة . فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا كم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن بذلتم الجزية قبلناومنعناكم وإلا قاتلناكم » . فتكلم يَزْدَجِرْدُ فقال : إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم ، كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفوننا أمركم ، لاتغزوكم فارس ولاتطمعوا أن تقوموا لفارس . وإن كان غبن لحقكم فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فأسكت القوم . فقام المغيرة بن زرارة فقال :

أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف وإنما يكرم الأشراف ويعظم حقهم الأشراف ، وليس كل ما أرسلوه به قالوه ولا كل ما تكلمت به أجابوك عنه . وقدأحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك فجاوبنى لأكون الذى أبلغك وهم يشهدون على ذلك لى : فأما ماذكرت من سوء الحال فهى على ماوصفت وأشد . ثم ذكر حال العرب وإرسال النبى ﷺ إليهم نحو قول النعمان وقتال من خالفهم أو الجزية . ثم قال : إختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجى نفسك ، فقال يَزْدَجِرْد أتستقبلنى بمثل هذا ..؟ فقال المغيرة لهما استقبلت إلا من كلمنى ، ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به. فقال يَزْدَجِرْد : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شىء لكم عندى . ثم استدعى بوقر من تراب . فقال إحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن . إرجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية وينكل به وبكم ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور ، فقام عاصم ابن عمرو ليأخذ التراب وقال . أنا أشرفهم : أنا سيدهؤلاء فحمله على عنقه وخرج

به من الإيوان وولى إلى راحلته فركبها وأخذ التراب حيث عاد الرسل جميعا إلى سعد بن أبي وقاص .

وبعد ذلك نرى أن الفرس وعلى رأسهم يزدجرد كانوا مستهينين بأمر العرب أو بعبارة أدق تظاهروا بعدم المبالاة بهؤلاء العرب الذين ظلوا أحقابا لا تقوم لهم دولة موحدة كالدولة الفارسية وظلوا نُبَذاً هنا وهناك فى شبه الجزيرة الجرداء وأحسنهم حالا أولئك الجند المرتزقة الذين يستجلبهم مناذرة الحيرة وغساسنة الشام للقتال فى جيوش الفرس والروم ولم يكن واحد من آل المنذر ابن ماء السماء ولا أمير من أمراء غسان، سواء فى أيام الحرب أو السلم إلا وسيطا مأجوراً بين القبائل العربية وبين الدولتين الفارسية والرومانية .

ولئن شئنا الحق والصراحة ، فإننا يجب أن نقول فى يقين وحزم . إن أول رجل جاهد فى سبيل توحيد شبه الجزيرة وخلق من ضعفها وتناحرها قوة واخوة، وجعلها كالبنيان المرصوص أو كالجسد الواحد انما هو سيد البشر محمد رسول الله ﷺ كثيرا ، ولذلك كان كل رسول من رسل سعد إلى يزدجرد كما أسلفنا يبدأ حديثه بحال العرب ثم يكر مسرعا إلى ما بذله الرسول فى ترقية هؤلاء وتعليمهم ، وهذا ليس من باب التبرك ــ كما قد يفهم الجاهلون بتاريخ الإسلام ولكن من باب الإشادة وإلقاء الرعب فى نفس السامع بأن حال العرب قد غيرها محمد رسول الله ﷺ وأنهم اليوم غيرهم بالأمس ولهذا نرى أن ننقل لكم المحاورة الآتية بين يزدجرد وبعض خلصائه لتروا مبلغ ترددهم وخشيتهم من العرب المسلمين:

قال الملك لرستم وقد استدعاه من ساباط : فحضر ــ ما كنت أرى أن فى العرب مثل هؤلاء ــ ما أنتم بأحسن جوابا منهم ، ولقد صدقنى القوم . لقد وَعَدُوا أمراً ليدركنه أو ليموتن دونه ، على أنى وجدت أفضلهم أحمقهم ، حيث حمل التراب على رأسه فخرج به فقال رستم : أيها الملك : إنه أعقلهم، وتطير إلى

ذلك وأبصرها دون أصحابه ، وخرج رستم من عند الملك غضبان كئيبا وبعث في أثر الوفد وقال لثقته ، إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا . وإن عجز سلبكم الله أرضكم فرجع الرسول من الحيرة فقال : ذهب القوم بأرضكم من غير شك . وكان رستم منجما كاهنا(١) .

على أن تطير رستم قد استبشر به عاصم والمسلمون فقد قال هذا الرجل وقد ذهب يحمل التراب إلى القائد سعد : أبشر : فوالله لقد أعطانا الله مقاليد ملكهم .

ولكن على الرغم من جراءة المسلمين على الفرس ، فإنهم كانوا يخشون قوتهم ويقدرون خطرهم وعلى رأسهم الخليفة عمر بن الخطاب الذي لم يزايله التفكير لحظة في هذه الحملة المغامرة في الميدان الشرقي . فقد سبق أن أشرنا إلى وصيته لقائد الجيش بالاناة والصبر والحذر والرفق بجيشه الضئيل إلى جانب قوة عدوه وعدد جنوده . ثم لم يكد يصل سعد إلى « شراف » حتى كتب إليه عمر يقول :

أما بعد فسر إلى شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله . واستعذ به على أمرك كله واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وعلى بلد منيع . وإن كان سهلا لبحوره وفيوضه إلا أن توافقوا غيضا من فيض . وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشد والضرب . وإياكم والمناظرة لجموعهم ، ولا يخدعنكم ، فإنهم خدعة مكرة . أمرهم غير أمركم إلا أن تخادعوهم ، وإذا انتهيت إلى القادسية ـ والقادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الآصل . وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة ـ فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر ثم الزم مكانك

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٦٦ .

فلا تبرحه فانهم إذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله وأديتم الأمانة . رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً . إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وان تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتهم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم . وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح ويرد لكم الكرة .

ولم يكتف عمر بهذا الكتاب — الذى نرى توافقاً كبيراً بينه وبين وصية المثنى ، لسعد مما يدل على توارد خواطر الرجلين عمر والمثنى — بل انه أرسل إليه كتاباً آخر يعظه فيه ويذكره وينصحه بأن يكثر من ذكر الله ودعائه وأن يصبر عند القتال وطلب منه أن يصف له منازل الجيش ومركزه وأن يجعل الخليفة دائما على اتصال وعلم بكل التفاصيل التى تجرى فى هذا الميدان .

وعلى الجملة فإن سعداً نزل القادسية — التى هى باب فارس كما قال عمر — ويبدو أنه كان متوقعاً جعل ميدان الحرب فى هذا المكان . إذ نرى الفرس والمسلمين يتحدثون عنه فكأنهما تواعدا القادسية ؛ فالواقعة بها ولا بد .

وظل سعد بجنده شهراً بالقادسية . لا يأتيه أحد من الفرس ولا يناوشه مع أنه على أبواب بلادهم . ولذلك أرسل سرية بقيادة عاصم بن عمرو إلى ميسان فطلب غنما وبقراً . فلم يقدر عليها ، وتحصن منه أهل ميسان ، فأسر عاصم رجلا بجوار اجمة ، واستدله على الغنم والبقر — فيقال ان الرجل أنكر العلم بشىء من ذلك ، ولكن عاصما استطاع أن يعرف مكان هذه المواشى ، فأخذها واستاقها إلى المعسكر ، فقسمه سعد بين الناس فأخصبوا أياما .

على أنه يقال إن الذى دل عاصما ثور وراء الأجمة التى جلس الفارسى إلى

جانبها وأن هذا الثور نطق قائلا « كذب عدو الله ، وها نحن أولاء » ومع أن هذا مستبعد فى العادة . فإنه جائز على الله الذى أنطق كل شىء .

ويروى ابن الأثير أن هذه الحادثة بلغت الحجاج فى زمانه ، فكذب الذين رووها ثم انهم آلوا له أنهم شهدوها بأنفسهم . فصدقهم : ثم قال لهم : ما كان الناس يقولون فى ذلك ؟ قالوا آية تبشير يستدل بها على رضا الله وفتح أرض عدونا . . فقال : ما يكون هذا إلا والجمع أبرار أتقياء : قالوا والله ما ندرى ما أجنت قلوبهم فأما ما رأينا فما رأينا قوما قط أزهد فى دنيا منهم ، ولا أشد بغضالها ، ليس فيهم جبان ولا غال ولا غدار الخ . .

انتصار المسلمين : ومهما يكن من شىء ، فقد التحم الجيشان ، جيش المسلمين وقائدهم سعد بن أبى وقاص الذى كان يصدر أوامره من أعلى القصر حيث كان به بعض المرض ، وجيش الفرس وقائده رستم الذى كان على اتصال مباشر مع المدائن وامبراطور الفرس حفيد كسرى .

وقد ظلت المعركة دائرة ثلاثة أيام بلياليها واستمرت إلى الظهيرة من اليوم الرابع ووقتئذ انهزم الفرس . وخارت قوتهم ، وانسل رستم قائدهم العام لينجو فرارا ولكن هلال بن علقمة أحد جنود المسلمين تبعه وقبض عليه ثم قتله ، وملك سريره وصعد عليه ثم نادى : قتلت رستم ورب الكعبة .

وبموت رستم وهو بطل الأبطال فى دولتهم ، وبطل الفرس فى شاهنامة الفردوسى لم يكن للجيش الفارسى أية قيمة فقد ناوش مناوشات طفيفة ثم ولى الادبار لا يلوى على شىء إذ أن أرماث وأغواث وعماس كانت فاصلة وكانت القادسية قاصمة الظهر[1] .

---

(١) أرماث وأغواث وعماس أيام الحرب الثلاثة ، والقادسية يومها الرابع ==

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر « أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤن مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهم إياه ونقله عنهم الى المسلمين، وتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الأجام . وفى الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان (وسماهم) ورجال من المسلمين لا نعلمهم . الله بهم عالم . كانو يُدَوُّون بالقرآن إذا جَنَّ عليهم الليل دوى النحل؛ وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة . إذ لم تكتب لهم » .

ولفرط شغل عمر بهذه الحملة ، كان يخرج كل يوم يتنسم أخبارها، حتى جاءه البشير بالفتح على المسلمين . ويقال ان الرجل الذى حمل الخبر الى المدينة التقى بعمر خارجها . فسأله عمر عن الجيش ، فقال « هزم الله العدو » وأسرع الرجل براحلته الى المدينة ، ولا يعرف أن الذى يكلمه عمر، فأخذ عمر يجرى وراءه وهو يقول « ياعبد الله حدثنى » فلا يزيده الرجال عن العبارة السابقة .

ودخل الرجل المدينة ليبشر الخليفة الذى لم يعلم أنه الإنسان البسيط الذى يتبعه جريا على الأقدام يسأله عن الجيش، وإذا بالمسلمين يقابلون عمر خلف البشير ويسلمون عليه بالأمارة ؛ فكاد الرجل أن يصعق، لأنه لا يعرف عمر، فهدأ عمر من روعه بقوله «لا عليك ياأخى» ثم سلم الرجل كتاب سعد إلى عمر ، فعندذلك حمد الله وسجد له شكراً .

وبعد أن تقبل سعد خضوع المدن الواقعة بجوار الحيرة زحف على بابل حيث

= الذى انتصر فيه المسلمون وهى أسماء أمكنة حدثت بها للوافع فى هذا الميدان. وسميت الموقعة بالمكان الذى فيه تم الظفر فى النهاية .

كانت قد تجمعت فلول الجيش الفارسى فدارت معركة رائعة بينه وبينهم أسفرت عن هزيمة الفرس وتمزيق شملهم، ففر بعض قوادهم إلى المدائن عاصمة الفرس وسار من القواد (الهرمزان) إلى الأهواز، كما اتجه الفيرزان صوب نهاوند.

ولكن سعداً رأى أن الاستيلاء على (كلدة) لا يتم نهائياً طالما تعسكر جنود الفرس فى المدائن، ولهذا زحف على عاصمة الفرس التى كانت فى موقعها تشبه بغداد بموقعها . إذ تبعد حوالى ٢٥ ميلا من مجرى الفرات ، وكان الغربى منها يسمى سلوسيا ، والقسم الشرقى يسمى (طاق كسرى) وقد سميت تلك العاصمة بالمدائن لكونها مؤلفة من مدينتين ، كذلك كانت قصور الملوك ودور الأشراف تجمع إلى الجمال وبهاء الرونق ، الترف والبذخ، وقد تأثر البسطاء بمشاهدة تلك المناظر الخلابة فى مبدأ الأمر .

ويقال انه بعد أن حوصرت المدائن ردحاً من الزمن اضطرت أن تفتح أبوابها صاغرة ، كما أعقب احتلالها ، خضوع المدن الواقعة غربى الدجلة، وقد صلى سعد صلاة الفتح مع الجند فى قصر كسرى أنوشروان (إيوان كسرى) وقد قدم الدهاقين (شيوخ القرى) فروض الطاعة إلى سعد، ونزل القصر الأبيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) .

ومما يذكره بعض المؤرخين أن سعداً جعل إيوان كسرى، مسجداً وصلى فيه، وفيه تماثيل الجص. رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك. وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة يوم دخول المدائن لأنه أراد المقام بها [١] .

---

(١) المحاضرات ج ١ ص ٣١٤ للمرحوم الشيخ الخضرى .

وبعد : فإننا وقد أتينا على وصف موجز للقادسية ، لا نحب أن نغادر هذا الموضع قبل أن نسوق ذلك الموقف الذى وقفه رستم بطل الجيش الفارسى الذى كان راغباً فى مهادنة المسلمين ، بل فى اعتناق الإسلام لولا فظاظة أشراف فارس ، وخشيته من ضياع مركزه فى دولة الأكاسرة . . يقول ابن الأثير فى ذلك :

فلما وصل رستم القادسية ، وقف على العتيق بحيال عسكر سعد ونزل الناس فما زالوا يتلاحقون حتى اعتموا من كثرتهم والمسلمون ممسكون عنهم وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا ، منها فيل سابور الأبيض . وكانت الفيلة تألفه فجعل فى القلب ثمانية عشر فيلا ، وفى المجنبتين خمسة عشر فيلا ، فلما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار من العتيق نحو خفان حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة ؛ وأرسل إلى زهرة فوافقه فأراده على أن يصالحه ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه من غير أن يصرح له بذلك بل يقول له : كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم ، ويخبره عن صنيعهم مع العرب . فقال له زهرة : ليس أمرنا أمر أولئك ، ولا طلبتنا طلبتهم إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا وهمتنا فى الآخرة ، وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولا ، فدعانا إلى ربه فأجبناه ، فقال لرسوله : إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى ، فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز . فقال له رستم : ما هو . قال ، أما عوده الذى لا يصلح إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله قال :ما أحسن هذا ، وأى شىء أيضاً .قال:وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله . قال : حسن . وأى شىء أيضاً : قال والناس بنو آدم وحواء أخوة لأب وأم . قال ما أحسن هذا . ثم قال رستم أرأيت إن أجبت إلى هذا ومعى قومى . كيف يكون أمركم ، أترجعون . قال : أى والله ثم لا نقرب

بلادكم أبداً إلا فى تجارة أو حاجة . قال : صدقنى والله . أما ان أهل فارس منذ ولى أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة . وكانو يقولون إذا خرجوا من أعمالهم ، تعدوا طورهم ، وعادوا أشرافهم ، فقال زهرة نحن خير الناس للناس. فلا نستطيع أن نكون كما تقولون ، بل نطيع الله فى السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا . فانصرف عنه رستم ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا ، فأنفوا . فقال : أبعدكم الله واسحقكم ، أخزى الله اخرعنا واجبننا (١) .

على أن رستم لم يكتف بهذا ، بل تحت عاطفة السلام التى استولت على مشاعره ، واصل بحوثه ليتأكد من هدف العرب الذى يهدفون إليه فى حروبهم هذه . فأرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رسولا نكلمه ويكلمنا ، فدعا سعد جماعة ليرسلهم، فقيل له: إن الخير أن ترسل رجلا واحداً ، فبعث إلى رستم ربعى بن عامر ، فسار هذا حتى وصل إليهم ، فجمع رستم عظماء فارس واستقبلوا رسول سعد إليهم ، فدخل الرسول حاملا سلاحه ، بعد أن شق وسادتين ربط بهما فرسه، فأظهر الفرس عدم المبالاة بذلك ولكنهم طلبوا منه أن يضع سلاحه فرفض ، ولم يكتف بهذا بل أخذ يتوكأ على رمحه ويمزق البسط والنمارق التى زين بها الفرس غرفة القائد العام ، فلما اقترب من رستم جلس على الأرض وركز رمحه على البسط فطلب منه أن يجلس على النمارق فرفض قائلا : انا لا نستحب الجلوس على زينتكم هذه (٢) . ثم كانت هذه المحاورة الآتية بينه وبين رستم .

رستم . ما جاء بكم ؟

ربعى : الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا الى

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٢٠ .

سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه دوننا ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر .

رستم : قد سمعنا قولكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا .

ربعى : نعم ، كم أحب إليكم ، أيوما أو يومين ؟

رستم : بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا .

ربعى : إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث ؛ فنحن مترددون عنكم ثلاثا ، فانظر فى أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل . إما الإسلام ، وندعك وأرضك أو الجزية فنقبل ونكف عنك ، وإن احتجت إلينا نصرناك أو المنابذة فى اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع . إلا أن تبدأ . أنا كفيل بذلك عند أصحابى .

رستم . أسيدهم أنت ؟

ربعى . لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم (١) .

وبعد أن انتهت تلك المحاورة بين رستم وربعى ، قام رستم فخلا برؤساء قومه فقال : ما ترون . هل رأيتم كلاما قط أعرب وأوضح من كلام هذا الرجل . فقالوا معاذ

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢١ .

أن نميل إلى دين هذا الكلب . أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال . ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأى والكلام والسيرة إن العرب تستخف باللباس والمآكل وتصون الأحساب لبسوا مثلكم .

فلما كان من الغد، أرسل رستم إلى سعد أن ابعث إلينا ذلك الرجل ، فبعث إليهم حذيفة بن محصن ، فأقبل فى نحو من ذلك الزى ، ولم ينزل عن فرسه، ووقف على رستم راكبا ، فقال له: رستم إنزل . فقال حذيفة : لا أفعل . فقال ما جاء بك ولم يجىء الأول قال له إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا فى الشدة والرخاء ، وهذه نوبتى . فقال : ماجاء بكم ، فأجابه مثل الأول ؛ فقال رستم : المواعدة إلى يوم ما. قال نعم : ثلاثا من أمس - فرده ، ثم قال لأصحابه . ويحكم أما ترون ما أرى ، جاءنا الأول الأمس فغلبنا على أرضنا وحقر ما نعظمه وأقام فرسه على زبرجنا وربطه به ، وجاءنا هـــذا ؛ اليوم فوقف علينا وهو فى يمين الطائر يقوم على أرضنا دوننا .

ثم يواصل رستم ما اعتزمه من الوقوف على أغراض هؤلاء الفاتحين والمبادىء التى اعتنقوها فغيرت أخلاقهم وبدلت سياستهم . فبعد برهة وجيزة من صرف حذيفة ، راسل سعد بن أبى وقاص ليبعث اليه برجل آخر يفاوضه ويحادثه .

وفى اليوم التالى لسفارة حذيفة أرسل سعد المغيرة بن شعبة ليحادث رستم ويفاوضه فأقبل المغيرة إلى الفرس ، وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم مفروشة على مسافة طويلة ، بحيث لا يوصل إلى رستم إلا بالمشى مسافة فأقبل المغيرة حتى جلس على السرير مع رستم فوثبوا عليه وأنزلوه وأمسكوا بتلابيبه . فقال لهم : قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم . انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً ، إلا أن يكون محارباً لصاحبه . فظننت

أنكم تواسون قومكم كما تتواسى . فكان أحسن من الذى صنعتم ، ان تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد . وإنى لم آتكم ولكن دعوتمونى . واليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول؟ فقالت جماهير الفرس صدق والله العربى . وقالت الدهاقين : والله لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه ! قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة (يقصد العرب)

ثم تكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وقال : لم نَزَلْ متمكّنين فى البلاد ظاهرين على الأعداء ، أشرافا فى الأمم فليس لأحد مثل عزتنا وسلطاننا ننصر عليهم ولا ينصرون علينا إلا اليوم ، واليومين ، والشهر للذنوب. فإذا انتقم الله منا ورضى علينا رد لنا الكرة على عدونا ، ولم يكن فى الأمم أذلة أصغر عندنا أمراً منكم ، كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة ، ولا نرا كم شيئاً ، و كنتم تقصدوننا إذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشىء من التمر والشعير ، ثم نردكم ، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد فى بلادكم . فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم ، وامر لكل منكم بوقر (حمل) تمر وتنصرفون عنا ، فإنى لست أشتهى أن أقتلكم ولا آسركم .. وفى هذا الكلام من رستم كثير من الكهانة والخداع ، فإنه قد ناقض اعتقاده فى مقدرة هؤلاء العرب، ونيتهم فى هذه المرة أن يفتحوا بلده أو تعتنق مبادئهم وليسوا طلاب مأكل كما زعم وليسوا هم الذين تردهم التمرة واللقمة ، ويرضيهم اللباس ، وإن طرز بالجواهر . لأن هذا الزمن أدبر إلى غير رجعة ، وقد محيت رموزه من شبه الجزيرة منذ دانت لمبادىء الإسلام ، وعملت بتعاليم رسولها الكريم فى الدين والسياسة «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » .

ولذلك وثب المغيرة وثبة العربى المسلم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله خالق كل شىء ورازقه ، فمن صنع شيئاً فإنما هو بصنعه . وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك ، فنحن نعرفه فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهوله دونكم وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف . فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا به والدنيا دول ، ولم يزل أهل الشدائد يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا إليها ، ولو شكرتم ما آتاكم الله . لكان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغيير الحال ، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل الكفر لكان عظيم ما ابتلينا به مستجلباً من الله رحمة ورأفة علينا ، ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه أو كنتم تعرفوننا به ، إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا : ثم ذكر ما ذكر صاحباه من الإسلام والجزية والقتال وقال إن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم ، فقالوا لا صبر لنا عنه .

فقال رستم : إذن تموتون دونها ، فقال المغيرة : يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم يدخل النار ، ويظفر من بقى منا بمن بقى منكم .

فاستشاط رستم غضباً ثم حلف بالشمس أن لا يرتفع الصبح غداً حتى يقتل جميع العرب .

بيد أن رستم كما أسلفنا كان مضطرب النفس من هؤلاء العرب ، يخشى من حربهم ولقائهم ، حتى لقد قال لأخيه فى بعض المواقف : انى لأقاد إلى هذا الوجه ، وليس لى رغبة فى حرب هؤلاء القوم ، بل إنه كثيراً ما نصح أشراف فارس أن يصالحوا العرب ولكنه عبثاً حاول إقناع قومه . بيد أنه حينما أيقن بأن قومه مصممون على الحرب لم يشأ أن يخسر قومه ، أو يتخلى عن وطنه ، ولذلك قلب للعرب ظهر المجن وصمم على لقائهم وليكن ما يكون .

وعلى الجملة فإن هذا الرجل لقى حتفه على يد أحد الجنود المسلمين ، وانتهت هذه المقارعات باللسان والسنان بهزيمة منكرة لدولة الفرس وانتصار عظيم للدولة الإسلامية . حسبما أبنا آنفاً . يقول سيد أمير على : والآن وقد أصبح سعد حاكماً مدنياً وعسكرياً على العراق ومن ضمنه الجزيرة فقد اتخذ المدائن مقراً لحكمه ، ونزل القصر الملكى كما خصص أجنحته للدوائر الرسمية ، وكان يصلى بالمسلمين صلاة الجمعة فى الإيوان الكبير ، ومن هذا القصر طفق يدير شئون الولاية .

ولكن ما أن انقضت فترة وجيزة حتى رأى المسلمون أنفسهم مضطرين إلى امتشاق الحسام ، إذ أن ملك الفرس المقيم فى حلوان انْفَذ جيشاً كثيفاً لاسترداد المدائن ، فالتقى الفريقان فى « جلولاء » على بعد خمسين ميلا من العاصمة فى شماليها الشرقى ، فدارت بين الفريقين معركة رائعة أسفرت عن هزيمة الفرس وانتصار العرب [١] .

وكانت الجيوش بعد « القادسية » قد تفرقت فى صياصى الجبال حول الدجلة ، وهرب الملك يزدجرد إلى حلوان . وجاءت القبائل المتوطنة فى حوض الدجلة تطلب الدخول فى طاعة المسلمين على الذمة والجزية .

ولذلك أرسل سعد بعض قواده ، واستولى على حلوان ، ففر ملك الفرس وذهب إلى الرى . وعقد العرب معاهدة صلح مع الفرس بعد هزيمة هؤلاء فى « جلولاء » قرب حلوان ، وطَرْدهم يزدجرد من حلوان — كما سبق — كما فتح العرب فى هذه الأثناء مرفأ « الأُبلَة » على شط العرب .

وفى سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م) أنشئت مدينتان جديدتان فى العراق وهما :

---

(١) ص ٢٨ من مختصر تاريخ العرب .

البصرة على شط العرب ، وقد نزلها عرب الشمال وكونوا غالبية سكانها ، والكوفة ، وقد شيدوها على شاطىء الفرات الغربى على ثلاثة أميال من جنوبى « الحيرة » ، وقد استوطنها اليمانيون من عرب الجنوب ، وحلت محل المدائن التى هجرها العرب لسوء مناخها. ومما يذكر أن هاتين المدينتين شيدتا على أساس منظم تخططت فيهما الشوارع والميادين العامة ، وبنى فى وسط كل منهما مسجد جامع ، وسوق فسيحة وحدائق غناء .

وقد ظلت الحياة فى العراق هادئة ردحاً من الزمن ، تفرغوا فيه لإصلاح تلك الولاية الجديدة ، فمسحوا أرضها، وأدخلوا نظاماً جديداً فى تقدير الضرائب فيه تخفيف عن كاهل الفلاحين، كما أصدر أمراً الخليفة بمَنْع بيع الأراضى من أربابها أهل السواد ، وأمر بأن يقرضوا مبالغ من المال يستعينون بها فى إصلاح أراضيهم . . كذلك أمر الخليفة بمصادرة الضياع الملكية وغابات الصيد وأملاك الأمراء ، وكبار الأغنياء الهاربين ، والأوقاف المحبوسة على معابد النار التى هجرها الكهان ووضعها جميعاً تحت إدارة وكلاء جاءوا خصيصاً من المدينة .

وكان الجنود قد طلبوا أن توزع عليهم الأراضى التى فتحوها ، ولكن أمير المؤمنين عمر رفض هذا الطلب رفضاً باتاً ، واكتفى بتوزيع جزء من إيراداتها على العرب الفاتحين (١) .

ولكن هذا الهدوء لم يكن إلا فترة تجهز واستعداد من جانب الفرس طالما بينهم امبراطورهم ينفخ فيهم بغض العرب ، والاستعداد لاسترداد ما أخذوه من الفرس .

---

(١) أنظر سيد أمير على ص ٢٩ .

وفى أواخر سنة ١٧ هـ قام العلاء بن الحضرى والى البحرين بحملة ضد اصطخر، ولم توفق هذه الحملة التى قام بها العلاء إذ أن الفرس تقهقروا أمامها ليخدعوها حتى عبرت البحر بعد أن سدوا عليهم منافذ النجاة وعبثا حاول العرب أن يفلتوا من هذا الفخ الفارسى الذى سببه حب العلاء للفخر ومنافسة قائد القادسية .

ولما بلغت الأخبار عمر سارع بعزل العلاء ، وأرسل عتبة بن غزوان أمير الأبلة ، أن يعمل على تخليص الجيش الإسلامى ، وقد أرسل عتبة حوالى أثنى عشر ألف جندى ، واستطاع أن ينقذ المسلمين من مأزقهم الذى حشرهم فيه أمير البحرين .

كانت حملة العلاء الفاشلة ،سبباً فى ظن الفرس أن المسلمين ،شرعوا يتقهقرون عن بلادهم ، وأن الذين هزموا جيش العلاء من الممكن أن يخرجوا العرب الباقين من أراضى الإمبراطورية .

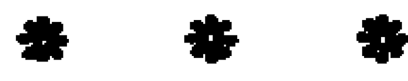
ثم ان عمر كان قد أصدر أوامر مشددة بأن لا يتقدم المسلمون شبراً فى أرض الفرس ، زيادة على الأماكن التى استولوا عليها .

ولهذا أخذ يزدجرد يتجهز فى الرىّ ، ويعد الجيوش لطرد المسلمين ، فكتب سعد أمير العراق إلى عمر بذلك فتردد عمر أول الأمر فأوفد إليه سعد بعض رؤساء الفرق ليقنعوا الخليفة ، بوجوب إزالة رمز الدولة الفارسية الذى لا يكف عن مناوأة المسلمين وكان من كلام بعض أعضاء الوفد لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، إنك نهيتنا عن الإنسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا وإن ملك الفرس حى بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوتنا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه ، وقد رأيت أنّا لم نأخذ شيئا بعد شىء إلا بانبعاثهم وإن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فى الانسياح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته

وعن أمته . فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ، وكان هذا المتكلم الأحنف بن قيس أمير العالية فى العراق ، وطلب عمر الهرمزان الذى أسر آنفا ، واعتنق الإسلام وعاش فى المدينة ، أن يبدى رأيه فى هذه المسألة فأيد الهرمزان كلام الأحنف ، وبذلك أمر عمر بالانسياح فى بلاد الفرس ، ففى سنة ١٧ ﻫ أمر أبا موسى الأشعرى أن يسير من البصرة إلى منقطع ذمة البصرة حتى يأتيه أمره وبعث بفرق متعددة إلى بلاد فارس ، فأرسل الأحنف بن قيس أميراً على فرقة خراسان ، وأسند إلى مجاشع بن مسعود قيادة جيش أردشير وسابور (مدينتين بفارس) وعقد لعثمان ابن أبى العاص لواء فرقة اصطخر .

وكذلك أرسل فرقا أخرى إلى كرمان بقيادة سهيل بن عدى وإلى سجستان بقيادة عاصم بن عمرو ، ومكران للحكم بن عمير التغلبى ونساودار بجرد لسارية ابن زنيم الكنانى .

وبعد أن فصلت الفرق من العراق ، أرسل عمر على أثرها إمدادات كثيرة ، إذ كان هذه المرة عازماً عزماً أكيداً على إزالة ملك الفرس ، وضم بلادهم إلى دولة المسلمين نهائياً .



أما الفرس ، فإنهم عندما علموا بهذا شرعوا يعدون العدة ، فأعلن يزدجرد التعبئة العامة فى جميع بلاد الامبراطورية ، فجاءته الجيوش والمطوعة من حدود الصين ، والمحيط الهندى ومن سائر أنحاء الدولة ، فبلغ جيشه فيما يقال حوالى ١٥٠,٠٠٠ مائة وخمسين ألف مقاتل ، بينما جيش المسلمين لا يصل إلى ثلاثين ألفاً .

ولذلك لما وصلت الأنباء الى الخليفة داخله القلق حتى فكر فى قيادة الجيش بنفسه لولا رأى مجلس الشورى بأن يبقى الخليفة فى العاصمة ويبعث أحداً مكانه فأسند عمر القيادة

الجيش العامة إلى النعمان بن مقرن أمير خوزستان وفاتحها .

وفى نهاوند التقى المسلمون بالفرس وكانت موقعة فاصلة انهزم فيها الفرس،وقتل منهم حوالى ثلاثين ألفاً،بينما كانت خسارة المسلمين قليلة إذا استثنينا القائدالعام الذى خر صريعاً فى ميدان القتال .

قررت موقعة نهاوند فى سنة ١٨ هـ مصير آسيا، وسميت بفتح الفتوح،وفر يزدجر ضاربا فى الآفاق حتى لستقر به المطاف أخيراً وبعد مدة فى مرو ثم انتهى به الحال إلى أن فتك به أحد أتباعه فى قرية قريبة من تركستان ، فى عهد عثمان ابن عفان الخليفة الثالث .

وباندحار هذا الجيش ، وبموت يزدجرد فيما بعد،عنت بلاد الفرس لسلطان المسلمين .

وفى الحال اتخذ الخليفة — كما اتخذ فى الجزيرة من قبل — تدابير فعالة ، لإقرار الفلاحين على حالتهم ، وإنقاذهم من ربقة العبودية وعسف الدهاقين (كبار الملاك)، وأصلح نظام الضرائب وأمر بترميم الجداول وشق الترع، كما أقر الملاك على أراضيهم على أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون.وضمن حرية العبادة وحظر على المسلمين التعرض لدين أهل البلاد الأصليين،وقد أطلق المسلمون على الذين ظلوا على دينهم القديم « أهل الذمة » أو الذميين .

على أن الجزية كانت مما أغرى كثيراً من أهل البلاد على الاعتناق الإسلام ، ولم تكن هذه المبالغ الطفيفة إلا لقاء الإعفاء من الانخراط فى سلك الجندية ، وحماية من يدفعها من أى اعتداء يقع عليه ، ولذلك أخذ الناس يدخلون فى دين الإسلام أفواجا طوعاً لا كرها ، على ما تفعله الدول الحديثة من الأساليب لتغيير عقائد الناس الذين يدخلون فى سلطانهم ، وأقرب الدول الينا فرنسا وايطاليا وما اتبعتاه فى المغرب الإسلامى منذ عهد قريب .

على أن الشريعة الإسلامية قد أمرت بالمؤاخاة بين المسلمين من أى جنس ولون وبين غيرهم ممن اعتنق الإسلام ، وسموا بالمـــوالى تمييزا لهم عن العرب الفاتحين ، وهو اصطلاح أملته التقاليد أكثر من المبادىء ، لأن الإسلام ليس دين العرب وحدهم بل هو دين الإنسانية فى أعلى مثلها ، وأسمى غاياتها ، وأنبل شرائعها.

ولـكن على الرغم من ذلك ، ومن اتباع الحـكام العرب أتم قوانين العدل والمساواة ، والصالح العام ، فإن الكهنة المجوس لم يكفوا عن إقلاق مضاجع الدولة الفتية ، إذ طالما حرضوا السكان الذميين على شق عصا الطاعة على المسلمين وكانت الدولة أحيانا ربما لجأت إلى ضروب من القسوة تحت تأثير الظروف الطارئة . بيد أن السياسة الرشيدة فى عهد الأربعة كانت خالية من هذا النوع من التنكيل بأهل الذمة ، ولـكن قد يكون حدث شىء من ذلك فى عهد الملـكية الأموية ، ومن بعض ولاتها فحسب ، فلما كانت العباسية عاودت سياسة اللين والرحمة التى ســـار عليها خلفاء الإسلام فى أول الأمر ، مع فارق بسيط أملاه التطور ، وتغير الأيام .

وعلى كل حال : فقد استطاع عمر بعد أن ثبت أقدام المسلمين فى البلاد الفارسية ، وإزالة آخر رمز لسيادتها ، أن ينظم شئونها وأن يرفع الظلم عن أهالى البلاد . مما خلده التاريخ بمداد الحمد والثناء ، وأن يجعل جميع الأهالى يقبلون على اعتناق الدين الجديد ، ويتفانون فى سبيل نصرته ، ونشر ثقافته وتعاليمه حتى لقد كان الموالى من الفرس من أعظم العوامل فى النهضة الإسلامية التى أنارت للعالم سبل الحياة فى جميع مناحيها .

وهذا من غير شك ، مما يعزز أن الإسلام ليس دين العرب وحدهم بل دين العالم . وأن صلاحيته فى السياسة والإدارة إلى جانب التشريع والعبادة قد جربت ونجحت أتم نجاح مع شتى الأمم والشعوب والتاريخ خير شهيد وحكم ، فليقرأه من يشاء وليحكم بالحق من أراد .

أما ما نشهده اليوم من هذه الشرازم المهزبلة من رفع رؤوسها وعقائرها بالإشادة بفقه علماء الفرنج وانكبابهم على دراسة مؤلفاتهم مع عزوفهم عن معين الإسلام الصافي وزعمهم أن للدين مدرسة، وللمدنية معاهد وغير ذلك مما يشهده المسلم وهو يتقطع أسى على أبناء الإسلام الذين يدعون البنوة له وهم من أعق الناس وشرهم عليه، فإن هذه العقائر، وتلك الصيحات . ما أملاها إلا ضعف النفوس، والمرض المتأصل في قلوب هؤلاء .

الفصل الثالث

حروب عمر مع الروم

وننتقل بكم إلى صفحة أخرى من سجل الجهاد الإسلامى الذى سطره أبو حفص في الميدان الذى اسميناه «الغربى» مع الروم في الشام وفلسطين وهو الميدان الذى حالف النصر فيه المسلمين حتى ضموا إلى دولتهم بالشام، وفلسطين، ثم الأردن، والعريش، ووادى النيل (مصر) ثم مدوا فتوحاتهم إلى المغرب الأقصى. فأسبانيا. وفتحوا جزر البحر الأبيض، وجعلوه بحيرة إسلامية وأصبحت مآذن التوحيد. وشهادة الإسلام. ورسالة محمد ينادى بها فى البر والبحر، من حدود الصين إلى جنوبى أفريقية ومن الهند إلى المحيط الأطلانطى. وذلك فى العصور التالية لعمر وسنحاول أن نوجز صورة من حروب الميدان الآنف الذكر في عهد عمر.

ففى جمادى الأولى من سنة ١٣ هـ (٣١ يولية ٦٢٤ م) توفى أبو بكر، وخلفه عمر، وكان قائد الميدان الغربى خالد بن الوليد الذى انتقل من الميدان الشرقى وتسلم القيادة فى حرب الروم بأمر الخليفة أبى بكر وكان تحت إمرته من قواد الفرق: أبو عبيدة بن الجراح ثم عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان يساعده أخوه معاوية بن أبى سفيان ثم شرحبيل بن حسنة.

على أن وفاة أبى بكر لم تحدث تغييرا يذكر فى السياسة العامة فإن عمر كان مطلعاً على جميع شئون الدولة فى عهده، وكان موافقاً على كافة الأمور التى اتبعها سلفه فيما عدا قيادة خالد بن الوليد، فإن عمر كان له رأى أبداه علناً أمام

أبى بكر ، حتى ان أبا بكر لما أوصى عمر فى أخريات حياته لم يلزمه بإبقاء خالد أميراً ؛ بل إنه أمره بأن يرد جيش خالد إلى الميدان الشرقى . ولم يعرج على ذكر خالد بحرف من كلمة ، مراعاة لشعور عمر الذى كان يميل أبو بكر إلى رأيه — فى هذه المسألة — لولا أنه كان لا يريد أن يخطىء قائد جند أمام جنوده إبان المعركة كما أنه كان ينصح الأمراء بما لا يجعلهم ينفرون منه.وهى فى رأينا السياسة لا ما كان يرى عمر فى تلك المسألة حسبما روى .

ولذلك فإنه ما كاد عمر يبايع له حتى أرسل إلى أبى عبيدة كتاباً بتوليته القيادة العامة وعزل خالد ، وعدم توليته قيادة أية فرقة ولو صغرت .

ولما وصل الرسول بالكتاب وجد المعركة مستمرة بين الروم و بين المسلمين، فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى أبى عبيدة ، ولم يذعه لئلا تضعف به قوة الجنود، ثم وضع الكتاب فى كنانته حتى انتهت الموقعة ، بذلك النصر ، فسلم الكتاب إلى أبى عبيدة . وسلم عليه بالامارة ومما يؤثر عن خالد فى ذلك اليوم قوله : « الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت ، وكان أحب إلى من عمر ، والحمد لله الذى ولى عمر ، وكان أبغض إلى من أبى بكر ، ثم الزمنى حبه » (١) .

تولى إمارة الجيش أبو عبيدة بن الجراح . . بعد انتصار المسلمين فى موقعة «اليرموك» مباشرة . ولم يشأ أن يذل نفس خالد فيجعله جنديا عاديا ؛ بل أنه قدر فيه رئيسه السابق.وواضع خطة الانتصار فى أكبر موقعة خاضها المسلمون حتى اليوم مع الروم بل انه جعله على مقدمته و بعد أن انتهت الموقعة « اليرموك » ودفن القتلى ووزعت الغنائم والإسلاب . زحف أبو عبيدة إلى بيسان حيث تجمعت فلول الجيش البيزنطى لصد المسلمين عن التقدم نحو الشمال بيد أن خالداً أفسد عليهم خطتهم

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية جـ ٢ ص ١٩٣ — ١٩٤

وأرغمهم على مغادرة بيسان حيث تحصنوا بمكان اسمه « فحل » فاتبعهم خالد وحصرهم واستطاع أن يرغمهم على التسليم بعد فترة وجيزة .

وفى ذى القعدة من سنة ١٣ هـ سار خالد نحو دمشق لحصارها . وعلى مسافة قليلة منها عسكر انتظاراً لأوامر دار الخلافة .

وفى شهر المحرم من سنة ١٤ هـ وصل خالد إلى دمشق وألقى عليها الحصار وكان يعاونه أبو عبيدة وعمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل ، وكل منهم على ناحية من أسوار دمشق المنيعة وقد وصلت الأنباء إلى هرقل ، فأرسل فرقة الفرسان لإنجادها فصدتها خيول المسلمين عند حمص ، وكان أبو عبيدة قد فرق جيشه إلى فرق وعين لها مراكز تمتدمن فحل إلى حمص شمالا وفيما بين ذلك كانت الجنود موزعة على مراكز وكائن — فما كادت جيوش هرقل تغادر حمص ، حتى أوقع بها جند المسلمين ، وهزموها شر هزيمة ، فولت لا تلوى على شىء .

ولما اشتد الحصار على أهل دمشق ، طلبوا الصلح فصالحهم أبو عبيدة والقواد الآخرون ، عدا خالداً . فإنه كان قد سبقهم إلى دمشق عنوة ، فقتل وأسر وغنم ، ولذلك كان فتح الناحية التى دخل منها خالد عنوة ، وبقية نواحى دمشق فتحت صلحاً .

وبعد فتح دمشق ، صرف ابو عبيدة فرقة خالد إلى العراق ، وأمر عليهم هاشم بن عتبة واستبقى خالداً معه وأمره على مقدمة جنده ثم استخلف يزيد بن أبى سفيان على دمشق الذى مد فتوحه إلى نواحى دمشق ، فاستطاع أن يضم إلى ولايته مدن صيدا وعرقة ، وجبيل ، وبيروت وكان على مقدمة يزيد أخوه معاوية [1] .

---

(١) ابن الأثير والخضرى .

كذلك أرسل أبو عبيدة ، شرحبيل ومن معه إلى بيسان ، فضمها صلحاً ، كما ضم بعض قوادأبى عبيدة مدينة «طبرية» ونزل أهلها على حكم المسلمين فجعلوهم كأهل دمشق .

وفيما كان ابو عبيدة يستولى على القسم الأكبر من سوريا الشمالية كان عمرو ابن العاص ، يحرز فى فلسطين النصر تلو النصر . أما الحاكم الرومانى المسمى «ارطبون» فكان قد حشد جيشاً كبيراً للدفاع عنها ، كما عزز ، فى الوقت نفسه حاميات القدس وغزة والرملة ، ونزل ميدان القتال بنفسه فى أجنادين إحدى القرى الواقعة شرقى القدس (إيليا) الواقعة بين الرملة وبين بيت جبرين من أعمال فلسطين [١] .

ولكن لم يمض قليل وقت حتى زحف قواد العرب إليهم وكان القتال الذى حمى وطيسه حتى كاديفوق اليرموك ، وقد بذل عمرو جهداً جبارا فى هذه المعركة ، إذ أحكم رسم الخطط وسبرغور عبقربته الشهيرة فى الدهاء والخداع ، ضد عدو شديد المراس حتى استطاع أن يظفر بذلك النصر ، الذى قضى على الدولة البيزنطية إلى الأبد فى الشرق الأدنى ، وشواطىء آسيا الغربية على بحر الروم (البحر الأبيض) .

ومما يذكر عن عمرو ، أنه بعد أن عسكر بجيشه قبالة أرطبون قائد الروم ، وطالت المدة ، ولم يستطع أن يستدرج الروم إلى القتال ، سار بنفسه إلى أرطبون فى هيئة رسول لعمرو ، فدخل عليه ، وأبلغه ما أراد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد ، فيقال انأرطبون فطن به . وقال لاشك أن هذا هو الأمير أو من يأخذ الأمير برأيه ، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله . ثم أمر

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٦٨ .

إنساناً أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مر به ، ففطن عمرو لفعله . فقال له : قد سمعت مني وسمعت منك ، وقد وقع قولك مني موقعاً ، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر ابن الخطاب ، إلى هذا الوالى لنكاتفه ويشهدنا أموره ، فارجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا الذى عرضت على الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم ، وكنت على رأس أمرك . فقال أرطبون نعم ، ورد الرجل الذى أمره بقتله : وقال لعمرو انطلق وجىء بأصحابك فخرج عمرو من عنده ، ورأى أن لا يعود إلى مثلها وعلم الرومى أنها خدعة خدع بها ، فقال : خدعنى الرجل . هذا أدهى الخلق[1] .

ويقال إن هذه الحادثة بلغت عمر بن الخطاب . فقال : لله در عمرو .

وقد كان هذا الأسلوب من عمرو فى حروبه ، من أهم العوامل التى أحرز بها النصر إذ استطاع فى مثل هذه المغامرة الناجحة أن يعلم رأى قائد الروم ، وأن يشهد بنفسه العدد والعُدَد التى ستقابل جنده بعد قليل .

وكان ذلك النصر فى سنة ١٥ هـ فى أصح الروايات .

وكان من نتائج هذا الانتصار فى اجنادين ، تسليم عدة مدن مهمة فى دولة الروم ، مثل نابلس ويافا وعسقلان وغزة والرملة وعكا كما أسلفنا .

وكان فى القدس (ايليا) حامية قوية قاومت مدة طويلة ثم أعلن بطريقها رغبته فى الصلح ، على أن يسلم المدينة للخليفة نفسه ، وعندئذ سار أمير المؤمنين فى غير ما تردد إلى الشام لا يصحبه غير خادم واحد ، وكان فى استقباله فى الجابية

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٤٧ .

وفد من أهل دمشق ، فأعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم على أن يدفعوا الجزية. ومن ثم شخص مع الوفد إلى القدس ، فاستقبله على أبوابها البطريق «صفرونيوس» فدخلها الاثنان وهما يتحادثان ، ويقال : إن الخليفة امتنع عن الصلاة فى كنيسة القيامة التى اتفق وجوده فيها وقت الصلاة ، فصلى على إحدى درجاتها ، وقد قال الخليفة فى ذلك : إنه لو صلى فى فنائها لنقض المسلمون العهد فى المستقبل بحجة الاقتداء به فى الصلاة .

ثم منح وفد الرملة شروطاً كالتى منحها لوفد القدس . أما اليهود الذين كانوا قد ساعدوا المسلمين على الفتح ، فقد أقرهم على أملاكهم وأعفاهم من الضرائب.

وعندما شقت القبائل الأرمنية والكردية عصا الطاعة أرسل إليهم الخليفة قوة كبيرة ، فأنزلت بهم أشد أنواع العقاب — أما هرقل فإنه ظفر بعقد اتفاق مع المدن الكبرى التى لم تكن قد أذعنت بعد بالتسليم للعرب . ولكن الخليفة عندما علم بهذا أنفذ إليهم جيشاً كبيرا لقتالهم .

وفى هذه الأثناء أخذ هرقل يحاول المحاولة الأخيرة فى معركة حاسمة ضد العرب ولذلك أعلن التعبئة العامة فى جميع أقاليم الإمبراطورية ، وقد جاءته الجيوش تترى من مصر والأناضول ، وأرمينية وليبيا وغيرها ، وبلغ جيشه من المقاتلة حوالى ١٦٠ مائة وستين ألف مقاتل بينما جنود الإسلام لا يبلغون الأربعين ألفاً تنقصهم أسلحة الروم ، واستعداداتهم ، ولكن لهم قلوباً ، تكن فيها إيماناً قوياً ، وثقة بالنصر والظفر .

ولهذا فما كاد الروم يغيرون على أرض فلسطين ، ويستولون على بعض مدنها وقراها حتى وصلت الأنباء إلى القيادة الإسلامية فى الشام ، فأصدرت أمرا إلى جميع الفرق بالاستعداد للقاء العدو .

ونشب القتال فى فلسطين ، وانتصر العرب على الروم وأخرجوهم نهائياً من أرض الشام ، والأرض المقدسة ، ويئس هرقل نهائياً من استرداد هذه البلاد ، ولذلك عزم على الرحيل من انطاكية التى أصبح العرب قاب قوسين منها إلا أنه أراد أن يودع كبار المسيحية وأعوانه الوداع الأخير فجمع كبار قومه فى حفل حافل فى كنيسة انطاكية يستشيرهم فيما يعمل — ولـكنه فى هذا الوقت ، كان كأن عقله قد فلج .

ثم عرض للبحث فى أمر هؤلاء العرب الذين أغاروا على بلاد الامبراطورية ولم ينحسر مدهم بعد ، مما جعله يوقن بأن المسألة ليست اغارة كأخواتها السابقة حين كان هؤلاء الأعراب ، يغيرون فيردهم بحفنة من فتات المائدة ، أو دريهمات من ضرب الدولة الرومانية الـكبرى بل هم فى هذه المرة غزاة فاتحون ، مصممون على نشر مبادىء جديدة لم يعهدها الروم من قبل .

فهذه ألقاب جديدة تغدق على قواد الحملة ، وهؤلاء صنف جديد من العرب لم يعرف من قبل ، وهذه فنون عسكرية لم تسبر الدولة الرومانية العظمى غورها بعد .

ليس القوم إذن طلاب دنيا فضلا عن زاد أو ملبس ، ولاهم دعاة جاه أو نفوذ فلباسهم الخرق الممزقة ، بل إنهم ليفخرون بهذا الطراز من اللباس ويتشدقون بهذا اللون من الحياة البسيطة ، إن التغلب على هؤلاء ضرب من المستحيل بل هو المستحيل بعينه .

لقد تواطأ رسلهم جميعاً على كلمات ثلاث ، لم يشذ واحد عنها ، ولم يحور فيها ، ولم يبدل من صرامتها .

كلهم يقول : الإسلام أو الجزية أو المناجزة : أى بلاء ذلك الذى نزل

بالإمبراطورية العظمى .. ؟ إن ذكر القوم : مجرد ذكر أسمائهم سيف الله أمين الأمة ـ أبو حفص ـ الصديق ليلقى الرعب فى أشجع الروم قلباً ، فما بالك بجند لا جامعة بينهم ، ولا هدف لهم ، جند الإمبراطورية كلهم مرتزقة مأجورون ، ما يكاد الواحد منهم يعرض عليه الدفاع عن شرفها حتى يساوم : بكم قرش هذا الدفاع ، وإذا انتصر فكم دينارا يمنح . تلك غاية الجند ، وهدف الضباط .

ما أمَرَّ الحياة فى هذه البلاد،فلنغادرها ، ولنحاول تحصين مصر ، فلعل فيها عوضاً لنا من فقد الشام وأرض القداسة .

* * *

ما نخال هرقل إلا وقد دار بخلده كل هذا . . . بيد أن شيخاً كبيراً لم يدعه يطيل التفكير ، بل قام وأخذ يبدى أسفه على الموقف الذى وصل إليه الإمبراطور ، والإمبراطورية بأسرها ، قال ذلك الشيخ:إن الروم يعذبون اليوم لعصيانهم كتاب الله وتطاحنهم فيما بينهم وتخاذلهم ، ولما يرتكبون من الربا والقسوة ،وكان عليهم أن يؤخذوا بذنوبهم .

كان قول ذلك الشيخ فصل الخطاب،فأحس الإمبراطور بضعف الجسم ووهن العقل ، ورأى الحظ يتعثر به وعرف أن مقامه بالشام قد أصبح لاغناء فيه ، فرحل عنها إلى القسطنطينية فى البحر فى شهر سبتمبر من سنة ٦٣٦م وقال إذ هو راحل : وداعا يا بلاد الشام ، وداعا ما أطول أمده .

ويقال إن هرقل استطاع أيضاً أن يحمل معه الصليب الأعظم وبقية مخلفات المسيحية ، حيث وصل إلى خلقيدونية وإذ كان يقيم فى قصر إلى جوارها ؛

ثم سار بعد فترة إلى بيزنطة حيث أودع هذه المقدسات النصرانية كنيسة أياصوفيا . وبذلك ختمت صفحة الروم فى الشام إلى الأبد .

ولكن هل يقنع العرب بالشام ، وهل يظلون هدفا لهؤلاء الروم المتاخمين فى وادى النيل الذى احتلوه فى غفلة من أهله ، وضعف من سكانه وظلموا فيه وبغوا . . ذلك ما سنتحدث عنه فيما يلى .

الفصل الرابع

فتح مصر

بعد أن سلم البطريق (صفرونيوس) مدينة بيت المقدس ، سار ابن الخطاب أمير المؤمنين وعمرو بن العاص القائد وذهبا نحو الشمال ، وقد أنفذ الخليفة عمرو ابن العاص ممداً للجيش المحاصر لقيصرية .

أما الخليفة فقد أقام فى دمشق . ولعل عمراً قد أفضى إليه برأيه فى فتح مصر مذ كانا فى بيت المقدس ، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك لم يحن بعد . فلما ظهر العرب وانتهت الحرب أو كادت ، عاد عمرو إلى عرض رأيه . وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى ، وما كان عليه فتحها من السهولة وقال أنه ليس فى البلاد ما هو أقل منها قوة ولا أعظم منها غنى وثروة ثم قال: ان حاكم الروم على بيت المقدس — وكان قد هرب من المدينة قبل تسليمها — قد لاذ بمصر وإنه أخذ يجمع فيها جنود الروم وان العرب ينبغى أن لا يتركوا الوقت يضيع سدى ، بل يجب أن يأخذوا على يد الحاكم الرومانى قبل أن يشتد خطره . على أن مصر ستكون بعد فتحها قوة للسلمين ، وظهراً لهم يستمتعون بغناها ويخصبون بخيراتها .

وإن من المؤكد أن هذا الكلام من عمرو فى الاجتماع الذى عقد بالجابية فى سنة ٦٣٦ م صادف هوى من عمر ، ولكنه كان يقدر المصاعب التى قد تتعرض لها حملة تقصد أرض الكنانة وفيها جيش قوى من جنود الروم المجهزين الكثيرى العدد ، ولكن الغارات المتوالية التى أخذ الروم يشنونها على أملاك

المسلمين بالشام كانت تستدعى الجد والتفكير فى وضع حد لهذه الإستفزازات المتكررة وهل من الممكن أن يبقى المسلمون بجوار الروم ويعتدى هؤلاء على اراضيهم ثم يقفون مكتوفى الأيدى لايبالون بصنيعهم ولا يقابلون الإعتداء بالمثل ، فتسقط هيبتهم من نفوس الروم ولهـــذا كان الخليفة يتنازعه عاملان عامل السلامة والاحتفاظ بالجيوش الإسلامية ريثما تستجم وتتجهز وعامل الدفاع عن كرامة الدولة ، وتأمين ممتلـــكاتها فى الشام وفلسطين ، وطرد الروم نهائيا من أرض العروبة التى احتلوها بقوة السلاح. ومصر والشام كل لاينفصل ، فلا بد من حرب الروم .

ولقد رأى عمر أن فتح مصر فيه خير للمسلمين ، ولـكن ظن أن عمرا يقلل من الصعوبات التى قد تعترضه فى فتحها . وكان عمر فى ذلك الحين لا يمكنه أن ينقص جند الشام فيقتطع منه جُزءاً يسير إلى مصر . وقيصرية لاتزال صامدة للحصار ، ويتزعم المقاومة فيها ابن الامبراطور .

على أن عمرا استطاع أن يفتح قيصرية وأن يرغم نجل الإمبراطور على الفرار [1] ، وحينئذ عاود الحديث مع الخليفة فى فتح مصر ، ورجاه أن يصرح له بجيش لايزيد عن أربعة آلاف رجل فوعده أمير المؤمنين أن يفـكر فى المسألة.

إستشار الخليفة مجلس شوراه ، فأوصى بالحذر والأناة وعدم الجرى وراء عمرو بل وينبغى لفته الى المتاعب التى تلحق المسلمين من فتح مصر .

غير أن الخليفة كان راغبا فى فتح مصر وإنما تردد بسبب الظروف التى أشرنا اليها ولذلك أذن لعمرو فى المسير إلى مصر على أن يرجع إن وصله كتاب منه قبل.

(١) مختصر تاريخ العرب . ويروى البلاذرى أن فتح مصر كان وقيصرية محاصرة ، ولـكن الراجح فى رأينا ما أثبتناه هنا .

أن يدخل الحدود و إلا فليسر على بركة الله تعالى . فسار عمرو بن العاص فى الليل بجيشه الصغير ، ولم يصادفه حادث ما فى مسيره حتى صار على الحدود بين فلسطين ومصر . وفى رفح على مرحلة من العريش من أعمال مصر ، أبصر عمرو رسلا تسرع على أفراسها إليه تحمل رسالة الخليفة ، فأخذ عمرو يجد فى السير ليصل إلى الأراضى المصرية ، وظفر فعلا بأمنيته . فقد وصلته الرسالة وهو فى العريش ففضها فإذا فيها : إنه إذا كان عمرو وقت تسلمه الرسالة مازال فى حدود فلسطين فليعد من حيث أتى وإن كان قد دخل أرض مصر فليسر ، وعمر مستعد لإمداده بما يحتاج إليه فاطمأن عمرو بعد أن جعل الجنود يشهدون أمام الرسل بأنهم فى أرض مصر فعلا ثم قال لهم : إذن نسير فى سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين .

ويحدثنا الدكتور بتلر عن سبب تردد عمر بن الخطاب أخيراً بأن عثمان كلم الخليفة فى عمرو بن العاص، وأنه رجل مغامر فيه جراءة وتهور ، وأنه لابد مقتحم بالناس المخاطر ، ورام بهم إلى الهلكة ، فخشى عمر خشية عظيمة وعول على أن يأمر عمرو بن العاص بالرجوع إذا كان ذلك ممكنا ولكنه أحس أن جيش العرب إذا دخل مصر كانت عودته عنها خذلانا وسبة للمسلمين ويكون ذلك بمثابة الفرار من العدو ، وعلى ذلك أرسل كتابه وتقدم فيه إلى عمرو بما سبق (١) .

ومهما يكن من شىء . فقد وصل عمرو إلى حدود مصر بجيشه البالغ أربعة آلاف فارس كما ذكرنا ، وسار حتى وصل الفرما . تلك المدينة التى تعد مفتاح مصر من شماليها الشرقى ، وقد اشتبكت حاميتها مع فرقة عمرو الصغيرة ،ولكن جنود عمرو هزموا حامية المدينة واستولو عليها دون كبير عناء وبذلك أصبح فى يد عمرو معقل يؤمن خط رجعته ومواصلاته إذا نزلت به هزيمة فى المستقبل ولخطورة

---

(١) فتح العرب ص ١٤٨

المهمة التى ستواجهه بعد فتح الفرما فإنه عمد إلى أسوار المدينة وحصونها فهدمها وخربها ليمنع انتفاع الروم بها فى التطورات المقبلة المحتملة .

على أن الروم لم يتحركوا عندما وصلتهم أنباء (الفرما) معتمدين على حامية المدينة فى الذود عنها وقد مضى أسبوعان من بدء حصار المسلمين لها. والرومان لا يبدون أى شىء يشعر باهتمامهم بها .

وحوالى ١٥ من شهر محرم سنة ١٩ هـ (١٧ يناير سنة ٦٤٠ م) سار عمرو فى داخل الأراضى المصرية حتى وصل إلى مدينة (مجدول) إلى الجنوب الغربى من الفرما واستولى عليها ، ثم ترك فيها حامية صغيرة واتجه صوب القنطرة فالسويس وفى التل الكبير هزم الروم الذين ناوشوه بها واستولى على ذلك الموضع ، ثم واصل عمرو سيره حتى بلبيس فحصرها قرابة شهر ثم فتحها وأبقى بها حامية صغيرة من جنده .

وهكذا ظل عمرو يسير حتى وصل إلى هليوبوليس حيث فتح أم دنين واحتلها وعسكر فيها ، وكانت شمالى حصن بابليون ، وموضعها الآن حديقة الأزبكية ، ولما علم الروم بجد العرب فى الفتح وتملك البلاد هب المقوقس نائب الامبراطور وتيودور رئيس الجيش وشرعا فى تجهيز جيش كبير لملاقاة العرب واستطاعا أن يجمعا عددا كبيرا من جند الروم ومتطوعة القبط وبهذا عزما على لقاء العرب بقيادة عمرو بن العاص ، وقد تحصن الروم فى بابليون « حصنهم الشهير » فى جنوبى أم دنين فرأى عمرو ، إزاء هذا التجهز من الروم ، أن يطلب مددا من المدينة وقد أرسل إلى الخليفة بذلك ، فوعده بأنه سيرسل إليه ما يريد من الجند والسلاح .

على أن عمرا أصبح على شىء من القوة باستيلائه على الفرما ، ثم على أم

دنين المجاورة لمعسكر الروم ، وفى الوقت نفسه رأى من جبن الروم عن لقائه ما جعله يقف موقف المتأنى فى هيبة وبأس .

ومما يذكر أن عمراً استطاع أثناء مقامه فى أم دنين الواقعة على ضفاف النهر أن يستولى على بعض السفن من الروم ، ليعبر بها إلى الشاطىء الغربى حيث اتجه جنوبا نحو منفيس عاصمة مصر القديمة ، فألقى الرعب فى نفس الجيش المتحصن بالحصن ، كما استطاع أن يتصل ببعض أهالى البلاد ويعرف نواياهم نحو العرب ، كما اتصل بكبار القبط المسيحيين وكسب ودهم ومساعدتهم من قبل — فى أغلب الظن — حينما وصل إلى الفرما تلك المدينة التى كانت عامرة بالكنائس والقساوسة من رجال القبط المسيحيين .

كانت الفرما إذن مدينة عظيمة ومهمة إذ منها يبدأ سور مصر العظيم الذى بناه المصريون فى غابر الزمن ، وهو الذى سماه العرب (سور العجوز) وقد تهدم معظم هذا السور وقت مجىء عمرو إلى مصر ، ولم يبق منه إلا النذر من جدرانه .

ولقد ظل عمرو بكتيبته الصغيرة مرابطا على الحدود طول أيام عيد الأضحى من سنة ١٨ هـ (١٢ دتسمبر سنة ٦٣٩ م) حتى تمكن من فتح الفرما والسير إلى أم دنين وتهديد « بابليون » كما أسلفنا .

لم يكن لدى العرب الذين جاءوا مع عمرو شىء من عدة الحصار الحديثة ، ولم يكن لهم علم بطرقه ، وما كانوا ليملكوا مدينة إلا بالمهاجمة وفتح الأبواب ، أو بالصبر إلى أن يضطر العدو الجوع والضيق ، أن ينزل اليهم ، وقد ملك العرب جميع الأماكن التى استولوا عليها من الفرما إلى أم دنين ، بهذه الوسيلة الساذجة التى كانت فى عصرهم

أما حاكم مصر الرومانى « قيرس » فانه عندما علم بخطر العرب ، واقتطاعهم أجزاء مهمة من ولايته سارع إلى جمع جنوده وعسكر فى « بابليون » وأخذ يتجهز للقائهم لحفر الخنادق حول الحصن ، وأقام الأسوار حول المدائن المهمة

وخصوصاً الاسكندرية عاصمة وادى النيل حينئذ ..

وبذلك تأهب قيروس، فى الجنوب والشمال للدفاع عن وادى النيل (مصر).

أما عمرو فقد توقف فى «أم دنين» قليلا منتظراً المدد من الخليفة بالمدينة ..
وقد سارع الخليفة بإمداده وفى أثناء انتظار الامداد، لم يكف عمرو عن مناوشة الروم ، بل انه ، كما أشرنا عبر النهر وسار نحو الجنوب حتى بلغ ممفيس (عاصمة مصر قديما) وشاهد مساكن الملوك ، ورأى الأهرام البلسقة فى الجانب الغربى للنيل ، وبجوارها عاصمة مصر ، وإلى الشاطىء الشرقى صروح الحصن الرومانى (بابليون) ثم اتجه جنوبا على سفح الأهرام ، حتى وصل إلى حدود الفيوم وكان حاكمها (دومنتياس) محافظ المدينة ، أما حاكم الإقليم فكان اسمه (تيودوسيوس) وكلاهما رومانى .

ولما رأى حاكم الفيوم ، أن العرب يريدون أخذ بلادهم ، سارع الى الدفاع عنها ، ولكن بعد فوات الوقت ، إذ سد عليهم عمرو بفرقته الصغيرة ، منافذ النجاة ، ففر الرومان إلى حصن بابليون تاركين أمر الدفاع الى الأهالى ، فقام (حنّا) النقيوسى قائد كتيبه الخفراء ، وحنا الماروسى مساعده بلقاء العرب ، وقد حاول هذان المصريان أن يعرقلا سير العرب نحو الجنوب فعدل العرب الى الصحراء الغربية وواصلوا سيرهم ، مستولين على كل ما صادفهم من السوائم ..
وظلوا سائرين حتى وصلوا الى البهنسا ففتحوها عنوة ، وقد استطاع عمرو أن يقضى على كتيبة حنا الماروسى الذى كان يتتبع العرب منذ كانوا فى سفح الأهرام ، والآن ظفر به ونكل بفرقته من المغامرين ، وكان ذلك فى بلدة بويط أو أبويط من أعمال البهنسا فى أرجح الروايات[1]

---

(١) أنظر بتلر ص ١٩٧

كان أول سير عمرو إلى الفيوم حوالى شهر مايو من سنة ٦٤٠ ميلادية، وقد قضى فى غزوته بضعة أسابيع أضاعها الروم ضياعا حتى انهم خسروا خسارة كبرى، وغنم العرب فيها مغانم كثيرة؛ وبعد ذلك بحوالى شهر وصلت الأمداد التى بعث بها الخليفة إلى عمرو، وكان أولها بقيادة الزبير بن العوام وتبلغ كتيبته حوالى الأربعة آلاف مقاتل، ثم كتيبتان أخريان يبلغ عددهما ثمانية آلاف وبذلك أصبح عدد الجنود العرب حوالى ستة عشر ألفاً إلا قليلا، وبهذا العدد إلتقى عمرو وهو القائد العام للجيش العربى بجنود الروم بقيادة قيرس (المقوقس) حاكم مصر الرومانى، وبطبيعة الحال كان تحت امرته قواد فرق يأتمرون بأمره سجل منهم الدكتور بتلر. تيودوروأنستاسيوس وتيمودوسيوس وغيرهم مما لاضرورة لذكره، وعلم الروم أن هذا الجيش انما يهدف الى انتزاع هذه الولاية الغنية من امبراطوريتهم، ولذلك تربصوا بهم قبل أن يفيض النيل لتكون بينهم وبين العرب موقعة فاصلة على أرض ثابتة ولكنهم رغم كثرتهم عجزوا عن القيام بأى عمل يذكر ضد العرب..

لقد أستطاع عمرو فى أقصر فترة أن يملك مدنا وأراضى عظيمة فى وادى النيل قبل أن تصل اليه الامداد من المدينة، فهذه الفرما وبلبيس وأم دنين ومنفيس والأهرام والفيوم والبهنسا وبويط من أعمالها، وما بين العريش والبهنسا تحت قبضة العرب، فلما جاءت الأمداد وبلغ جيش العرب أربعة أمثاله لم يكن من المستطاع على الرومان أن يصمدوا لهذا الجيش، وقد عجزوا أن يصدوا أقل من ثلث عدده من قبل.

وإذ لم يكن بد من المناجزة فقد التقى العرب بالروم فى مواقع تعتبر حاسمة من أهمها موقعة عين شمس (هليوبولس) ثم أخيراً حصار حصن بابليون الذى

تجمع فيه الجيش الرومانى ولم يستطع أن يظهر بأنفه للعرب على أثر موقعة عين شمس (هليوبولس) .

ولذلك رأى المقوقس (قيرُس)أن المسألة قد أصبحت فى غاية الحرج،إذ أصبح العرب سادة البر ، وهم المسيطرون على النيل ..

وحوالى شهر سبتمبر من سنة ٦٤٠ م .. بدأ حصار حصن بابليون . وقد ضيق عليه عمرو الحصار حتى اشتد الحال على الروم الموجودين فيه ، ولا خلاف بين المؤرخين أن قيرس (المقوقس) كان فى الحصن عند بدء الحصار ، كذلك تيودور قائد الرومان المشهور ، ولعل الرجلين قد فزا بعد موقعة هليوبولس ، وعاذا بهذا الحصن المنيع ، وكان فى الحصن غير قيرس حاكم مصر . وجورج والأعيرج قائد الجند،وكثير من أهالى مدينة مصر والأديرة المجاورة،والتى كانت منتشرة شرقى الحصن تلك البقعة التى كانت عامره بالنخيل والأعناب ..

لقد ظل المقوقس ومن يحيط به فى بلبليون آمنين على أنفسهم فترة غير قليلة ، وكانت مجانيقهم التى لا تكف عن رمى العرب ، قد جعلت هؤلاء ينفد صبرهم ، فيمطرون أهل الحصن وابلا من مجانيقهم وسهامهم،حتى أيقن الروم أن لابد لهم من التسليم يوماً للعرب وأخيراً اتفقت كلمة الروم،على أن يفاوضوا العرب فى بذل جزء من المال لهم ، ويرجعوا عنهم،وأن يكون الوفد برئاسة قيرس (المقوقس) حاكم مصر .

وفعلا فتح الباب الحديدى المؤدى إلى النهر ،واستقل الوفد السفن،وعبروا إلى جزيرة الروضة ،فلما بلغها أرسل إلى عمرو جماعة على رأسهم أسقف بلبليون، فلقيهم عمرو وأكرم وفادتهم . فأدوا رسالتهم فقالوا :

« إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد اظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ماتحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم »(١) .

ولكن عمرا لم يبعث جواب ما أرسلوا من أجله ، وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين ، وصرح لهم بالسير فى معسكر المسلمين ، ثم بعث بكتاب مع الرسل إلى المقوقس قال فيه « ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال . إما أن دخلتم الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين » .

على أن المقوقس قد خرج عندما رأى الرسل قد عادوا ، بعد حبسهم عنه ، مما جعله يظن أن عمراً قد قتلهم . فلما لقيه الرسل سألهم عن حال القوم ، فقالوا « رأينا قوماً . الموت أحب الى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولانهمة انما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم . ما يعرف رفعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لا يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » . وقد رأى قيرس أن القوم — وهذه نعوتهم — لا تصلح معهم المداورة ولا تقوى الروم لهؤلاء على المناجزة ولذلك

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٢٣ .

أخذ يستعد لمصالحة العرب ، فأرسل إلى عمرو أن يبعث إليه جماعة من ذوى الرأى ليفاوضهم فى مسألة الصلح ، فبعث عمرو عشرة نفر . أحدهم عبادة بن الصامت

وكان عبادة أسود شديد السواد ، وأمره أن يتكلم عن القوم وأن لا يجيب الروم عن شيء يدعونه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث . وذهب الرسل إلى المقوقس ، فلما دخل عبادة عليه هابه وارتعدت فرائصه ، ثم قال : « نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى » فقال العرب جميعاً : « ان هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم فينا ، وانما نرجع جميعاً الى رأيه وقوله ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . ثم قالوا : « إن الأسود والأبيض سواء عندنا ، لا يفضل أحد أحداً الا بالتقوى » . فقال المقوقس — فى كثير من الرهبة — لعبادة : « تكلم برفق ولا تزعجنى » فقال عبادة رضى الله عنه : « إن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً منى ، وانى ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى . وذلك انما رغبتنا وهمتنا فى الجهاد فى الله ، واتباع رضوانه — وليس غزونا لعدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ، ولا طلب للاستكثار منها — لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها . لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء . انما النعيم والرخاء فى الآخرة » .

وبهذا الكلام البين أثر عبادة فى نفس المقوقس . فالتفت هذا لأصحابه وقال لهم :

« هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل . ان هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض » . ثم أقبل على عبادة فقال : « أيها الرجل الصالح . قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من

جمع الروم مالا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ، لا يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم ، على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم » .

ومع أن هذا الكلام لم يكن غريباً فحسب من حاكم مسئول لأعظم امبراطورية فى ذلك على مصر ، فإنه — فى نفس الوقت ـ مدهش غاية الدهشة ، بعد أن رأى قوة المسلمين لا فى الشام ، بل فى مصر نفسها ، ثم سمع عبادة يتكلم لا مبلغاً لرسالة فقط ، ولكن كداعية مبادىء ، وواعظ قوم لم تعظهم الأيام . ولندع عبادة رضى الله عنه يرد على هذا المقوقس المتغابى عن الحوادث ، بل عن الحق . قال عبادة رضى الله عنه :

« يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وانا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما كان هذا بالذى تخوفنا به. وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه . إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وماشىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك،وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين ، إما أن تعظم لنا بذلك الغنيمة فى الدنيا إن ظفرنا بكم ، أوغنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال فى كتابه:(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يرده إلى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده ، وانما همنا ما أمامنا ، فانظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث فاختر أيتها شئت. ولا تطمع نفسك فى الباطل. بذلك أمرنى

الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل الينا . فحاول قيرس أن يستنزله عن شيء من الخصال الثلاث ، فلم يفلح ، فبين له عبادة أنهم لا يملكون التبديل والتعديل ، لأنه وسائر المسلمين متبعون فى هذا لا مبتدعون ، ثم قال له وقد رفع يديه إلى السماء : لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء مالكم عندنا من خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم » .

ولما يئس المقوقس من طلب التعديل فى مقترحات المسلمين الآنفة الذكر ، دعا أصحابه إلى التشاور على ضوء هذه المقترحات العربية . فقالوا : أما الأمر الأول — وهو اعتناق الإسلام — فلا نجيب إليه أبداً ، فلن نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه ؛ وأما الثانى — وهو دفع الجزية — فإنا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيداً والموت خير من هذا ، فقال عبادة : انكم إذا دفعتم الجزية كنتم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، وتركت لكم إدارة بلادكم ، فتصبح جميع الوظائف فى أيديكم ، كما ستحفظ لكم كنائسكم فلا يتعرض لها أحد بسوء .

ولما شرح لهم عبادة موقف العرب منهم بعد خضوعهم وقبولهم الجزية ، مالت نفس المقوقس إلى المسالمة ، ودفع الجزية ، ولكن كبار القوم نازعوا المقوقس ، ومالوا إلى القتال ، أو يهادنوا العرب مدة شهر ليروا رأيهم ، ولكن عمرا لم يقبل مهادنتهم أكثر من ثلاثة أيام وعليهم أن يقولوا كلمتهم خلالها والا فالمناجزة لا محالة .

ومع أن المقوقس قبل المدنة كما أراد عمرو ، الا أن القوم وخصوصا جنود هرقل ، لم يستطيعوا الصبر على القتال فثاروا للقاء العرب خارج الحصن ، وما جاء اليوم الرابع حتى باغتت الروم العرب من فوق قناطرهم .

لكن العرب كانوا حذرين فلم تذهلهم المباغتة ، فأسرعوا الى أسلحتهم

وأوقعوا بهم هزيمة منكرة ، وفر من نجا منهم وعاذ بالحصن ، وأغلقوا على أنفسهم الأبواب . أما المقوقس : فإنه وجد فى هزيمة الروم تعزيزاً لرأيه فى قبول الصلح، فدعا كبار قومه مرة أخرى على أثر الهزيمة وعرض عليهم ما أبوه عليه بالأمس، فوافقوا مكرهين ، فأسرع المقوقس عند ذلك إلى النهر وعبر إلى الجانب الغربى حيث العرب وعلى رأسهم داهيتهم عمرو بن العاص ، فلقيه وأبرم معه شروط الصلح على أن يدفع الروم الجزية عن يد وهم صاغرون ، وبعد إبرام هذه الشروط سافر المقوقس إلى الاسكندرية حيث أرسل صك المعاهدة إلى الامبراطور فى بيزنطة ، وبها ملحق خاص بين فيه الأعذار التى ألجأته إلى إبرامها ، بيد أن الامبراطور لم يتبين – على ما يقال – كنه هذه المعاهدة ، وهل هى تسليم لبابليون وحده أم تسليم لوادى النيل كله ، ولذلك بعث برسالة مستعجلة إلى قيرس يستدعيه فوراً إلى القسطنطينية لمقابلته .

وصل قيرس إلى حضرة الامبراطور ، وقص عليه قصة الحرب بينه وبين العرب ، وقد عقب على ذلك بتبرئة ساحته من وصمة الجبن والخيانة ، ثم كرر للامبراطور عزمه على طرد العرب يوما ما وأن كل ما فعله إجراء وقتى أملته الظروف القاهرة .

وأما الأموال التى دفعها قيرس الى العرب فى شكل جزية ، فإنه من السهل عليه أن يجبى مقدارها وأكثر من متاجر الاسكندرية وجماركها فيعوض ذلك ما خسرته خزانة الامبراطورية ، من مال مصر الذى كان كل غايتها من احتلالها .

على أن قيرس ، لم يخف عن الامبراطور ما لمسه فى العرب من غرابة وشدة بأس لم يعهدهما فى غيرهم من سائر ألوان البشر ، فهم كما أبانوا عن أنفسهم، قوم لا يعبأون بأمر من أمور الحياة ولا زخارفها ، ولا يطلبون منها إلا لقمة يسدون

بها الرمق وشملة يسترون بهـا العورة . انهم جنود « الموت » الموعودون بملك الدنيا .

وبمثل هذه الأقوال كان المقوقس يتحدث إلى مولاه امبراطور الروم العظيم وحامى المسيحية فى الشرق والغرب .

على أن المهم أن الحصن لم يفك عنه الحصار بعد . فقد كان قيرس قد رضى بشرط العرب ووعد بأن يوقعها من الإمبراطور ثم بعد ذلك يعود لحضور خروج جيوش الروم من الحصن إلى حيث يذهبون الى آسيا الصغرى .

ثم لما ذهب قيرس الى الإمبراطور وعرض عليه الحالة ، وطلب منه الموافقة على معاهدة سنة ٦٤٠ — ٦٤١ م لم يقبل الامبراطور وبذلك أصبح قيرس فى موقف حرج بين العرب وبين الروم .

وبلغت أخبار قيرس فى بيزنطة مسامع العرب ، فاستعدوا لفتح الحصن بالقوة وكان النهر قد انخفضت مياهه مما أصبح من العسير معه أن يحصل الروم الذين فى الحصن على حاجتهم من الماء العذب الصالح ، فكان يخرج منهم جماعات ليتزودوا بحاجاتهم من ماء النيل ، فيتعرض لهم العرب ويقتتل الفريقان فتكون الدبرة طبعا على هؤلاء الروم المحصورين ، وقد ظلت الحال كذلك فترة غير قصيرة . الروم محصورون فى الحصن لا يخرجون إلا فى غفلة العرب والعرب يوقعون بكل جماعة تخرج من الروم ، ولقد عميت أخبار قيرس عن أهل الحصن ، وكل ما بلغهم أن الإمبراطور قد غضب على حاكمهم ، ولكنه لم يصنع شيئا لإنقاذهم من الحصار .

وفى مارس من سنة ٦٤١ م سمع أهل الحصن تكبيراً عالياً فى معسكر المسلمين على الضفة الأخرى للنهر ، فلما استطلعوا الأمر علموا أن الامبراطور هرقل قد

طوق الحياة ولكن الحصن رغم الكارثة التى حلت بعميد الإمبراطورية ،ظل حوالى الشهر يقاوم جند العرب .

وحينئذ صمم المسلمون على فتح الحصن ولو كان فى ذلك ذهاب نفوسهم ، فقام الزبير بن العوام ، ونادى فى الناس:من يهب نفسه فى سبيل الله فتبعه كثير من المسلمين واتجهوا نحو الحصن ، وسارع الزبير فوضع سلماً على السور ولم يفطن إليه أحد ، حتى صعد سور الحصن وكبر شارعاً سيفه ، وتبعه المسلمون الذين تسابقوا خلفه ، وأمطروا الجميع ممن فى داخل الحصن وابلا من سهامهم .

وعند ذلك اجتمع كبار القوم وعرضوا الصلح بدل سفك الدماء ، وتولى إبرام العقد جورج ـ وهو القائد الأعلى للروم ـ مع القائد العربى عمرو بن العاص ، الذى اشترط على جورج أن يغادر جنوده بابليون فى مدى أيام ثلاثة فقط وأن يتخذوا سبيلهم فى الجلاء عن طريق نهر النيل ، وأن لا يحمل الجيش الرومانى معه سوى ما يلزمه من الأقوات لبضعة أيام وأما الذخائر والأسلحة وجميع ما فى الحصن فيصبح غنيمة للمسلمين وأن يدفع بابليون الجزية للمسلمين .

وكان فتح الحصن فى يوم الجمعة (٦ من أبريل سنة ٦٤١ م) وكان خروج الروم منه يوم الإثنين ٩ منه وهو عيد الفصح عند المسيحيين ، وقد ظل الحصن يقاوم قرابة سبعة أشهر فى أصح الروايات [١] .

وبعد أن جلا الروم عن الحصن ، وملكه العرب أصبحت بابليون وما جاورها فى قبضة المسلمين ، وبذلك دان لهم معظم وادى النيل ، ولقد أمر عمرو بعقد جسر بين الروضة وبابليون فوصل بذلك الجزيرة بالحصن .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٤٠ .

هذا وبعد تسليم الحصن أخذ عمرو فى إرسال السرايا لفتح البلاد فى الوجهين القبلى والبحرى حتى أخضعها فى فترة قصيرة ، وبذلك لم يكن أمامه إلا الاسكندرية ، وهى العاصمة الكبرى للدولة المصرية ، والعاصمة الثانية للدولة الرومانية الشرقية ، وقد رأى أن لابد له من فتحها وطرد الروم منها ، وإلا فإنه لم يصنع شيئا لأن مركز الحكومة لا يزال فى قبضة الروم .

لم يكن الصلح الذى عقد فى بابليون سوى عقد حربى على من فى الحصن فأمنهم عمرو نظير تركهم لكل ما يملكون ، وفرض الجزية على أهل البلاد .

ولكن هذا الصلح أحدث فى دولة الروم أثراً بعيد المدى مع أنه لم يكن إلا صلحاً مقصوراً على جماعة صغيرة وذلك لمكانة بابليون وممفيس فى نفوس الروم ، مما جعل هؤلاء يداخلهم الضعف والوهن أمام العرب . إذ بمجرد أن يحسوا بسيرهم نحو الاسكندرية نرى حامياتهم فى (نقيوس) بمصر السفلى — وهى من أعظم المدن التى ركزت بها جيوش هائلة — نرى الروم وعلى رأسهم قائدهم يفرون إلى الاسكندرية وهكذا فى سائر المدن الواقعة بين بابليون والاسكندرية لم يصادف العرب فى واحدة منها مقاومة تستحق الذكر سوى « كريون » العنيدة . أما فى الاسكندرية ، فقد استعد الروم بجيش جرار بلغ حوالى ٥٠ خمسين ألف مقاتل عدا الأمداد التى توالى ارسالها من بيزنطة الى الاسكندرية ، كما أن أسوار المدينة كان لها كبير الأثر فى صد العرب عنها فى أول الأمر .

بيد أن العرب ضربوا الحصار على المدينة ، من جهة البر ، وقد استمر حوالى أربعة أشهر نظراً لاتصال المدينة بالقسطنطينية من جهة البحر ، فكانت تصل اليها حاجتها من الأسلحة والأقوات .

ولـكن موت هرقل ، وضعف الروم بعد موته ، واضطراب دولتهم ، ثم كره أهل الإسكندرية للحكم الرومانى ومساعدة بطريقها للعرب رغبة فى استقلاله عن الدولة الرومانية البيزنطية . كل ذلك ساعد العرب على أن يفتحوا الاسكندرية ، ويطردوا الرومان منها ، وكان ذلك فى سنة ٦٤١ م . وبفتح الاسكندرية ، أصبح العرب يحكمون جميع أراضى النيل ومدنه ، لا ينازعهم فى ذلك أحد .

* * *

أما التغييرات التى أحدثها العرب بعد فتح مصر فمن أهمها :

أولا — نقل العاصمة من الاسكندرية الى النقطة التى عسكروا بها أولا فى بابليون فبنوا مدينة « الفسطاط » وجعلوها مركز الحكومة للامارة المصرية الإسلامية. وقد اختار العرب هذا الموقع لتكون العاصمة متوسطة بين الوجهين البحرى والقبلى لمصر ، ثم لقرب العاصمة الجديدة للبلاد العربية ومركز الخلافة . وقد سارع عمرو بحفر القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، فسارت السفن من مصر إلى الحجاز .

ثانياً — انضمام كثير من سكان مصر الى العرب إذ اعتنقوا الإسلام ، وأصبحت مصر من ذلك الوقت مركزاً هاماً فى العالم الإسلامى وقل عدد الأسر المسيحية فيها بسبب اعتناق الاسلام.

ثالثاً — أعاد العرب فتح الترع والجداول التى تركها الرومان وأصلحوا طرق المواصلات فتحسنت حالة الفلاحين وتدرجوا فى الرخاء والرق .

كذلك أطلق العرب الحرية الدينية من عقالها ، وأصبح الملكانيون واليعقوبيون يدعون لمذاهبهم فى حرية مطلقة بدون تدخل من جانب الحكومة،

كما أن الحكومة المدنية ظلت بدون تغيير يذكر ، وبقى الموظفين المدنيون من الروم والقبط فى مراكزهم ، وكل وظيفة خلت حل فيها مصرى ، واكتفى العرب بالإشراف على الحكومة .

الضرائب : أما الضرائب ؛ فقد خففت إلى الحد الذى لا يرهق كاهل المصريين ، وبالجملة فإن حالة المصريين تحسنت بوجه عام ،وأحسوا بعدل العرب وظلم الرومان . فقد كان الرومان يجبون من المصريين سنوياً حوالى ٢٠ مليوناً من الدنانير ؛ فأصبح العرب لا يجبون سوى ١٢ مليوناً . والأهم من هذا أن المدن والأفراد الذين كانت لهم امتيازات فى عهد الرومان أبطلها العرب ، وعاملوا المصريين جميعاً على قدم المساواة .

الفصل الخامس

مكتبة الاسكندرية

ومما ينبغي ذكره هنا ما يقال من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية، وأعدم كثيراً من كتب العلم التي ظلت زمناً تضيء للعالم سبل المعرفة وتشع النور في المدارس والجامعات والمجتمع العالمي.

وإنا لنؤكد أن هذه فرية ما فيها مرية، وأن التاريخ يكذب ذلك بكل قوة. لأن عمراً ليس بالرجل الذي يقدم على مثل هذا، إذ دينه وخلقه يبعدانه عن مثل هذا الجرم. ثم إن العرب الذين ثبت أنهم احترموا الأديان التي يعتقدون كفر اتباعها يبعد منهم صدور هذا. ومع ذلك فإننا نرى أن ننقل لكم بالنص ما سجله مؤرخ انجليزي[1]، إذ يقول:

« لقد كثر الجدل في أمر مكتبة الاسكندرية العظمى، وطالما احتدم الخلاف في شأن إحراقها، وهل كان للعرب يد في ذلك عند فتحهم للمدينة؟ أو إنهم لم يقارفوا شيئاً من ذلك؟ » والقصة كما أوردها أبو الفرج كما يلي:

« قد كان في ذلك الوقت رجل اشتهر بين المسلمين اسمه (حنا الأجرومي) وكان من أهل الاسكندرية، وظاهر من وصفه أنه كان من قسيسي القبط ولكنه أخرج من عمله إذ نسب إليه زيغ في عقيدته، وكان عزله على مجمع من الأساقفة. وقد أدرك ذلك الرجل فتح العرب للاسكندرية، واتصل بعمرو فلقي عنده حظوة،

---

(١) راجع بتلر في كتاب فتح العرب لمصر.

لما توسم فيه بصفاء ذهنه وقوة عقله من الذكاء . وعجب مما وجد عنده من غزارة العلم ، فلما آنس الرجل من عمرو ذلك الإقبال قال له يوماً : « لقد رأيت المدينة كلها وختمت على ما فيها من التحف ، ولست أطلب إليك إلا شيئاً لا نفع له عندك وهو عندنا نافع» فقال له عمرو: «وماذا تعنى بقولك ؟» فقال « أعنى بقولى ما فى خزائن الروم من كتب الحكمة » فقال عمرو : « إن ذلك أمر ليس لى أن أقتطع فيه رأياً دون إذن الخليفة » . ثم أرسل كتاباً إلى عمر يسأله فى الأمر فأجابه عمر قائلا : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب ، فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه وأحرقها » . فلما جاء هذا الكتاب إلى عمرو أمر بالكتب فوزعت على حمامات الاسكندرية فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر. ثم قال المؤلف : «فاسمع و تعجب»!

هذه هى القصة كما جاءت فى بعض الكتب العربية ، وقد كتب أبو الفرج ما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى ولم يذكر المورد الذى نقل عنه قصته ثم نقله عنه أبو الفداء فى أوائل القرن الرابع عشر ثم المقريزى بعد ذلك .

* * *

لاغرو فقد ذكر عبد اللطيف البغدادى إحراق مكتبة الاسكندرية بأمر عمر حوالى سنة ١٢٠٠ ، ولكنه لم يبد رأياً فيها ، مما يشعر بأنه كان مصدقاً لها . ولعلها كانت متداولة حينئذ . ولكن لم يرد لها ذكر مكتوب قبل مضى خمسة قرون و نصف قرن على فتح الاسكندرية[١] .

---

(١) انظر « فتح العرب لمصر » ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

ثم يستعرض الدكتور بتلر ظروف القصة ورواتها ، وظروف المكتبة والأطوار التى مرت بها، وينقل نصوص التاريخ المعاصر فى حرق المكتبة والزمن الذى حدث فيه ذلك ثم ينتهى بعد ذلك العرض الممتع إلى أن العرب لم يقترفوا حرق المكتبة ، ويستدل على ذلك بهذه الأمور :

أولا : إن قصة إحراق العرب للمكتبة لم تظهر إلا بعد نيف وخمسة قرون من فتح الاسكندرية .

ثانياً : أننا فحصنا القصة وحللناها فوجدنا كل ما جاء بها سخافات مستبعدة ينكرها العقل .

ثالثاً : إن الرجل (حنا الأجرومى) الذى تذكر القصة أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزو العرب بزمن طويل .

رابعاً : أن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين . الأولى مكتبة المتحف وهذه ضاعت فى الحريق الكبير الذى أحدثه قيصر ، وإن لم تكن قد أتلفت عند ذلك فإنها تكون قد ضاعت قبل فتح العرب للاسكندرية بما لا يقل عن أربعمائة عام . وأما المكتبة الثانية — وهى مكتبة السرابيوم — فإما أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ م وإما أن تكون قد هلكت وضاعت كتبها ، فتكون على أى حال قد اختفت قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن .

خامساً : أن كتاب القرنين الخامس والسادس الميلاديين لا يذكرون شيئاً عن وجودها وكذلك كتاب أوائل القرن السابع .

سادساً : أن هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عندما عقد (قيرس) صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية لكان من المؤكد أن ينص على نقل الكتب إلى جانب المتاع والأموال فى مدة الهدنة التى بين عقد الصلح ودخول العرب المدينة وقدر ذلك أحد عشر شهراً .

سابعاً : لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها لما أغفل ذلك كاتب من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح مثل حنا النقيوسى، ولما مر ذلك عليه بدون كتابة حرف منه ولا يبقى بعد ذلك شك فى الأمر . فإن الأدلة قاطعة ، كما أيد ذلك ثقات المؤرخين. وأما رواية أبى الفرج على هذا فهى لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس من التاريخ (١) .

يقول سيد أمير على: ولما كثرت الغارات التى كان الروم يشنونها على الشام من مصر وتعددت المناوشات بين أسطول الروم والمسلمين فى عرض البحر ، قرر الخليفة بعد قليل من التردد، أن ينفذ جيشاً إلى أرض مصر، فسار عمرو بن العاص فى أربعة آلاف، واستولى بهذه القوة الصغيرة على مصر فى خلال ثلاثة أسابيع، ثم تعقب الجيش الرومانى وفلوله إلى الاسكندرية التى كانت تعتبر حصن حكومة الروم الحصين .

وبعد أن حاصر العرب تلك المدينة ردحاً من الزمن ، فتحوها عنوة وأصبحت مصر حتى حدود الحبشة جنوبا وليبيا غرباً خاضعة لسلطان المسلمين الذين اتخذوا أيضاً فى تلك البلاد نفس الإجراءات التى سبق أن اتخذوها فى الشام والعراق ، لتحسين موارد الفلاحين فأقروهم على أراضيهم ، وأصلحوا أعمال الرى القديمة التى أهملها الرومان، وأمروا بحفر القناة القديمة التى توصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر (٢)، وعاملوا المسيحيين معاملة ممتازة، نظراً لما ثبت لهم من حسن نواياهم نحو المسلمين، ونظموا الضرائب فازدهرت التجارة بتخفيض المكوس.

وفى سنة ٦٤٥ م أغار الروم على الاسكندرية ، واستولوا عليها عنوة ، غير أنها سقطت بعد سنة فى أيدى العرب نهائياً .

---

(١) راجع فتح العرب ص ٣٦٨ — ٣٧٠ .
(٢) وفى بعض المراجع التاريخية بدل البحر الأبيض ، النيل.

قصة حريق المكتبة

وأما قصة حرق مكتبة الاسكندرية التى نسبها بعض المؤرخين إلى الخليفة عمر بن الخطاب فهى عارية عن الصحة ، إذ أن عملا كهذا لا يمكن أن يصدر عن حاكم عظيم ، عرف بالتسامح وحرية الرأى .

وفى الواقع ان قسما كبيراً من تلك المكتبة ، كان قد أبيد فى زمن الحصار الذى ضربه يوليوس قيصر على المدينة ، كما فقد الجزء الآخر فى عهد الامبراطور تيودوسيوس فى القرن الرابع الميلادى . ويقال إنه كان مشهورا بالورع والتعصب ، ومقته للكتب الوثنية ، فأمر بإتلاف بقية المكتبة . فنفذت أوامره بحماس شديد ، بحيث لم يبق فى القرن السابع شىء يصح أن يتلفه العرب المسلمون . وعقب فتح مصر ، اشتبك عمرو بن العاص فى حروب مع القبائل الضاربة على الحدود الغربية ، انتهت باخضاع الساحل برمته حتى مدينة برقة (بنطابوليس) (١)

* * *

ويصف المستشرق بروكلمان الحالة التى كانت فى مصر ابان الفتح العربى الاسلامى لها فيقول : فى سنة ٦٢٨ حاول الامبراطور هرقل ، بعد أن استخلص مصر من الفرس الفاتحين أن يربط القبط القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح بالكنيسة الامبراطورية .

وفى سنة ٦٣١ عين كورش (قيرس) المعروف عند العرب بالمقوقس الذى كان حتى ذلك الحين أسقف فاسيس فى القبق (القوقاز) بطريركا على الاسكندرية ، ورئيسا للادارة المدنية فى نفس الوقت . ولكن سياسة المقوقس الكنسية وإلحاحه فى جباية الضرائب الكثيرة ثقلا على المصريين إلى درجة كان من الطبيعى

(١) مختصر تاريخ العرب ص ٢٨ — ٢٩

معها أن يرحبوا بالعرب كمنقذين فعل السوريين — وهم اخوانهم فى الدين — من قبل .

وتفصيل الأمر أن عمرو بن العاص أول قائد للجيش العربى فى فلسطين، هاجم من هناك سهل الفرما الخصب وليس معه من الجنود عدد كاف لمثل هذا الصنيع، ومن غير أن يتلقى — فيما يبدو — أمرا بذلك من الخليفة عمر . فوفق إلى احتلال الفرما ، ثم توقف فى هذه المنطقة لأن قائد الروم تيودور ، جهز جيشا ضخما فى بابليون (ممفيس القديمة) . وعندئذ بعث عمر بالزبير أحد أصحاب رسول الله السابقين على رأس قوة مؤلفة من خمسة آلاف رجل لنجدة عمرو بن العاص ومراقبته أيضا ، لما عرف عنه من الميل إلى الاستقلال بالرأى والعمل [(١)] .

هذا ونلاحظ فى وصف كارل بروكلمان ، جديدا عما قدمناه فى ظروف فتح مصر ، كما نشهد جديدا عن عمرو . إذ يقول : إنه لم يأخذ رأى الخليفة فى الزحف من فلسطين إلى مصر ، لأن عمر كان مترددا فى هذا الأمر .

ويخيل إلينا أن لكلام بروكلمان ، شيئا من الصحة لأن الروايات العربية ، وغيرها التى أشرنا إليها ، تذكر أن الخليفة علق موافقته على فتح مصر بوصول كتاب منه إلى عمرو ، وقبل أن يقتحم حدودها الشمالية والشرقية . وهذه الرواية فعلا ، ليس من السهل تقبلها على علاتها ، وإنما من الممكن أن تحدث مجاوزة القائد عمرو بن العاص مع فرقته حدود فلسطين الغربية ويقتحم حدود مصر المتاخمة لفلسطين ، لتتبع فلول الروم الذين لاذوا بمصر بعد هزيمتهم فى فلسطين ، وهنا يبلغ نبأ ذلك عمر بن الخطاب ، فيرسل أمرا إلى عمرو بأن لا يتجاوز حدود المنطقة التى حددت له — وهى فلسطين — إلا إذا كان قد اشتبك مع الروم فى مناوشات

---

(١) العرب والامبراطورية ، ص ١١٨ — ١٢٩ .

داخل الحدود المصرية ، وثبت إقدامه فى أرضها ، فإن عليه أن لا يتقهقر حتى لا يظن الروم ، أو يذيعوا أنهم قد هزموا جيش عمرو مهما كان قليلا

وفى الحقيقة : إن الأقرب لمنطق الحوادث ، هو ذلك التبرير حتى يثبت خلافه ، فإن حالة التردد التى يوصف بها عمر بن الخطاب ، أمر لم يعهد فيه ، لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام ، إذ كان من أولئك القلائل الذين وهبوا دقة الإحساس وسلامة الباطن ، حتى لقد روى أنه من المحدثين (الملهمين) ، ونسب هذا بما يشبه التواتر إلى النبى المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وبالجملة ، فإنه لا بأس من أن يواصل عمرو معركته مع الروم فى فلسطين الغربية ، حتى يطاردهم إلى الفرما (منطقة العريش الحالية)[١] ثم لا يجد مفراً من مواصلة الحرب بفرقته الصغيرة حتى يدخل حدود مصر ، ويواصل القتال داخلها ولكن عمر بن الخطاب لم يكن قد وضع له الخطة على هذا الأساس ، فيبعث إليه بأن يعود من فوره ، إذ لم يكن فى عودته ما يخدش كرامة الجيوش العربية المقاتلة . وهذا ما نميل إليه ، ولا نقبل ما يروى عن التردد الذى يوصف به الخليفة عمر رضى الله عنه .

أما زعم بروكلمان ، أن الزبير كان من مهمته زيادة عن مساندة جيش عمرو الرقابة عليه ، لأنه لا ينفذ الأوامر باستمرار بكل دقة ، فهذا أيضا غير معروف من أخلاق القائد عمرو ، رغم شجاعته وبطولته الخارقة ، إذ كان رجل سياسة ودهاء ، ومداورة كذلك .

ولعل بعض المستشرقين ممن يعرفون هذا الرجل على حقيقته ، قد قرروا هذه الحقيقة ، وفى مقدمتهم الفريد بتلر الإنجيزى [٢] ، الذى درس هذه المسائل

(١) فى بحث صدر أخيرا فى الحضارة الإنسانية تفسير الفرما بانها مكان بورسعيد الحالية ولا بأس من شمولها لذلك لان سهل العريش يمتد إلى منطقة بورسعيد وكان قديما يطلق على ذلك كله اسم « الفرما » فالخلاف غير ذى موضوع على هذا

(٢) أنظر كتاب فتح العرب لمصر (الملحق الخاص بعمرو بن العاص) .

من أوثق المصادر العربية .. ومن الأشياء التي عرض لها بروكلمان ، اتهام المقوقس بالخيانة من جانب هرقل ، بسبب مفاوضته للعرب قبل أخذ الإذن من الإمبراطور مما نجم عنه اضطهاد هرقل لهذا الأسقف الحاكم فى مصر ، ولكن معركة عين شمس ، التى حدثت بين المسلمين والروم كانت فاصلة ، إذ طرد على أثرها الأروام المستعمرون من أرض الكنانة ، وعادت إلى أهلها بفضل الجيوش العربية الإسلامية

يقول بروكلمان : وأغرى عمرو البيزنطيين على الخروج من حصنهم، وخوض المعركة ضده ، فهزمهم فى عين شمس ، وكان حصن بابليون لا يزال فى الوقت ذاته صامداً فى وجه المسلمين ، ومن هناك دخل المقوقس فى مفاوضات مع عمرو .

وإذن : فإن المقوقس لم يخن بلاده ، وإنما اضطر لإنقاذ البقية الباقية من جيش الروم ، حتى لا تفنيه الجيوش العربية عن آخره ، ولكن الدسائس — فيما يظهر — هى التى حبكت لقيرس ، فكان أن غضب عليه هرقل كما رأينا فيما سبق .

ومما يذكر : أن جميع المستشرقين يؤكدون تسامح العرب المسلمين ، ودقة حبهم لنشر العدل والأمن والترفيه عن الشعوب ، فقد اكتفى العرب بأن يشرفوا على الإدارة العليا فى البلاد ، وتركوا جميع الوظائف الأخرى فى أيدى المصريين ، وذلك ضمانا لتطبيق العدالة بين الجميع . أما المدن والأرياف التى لم تحارب المسلمين ، فقد تمتعت بكل حريتها وأملاكها ، كما فرضت الضرائب بالعدل المشوب بالرحمة والإشفاق حتى لا يدفع أحد أكثر من طاقته ، وهكذا سار العرب المسلمون فى جميع البلاد التى فتحوها ، وحرروا أهلها من طغاة الأمراء والأباطرة والأوصياء على الشعوب بالمنكر والعدوان .

يقول الراهب الفيلسوف « ارنست رينان » لم ينصف المؤرخون الأوربيون باتهام المسلمين بقسوة الجهادوالفتح ، مع أن هذا الجهاد كان ضروريا لنشر العدالة الاجتماعية التى تزدان بها تعاليم الاسلام المشرقة ، ونضرب مثلا لذلك فنقول :

ترى : كيف ولماذا قلب نصارى سوريا ظهر المجن لأباطرة الرومان المسيحيين ولاذوا بحمى أبى عبيدة بن الجراح القائد المسلم ، وانضموا إليه فى قتال الروم لطردهم من الديار الشامية ، ذلك لأنهم تذوقوا عدالة الاسلام ،وفضلوها على الظلم الذى كانوا يعانونه من الرومان المسيحيين . إن محمداً العظيم جاء بشريعة تفجرت منها مدنية عالمية ، لا ينبغى إلى جانبها إتهام أتباعها المتأخرين بالجمود ، لأن فترات الازدهار والانحطاط مرت على جميع الأمم بما فيها أمم أوروبا المتعجرفة . وما يدرينا فقد يعود الفكر الاسلامى الخلاق الموهوب إلى ابداع مدنية أرقى من زميلتها التى اندثرت . بل ما يدرينا ما عساه يكون بعد قليل للمدنية الأوروبية الراهنة . التى هى وليدة التمدن الاسلامى القديم .

ومن هذا يتضح لنا أن العرب لم يفكروا فى حرق قمطر واحد من مكتبة الاسكندرية كما لم يفتحوا الشام ومصر وإفريقية وغيرها . إلا لسيادة العدل ، ورفاهية الشعوب . ولم يكن هدفهم التوسع والاستعمار بشهادة المستشرقين أنفسهم .

وإذ كان فتح الاسكندرية ، وتسليمها إلى العرب ، تم بطريق الصلح الذى حمله قيرس من القسطنطينية إلى عمروقائد الجيش كما سبق ، فاننا نؤثر أن ننقل هنا نص معاهدة الصلح كما سجلها الدكتور بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر) وقد سجل لنا أيضاً محضر مقابلة المقوقس لعمرو بعد غياب طويل فى منفاه الشاق الذى لقيه بسبب مهادنته للعرب فى عهد هرقل ، بالأمس الدابر يقول فى ذلك :

كان القائد العربى قد عاد إلى بابليون بعد أن فتح بلاد الصعيد أو على الأقل بلاد مصر الوسطى ، كيما يستريح بأصحابه فى أوان فيضان النيل . وفيما كان هناك فى ذلك الحصن ، وافاه قيرس . وقد جاء يحمل عقد الأذعان والتسليم فرحب به عمرو وأكرم وفادته . ولما علم منه ما جاء من أجله من أمر الصلح قال له لقد أحسنت فى الشخوص الينا فقال البطريق : إن الناس قد عولوا على دفع الجزية ، كيما تقف رحى الحرب ثم قال : إن الله قد أعطاكم هذه الأرض فلا تدخلوا بعد اليوم فى حرب مع الروم (١) .

ويقال إن مفاوضة قيرس مع عمرو استطالت مدة طويلة . ثم انتهت إلى صلح كتب به عقد فى نوفمبر من سنة ٦٤١ م ، ويسمى هذا الصلح بصلح الاسكندرية تمييزاً له عن صلح بابليون . وها هى ذى شروط الصلح كما ارتضاها ثقات المؤرخين :

(١) أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

(٢) أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهراً تنتهى فى أول شهر بابة القبطى للثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ م .

(٣) أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال الاسكندرية وأن يكف الروم عن القتال .

(٤) أن تسير حامية الاسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعاً . على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءاً معلوما ما بقى فى أرض مصر فى رحلته .

(٥) أن لا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لردها .

---

(١) ص ٣٧٧ من المصدر السابق .

(٦) أن تترك الكنائس للمسيحيين ، ولا يتدخل المسلمون فى شئونها بأى لون من التدخل .

(٧) أن يباح لليهود الإقامة فى الاسكندرية .

(٨) أن يبعث الروم رهائن من قبلهم إلى العرب كضمان لإنفاذ عقد الصلح وحددت الرهائن بمائة وخمسين رجلا من غير الجند .

وبعد إبرام هذا العقد أخذ الروم يغادرون المدينة (الاسكندرية) وهم يضمرون الغدر ونقض العهد . فقد عادوا بعد ثلاث سنين تقريباً ، وأخرجوا العرب من الاسكندرية ولكن هؤلاء استطاعوا أن يهزموهم ويعيدوهم إلى بيزنطة مرة أخرى .

وبهذا كان الخلاف فى تقدير فتح المسلمين لمصر وهل كان صلحاً أم عنوة بطريق القتال والمناجزة . ولعل فى الإلمامة الموجزة التى سقناها ما يوضح المسألة على حقيقتها ، فقد كان الفتح فى أول الأمر عنوة مع إعطاء عهد حربى بالأمان لمن تعاقد معهم العرب فى بابليون ، ثم كان عهد الإسكندرية ، فأجرى فتح مصر مجرى الصلح ، ثم لما أغار الروم وملكوا الإسكندرية ونقضوا العهد الذى بينهم وبين المسلمين نبذ هؤلاء إليهم على سواء وأجروا فتح مصر مجرى البلاد التى أخذت بقوة السلاح .

على أننا نجد فرقاً ظاهراً بين حكام مصر من الروم ، وبين أهالى مصر الاصليين ، فهؤلاء — فى الواقع — لم يكونوا أبدا أعداء للعرب ، وإنما كانوا يتربصون بالروم الذين لم يخلصوا لهم وخصوصاً فى الوقت الذى دخل فيه العرب فاتحين لاضطهادات الروم لهؤلاء بسبب عدم اتفاقهم معهم فى المذهب الدينى .

وكانت معاملة الأهالى تختلف فى نظر العرب ، عن معاملة الروم إلا من دخل

من هؤلاء فى عقدهم ووفى لهم ، فالذمة له مرعية مبذولة ، ولعل الطبرى يوضح لنا هذا المسلك من قائد العرب نحو سكان مصر فى تلك المعاهدة أو عقد الأمان الذى أورده إذ يقول :

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص ولا تسا كنهم النوبة،وعلى أهل مصر أن يدفعوا الجزية إذا اجتمعوا على هـــذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم ، خمسين ألف ألف وعليهم ما جنى لصوصهم ، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة ، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل مالهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا، عليهم ماعليهم أثلاثاً فى كل ثلث جباية ثلث ماعليهم، على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين ، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا فرساً على أن لا يغزو ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة،وشهدعليه الزبير،وعبدالله،ومحمد إبناه،وكتب وردان وحضر [١] .

ثم إلى جانب عقد الأمان السالف برواية الطبرى وابن الأثير يلخص المقريزى [٢] لنا عقداً بذله العرب لأهالى مصر ، فى ستة مواد هى بعد الديباجة كما يلى : —

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٩٦

(٢) الخطط جـ ١ ص ٢٩٤ .

(١) أن لا يخرجوا من ديارهم .
(٢) أن لا يفرق بينهم وبين أزواجهم .
(٣) أن لا يطردوا من قراهم .
(٤) أن لا تنزع منهم أرضهم .
(٥) أن لا تزاد عليهم الجزية .
(٦) أن يمنعوا من عدوهم .

والمهم أن فتح مصر لم يكن كله عنوة ولا كله صلحاً ، بل ينبغى التفرقة بين الروم الحكام الذين قاتلوا العرب، ونقضوا عهدهم معهم، وبين الأهالى المسالمين. فهؤلاء لهم عهد وذمة ، وأولئك لا عهد لهم ولا ذمة ، حتى إنه لما أراد عبد الله ابن سعد بن أبى سرح أن يأخذ أرضاً من مصر دفع ثمنها ، لأن البلاد كانت لها ذمة محترمة إذ لم تناصب المسلمين العداء، أما الذين ناجزوا العرب وهم الروم المستعمرون فقد طردوا من البلاد ولم يبق لهم أثر بعد ، كما أبنا آنفا .

فتح ليبيا

بعد أن تم فتح مصر ، سارع عمرو إلى إرسال السرايا إلى المناطق المجاورة فأخضعها لحكم الدولة الاسلامية وبذلك جعل جميع سواحل البحرين الأحمر والأبيض تدين بالولاء لحكم الدولة الإسلامية .

ولما كان عمرو ميالا بطبعه إلى الحرب والنضال ، راغباً فى بسط مبادىء الإسلام على كل ما يمكن أن تصل إليه جيوش العرب، فإنه قد أرسل بعثاً إلى ليبيا وهو الإقليم الذى يلى مصر غرباً . وإذ كان عمرو قد وطد نظم الحكم فى مدة شهور الهدنة الأحد عشر . حتى إذا ما انقضت تلك الهدنة ودخل العرب الإسكندرية لم يبق عليهم إلا أن ينظموا إدارتها وشئونها ثم أرسل عمرو فرقة

مجهزة احسن تجهيز سارت غربا حتى وصلت إلى برقة فاستولى عليها ، وضمها إلى مصر ، وسار بعد ذلك نحو طرابلس فاستطاع أن يهزم الروم بها بعد حصارهم فترة من الزمن .

كذلك فتح عمرو مدينة (سبرة) التى تعرف الآن بزرارة ، بدون خسارة تذكر ، وفى سبرة توقف عمرو ، ثم عاد إلى برقة حيث جاءته قبيلة (لواتة) وقدمت له فروض الطاعة ، ثم عاد بجيشه إلى مصر وفى ركابه عدد لا يحصى من الأسرى والغنائم النقدية والعينية .

ولنا عودة إلى شمال إفريقيا فى عهد عثمان ومن تلاه من أمراء المؤمنين حيث امتدت الفتوحات إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلانطى) ثم عبرت خليج الزقاق (بوغاز جبل طارق) فتأسست فى أسبانيا دولة إسلامية . على أننا لا نحب أن نغادر هذا المكان من مفاخر العرب ، بدون أن نسجل وصف عمرو لمصر الذى بعث به لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فقد طلب عمر هذا الوصف ــ فيما روى ــ فأجابه عمرو بالكتاب الآتى :

« اعلم ياأمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل اعفر يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات تجرى فيه الزيادة والفيضان كجرى الشمس والقمر له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض ومنابعها حتى إذا اضلخم عجاجه وتعظمت أمواجه فاض على جانبيه حتى لا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض لا فى صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الأصائل . فإذا تكامل فى زيادة نكص على عقبيه كأول ما بدا فى جريته وطما فى درته . فعند ذلك تخرج أهل ملة محفورة وذمة مخفورة يحرثون بطن الأرض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب . لغيرهم ما سعوا من كدهم . فسأله منهم بغير جذهم ، فإذا أحدق الزرع وأشرق سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى فبينما مصر

يا أمير المومنين لؤلؤة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء . فإذا هي ديباجة رقشاء فتبارك الله الخالق لما يشاء . أن الذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها وإلا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها وأن يصرف ثلث أرزاقها في عمل جسورها وترعها فإذا تقرر الحال مع المال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل[1] .

ومن مآثر عمرو رضي الله عنه إبطاله عادة إغراق فتاة النيل التي اعتاد المصريون أن يقدموها إليه كل موسم ولكن حينما كان الفتح الإسلامي وجد هذه العادة فأبطلها وأزالها ، وإن كان الدكتور بتلر ينكر وجودها وقت الفتح العربي لمصر وهو قول يعززه حسن الظن أكثر من أي شيء آخر في رأينا[2] .

(١) أنظر فتح العرب لمصر .   (٢) نفس المصدر السابق

الفصل السادس

طراز جديد من الحكام

يعجب الباحثون ، أشد العجب ، إذ يدرسون سيرة عمر فى التنظيم والإدارة، وفى السياسة وأصول الحكم ويبدى كثيرمن المستشرقين دهشته وحيرته من سلوك ذلك الرجل العربى الذى لم يدرس فلسفة الحكم العالى ، ولم يتخرج من جامعة كتلك الجامعات التى تباهى بجدتها وعديد أقسامها،ثم يلوذ البعض من هؤلاء ، بأن أمثال هذا الحاكم الموهوب ، قد سفر لقريش فى الجاهلية وعرف الحضارات العالمية ، واذن فلابد أنه قد قبس منها أو أخذ عنها ، ولعل ذلك يفسر لهم أحد الجوانب فى شخصية ابن الخطاب ، وربما دللوا على ذلك بما ثبت من تنظيمه للديوان على نسق ما كان سائداً لدى الفرس والروم ، كما أنه ورث ضمن ما ورث ، ذلك التراث الهائل من أساليب المدنية والحضارة التى خلفها أباطرة الأمس ، بعد ضم أملاكهم ودور ثقافتهم إلى الدولة الإسلامية . يقول در منجم «خرج العرب ففتحوا الأقطار ، واختلطوا بالشعوب ولم يكن يخلو عملهم من شدة ، ولكنهم كانوا على جانب عظيم من الحكمة ، وكان فيهم استعداد ليرثوا ممالك الفرس والروم المحتضرة ، ولم يكونوا كالوندال والجرمان فى الميل إلى العبث والتدمير ، فتناولوا مصابيح العلم من أيدى الروم والفرس ، وساروا بها فى فتوحهم فكان الإسلام فى إحدى يديهم ، والمدنية اليونانية والفارسية فى الأخرى ، وكانت الخلافتان الأموية والعباسية من أمجد أدوار التاريخ [1] » . يقول السيد شكيب

---

(١) انظر كتاب « حاضر العالم الإسلامى » لستر لوثروب وتعليق شكيب ارسلان ج ١ ص ١٠٣ .

أرسلان رداً على مثل هذه المزاعم: ولما كان أعداء الإسلام يريدون أن يَنْتَقِصُوه بأى شكل من الأشكال، فقد حاولوا إنكار أن يكون له مدنية خاصة به، وزعموا أنه مازاد على أن نقل ونسخ، وما أشبه ذلك من الأقاويل ... فقصارى هذه الفئة أن يجحدوا أنّ المسلمين، قد ابتكروا علوما، وسبقوا إلى نظريات صارت خاصة بهم وغايتهم أن يقولوا إن المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا.

ولعل أعجب ماقرأت لأحد المستشرقين، ماسطره كارل بروكلمان فى تاريخ الشعوب، إذ يتهم الإسلام بأنه نسخة من الملل التى كانت سائدة فى عصر تشريعه، كما اتهم المسلمين بأنهم تأثروا فى فرائض الدين الأساسية بالزرادشتية واليهودية: يقول فى ذلك « لقد اقتبس النبى عن التوراة فكرة الخطيئة الأصلية. ابتغاء تحذير الجنس البشرى من الخطيئة[1] ويقول أيضاً: وبينما كان محمد وأصحابه يصلون مرتين فى اليوم فى مكة، وثلاث مرات فى المدينة كاليهود فقد جعلت الطقوس المتاخرة المتأثرة بالفرس، عدد الصلوات المفروضة فى اليوم الواحد، خمساً ».

وهكذا نجد أصحابنا هؤلاء، يخبطون خبط عشواء، وهم لا يفقهون أبجديات التاريخ الإسلامى، ولا تشريعات هذا الدين، مما يجعلنا نكتفى بأن تقول لهم: يجب أن تدرسوا الاسلام من مصادره الأصلية وهى كتاب الله وسنة رسوله، ثم تاريخ التشريع وحكمته، ثم بعد ذلك عليكم أن تتجردوا من العصبية والحقد، ونحن نؤكد لكم بعد هذا، أنكم سوف تؤمنون بالحقيقة التى لاريب فيها .. إذا كان عمر، قد أوتى قدرا كبيراً من الحكمة وحسن السياسة، فإن مرد هذا ليس إلى حضارات العالم القديم بوجه عام، لأن نقل هذه الحضارات ونظرياتها التى قامت

(١) نفس المصدر السابق.

عليها لم يكن قد بدىء فى التفكير فيه فى عصر الراشدين ، وصدر الدولة الأموية على الأقل وان عصر الترجمة والتعريب لأداب الفرس واليونان والهند وغيرها، إنما حدث فى أواخر العصر العباسى الأول أو القرن الثانى الهجرى ، فأنى لمثل عمر وأصحابه أن يقلدوا حضارات وأنظمة لايعرفون من أمرها شيئا .

إن حركه الفتوح الإسلامية التى بدأت فى عهد أبى بكر ، استمرت إلى أواخر العصر الأموى وكانت الدولة الإسلامية كلها فى حالة تعبئة عامة ضد الظالمين والطغاة ، ولم يفرغ أحد من المسئولين فى الدولة ، ليولى اهتماما خاصا لدراسة الحضارات القديمة أو حتى مجرد نسخها وتعريبها ، وكل ما حدث فى عهد عبد الملك لم يتعد الرسائل والعملة النقدية وتعريب الدواويين . .

وهذه حقيقة لا جدال فيها بين المفكرين فى الشرق والغرب ، ولا يمارى فيها أحد وأما تدوين الدواوين فى عهد عمر ، فهو وإن كان يشبه بعض الشيء لافتات بعض النظم الإدارية لدى الفرس والروم ، إلا أنه فى الجوهر والموضوع ، لا مشابهة له إطلاقا بين دواوين الدولة فى أيام عمر ، ودواوين الفرس ، إلا من حيث الشكل المتطور ، السريع التغيير . وسنعرض لهذا فى فصول الحضارة فى هذا الكتاب إن شاء الله .

أما زعم بروكلمان ، اقتباس هيئة الصلاة التى استقر عليها الوضع أخيراوهى خمس صلوات فى اليوم والليلة ،من دين زرادشت، فهوزعم لاأساس له من الصحة ، والحقيقة تكذبه ، لأن الصلوات الخمس فرضت فى مكة لا فى المدينة كما يدعى ، ولعل قصة الإسراء والمعراج التى حدثت فى مكة شيء مشهور ، ومذكور فى كل الأسفار التاريخية ، ومدونات السير والمغازى ،وصحاح الحديث ، ومفروض فى باحث واسع الاطلاع كصاحبنا هذا أن يشير إلى هذه الحقيقة الثابتة فى جميع

الكتب العربية ، فليس من المعقول أن يؤلف مثل هذا المستشرق موسوعة فى تاريخ الإسلام وتعاليمه ، وتاريخ الأمة العربية وآدابها ثم هو لم يقرأ — فيما يبدو — حرفا من هذه التعاليم ، وتاريخ تشريعها ، فضلا عن تاريخ الإسلام والعرب بوجه عام .

على أن القرآن الكريم — وهو مصدر الإسلام الأول — قد ندد بجميع الملل والنحل التى سبقته وعاصرته بسبب للتشويه والخلط ، والتفسيرات الجاهلية التى حشيت بها تلك النصوص النادرة التى وصل إلى القرن السادس بعضها ، وليس من المعقول ، أن يعيبها ويسفهها ثم يأخذ عنها ، ويقتبس منها ، فذلك غير مستساغ فى منطق البشر ، بله شرائع الله رب العالمين .

وإذن فإن عمر ، قد تخرج فعلا من جامعة الإسلام ، وتفقه فى آدابه وتشريعه ثم برزت آثار هذه الدراسة الواعية فى ذلك السلوك العبقرى فى حكم الدولة وسياسة الأمة .

أما مقومات الرسالة التى آمن بها وطبقها ، فقد كانت استقلالية ومتحررة وإيجابية ، ثم هى عامة ومرنة وخالدة ، وليست مقتبسة ولا مستوردة ، لأن الرجل الذى أملى أصولها ومقوماتها الذاتية ، كان أميا تماما ، ولم يقل أحد ممن عاصره ، أو جاء من بعده من أشد الناس عداوة له ولرسالته ، إن محمدا درس فى أديرة الرهبان ، أو التحق بمدارس إسرائيلى ؛ أو صحب الكهان والعرافين وكل ما اتهم به من الوثنيين أو بالأصح من أفراد منهم ؛ هو ما حدث به القرآن الكريم إذ يقول « يقولون إنما يعلمه بشر » ثم سفه هذه الفرية المفضوحة بقوله تعالى « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا (القرآن الكريم) «لسان عربى مبين» .

ومهما يكن من شىء ، فإن العظمة الخارقة التى امتاز بها عمر بن الخطاب ، وما تم فى عهده من فتوح كبرى ، كانت السبب المباشر فى تخبط الموتورين ؛ والمتربصين ؛ والذين أذهب الإسلام امتيازاتهم ، وقضى عمر على نفوذهم وتسلطهم .

و نضرب صفحا عن هذه المفتريات التى يطول سردها بدون فائدة فى هذا البحث لنصل الحديث عن أبى حفص عمر رضى الله عنه .

يقول المؤرخون: إن عمر مكث زمانا فى الخلافة ، لا يأكل من المال العام شيئاً حتى دخلت عليه فى ذلك خصاصة، وأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم. فقال : قد شغلت نفسى فى هذا الأمر ، فما يصلح لى منه ، فقال عثمان بن عفان : كل واطعم . وقال مثل ذلك ، سعيد بن زيد . فقال عمر لعلى : فما تقول أنت فى ذلك . قال: غداء وعشاء ،فأخذ عمر بذلك وكان عمر يقوت نفسه وأهله ويكتسى الحلة فى الصيف ، وربما خرق الازار حتى يرفعه فما يبدل مكانه حتى يأتى الإبان (الوقت الذى سبق أن اشترى فيه حلته) ، وما من عام يكثر فيه المال ، إلا كانت كسوته فيه أدنى منها فى العام الذى قبله ، فكلمته فى ذلك حفصة ابنته فقال: إنما اكتسى من مال المسلمين ، وكان عمر يستنفق كل يوم له ولعياله درهمين فقط . وللحج أحصى ابنه عبد الله ما أنفقه فوجده ستة عشر درهما ، ولما سمع بهذا المبلغ قال لابنه : ياعبد الله بن عمر .لقد أسرفنا فى هذا المال .

يقول المسعودى : بويع لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما أن دخلت سنة ثلاث وعشرين خرج فأقام الحج فى تلك السنة ثم أقبل حتى دخل المدينة ، فقتله فيروز أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجه سنة ثلاث وعشرين فكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال ، وقتل فى صلاة الصبح وهو ابن ثلاث وستين سنة ودفن مع النبى ﷺ وأبى بكر عند رجلى النبى ﷺ وقيل ان قبورهم مسطرة . أبو بكر إلى جنب النبى ﷺ وعمر إلى جنب أبى بكر . وحج فى خلافته تسع حجج ، وبعد أن قتل صلى بالناس عبد الرحمن بن عوف ، وجعل الأمر شورى إلى ستة وهم على وعثمان وطلحة والزبير ،وسعد وعبد الرحمن بن عوف وصلى عليه صهيب الرومى ،فكانت وفاته بعد ثلاثة أيام من الاعتداء .

وهو أول من سمى بأمير المؤمنين ، سماه عدى بن حاتم وقيل غيره وأول من سلم بها المغيرة بن شعبة ، وأول من دعا له بهذا الاسم على المنبر ، أبو موسى الأشعرى .. وكان متواضعاً ، خشن الملبس شديدا فى ذات الله ، واتبعه عماله فى سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه ، كلهم يتشبه به من غاب أو حضر . وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قدر رزقها ، وكان أكثر ركوبه على الإبل ، ورحله مشدودة بالليف ، وكذلك عماله مع ما فتح الله عليه من البلاد ، وأوسعهم من الأموال (١) .

وكان من عماله سعد بن عامر بن حذيم (٢) والياً على حمص بالشام فتقدم أهلها بشكوى ضده ، وطلبوا عزله عنهم فسكت عمر مليا ، ثم قال : اللهم لا تخيب فراستى فيهم . ثم اتجه إليهم وقال : ما الذى تشكونه من أميركم ، قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله يوم فى الشهر لا يخرج إلينا . فقال عمر : على به . فلما جمع بينهم وبينه . قال : ما تنقمون منه . قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار . فقال : ما تقول ياسعد قال : يا أمير المؤمنين إنه ليس لأهلى خـــادم ، فأعجن عجينى ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزى ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم . قال: وماذا تنقمون منه . قالوا : لا يجيب بليل . قال سعد: قد كنت أكره أن أذكر هذا . إنى جعلت الليل كله لربى وجعلت النهار لهم . قال : وماذا تنقمون منه قالوا : له يوم فى الشهر لا يخرج إلينا . قال نعم . ليس لى خـــادم ، فأغسل ثوبى ، ثم أجففه فامسى فقال عمر : الحمد لله الذى لم يُقِلْ فراستى فيكم . يا أهل حمص استوصوا بواليكم خيراً .

---

(١) مروج الذهب جـ ١ ص ٤١٦ .

(٢) ضبطه المرحوم الشيخ عبدالوهاب النجار «حذيم» بالدال (الخلفاء ص ٢٣١) وما هنا من المسعودى فى مروج الذهب .

ثم بعث إليه عمر بألف دينار ، وقال استغن بها . فقالت له امرأته : قد أغنانا الله عن خدمتك . فقال لها : ألا ندفعها إلى من يأتينا وأحوج ما كنا إليه . قالت : بلى ، فصرها صررا ثم دفعها إلى من يثق به وقال انطلق بهذه إلى فلان ، وبهذه إلى يتيم بنى فلان ، ومسكين آل فلان ، حتى بقى منها شىء يسير فدفعه إلى امرأته وقال : انفقى هذه ثم عاد إلى خدمته ..

فقالت له امرأته : ألا تبعث بذلك المال فتشترى لنا منه خادماً . فقال سيأتيك أحوج ما تكونين إليه .

هذا طراز من عمال عمر ، وموظفيه الكبار إنه محافظ حمص التى كانت من كبرى مدن الشام وأجناد سوريا ، ومع هذا فقد كان يستطيع أن ينام على الوثير ، ويلبس الحرير ، ويتخذ من منصبه سبيلا إلى الراحة والإثراء ، ويحيط نفسه بالانتهازيين وأصحاب المنافع ليستظهر بهم ، ويتزز بدعاياتهم ... ولكن دينه ويقينه بالمسئولية الكبرى بين يدى الله لا عمر فحسب ، حالت دون ذلك ، بل لقد حرمته حتى من أبسط ضروريات المتع المباحة لأنه قبل كل شىء . . يخاف الله وفضيحة اليوم الآخر ، إن هو تمكن من الإفلات من فضيحة الحياة الدنيا ، ثم أخيراً رقابة عمر ، التى كانت لا تنام ، ولا تأخذها فى العدل المطلق ، لومة لائم ، أو شفاعة شفيع .

سلمان الفارسى :

كانت المدائن عاصمة الامبراطورية الفارسية العظمى ، فلما سقط الأكاسرة ، ولى عمر عليها سلمان الفارسى — وهو رجل من فارس ، كان إبان الامبراطورية قد فر من نير المجوسية والأكاسرة ، وراح يبحث عن دين تطمئن إليه نفسه ، ويستروح به قلبه ولقى فى سبيل ذلك الأمرين ، حتى إذا كان بالمدينة المنورة التى استقر بها أخيراً كرقيق لأحد اليهود ، وعلم بأن النبى ﷺ قد هاجر من مكة إليها ،

لقى رسول الله ﷺ وآمن به ، واتبعه وظل على العهد حتى قبض الرسول وخلفه أبو بكر ثم خلف أبا بكر عمر ، وكان مثال المؤمن الورع ، جاهد فى الله حق جهاده ، وحبس نفسه لسدانة الحنيفيَّة السمحة ، ثم فتحت فارس ، وضمت إلى الدولة الاسلامية ، فكان من المنطق الرشيد أن يتولى أمر العاصمة الامبراطورية رجل من ذوى الكفاية والعلم ، والمعرفة بتقاليد الفرس وعاداتهم. فكان سلمان رضى الله عنه خير رجل يحمل هذا العبء، إذ هو مواطن أصيل فى بلاد الفرس ، وله خبرة تامة بكل أحوالهم .

ثمَّ هو فى نفس الوقت يمثل الانسان ذا الضمير اليقظ ، والقلب المؤمن ، الذى عرف الله وآمن بالحق بعد مشاق عنيفة لا يصبر عليها، إلا من فرغوا أنفسهم لله والدار الآخرة كما يتضح من قصة بحثه عن الدين الحق قبل الاسلام، ومن ثم فقد وفق عمر فى اختياره نائباً عنه فى إدارة «المدائن» ولعل ذلك كان شبه إعلان لوجوه الامبراطورية المنهارة ، بأن الوضع الجديد الذى جاء به الاسلام ،قد هدم الطبقية والفروق ، وجعل الناس سواسية كأسنان المشط ، وأن العربى كالمولى فى الحقوق والواجبات، وسائر الأعمال والمقررات [1] بل إن أبناء القرى ، وسلالات

---

(١) لجهل الكثيرين بشخصية سلمان الفارسى ، رأينا أن نثبت هنا ماذكره ابن اسحاق وغيره من خبره منذ كان مواطناً فارسيا . إلى أن اصبح بطلا اسلاميا ، وقد قص لنا أصحاب السير حديث سلمان على لسانه ، فيما حكوا .قال سلمان: كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان وكان أبى دهقان قريته (شيخ القرية) وكنت أحب خلق الله إليه لم يزل به حبه اياى حتى حبسنى فى بيته ، كما تحبس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية حتى كنت خادم النار ، الذى يوقدها . قال : وكانت لأبى ضيعة عظيمة فشغل فى بنيان له يوما ، فقال لى : يابنى انى شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى ، فاذهب إليها ، وأمرنى ببعض ما يريد ، ثم قال لى : ولا تحتبس عنى ،فانك ان احتبست عنى كنت أهم إلى من ضيعتى وشغلتنى عن كل شىء من أمرى . . قال : فخرجت أريد الضيعة التى بعثنى إليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها =

وهم يصلون . وكنت لا أدرى ما أمر الناس ، لحبس أبى اياى فى بيته ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون . فلما رأيتهم اعجبتنى صلاتهم . ورغبت فى أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى فلم آتها . ثم قلت لهم . أين أصل هـذا الدين . قالوا بالشام . فرجعت إلى أبى ، وقد بعث فى طلبى ، وشغلته عن عمله كله، فلما جئت قال أى بنى أين كنت ، أو لم أكن عهدت إليك ماعهدت . . قال سلمان . قلت له : يا أبت . مررت بناس يصلون فى كنيسة لهم ، فاعجبنى مارأيت فى دينهم ، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس . قال أى بنى . أنه ليس فى هذا الدين من خير . . دينك ودين آبائك خير منه . فقلت له . أنه خير من ديننا . فخافنى . فجعل فى رجلى قيدا ثم حبسنى فى بيته . . قال وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فاخبرونى بهم . فقدم عليهم ركب من الشام تجار ، فاخبروه . فقال لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم . فاذنونى بهم . فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم . أخبروه بهم قال : فالقيت الحديد من رجلى . ثم خرجت معهم حتى أتيت الشام ، فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علماً . قالوا الأسقف فى الكنيسة . فجئته . فقلت له : انى قد رغبت فى هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك وأخدمك فى كنيستك ، فأتعلم منك وأصلى معك . قال : أدخل فدخلت معه وكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها . فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه للمساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب ، فأبغضته بغضاً شديداً ، لما رأيته يصنع . ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه . فقلت : ان هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ، ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا ، فقالوا لى : وما علمك بذلك . قلت لهم . أنا أدلكم على كنزه . قالوا فدلنا عليه ، فأريتهم موضعه . ولما رأوه قالوا : والله لا ندفنه أبداً . فصلبوه ورجموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه . قال سلمان : فما رأيت رجلا كان أفضل منه وأزهد فى الدنيا ، ولا أرغب فى الآخرة ، ولا أدأب ليلا ونهاراً منه فأحببته حبا لم أحب شيئاً من قبله . ثم حضرته الوفاة . فقلت له : يا فلان : انى قد كنت معك : وأحبك حباً لم أحبه شيئاً من قبلك ، وقد حضرك ماترى من أمر الله تعالى : فالى من توصى بى ، وبم تأمرنى .

قال : أى بنى : والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه ، فقد هلك

= الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه . إلا رجلا بالموصل ، وهو فلان وهو على ما كنت عليه ، فالحق به . قال : فلما مات وغيب ، لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له يا فلان إن فلانا أوصانى عند موته أن ألحق بك ،وأخبرنى أنك على أمره . فقال لى . اقم عندى . فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه . فلم يلبث أن مات ، وأوصانى أن الحق برجل فى نصيبين وسماه فلحقت به واخبرته خبرى ، فقال . اقم عندى فاقمت عنده ، فوجدته على أمر صاحبيه ثم مالبث أن حضرته الوفاة ، فطلبت منه أن يشير على برجل على أمرهم ، فقال : لايوجد الا رجل بعمورية من أرض الروم . فلحقت بصاحب عمورية فوجدته على هدى أصحابه وأمرهم . ثم أخذت أعمل حتى أصبح لدى بقر وغنم . ثم حضرت الرجل الوفاة فطلبت منه أن يدلنى على آخر على هديه . فقال : لا يوجد الآن على وجه الأرض من هو على أمرنا ولكن قد أظل زمان نبى يبعث بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرتين ، بينهما نخل . به علامات لا تخفى . يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ، ثم مات وغيب ؛ ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث ؛ ثم مر بى نفر من تجار قبيلة كلب ، فقلت لهم : احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى وغنيمتى هذه . قالوا : نعم . فأعطيتهم اياها وحملونى معهم حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى ، فباعونى من رجل يهودى عبداً فكنت عنده ورأيت النخل ، فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى فبينما أنا عنده ، إذ قدم ابن عم له من بنى قريظة من المدينة فابتاعنى منه ، فاحتملنى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى ، فأقمت بها ، وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر إلى المدينة ، فو الله أنى لفى رأس عذق لسيدى أعمل له فيه بعض العمل . وهو جالس ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه ، فقال : يا فلان . قاتل الله بنى قيلة ، والله أنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبى . فلما سمعتها أخذتنى رعدة ، حتى ظننت أنى ساقط على سيدى ، فنزلت عن النخلة ، فجعلت أقول لابن عمه : ماذا تقول . فغضب سيدى ، فلكمنى لكمة شديدة ، فقلت : =

الدهاقين (مشايخ القرى) ليسوا أدنى منزلة ومكانة من أبناء كسرى، وسلالات أنوشروان (١) فى وزن الأعمال ، والكفاية ، وإن الانسان لن يعرف إلا بعمله وكفايته ومواهبه ، أما النسب والحسب ، والمال والطين ، وما إلى ذلك مما رفع أقواماً وخفض آخرين ، فقد محاها الإسلام من سجل البشرية،وأقام على أنقاضها

= لاشيء . إنما أردت أن أستثبته عما قال . وقد كان عندى شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به الى رسول الله (ص) ، وهو بقباء ، فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء قد كان عندى للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم وقدمته اليه ، فقال رسول الله (ص) : كلوا وأمسك يده فلم يأكل . فقلت فى نفسى : هذه واحدة ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً ثم جئته به فقلت له : إنى قد رأيتك لاتأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها فأكل — ص — منها وأكل أصحابه . فقلت فى نفسى : هاتان اثنتان ... ثم جئت رسول الله (ص) وهو فى بقيع الغرقد ، يتبع جنازة رجل من أصحابه ، فسلمت عليه واستدرت أنظر إلى ظهره لأرى الخاتم ، فرأيته بعد أن خلع (ص) رداءه فأقبلت عليه أقبله وأبكى ثم قصصت خبرى ، فعجب النبى (ص) وأحب أن يسمع ذلك أصحابه . ثم شغل سلمان بالرق حتى فاته بدر واحد ، ثم قال لى رسول الله (ص) كاتب فكاتبت على ثلثمائة نخلة أحييها له ، وأربعين أوقية . فقال (ص) : أعينوا أخاكم ، فأعانونى بالنخل حتى اجتمعت لى ثلثمائة ، فأحييت النخل وبقى على المال ، فأتى رسول الله (ص) بمثل بيضة الدجاجة من بعض المعادن ، فقال : ما فعل الفارسى المكاتب ، فدعيت له . فقال : خذ هذه فأدها مما عليك ياسلمان . قلت : وأين تقع هذه يارسول الله مما على ، فقال (ص) : خذها فإن الله سيؤدى بها عنك ، فأخذتها فوزنت له منها أربعين أوقية فأوفيته حقه منها ، فشهدت مع رسول الله (ص) الخندق حرا ، ثم لم يفتنى معه مشهد ...

هذه قصة الرجل الذى تولى أخيراً حكم عاصمة الامبراطورية الفارسية بعد فتحها فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ومما يلاحظ أن الرسول — ص — لم يصرح لسلمان بالتحلل من الرق — رغم أنه تم بطريق غير مشروع — إلا بعد أن سلك السبيل المتبع حسب التقاليد المرعية — إذ ذاك — وهذا منتهى الدقة فى الحفاظ على النظام القائم مهما كان فيه من ثغرات ، حتى يستبدل بنظام آخر ، لأن ذلك أدعى لاستتباب الأمن ، والاطمئنان مهما نجم عن ذلك من تضحيات مادية ، لأن الفوضى أو الخروج على النظم والقوانين ، أخطر وأعظم ضرراً من تصحيح الأوضاع بدون الطريق القانونى . فالقوانين لا تغير الا بقوانين مهما كانت وضعيتها .

وفى قصة سلمان لفتات كثيرة ، ومواعظ لا تحصى ، ليس هنا موضع بسطها وتفصيلها .

(١) معنى أنوشروان « الروح الخالدة » وسبب تلقيب كسرى الأول بهذا يرجع الى وقت انتشار المزدكية التى كادت تقضى على نفوذ رجال الدين الزرادشتى ، وامتيازات النبلاء وأشراف فارس ، وقد أيد قباذ الأول الإصلاح الاشتراكى الذى وضعه « مزدك » ويتلخص =

وبديلا عنها إيماناً قوياً ؛ وعملا متواصلا ، لإسعاد الناس والنهوض بالمجتمع .
وبذلك كان عمر عظيما فى نفسه ، وفى سلوكه وفى سجلات الخلود .

على أن فى تولية سلمان الفارسى ، رمزا بعيد المدى فى حياة الشعب الفارسى الحديث العهد بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية، ونبذ الفوارق بين الطبقات، لأن

= فى تطبيق المساواة فى خيرات الامبراطورية ، بحيث لا يتميز أحد عن أحد فى كل ضروريات الحياة ، وكان هذا بطبيعة الحال من أهم العوامل فى غضب الأشراف وكهنة الزرادشتية ، الذين ألغيت مخصصاتهم الشرفيــة والـكهنوتية فثاروا وزمجروا ، ثم تمكنوا من خلع قباذ وتولية كسرى الأول ، الذى أعاد إليهم امتيازاتهم ومخصصاتهم ، فلقبوه عندئذ « أنوشروان » أى الروح الخالدة كما أسلفنا .

لقد كانت الديانة الزرادشتية قد شرعت التعصب العنصرى ، إذ أوصت بالزواج من الأقارب دون غيرهم ... أما الشعب الفارسى القديم فلم يقم على أساس عنصرى أو طبقى ، ولـكنه كان مندمجاً ومتماسكا ، ولـكل فرد فيه حقوق وواجبات متعادلة مع سائر المواطنين فى الدولة ، وقد استمر هذا الوضع حتى كانت الزرادشتية واشتد نفوذ كهنتها فى عهد سابور (٢٤١ — ٢٧٢) حيث ظهر المصلح « مانى » فأحس رجال الدين الزرادشتى أن نفوذهم قد خف وتدهور أو كاد ولـكنهم تربصوا به حتى انتهى عصر سابور ، وجاء بهرام الأول، فقبض على مانى ووضعه فى غياهب السجون حيث قضى بقية أيامه ، ثم أخذ يستقصى عن أتباعه حتى شردهم وبدد شملهم .

ومع هذا . فإن المانوية ، قد تسربت إلى آسيا الوسطى حيث آمن بها الترك واعتزوا بها ، بل لقد وصلت إلى الهنــد ونافست البوذية ، كما ظلت المانوية موضــع تقدير أهل بابل وما جاورها ، ولها أتباع ونصراء .

ولـكن كهنة زرادشت الذين تمتعوا بامتيازاتهم بعــد مانى ، مدة تقرب من مائتى عام ، فوجئوا مرة أخرى برجل آخر أشد خطراً على نفوذهم من مانى ... ودلـكم هو « مزدك » الذى أكد وجوب القضاء على جذور الجريمة فى المجتمع البشرى ، ولا سيما تلك المخصصات الهائلة التى يرتع فى نعيمها وترفها النبلاء ورجال الدين ، الذين لا يؤدون للدولة ولا للانسانية عملا ، بل هم على العكس من ذلك ، يشغلون الجدل والسفسطة ويقيمون الدنيا ويقعدونها من من أجل خرقة بالية يعتبرونها أثراً مقدساً يجب أن يقــدم لها الناس كل شىء ، ولو نجم عن ذلك أن يموتوا جوعاً أو عرياً أو جهداً ونصبا ، طالما يستمتع السادة الأشراف ، وأئمة الهدى الزرادشتى والأباطرة المقدسون ؟ من حماة هذه الشيطانيات التى يزعمونها زرادشتية يكهنون بها فى الأرض ؟ ويسلبون بها الأموال والنفوذ .

وإذن فالمل الأخير ، هو أن تلغى الامتيازات والفروق ، ويتساوى الناس فى كل شىء ؟ حتى فى « الابضاع » فليس أحد أولى من الزواج من أى فتاة ؟ من الآخر ؟ فلا فضل لأحد =

سلمان الفارسي ، فوق أنه من أبناء الدهاقين ، يعتبر ممن درسوا ــ عن كثب ــ جميع الشرائع السائده فى عصره قبل الإسلام ،ثم راقب تطور الدعوة الإسلامية

= على آخر ، لأن الناس من آدم وآدم من تراب ؛ ولم يدع الى الاباحية الحيوانية وإنما إلى الزواج المنظم . . هذا فى الحقيقة ؛ هو جوهر وروح «المزدكية» ولكن هل هذا يرضى رجال الدين ؛ وكهنة زرادشت ؛ والأباطرة المتسلطين . . لقد قامت قيامة هذه الفئة المدعوة « رجال الدين » وأخذت تشنع على المصلح « مزدك » كما شنعت على « مانى » من قبل ، واتهمته بالخروج على تعاليم الدين الزرادشتى ، بل لقد زعمت أنه يدعو إلى الاباحية فى الأعراض ؟ ؟ ولكن القدر أراد أن يلقنهم درساً آخر ؛ إذ كثر أتباع مزدك ؛ وآمن بدعوته جمهور الشعب الفارسى فاضطر الملك قباذ الأول إلى اعتناق مذهب « المزدكية » فى سنة ٤٨٨م ، وأعلن حمايته ورعايته لهذا المصلح وجميع أتباعه ؛ وتبنى برنامجه فى الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ؛ وبذلك سقط فى أيدى رجال الدين والنبلاء والأشراف ، وحواشى الامبراطورية الفارسية .

ولكن أبناء الأفاعى ؛ كما وصف المسيح ؛ إخواناً لهم بذلك ، لم يلقوا سلاح التآمر فأخذوا يدبرون لجولة أخرى ، كتلك التى فعلوها مع مانى ، فأحاطوا بأحد الأمراء وشجعوه للقضاء على قباذ حامى المزدكية ، فتمكن بمعونتهم من خلع قباذ وتولى الملك بدله ، وهنا هلل الكهنة ؛ والاقطاعيون ، وأطلقوا على كسرى الأول « أنوشروان » كما سبق .

على أن القدر لم يهمل هذه الأفاعيل ، فقد ولد فى هذا الوقت ذلك الإنسان الكامل الذى بدل الأوضاع كلها ، وقضى بعد حوالى نصف قرن وبضع وعشرين عاماً على الامبراطورية الفارسية ، والكهنوتية الزرادشتية ، على يد أصحابه وأتباعه من العرب المؤمنين بشريعة الكفاية والعدل ، التى نزل بها كتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ من لدن حكيم عليم .

وذلكم هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا .

وبعد : فهل كانت الحركات المانوية والمزدكية مثل الشرائع الأخرى سماوية وأرضية ، مقدمات ضرورية لحتمية الحل الأخير لمشكلات البشرية بوضع الشريعة الإسلامية ، التى أحاطت بكل شيء ، ووضعت العلاج الناجع لجميع المتناقضات والرواسب ، والانتكاسات فى كل جيل وأمة .. إن الدراسة المتحررة لمقومات هذه الشريعة ، يفرض على طالب الحق للحق ؛ أن يقول ويؤكد — فى يقين واطمئنان — اللهم نعم .

نفسها قبل أن يعلن إيمانه بشريعتها ، ودرس شخصية النبي ﷺ بنفسه، ولم يسلم إلا عن اقتناع وعلم ، وبعد فحص وبحث وإذن فعلى أبناء الشعب الفارسي أن يقتدوا بالمواطن سلمان ، الذى قضى زهرة شبابه وكهولته ، ضاربا فى أنحاء الأرض ، يبحث عن الحق ، ثم انتهى به المطاف إلى الإيمان بشريعة العدل التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وتتسق وهواتف الفطرة، واحتياجات الجماعة ، وتتمتع بالوضوح ، واليسر . فلا عذر لمن لا يؤمن بها إلا أن يكون جاهلا بمباهجها ومثل هذا ينبغى أن يدرس كما فعل سلمان .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان هذا الفارسى ابن شيخ القرية مثلا صالحاً لأبناء الفرس ، جعلهم يقبلون على اعتناق الإسلام ، وينشرون حضارته وثقافته .

يقول المسعودى : وحينما كان سلمان واليا على المدائن ، كان يلبس الصوف ويركب الحمار ببردعته بغير إكاف ، ويأكل خبز الشعير ، وكان ناسكا زاهداً.. وطبعاً لم تكن المدائن فقيرة . ولكن سلمان كان يضرب المثل للولاة .

ومن عمال عمر ، أبو عبيدة بن الجراح ، وكان يظهر للناس وعليه الصوف العادى فعوتب على ذلك ، وقيل له : إنك بالشام ، وأمير المؤمنين ، وحولنا الأعداء فغير من زيك ، واصلح من شارتك ، فقال : ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله ﷺ .

ومن السياسة الحكمية التى سار عليها عمر إزاء الموالى الذين لم يسلموا أو أسلموا حديثاً ، حظر إقامتهم فى العاصمة (المدينة) فكتب إليه المغيرة بن شعبة[1] : إن عندى غلاما نقاشا نجارا حدادا ، فيه منافع لأهل المدينة فإن رأيت أن تأذن لى فى الإرسال به فعلت ، فأذن له وقد كان المغيرة جعل عليه كل يوم درهمين ، وكان

---

(١) كان فى ذلك الوقت واليا على البصرة، وكانت إقامة الفرس بها .

يدعى أبا لؤلؤة ، وكان مجوسيا من أهل نهاوند ، فلبث ماشاء الله ، ثم أتى عمر يشكو إليه ثقل خراجه فقال له عمر ، وما تحسن من الأعمال ؟ قال : نقاش نجار حداد..ولعل هذا هو السبب فى انتقال فيروز من مدينة البصرة التى يقيم بها جلة أمراء الفرس السابقين ، إلى المدينة ، مما نجم عنه تفكير كثير منهم فى أخذ مثل هذا الإذن للاقامة بالمدينة مثل الهرمزان وجفينة ، كما سنبين ذلك فى موضعه .

عمر فى مجال الحكم : يعتبر عمر من أفذاذ الحكام وخيرة الراشدين، واستقراء أسلوب معاملته لعماله وكبار موظفى الدولة ، يرينا صورة الرجل على الطبيعة .

ذكر عبد الله بن عباس ، رضى الله عنه ، أن عمر أرسل إليه فقال : يا ابن عباس . إن عامل حمص هلك ، وكان من أهل الخير . وأهل الخير قليل ، وقد رجوت أن تكون منهم ، وفى نفسى منك شىء ، ولم أره منك وأعيانى ذلك فما رأيك فى العمل . قال : لن أعمل لك حتى تخبرنى بالذى فى نفسك . قال وما تريد إلى ذلك قال ، أريده . فإن كان شىء أخاف منه على نفسى ، خشيت منه عليها الذى خشيت ، وإن كنت بريئاً من مثله ، علمت أنى لست من أهله فقبلت عملك هنالك . فإنى قلما رأيت أو ظننت شيئاً إلا عاينته فقال . يا ابن عباس . إنى خشيت أن يأتى على الذى هو آت وأنت فى عملك ، فتقول . هلم إلينا ولا إليكم دون غيركم ، إنى رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم.

قال ابن عباس : والله قد رأيت من ذلك ، فلم تراه فعل ذلك . . قال عمر : والله ما أدرى ، أضن بكم عن العمل ، فأهل ذلك أنتم . أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه .

ثم قال عمر لابن عباس : فما رأيك . لقد قرعت لك . قال ابن عباس: أرانى لا أعمل لك . قال : ولم . قلت ان عملت لك وفى نفسك ما فيها . لم أبرح قذى فى عينك . قال : فأشر على . قلت إنى أرى أن تستعمل صحيحاً منك ، صحيحاً لك.

ويذكر المسعودى : أن عمر كان يشاور الهرمزان فى فارس واصبهان وأذربيجان ، ثم شاوره مرة فى ذلك فقال . أصبهان هى الرأس ، وفارس وأذربيجان الجناحان ، فإن قطعت أحد الجناحين ، نأى الرأس بالجناح الآخر ، وإن قطعت الرأس وقع . فابدأ بالرأس فدخل المسجد فإذا هو بالنعمان بن مقرن يصلى . فقعد إلى جنبه ، فلما انتهى من صلاته قال: ما أرانى إلا مستعملك .قال: أما جابيا فلا ولكن غازيا ، قال: فإنك غاز .وكتب إلى أهل الكوفة ان يمدوه وبعث معه الزبير بن العوام، وعمرو بن معديكرب،وحذيفة وابن عمر،والأشعث ابن قيس ، مساعدين له فى قيادة الجيش وتوجيه الحرب ضد الفرس .

لقد كان عمر شوريا بطبعه ، لا يبرم أمرا إلا بعد استطلاع آراء كل ذى خبرة ورأى .

أسلوب عمر فى مؤاخذة العمال :

كان عمر رضى الله عنه — يهمه رضا الشعب واطمئنانه ، أكثر من حرصه على موالاة العمال وكبار الموظفين . إذ كان الوالى فى نظره فردا من الناس ، لا فضل له على من يلى أمرهم ، فهو فقط مشرف على تنفيذ قوانين الدولة ، يقضى بين الناس بالحق ، ووظيفته تعتبر نوعا من الخدمات العامة التى يؤديها كل مواطن ، من فلاح الأرض إلى رئيس الدولة .

ولهذا كان يجمع بين الشاكى والمشكو فى حقه ، ويوقف الاثنين أمام القاضى أو أمامه ، مهما كان مركز الخصمين فى الدولة ، لأن المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات ، هى الشريعة التى يعرفها ويطبقها بغاية الدقة ، وهكذا كان رسول ﷺ وصاحبة الصديق أبو بكر — رضى الله عنه — حتى لقد ثبت أن النبى ﷺ كان يقص من نفسه . وكان عمر لا يعدل بسنة رسول الله (ص) شيئا

أما ما قد يظن من حرص أبى بكر على هيبة الموظفين فإن ذلك لا يطغى على الحقوق ! ثم ان أبا بكر لم يبد هذا الحرص إلا إبان الحروب مع اقتناعه بكيدية الشكاوى التى أسندت أمورا غير صحيحة إلى مثل خالد بن الوليد — رضى الله عنه .

ومع هذا فقد أعجبنى تحليل لطيف للمرحوم عبد الوهاب النجار نثبته للعلم قال :

إن سواس الأمم يختلفون فى شأن مؤاخذة العامل ذى السلطان بما يصدر منه من الهفوات ، ومجازاته بما يجترم من السيئات لأن فريقا يرون أن التجاوز عن سيئاته ، وغض الطرف عن زلاته أهيب لمقامه فى نظر الناس ، ومن هذا القبيل سياسة الدولة الانجليزية مع عمالها فى المستعمرات ، لاتكسرهم أمام المحكومين ، ولا تؤاخذهم بما يصدر عنهم من المخالفات لئلا يكون ذلك مصدراً لكثرة الشكوى الكيدية . أما فى بلاد الانجليز أنفسهم ، فإن الحاكم إذا تعدى حدود عمله وسام أحد الرعية بأذى . فإن القضاء له بالمرصاد ، والقانون يوفيه جزاءه العادل .

وقد كان أبو بكر على هذا الضرب من السياسة مع قواده وعماله فى أيام الردة وقيام الاضطراب فى كل ناحية . وهى حال يغتفر فيها مالا يغتفر فى غيرها .

وكان عمر يخالفه فى هذا النحو من السياسة ، ويشير عليه بالأخذ من كل مخالف(١) .

---

(١) الخلفاء الراشدون ص ٢٣٧ .

يقول الطبرى [(١)] : قال عمر : إذا كنت فى منزلة تسعنى وتعجز عن الناس فو الله ما تلك لى بمنزلة ، حتى أكون أسوة الناس .

إن مبدأ المساواة حتى فى الأمور الخاصة ، كان شريعة عمر فهو لا يقبل أن يترفع عن أدنى الناس ، ولو فى المطعم والملبس والمسكن ، وذلك سر عظمة هذا الرجل .

كان عمر حريصا على تطبيق العدل بين جميع أفراد الأمة ، وكان يعمل جاهدا فى سبيل الوصول إلى هذا الهدف العظيم .

روى الطبرى عن الحسن قال : قال عمر : لئن عشت إن شاء الله تعالى لأسيرن فى الرعية حولا فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى . أما عمالهم فلا يرفعونها إلى وأما هم فلا يصلون إلى .. ويقول ابن الأثير [(٢)] : جاء عمر بن الخطاب إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يصلى فى بيته ليلا ، فقال له عبد الرحمن ، ما جاء بك فى هذه الساعة . قال : رفقة نزلت فى ناحية السوق ، خشيت عليهم سراق المدينة ، فانطلق فلنحرسهم فاتيا السوق فقعدا على نشز (مرتفع) من الأرض يتحدثان ، فرفع لهما مصباح ، فقال عمر : ألم أنه عن المصابيح بعد النوم ، فانطلقا ، فإذا قوم على شراب لهم ، قال انطلق فقد عرفته ، فلما أصبح أرسل إليه . قال يافلان كنت وأصحابك البارحة على شراب قال : وما أعلمك يا أمير المؤمنين . قال شىء شهدته . قال أولم ينهك الله عن التجسس ، فتجاوز عنه وإنما نهى عمر عن المصابيح خشية أن تتسبب فى إشعال الحرائق وكانت السقوف من جريد .

---

(١) الأمم والملوك جـ٥ ص ٢٣ .

(٢) الكامل فى التاريخ جـ ٣ .

مسائل سنها عمر

من المعروف أن عمر أول من دون الدواوين — وهى سجلات تمسك بها الاعطيات (الرواتب السنوية) وأسماء المجاهدين ، والموظفين، ومقادير مايصرف لكل مواطن من العمال وغيرهم ، وسنأتى على ذلك فى باب الحضارة إن شاء الله.

وعمر أول من كان يتفقد حال الناس بنفسه ليلا . . حدث بعض خاصته أنه خرج إلى حرة واقم من ضواحى المدينة فإذا نار توقد مشتعلة فاتجه إلى مكانها ، فوجد امرأة معها صبيان لها ، وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول : يا أصحاب النار. قالت وعليك السلام قال : أأدنوا . قالت : أدنُ بخير أودع . فدنا فقال : ما بالكم . قالت قصر بنا الليل والبرد. قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت: من الجوع . قال : فأى شىء فى هذه القدر . قالت مالى ما أسكتهم به حتى يناموا، فانا أعللهم ، وأوهمهم انى اصلح لهم شيئا حتى يناموا . والله بيننا وبين عمر . قال : أى رحمك الله . ما يدرى عمر ؟ قالت : يتولى أمرنا ويغفل عنا .

فأقبل عمر على رفيقه وقال : انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة شحم ، فقال : إحمله على ظهرى . فقال رفيقه — وهو أسلم — : أنا أحمله عنك ـ قال ذلك مرتين أو ثلاثا — فقال عمر : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ، لا أم لك . يقول أسلم : فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا فجعل يقول ذرى على وأنا أحسن لك ،وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحية عظيمة، فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج لهم الطعام ، ثم أنزل القدر، فأتته بآنيتها فأفرغها فيها ثم قال : أطعميهم وأنا أسطح لك ، فلم يزل حتى شبعوا،

ثم ترك عندها فضل ذلك وقام وقمت معه ، فجعلت المرأة تقول : جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين . فيقول : قولى خيراً . فإنك إذا جئت أمير المؤمنين ، وجدتينى عنده هناك إن شاء الله ، ثم تنحى ناحية ، ثم استقبلها وربض، لا يكلمنى حتى رأى الصبية يضحكون ويصطرعون ، ثم ناموا وهدأوا. فقام وهو يحمد الله فقال : يا أسلم . الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم .

يقول سالم بن عبد الله بن عمر ، حفيده : كان عمر إذا نهى الناس عن شىء جمع أهله فقال : إنى نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحدا فعله ، إلا أضعفت عليه العقوبة .

أمثلة حية للحاكم المؤمن ، الذى أشرب قلبه حقيقة الإيمان باليوم الآخر ، وأنه مسئول عن كل شىء رضى تحمل أمانته ، فلا عذر له طالما هو قد تعرض لهذه المسئولية الخطيرة التى تناط بحقوق العباد ، ومرافق البلاد .

إن عمر قد آمن بأن كل راع مسئول عن رعيته ، وكان يجهد نفسه أشد الاجهاد ، ليؤدى هذا الواجب على أتم ما يكون ، ومع هذا فقد ظن — رضى الله عنه — أنه قصر ، ولم يستطيع تنفيذ كل منهجه فكان آخر عهده بالدنيا يتأوه، ويقول : ويلى . ويلى إذا لم يغفر الله لى .

أين حكام العالم اليوم من هذا الإنسان الذى كان يحكم أكثر من عشرة أضعاف ما تحكمه روسيا أو الولايات المتحدة ، أو بريطانيا ، ومع هذا كان يرى أنه مسئول، مسئولية مباشرة عن كل شبر أرض فيه ذو كبد حرّى ، أو إنسان ذو عقل ودين، وانه لا مفر من سؤاله عن المريض والجائع ، والعارى ، والجاهل ، والمظلوم ، والمسكين وابن السبيل ، وعن كل شىء تصدّر لرعاية شئونه ، وإدارة أموره ،

ومن رأى عمران «الأعمال» ليست تجارات ، أو أرباحا ومغانم ، أو إكراميات للاصهار وذوى القربى والمنافقين والوصوليين وملحقاتهم .

لقد أدرك عمر هذه المعانى كلها ، وقاومها بكل شدة ، فلم يكن فى دولته ذلك الدّاء الوبيل الذى فشا أخيرا فى شتى الشعوب والدول من تقريب السعادة وإبعاد الراشدين الوعاة .

يقول المؤرخون ان عمر أول من لقب بأمير المؤمنين ، وأول من جمع الناس فى صلاة التراويح ، وأول من حمل الدرة ، وأول من عاقب على الهجاء وأول من كتب التاريخ الهجرى.. ويقول أبو هريرة رضى الله عنه : يرحم الله ابن حَنْتَمة، لقد رأيته عام الرمادة ، وإنه ليحمل على ظهره جرابين وعكة زيت فى يده ، وأنه ليعتقب هو وأسلم (كل منهما يحمل فترة) فلما رآنى قال : من أين يا أبا هريرة قلت قريبا ، فأخذت اعقبه .

فحملنا حتى انتهينا إلى صرار فإذا نحو من عشرين بيتا من محارب (قبيلة) فقال لهم ما أقعدكم . قالوا الجهد ، وأخرجوا لنا جلد الميته مشويا كانوا يأكلونه ورُمّة العظام مسحوقة ، كانوا يستفُونها فرأيت عمر طرح رداءه ، ثم اتزر فمازال يطبخ حتى أشبعهم ، ثم أرسل أسلم إلى المدينة ، فجاءنا بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم فى مكان اسمه « الجبانة » ثم كساهم ، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم . .
ويقول موسى بن عقبة : أتى رهط إلى عمر ، فقالوا له :

كثر العيال ، واشتدت المؤنة ، فزدنا فى عطائنا . قال : فعَلتموها . جمعتم بين الضرائر ، واتخذتم الخدم من مال الله . لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر، تذهب بنا شرقا أو غربا ، فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام

اتبعوه ، وإن جنف قتلوه .. فقـــال طلحة : وما عليك لوقلت . وإن تعوج عزلوه ..

ذكر عند عمر زجل فقيل : يا أمير المؤمنين ، إنه إنسان فاضل ، لا يعرف من الشر شيئا . قال : ذاك أوقع له فيه .

عمر يتحدث بنعمة الله

حدث سعيد بن المسيب عن عمر ، قال : حج عمر ، فلما كان ببعض الأمكنة التى كان يرتادها وهو شاب ، قال : لا إله إلا الله العظيم العلى المعطى ما شاء من شاء . . كنت أرعى ابل الخطاب فى هذا الوادى فى مدرعة صوف ، وكان فظا غليظا يتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصرت ، وقد أمسيت وليس بينى وبين الله احد ، ثم تمثل :

لا شىء فيما ترى تبقى بشاشته　　يبقى الاله ويودى المـــال والولد
لم تغن عن هرمز يومـا خزائنه　　والخلد قد حاولت عاد فمـا خلدُوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح به　　والانس والجن فيما بينها بُرد
ابن الملوك التى كانت نواقلها　　من كل اوب اليها راكب يفد

أمانته وعطفه

ذهبت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان ، إلى عمر ، واستقرضت منه أربعة آلاف من بيت المال ، تتجر فيها وتضمنها ، فأقرضها ، فخرجت فيها إلى بلاد بنى كلب ، فاشترت وباعت ، فبلغها ان ابا سفيان وابنه عمراً أتيا معاوية . فعدلت إليه — وكان أبو سفيان قد طلقها — فقال لها معاوية : ما أقدمك أى

أمة . قالت : النظر إليك أى بنى . انه عمر ، وإنما يعمل لله . وقد أتاك ابوك ، فخشيت أن نخرج إليه من كل شىء ، واهل ذلك هو . ولا يعلم الناس من أين اعطيته . فيؤنبونك ويؤنبك عمر . فلا تستقبلهما ابدا فبعث إلى أبيه وأخيه بمائة دينار ، وكساهما وحماهما فتسخطها عمر ، فقال أبو سفيان لا تسخطها ، فإن هذا عطاء لم تغب عنه هند ، ورجعوا جميعاً فقال أبو سفيان لهند : أربحت قالت : الله اعلم . فلما اتت المدينة وباعت ، شكت الضيعة (الخسارة) فقال لها عمر : لو كان مالى لتركته لك ولكنه مال المسلمين . وقال لابى سفيان . بكم أجازك معاوية . قال : بمائة دينار .

تمتع عمر بملكة النقد الادبى

حدث عبد الله بن عباس ، فقال بينا عمر بن الخطاب وأصحابه يتذاكرون الشعر ، فقال بعضهم : فلان اشعر ، وقال آخرون : بل فلان أبلغ . قال فأقبلت فقال عمر : قد جاءكم اعلم الناس بها . من اشعر الشعراء ، فقلت : زهير بن ابى سلمى . فقال : هلم من شعره ما يستدل به على ما ذكرت فقلت : امتدح قوما من غطفان فقال :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم ابوهم سنان حين تنسبهم   طابوا وطاب من الاولاد ماولدوا
محسدون على ما كان من نعم   لا ينزع الله منهم ما له حسدوا

فقال عمر : احسن والله . وما اعلم احدا أولى بهذا الشعر من هذا الحى .

لا غرو فقد كان عمر عبقريا حتى فى فنون الادب والثقافة :

نساء عمر وأولاده

حدث الطبرى فى تاريخه عن حياة عمر الخاصة فقال :

تزوج عمر فى الجاهلية ، زينب ابنة مظعون ، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الاكبر وحفصة .

وتزوج مليكة بنت جَرْوَل الخزاعى ، فى الجاهلية فولدت له عبيد الله بن عمر الذى قتل يوم صفين ، وكان فى جيش معاوية .

وتزوج قريبة بنت امية المخرومى أخت أم سلمة زوج الرسول ﷺ ثم طلقنها

وتزوج أم حكيم بنت الحارث المخزومية — فى الاسلام — فولدت له فاطمة ثم طلقها .

وتزوج جميلة بنت ثابت بن قيس الانصارى ، فولدت له عاصما ثم طلقها .

وتزوج أم كلثوم بنت على بن ابى طالب من فاطمة ابنة رسول الله ﷺ فولدت له زيداً ورقية .

وتزوج لُهيَّة اليمنية فولدت له عبد الرحمن الأصغر وعبد الرحمن الأوسط، وقيل تزوج فى الاسلام كذلك فكيهة فولدت له زينب .

ويقال انه خطب أيضاً أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق — وكانت صغيرة — فنهاه عمرو بن العاص ، وعارضت عائشة أم المؤمنين .

ومما يلفت النظر فى سلوك عمر الشخصى ، ان المؤرخين يكادون يتفقون على انه لم يتزوج بامرأة إلا بعد مفارقته لمن كانت زوجة له قبلها ، فهو لا يجمع بين

ضرتين . ولعل هذا المسلك كان نادرا فى تلك العصور ، وبخاصة بعد ازدحام المدينة بعديد من اسارى فارس والروم ، وجواريهما الفاتنات . بيد ان عمر ـ فيما يبدو — لم يكن مهتما بهـــذه المتع لتفرغه الـكامل لشئون الدولة ، وتنظيم مرافقها ، وهذا لون آخر من جوانب العظمة الانسانية التى يمتاز بها عمر رضى الله عنه .

يقول الامير شكيب ارسلان « حدث الربيع بن زياد الحارثى قال : شكا عمر طعاما غليظا أكله ، فقال الربيع ، يا أمير المؤمنين . ان احق الناس بطعام لين ، ومركب لين ، وملبس لين ، لأنت . فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال : اما والله ما اراك اردت بها الله ، وما اردت بها إلا مقاربتى . هل تدرى مامثلى ومثل هؤلاء . قال : وما مثلك ومثلهم قال : مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم الى رجل منهم فقالوا له : انفق علينا . فهل يحل له ان يستأثر منها بشىء : قال لا يا أمير المؤمنين . قال : فـــكذلك مثلى ومثلهم . ثم قال عمر : إنى لم استعمل عليـــكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، وليشتموا أعراضـــكم ، ويأخذوا أموالـــكم . ولـــكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربـــكم وسنة نبيـــكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة ، فلا اذن له عليه . ليرفعها الى حتى اقصه منه :

ومما يعززما اسلفناه عن عزوف عمر عن اتخاذ الاماء واستخدام الاسرى ، واستيلاد الفتيات منهن ، كما صنع غيره ، ماحدث به الاحنف بن قيس ، قال : كنا جلوسا بباب عمر ، فمرت جارية . فقالوا : سرية أمير المؤمنين ، فبلغ ذلك عمر ، فدعانا فقال : ماذا قلتم . قلنا لم نقل بأسا . مرت جارية فقلنا : هذه سرية أمير المؤمنين . فقال : ماهى لأمير المؤمنين بسرية ، وما تحل له . انها من مال الله . فقلنا فما يحل له من مال الله . فقال : انا أخبركم بما استحل منه . يحل لى حلتان .

حلة فى الشتاء ، وحلة فى الصيف أو فى القيظ ، وما احج عليه واعتمر من الظهر ، وقوتى ، وقوت اهلى ، كقوت رجل من قريش ليس باغناهم ولا افقرهم ، ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين . يصيبنى ما أصابهم .

عمر قبل وفاته

لما طعن ابو لؤلؤة الفارسى ، عمر وهو يصلى قال : من قتلنى فقيل له :غلام المغيرة بن شبعة ، وكان نجارا . فقال عمر : قاتله الله والله لقد كنت امرت به معروفا ، ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدّعى الاسلام ، ثم قال لعبد لله بن عباس: لقد كنت انت وابوك تحبان ان نكثر العلوج (غير العرب) فى المدينة ، فقال ابن عباس انهم ان شاء اخرجوهم منها . فقال له عمر : ابعد ماتكلموا بكلامكم ، وصلوا بصلاتكم ونسكوا نسككم .

ولما ايقن عمر بالوفاة ، قال لابنه : ياعبد الله بن عمر ، أنظر . كم على من الدين . فحسبه فوجده ، ستة وثمانين ألف درهم ، فقال : ياعبد الله بن عمر . ان وفىَ مال آل عمر فأدها عنى من أموالهم والا ، فاسأل فيها بنى عدى بن كعب ، فإن لم تف فاسأل فيها قريشاً ، ولا تعدهم الى غيرهم .

وقالوا له حين حضره الموت : استخلف . فقال : لا أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فأيهم استخلف فهو الخليفة من بعدى ، وسنذكر فى الفصل التالى تفصيل الشورى ، وحقيقة المؤامرة التى اغتيل عمر على أثرها . فالى ذلك الفصل والله ولى التوفيق .

الفصل السابع

حول المؤامرة الفارسية

إرتقى عثمان الخلافة بذلك الشكل الذى أشار به حينما ألحوا عليه فى تعيين خليفة له على الناس . إذ كان يرى ألا يستخلف ؛ فإن رسول الله (ص) لم يستخلف ، وما كان عمر بالذى يعدل فى الناس برسول الله أحداً .

لذلك رأيناه عندما طعن « رضى الله عنه » بالمسجد الجامع بالمدينة يأمر بعض [1] خاصته من المسلمين أن ينظر من قتله حتى إذا عرف أن الذى [2] تولى ذلك من «علوج» فارس يحمد الله أن لم يجعل منيته على يد واحد من المسلمين يحاجه يوم القيامة ، ثم يطلب منه أن يستخلف على الناس فيجيبهم بأنه « ان لا يستخلف فإن رسول الله (ص) لم يستخلف وهو خير الناس،وان يستخلف فقد عهد إليه من قبل من هو خير منه،وهو أبو بكر رضى الله عنه.ثم كثر عليه الطلب فى تعيين خليفة من بعده، وأنه لو كان الإنسان راعياً لقطيع من الإبل أو من الغنم ، ما حل له أن يدعها بدون راع [3] وكأنما عمر كان يتنازعه عاملان مختلفان فإنه ليرى فى رسول الله خير أسوة،ومع ذلك لم يعين خليفة على الناس، وبين يديه أبو بكر حب رسول الله (ص)،وأفضل الناس من بعده،وقدسلف أن عهد إليه ولكن بعد أن استشار الناس ، واطمأن إلى رضاهم بعمر . . .إنها حيرة لا مخرج منها إلا بحسن توفيق من الله .

---

(١) عبد الله بن عباس ـ رضى عنهما .

(٢) غلام للمغيرة بن شعبه المجوسى لا النصرانى كما هو مذكور فى ابن الأثير والطبرى

(٣) تيسير الوصول لابن الديبع ـ بتصرف ج ٢ ص ٤٩ .

رسول الله لم يستخلف . هذا حق .

ولـكن . . ألا يكون ذلك لأنه رسول الله ، ولا ينطق عن الهوى،فلوأنه عين شخصاً أو جماعة لـكانت لهؤلاء دولة ، ولترك لذلك الأفضل من الناس ، ولقالوا إن هذا عينه رسول الله ، والذى يخالفه يعصى الله ورسوله .

ثم شكل الخلافة، أهو وحى من الله؟.يجب على الناس أن لا يعدوا مايرسمه الرسول . لو كان . . أم هو من شئون الدنيا، وخصائص الأيام — فلـكل مقام مقال ، ولـكل زمان دولة ورجال — فقد تـكون طريقة أبى بكر وعمر خيراً للناس فى الوقت الذى كان فيه أبو بكر وعمر ، وقد يبتدع النـاس طرائق من الاستخلاف ربما كان فيه خير للناس ، وبقيا للمسلمين ، وقد يبدعون فيهاعن أبى بـكر وعمر حسبما يرونه من المصلحة العامة للإسلام والمسلمين .

ثم أبو بكر — وهو من نعرف فى تقواه وورعه،وعقيدته ودينـه أيخالف رسول الله فى أمر يكون العصيان فى فعله ، والخير فى تركه.هذا ما لن يكون من رجل كأبى بكر يعرفه عمر ويطمئن إلى أنه لن يتعمد مخالفة رسول الله بحال ما ، بل يعرفه أكثر من ذلك منذ قبض رسول الله ، وذهل عمر وثبت أبو بكر . فثبت الناس ورجعوا إلى الحق ، وإلى قول أبى بكر .

ثم منذ حركة الارتداد العربية إثر موت رسول الله (ص) وقد كان الناس جميعاً فى جانب وأبو بكر فى جانب ، وفى النهاية رجع الناس إلى رأى أبى بكر فـكان هو عين اليقين،ودعامة الحق الذى مكن للمسلمين فيما بعد فى الأرض .

ما نظن ذلك كله إلا قد فـكر فيه عمر ، وقلبه من جميع وجوهه ، وشتى مناحيه،ثم برز ذلك أخبراً فى عهده إلى أولئك الستة الذين قال رسول الله(ص) إنهم من أهل الجنـــة ، والذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم

راض (١) فإنهم حتى مقتل عمر لم يبدلوا تبديلا .

وأخيراً انتخب عثمان من هؤلاء الستة ،وبعد أن أخذ عليهأن يعمل بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وسنة الشيخين من قبله(٢)أما تفصيل الطريقة التى اختبر بها عثمان فإننا نجمله فيما يلى :

بعد أن رأى عمر وسمع من حال الناس وحديثهم أنهم يريدون أن يوصى بالخلافة لبعض المسلمين وأنه إن لم يفعل فقد تكون فتنة،وأن عدم عهدالرسول لأحد من الناس ، لأنه صاحب الشريعة ، وعمله سنة واجبة الاتباع وأيضا فان الله سبحانه لم يوح إليه أن يستخلف : وإلا لاستخلف اطاعة لأمر الله تعالى ، وعلى ذلك فقد عهد أبو بكر إلى عمر خشية فتنة الناس وبعد أخذ رأيهم ولهذا أيضا أشار عمر ببيعة واحد من هؤلاء الستة : على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، ووضع لهم نظاما للبيعة حتى لا يختلفوا ، وتنشق عصا المسلمين ، وهم لا يزالون فى ريعان دولتهم ومبتدأ أمرهم . والحرب بينهم وبين أعدائهم قائمة فى جبهتين قال عمر :

ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله(ص) وهو عنهم راض فسمى علياً ، وعثمان ، والزبير،وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف، وسعداً رضى الله عنهم وقال : ويشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من هذا الأمر شىء — كهيئة التعزية له(٣) فإن أصابت الامارة سعداً فذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر ، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة .. فلما فرغ من دفن عمر . اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبدحمن بن عوف رضى الله عنه : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة

---

(١) تيسير الوصول لابن الديبع الزبيدى ج٢ ص ٥٢ .

(٢) الكامل لابن الأثير ج٢ ص ٢٧ .

(٣) المصدر السابق

منـكم . فقال الزبير قد جعلت أمرى إلى على ، وقال طلحة قد جعلت أمرى إلى عثمان ، وقال سعد قد جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف . فقال عبد الرحمن: أيكم يتبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام . لينظرن أفضلهم فى نفسه فأسكت الشيخان على وعثمان فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إلى والله على والإسلام أن لا آلوا عن أفضلـكم . قالا نعم . فأخذ بيد أحدهما . فقال : لك من قرابة رسول الله ﷺ والقدم فى الإسلام . ما قد علمت . فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن . ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال : إرفع يدك ياعثمان فبايعه وبايع له على وولج أهل الدار فبايعوه[١] ، قال الذهبى[٢] « اشتور أهل الحل والعقد بعد عمر ثلاثة أيام ، واتفقوا على مبايعة عثمان بن عفان الأموى - رضى الله عنه وهو من بنى عم النبى (ص) ويقال له ذو النورين ، لأنه زوجه النبى (ص) بابنتيه ، رقية ، وأم كلثوم — رضى الله عنهما ، فسار بسيرة عمر ستة أعوام »[٣] .

قال ابن الأثير[٤] « لما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى فى بيت المسور بن مخرمة ،وقيل فى بيت المال ، وقيل فى حجرة عائشة باذنها ، وطلحة غائب. وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب فحصبهما سعد وأقامهما .وقال تريدان أن تقولان حضرنا وكنا فى أهل الشورى .فتنافس القوم فى الأمر ، وكثر فيهم الـكلام فقال أبو طلحة : أنا كنت لأن تدفعوها

---

(١) تيسير الوصول ج ٢ ص ٥٢
(٢) دول الإسلام للذهبى ج ١ ص ٩.
(٣) نفس المصدر السابق .
(٤) الـكامل فى التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٣٦ ؛ ٣٧ .

أخوف منى لأن تتنافسوها ، والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى أمر ، ثم أجلس فى بيتى فانظر ما تصنعون » .

وفى الحق أن بيعة عثمان بن عفان – رضى الله عنه – كانت غريبة فى شكلها وهيئتها كما أن كثيراً من الناس كانوا يرون أحقية غيره بها من أمثال على – رضى الله عنه – وقد ألصقوا بعثمان بسبب ذلك كثيراً من التهم للنيل من بيعته . فقد قيل ان عبد الرحمن بن عوف حابى عثمان ، لصهره ولتكون له من بعده وقد رفع المقداد عقيرته قبل أن يفرغ الناس من البيعة بالاحتجاج على تصرف عبد الرحمن بصرف الأمارة عن على وآل محمد ﷺ إلى بنى أمية وعبد شمس ذلك . والبيعة لم تتم بعد ، والامارة لم تكد يسلم بها على عثمان . ولعل الناس لحظوا فى عثمان فرط حيائه ، وبروز لينه مما لا يتناسب والبيئة العربية إذ ذاك .

بل لعله فوق ذلك ، كانت فكرة التشيع لآل البيت وأنهم ظلموا غير مرة . قد تركزت فى نفوس كثير من القوم ، وصادفت هوى من نفوسهم فأرادوا أن يعطوا الأمر أهله فيما زعموا والقوس باريها — وانه ليتبين لنا ذلك من حديث المقداد وغيره أثناء بيعة عثمان رضى الله عنه .

وإذن فلم يكن انتخاب عثمان بإجماع مطلق من القوم . وإنما كان مطلباً ملحاً هوى لاغلب الناس، مكنت له ظروف خاصة . وأيده فعل عبد الرحمن بن عوف فى خلع نفسه من الأمارة ، وإن قام بها بتفويض من إخوانه حتى يختار لها الأصلح من بينهم بعد استيثاقة منهم ، ومن أنه سوف لا يفضل ذا رحم لرحمه ولاصهرا لصهره ، وإنه سيفعل الموافق لمقتضى الحق والعدل والتقوى والإسلام .

ولكن هل فعل ابن عوف رضى الله عنه ما أخذ نفسه بأن يفعله ذلك ما سنعالجه فيما يأتى وعلى ضوء ما سلف أن قررناه .

بعد أن انضم الزبير إلى على وسعد إلى عبد الرحمن وطلحة[١] إلى عثمان رأى عبد الرحمن — رضى الله عنه — أن يحسم مادة الخلاف ، فعرض عليهم اقتراحا وهو من يخلع منهم نفسه من الإمارة ، على أن تكون له مدة الأيام التى حددها عمر لهم ، حتى يختار خليفة من بينهم ، لا يألوهم جهداً فى تحرى العدل والحق ، ونبذ الجهل والعصبية . ثم رأيناه يتقابل مع المسلمين ، ويناقشهم فى عثمان وعلى ، ويتعرف رأيهم فيمن يصلح منهم للامارة ، وهكذا مضى ابن عوف جاداً فيما أخذ به نفسه من تعرف إرادة الأمة ، ومن توليه سلطانها ، وتمنحه تفضيلها من ذينك الرجلين ذوى الأسبقية والقدم فى الهجرة والإسلام .

هذا ولم تمض الأيام الثلاثة إلا ونرى عبد الرحمن يجمع الناس ثم يأخذ بيد على ، ويقول له ، عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده فيقول على . أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمى وطاقتى — ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى . فقال نعم نعمل فرفع « عبد الرحمن » رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان ، فقال . اللهم انى قد جعلت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان . فبايعه . فقال على فيما يزعمون ، ليس هذا أول يوم تظاهر تم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ؛ والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو فى شأن ؛ فقال عبد الرحمن يا على لا تجعل على نفسك حجة وسبيلا ؛ فخرج وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله[٢] .

ذلك — فيما يزعم الرواة — ما كان بين عبد الرحمن بن عوف وبين المرشحين

---

(١) كذلك فى تيسير الوصول ، ولكن بن الأثير الجزرى فى الكامل يذكر أن طلحة كان غائباً ولم يحضر إلا بعد المبايعة لعثمان ، وعليه فلم يذكر القصة التى فيها انضمام بعض أهل الشورى إلى بعض .

(٢) ابن الأثير ج ٣

للخلافة من إخوانه وزملائه أهل الشورى ، ومنه يبدو أن علياً ـ رضى الله عنه ـ كان غير مطمئن إلى عبد الرحمن بن عوف . أن كان يرى نفسه أولى الناس بهذا الأمر ، ولكنه وافق على رغم منه ، لأنه كان كما قال للعباس عمه رضى الله عنه . انه يكره الخلاف[١] — وأما جمهور المسلمين من غير أهل الشورى ، فالظاهر أن كثيراً منهم كان قلقاً من نتيجة هذا الانتخاب وبدا ذلك جلياً فى حديث المقداد ابان البيعة لعثمان فقد قال المقداد لعبد الرحمن ، أما والله لقد تركته « يقصد علياً » وانه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون ، فقال له عبد الرحمن يا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمين ، قال إن كنت أردت الله . فأثابك الله ثواب المحسنين فقال المقداد . ما رأيت مثل ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم إنى لأعجب من قريش إنهم تركوا رجلا ما أقول ولا أعلم أن رجلا أقضى بالعدل ولا أعلم منه ، والله لو أجد أعوانا عليه . فقال عبد الرحمن : يا مقداد اتق الله فانى خائف عليك الفتنة[٢] .

ذلك — وإن هذه المحاورة على قصرها بين المقداد بن الأسود ، وبين عبد الرحمن بن عوف لتدل دلالة واضحة على ما كان يجيش بنفوس القوم من أفكار وآراء ، ظهرت فيما بعد ، واتسعت فى خلافة عثمان ، وحيائه الجم الذى لمسه فيه الرسول (ص) نفسه حتى قال (الا أستحيي ممن تستحى منه الملائكة)[٣] .

ثم أمر آخر نتبينه من محاورة العباس لعلى ، ومفاجأة أبى طلحة لهما وهما

---

(١) ابن الأثير حـ ٣ وتيسير الوصول حـ ٢ والطبرى فى تاريخ الأمم والملوك .

(٢) ابن الأثير فى الكامل حـ ٣ .

(٣) ابن الديبع الزبيدى تيسير الوصول حـ ٣ .

يتحادثان — وخلاصة الحديث ، كما رواه الاخباريون من محترفى إذاعة الأنباء وقتئذ أن العباس بن عبد المطلب لقى عليا رضى الله عنه بعد أن خرج أهل الشورى لأول اجتماع لهم ، فقال على : عدلت عنا ، فقال وما علمك . فقال قرن بى عثمان، وقال : كونوا مع الأكثر فان رضى رجلان رجلا ورجلان رجلا، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف فسعد لا يخالف ابن عمه ، وعبد الرحمن صهر عثمان ، لا يختلفان فيوليها أحدهما الآخر ، فلو كان الآخران معى لم ينفعانى ، فقال له العباس. لم أرفعك فى شىء إلا رجعت إلى مستأخراً لما أكره. أشرت عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت فأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت وأشرت عليك حين سماك عمر فى الشورى أن لا تدخل معهم فأبيت، احفظ عنى واحدة، كل ما عرض عليك القوم. فقل لا إلا أن يولوك ، واحذر هؤلاء الرهط . فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا، وايم الله لا يناله إلا نفر لا ينفع معه خير فقال على: اما لئن بقى عثمان لأذكرنه ما أتى ، ولئن مات ليتداولونها بينهم ، ولئن فعلوا لتجدنى حيث يكرهون .

والتفت على فرأى أباطلحة ؛ فكره مكانه ، فقال أبو طلحة لن تراع أبا الحسن .

ونستطيع أن نستنتج من هذه المحاورة المزعومة بفرض صحتها بين العباس وعلى عدة أمور ربما كان لها أثر فيما بعد فى مقتل عثمان رضى الله عنه. بل وفيما نجم عن ذلك من نتائج وخيمة ، سعرت نار الحروب الأهلية شهوراً وأعواماً بين الذين كانوا بالأمس الدابر كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. فمن ذلك أن بذرة التشيع لتفضيل على كانت قد اختمرت فى أنفس كثير من عظماء الصحابة أمثال المقداد بن الأسود الذى جعله عمر بمنزلة الرقيب

على هؤلاء المرشحين لمنصب الخلافة ؛ والذى لم يكد يرى المبايعة لعثمان حتى يحتج على تصرف ابن عوف ، وأنه تخطى علياً بغير حق . حسبما زعم الرواة .

وكذلك أبو طلحة الذى وكل إليه عمر أن يستعمل القوة فى إرغام المرشحين على انتخاب واحد منهم فى المدة التى عينت لهم . وأنهم إذا اختلفوا ولم ينتخبوا واحداً من بينهم . كان أبو طلحة فى حل من اهدار دماء المخالف منهم . . . هذا الرجل الذى كان بهــذه المنزلة رأيناه يعطف على علىّ فعندما كان العباس يتحدث وعلياً اطلع عليهما أبو طلحة فكره مكانه على ، فطمأنه أبو طلحة ، وصارحه الحب والتفضيل من هذه العبارة (لن تراع أبا الحسن[١]) مع أن علياً كان يتحدث والعباس فى منتهى الصراحة منتقداً سياسة أهل الشورى فى تفضيلهم غيرهم عليهم مع أنهم أحق الناس بهذا الأمر . . ومعلناً أنه سوف يغامر بالاغضاء عن هفوات الناس هذه المرة أيضاً ، ولــكنه سوف يخالفهم فى المستقبل إذا أصروا على هذه السياسة التى وضعت الأمور فى غير نصابها.. ومن هذه الأمور أيضاً.أن علياً رضى الله عنه كان يشعر بأنه قد ظلم . وخصوصاً فى بيعة الشورى . فان عمر نفسه قد صرح بأنه كان يود أن يعهد إلى الرجل الذى هو أحرى أن يحملهم على الطريق . وهو على بن أبى طالب لولا أنه خشى عليه فرأى حول على بر أو فاجراً. فعدل عن البيعة له خاصة وجعلها شورى بين النفر الذين يعتقد أنهم رؤوس القوم وخيرهم والذين هم فى نظره لايبدلون الخبيث بالطيب ولو قل الطيب وكثر الخبيث. فوق أن رسول الله ﷺ قال انهم من أهل الجنة .

---

(١) الـكامل لابن الاثير حـ ٣ ص ٢٦

وإذا كان بعض الناس يميل إلى أن عليا رضى الله عنه ، لم يتلعثم فى البيعة لواحد من الثلاثة، فإن ذلك لم يكن إلا لما صرح به على نفسه من أنه فقط – يكره الخلاف – وإلا فانه كان يرى أنه أحق الناس بهذا الأمر وأن الذين يصرفونها عنه إنما كانوا مخطئين فى هذا الصرف ، ولو بعض الخطأ – واليك رد علىّ على عبد الرحمن عندما قبل هذا خلع نفسه من الخلافة.. قال عبد الرحمن: أيكم يخرج منها نفسه ، ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ، فلم يجبه أحد ، فقال فأنا أنخلع منها فقال عثمان أنا أول من رضى ، فقال القوم . قد رضينا ، وعلى ساكت ، فقال: ماتقول يا أبا الحسن ، قال أعطنى موثقاً لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولاتخص ذا رحم ، ولا تألوا الأمة نصحاً . فقال اعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم، وعلى ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا ألو المسلمين فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله . فقال لعلى تقول انى أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك؛ وحسن أثرك فى الدين ولم تبعد فى نفسك، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر . من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به ، قال عثمان وخلا بعثمان فقال : تقول شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه ولى سابقة وفضل ، فأين يصرف هذا الأمر عنى ، ولكنك لو لم تحضر أى هؤلاء الرهط ترى أحق به. قال على :

فأنت ترى أن علياً كرم الله وجهه لا يتعجل الإجابة على ابن عوف لا بالإيجاب ولا بالسلب ، وإنما يلتزم السكوت فى الوقت الذى يجيب عثمان بقوله (أنا أول من رضى) ثم يردفه القوم بأنهم أيضاً رضوا ، ولكن علياً لا يزال مصراً على التزام الصمت حتى يوجه إليه عبد الرحمن الحديث مرة أخرى فيجيب على بأنه يوافق ، ولكن على أن يعطيه العهد والميثاق أن لا يتبع الهوى ، وأن لا يؤثر

ذا رحم لرحمه ، ولا صهراً لصهره وإذن فعلى كان ـ كما قلنا ـ غير مطمئن إلى واحد من القوم لا يرى أنه وحده أحق بهذا الأمر من سائر الناس ، وأنه ظلم ، وإليك حديثاً آخر دار بين سعد بن أبى وقاص ، وبين على ، يوضح لنا ناحية أخرى من النواحى التى كان يرى فيها على أنه أحق الناس بالخلافة من سواه. لقى على سعداً فقال له: اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام، أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله ﷺ وبرحم عمى حمزة منك أن لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً، وهذا قبل أن يدور ابن عوف على الناس ليعرف اتجاهاتهم نحو على وعثمان فيما زعم الرواة كهذه جمل موجزة لبيان الكيفية التى انتخب بها عثمان لإمارة المؤمنين وما احاط بها من عوامل، وما بدا فيها من أغراض وغايات، وفيها أيضاً بيان موجز لصورة العصر الذى حدثت فيه هذه البيعة، وعرض لبعض الشخصيات التى كان لها أثر بين فيما بعد فى الفتنة ، وفى الحروب الأهلية بين على ومعاوية ، وبين على وأصحاب الجمل ، ولا بد من تسجيل صورة ولو مصغرة لبعض هذه الشخصيات العثمانية والعلوية التى لعبت دوراً مهما فى انتخاب عثمان، وفى بيعة على وإليك ما حدث بالمسجد يوم البيعة لعثمان :

بعد أن جمع عبد الرحمن الرهط من أهل الشورى ، وأهل السابقة والفضل من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد قال :

أيها الناس إن الناس قد أجمعوا على أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم فأشيروا على فقال عمار إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً فقال المقداد بن الأسود صدق عمار . إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا ، وقال ابن أبى سرح . إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان ، فقال عبد الله بن ربيعة : صدقت . إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا فتبسم ابن أبى سرح فقال عمار متى كنت تنصح

المسلمين ، فتكلم بنوهاشم وبنو أمية فقال عمار : أيها الناس ان الله أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه . فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم . فقال رجل من بنى مخزوم لقد عدوت طورك يا ابن سمية . وما أنت وتأمير قريش أنفسها . فقال سعد بن أبى وقاص . ياعبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس : فقام عبدالرحمن فقال: إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا.

وإذا كنا لا نحب أن نسهب فى التعليق على هذا الذى حدث بين عمار ومن على شاكلته ، وبين ابن أبى سرح ومن يتحزب له ، فإنما ذلك . فقط لأننا نجل جميع الأصحاب الذين رشفوا من معين الوحى النبوى . ان تزل قدم بعد ثبوتها ، مهما اشتد بينهم خطب الخلاف ، وتفاقم سعير الأضغان .

لذلك سوف نمر — على كل ماحدث بين صحابة رسول ﷺ مر الكرام فنسجل ما يستحق التسجيل — من غير تعليق كبير — وننبذ ما يستوجب النبذ — من دون أن نحقر أو نستهين ، إجلالا لصدر الإسلام وإكباراً لسلف القادة من أهل الإيمان .

بعد أن استقر الأمر لعثمان بن عفان — رضى الله عنه — التفت إلى شئون الدولة الإسلامية، فبدأ بمسألة عبيد الله بن عمر وقد كان قتل قاتل أبيه أبالؤلؤه[1]، وقتل جفينة ، وقتل الهرمزان ، فلما ضربه بالسيف . قال .

لا إله إلا الله . فلما قتل هؤلاء أخذه سعد بن أبى وقاص وحبسه فى داره ، وأخذ سيفه وأحضره عند عثمان ، وكان عبيد الله يقول . والله لاقتلن رجالا ممن شرك فى دم أبى — يعرض بالمهاجرين والأنصار — أما السبب الذى من أجله قتل

---

(١) يروى أنه بعد أن قتل نفراً من الصحابة بعد عمر . نحر نفسه بخنجره .

عبيد الله هؤلاء جميعا . مع أنه لم يباشر قتل عمر منهم غير أبى لؤلؤة ، فقد قيل ان عبد الرحمن بن أبى بكر قال غداة قتل عمر . رأيت عشية أمس : الهرمزان ، وأبا لؤلؤة ، وجفينة ، وهم يتباحثون فلما رأونى ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ، وهو الخنجر الذى قتل به عمر فلما سمع ابن عمر ذلك غضب وقتل هؤلاء جميعاً فلما ولى عثمان . قال أشيروا على فى هذا الرجل الذى فتق فى الإسلام ما فتق فقال على رضى الله عنه ، أرى أن تقتله . فقال بعض المهاجرين . قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم، فقال عمرو بن العاص إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان ، فقال عثمان أنا وليه ، وقد جعلتها دية واحتملها فى مالى .

على أنه قيل فى سبب اطلاق عبيد الله قصة أخرى يرويها ابن الأثير[1] وهى . قال القماذيان ابن الهرمزان . كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض فمر فيروز أبو لؤلؤة بالهرمزان ؛ ومعه خنجر له رأسان . فتناوله منه وقال ما تصنع به . قال . استعين به . فرآه رجـــل . فلما أصيب عمر . قال . رأيته الهرمزان دفعه إلى فيروز . فأقبل عبيد الله فقتله فلما ولى عثما امكننى منه . فخرجت به ، وما فى الأرض أحد إلا معى ، إلا أنهم يطلبون إلى فيه فقلت لهم ، إلى قتله قالوا نعم ، وسبوا عبيدا الله ، قلت لهم أفلكم منعه ، قالوا لا وسبوه فتركته لله ولهم ، فحملونى ، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الناس .

هاتان روايتان أوردهما المؤرخون فى قصة إطلاق عبيد الله بن عمر ، وعدم قتله فى ثلاثة أراق دماءهم من غير حق ظاهر ، اللهم إلا فيروزا ـ على فرض حياته بعد طعن عمر ـ ولو كان فى قتلهم حق له ، لما كان ذلك إليه ، وإنما هو إلى

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٢٩ ، ٣٩

من[1] وكل إليه إقامة الحدود، وتأمين السبل، وإلزام كل حده وطوره، لا جرم أن تمسك على بقتل عبيد الله وظل على رأيه[2] ذلك حتى ولى الخلافة، فطلب عبيد الله فهرب منه إلى معاوية رضى الله عنه.

ذلك... ولابد من المقارنة بين الروايتين؛ وما تلقى كل منها من شعاع على مقتل عمر، ثم ما يتبين من خلالهما من قصد اتهام الهرمزان وجفينة، ومشاركتهما لفيروز، أو تبرئتهما، ونفى التآمر عنهما.

---

(١) قال أبو حنيفة ان القصاص لا يستوفى إلا بالسيف، يقصد أن رئيس الدولة أو نائبه هو الذى ينفذ حكم القصاص لا الأفراد. وأظن ذلك هو المتسق مع الشريعة الإسلامية، وإلا لكان الأمر فوضى، والشريعة تأمر بالنظام.

(٢) تمسك على بعد ذلك دليل على أن عثمان لم يحكم به وهو صاحب الأمر على المسلمين، فيكون حكما واجب النفاذ، ولا يصح الرجوع فيه لمن يأتى بعده من الأئمة، وقد يكون حدث ذلك لمجرد تهدئة الثورة. ودفع المفسدة مقدم على جلب المصلحة، إذ (لا ضرر ولا ضرار) ولما رأى على بعد ولايته أن قد هدأت الفتنة بهذا الأمر طلب عبيد الله بن عمر. فلذلك هرب وآواه معاوية. وظل عنده حتى قتل فى الحرب بينه وبين على فى « صفين ».

هذا ولعل علياً كان يرى خطأ عثمان فى هذا الحكم. وأنه حكم فى رأيه بغير ما ينبغى، لأن عبيد الله قتل جماعة بعضهم أظهر إسلامه وقت قتله وهو الهرمزان، والآخر أقل ما فيه أن له ذمة فى أعناق المسلمين، ما ينبغى أن تخفر ولا حجة له فى قتلهم فأنى لعلى — رضى الله عنه — ان يتجاوز عن مثل هذا الدم الذى أريق من غير حق، وهو يعلم أن طاعة الخليفة فى هذا غير واجبة. إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وقد قال الله سبحانه (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) وقال (النفس بالنفس) الآية، فلعلى بعض الحق، ولعثمان شىء من العذر؛ وغفر الله لعثمان؛ ورضى الله عنه وعن على، وعن سائر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان.

أما فى الرواية التى تثبت التهمة على الهرمزان وجفينة فإنها تحكى عن بعض الثقات الذين لاغرض لهم من وراءها وهو شاهد عدل لما رأى، وقد أخبر بأنه رأى كل هؤلاء الثلاثة يتناجون ومعهم شىء بينهم ، فلما رأوه ثاروا فسقط منهم خنجر له رأسان وهو الذى قتل به عمر رضى الله عنه .

نعم — قد يقال : لماذا لم يلتقط عبد الرحمن هذا الخنجر ما داموا قد ثاروا لرؤيته ، ولم يثبتوا مكانهم . مما يدل على أنهم شارعون فى أمر ربما قلب الدولة الإسلامية ، ولعل عبد الرحمن كان خالى الذهن من مثل هذه المؤامرات فهو لم يعهد أمثالها كثيراً فى البيئة الإسلامية ، كما أنه كان يستبعد مثل هذه الأفكار أن تكون فى رؤوس نفر أذلة بين قوم سادة أعزة لو أنهم فعلوا لقطعوا إرباً ، ولمزّقوا بدداً .

وأما فى الرواية الأخرى . فانها . مع إثباتها أصل الاجتماع ـ تنفى أن يكون بقصد التآمر منهم جميعاً ، وإنما هو استرواح بعض العجم إلى بعض، ولم يكن إمساك الهرمزان بالخنجر للتثبت من قيامه بمهمة صاحبه ، وإنما هو لمجرد الاستطلاع فقط ، كما أن جفينة أيضاً كان جاهلا كل الجهل بما حدث حتى قتله عبيد الله وهذا فوق أن فى الرواية الأخيرة كثيراً من التكلف ـ وبواحى من اللف والدوران ـ على أنها تروى عن ابن الهرمزان نفسه ، وكأنه يريد أن ينفى عن أبيه تهمة التآمر على رئيس الدولة خشية منه وحذراً — لذلك يقول ابن الأثير . والأول أصح فى إطلاق عبيد الله . لأن علياً بعد ذلك طلبه فهرب منه إلى معاوية بن أبى سفيان .

على أن أمرين آخرين لابد من تفنيدهما قبل مغادرة هذه المسألة وهما :

١ — هل حدث قتل عبيد الله لهذا النفر وقت وفاة عمر أو بعدها .

٢ — هل اشترك كعب الاحبار فى هذه المؤامرة الخطيرة ولماذا لم يتعرض له ابن عمر كما تعرض لصاحبيه ، مع أن التهمة له أظهر .

(١) أما عن المسألة الأولى فإنه ليخيل إلينا أن القتل لهؤلاء الفرس إنما حدث بعد موت عمر . فإننا لا نجد رأيا له رضى الله عنه فى مثل هذه المسألة على خطورتها ، مع أن الهرمزان ليس بالشخصية المجهولة . فهو قد كان من عظماء فارس ، وهو أيضاً لا يزال موضع إجلال عمر ، يستشيره ويأخذ برأيه فى كثير من مشاكل الفرس الداخلية وغيرها وجفينة ظهير لسعد بن مالك

على أننا إذا قطعنا النظر عن كل اعتبار آخر . نرى أن الهرمزان عند ما ضرب به ابن عمر . يقول : لا إله إلا الله ، فمعنى ذلك أنه أسلم ، وأنه لا يحل لعبيد الله قتله — إلا بحق ولا حجة على تلوث الهرمزان بدم عمر . فأنى للمسلمين — وهم لم يتأبهم الزمن بعد عن صاحب الشريعة — أن يروا مثل هذا الدم يراق بغير حقه . ولا يقتصون من القاتل وسيما عمر فهو إذن لم يكن موجوداً وقت قتل الهرمزان وصاحبه — أو صاحبيه وإلا لرأينا منه موقفاً آخر يتناسب ومواقفه الحاسمة فى تاريخ الإسلام ثم انه يوجد هناك دليل آخر يؤخذ ضمنا من حديث المؤرخين بصدد هذه المسألة — فقد روى أن عبيد الله لما قتل الهرمزان وجفينة وأبا لؤلؤة[1] أيضاً لحقه سعد بن أبى وقاص فقبض عليه وحبسه وأخذ منه السيف وأحضره إلى عثمان[2] .

وإذن فلم يحضره سعد إلى عمر ، ولم يحضره كذلك إلى أهل الشورى جميعاً وإنما أحضره إلى عثمان وإلى عثمان بالذات وأظنك تعلم أن عثمان إنما تولى الخلافة بعد موت عمر بأيام . ولذلك رأينا عثمان يأمر باحضار عبيد الله . ويستشير

(١) هذا على القول بعدم انتحاره بخنجره وقت الحادث .

(٢) الكامل لابن الاثير

الصحابة . ثم يرفض الرأى القائل بقتل عبيد الله ويجعل عوض القصاص دية يحتملها فى ماله — حيث هو صاحب الأمر : والمهم من ذلك كله أن عمر لم يكن حيا حين قتل إبنه عبيد الله بعض رجال من فارس .

أما عن مسألة « كعب الإحبار » واشتراكه فى التآمر على عمر ، فإن من العسير على من يقرأ قصته باهتمام أن يخلى طرفه من هذه التهمة؛ وإن صح ما يروى عنه مع عمر . فإنه يكون — بلا ريب — من أبطال هذه المؤامرة الخطيرة بل لعله الروح الفعالة فى حبكها وإحكامها ، وإليك خلاصة هذه القصة.

بعد حوار وجيز بين عمر — رضى الله عنه — وبين فيروز غلام المغيرة ابن شعبة ، شاكيا إلى عمر كثرة خراجه وقلة إيراده — ثم مصرحا بكلمات فهم منها عمر روح التهديد والوعيد ، وإن كان لا يعبأ بمثلها ومثل المصرح بها. لظروف الناس وقتئذ — بعد هذا غدا إليه كعب الاحبار ، وقال له : يا أمير المؤمنين إنك ميت بعد ثلاث فاعهد ، فقال له عمر ، وما عرفك هذا ، فيقول كعب : إنه يجد هذا فى التوراة ، ثم يكرر كعب الاحبار هذه النصيحة لعمر مرتين أخريين ، وفى اليوم الثالث تقع الجريمة الشنيعة من فيروز غلام المغيرة ثم يدخل كعب على عمر فيمن يدخل من الناس ، فما يكاد عمر يراه حتى يقول :

توعدنى كعب ثـــلاثا أعدها ولاشك أن القول ما قال لى كعب
وما بى حذار الموت أنى لميت ولــكن حذار الذنب يتبعه الذنب

هذه هى القصة كما يرويها المؤرخون ، والغريب المدهش أن تروى على أنها من الأمور العادية التي يسوغها العقل ، ولا ينبوعنها المنطق ولـكن لو أننا سلطنا عليها شيئاً من عصارة الأفـكار الاسلامية ، ووضعناها فى ميزان النقد والتحليل التاريخى لتبين لنا أنها موضوعة من أساسها ، مقولة على السنة طالما كادت للاسلام ، وبغته عوجا .

ذلك . وان الناظر فى هذه القصة ، أو بالحرى الأسطورة ليرى فيها . أن عمر كان رجلا من رجال التصوف فى الأيام الأخيرة ، يصدق كل ما يلقى إليه ولا يأبى أن يستمع إلى حديث الغيب ،وأن يوافق المتحدث به ، وتصور القصة لنا كعب الاحبار بصورة الرجل الناسك الزاهد الخائف على الاسلام والمسلمين فى شخص أميرهم ورئيسهم كما أنها تدعو من طرف خفى إلى الإيمان بكتب اليهودية ، وتقديس هذه التوراة التى يستند إليها الاحبار من إخوان كعب ووهب ، وابن السوداء ،وإن ذكر الكتاب أن التوراة لحقها التبديل والتغيير ، وأن اليهود بنوع خاص يحرفون الكلم عن مواضعه ، وانهم من شر خلق الله انساناً وأن الله سبحانه قد غضب عليهم ولعنهم ، وجعل منهم القردة والخنازير ، ومن عبد الطاغوت .

فمن غير الممكن عقلا أن نسلم بهذه القصة على علاتها ؛ بل . إما أن يكون لكعب ضلع فى هذه المؤامرة وأراد تبرئة نفسه.فقال ذلك ؛فلم يعره عمر اهتمامه تحقيراً لشأنه — على أن يكون الثابت هو — فقط — أصل القصة ، لا هذا الخضم من الأكاذيب والمفتريات التى حشيت بها القصة .

وإما أن تكون القصة مختلقة ؛ والغرض منها . هو الغاية من كل ماوضعه اليهود ومن لف لفهم من صرف الناس عن الاسلام . بإدخال الخرافات فيه .. والنيل من الشخصيات التى قام عليها . وتصوير القادة الذين نشروه بصور خيالية تشمئز من سماع الحديث عنها العقول الصافية . والألباب الناضجة .

الباب الثالث

الفتنة الكبرى

تمهيد

ظلت دولة الإسلام ، طوال عهدى الشيخين الجليلين أبى بكر وعمر ، وصدرا من عصر ذى النورين عثمان بن عفان — رضى الله عنهم ، على جانب كبير من القوة والازدهار والتقدم ، حتى اكتسحت أعظم إمبراطورية فى العالم القديم ، وهى دولة الأكاسرة ، وضمت جميع أملاكها ومستعمراتها ، والشعوب المتحالفة معها ، أو المنضوية تحت نفوذها ، إلى الدولة الإسلامية ، فى مدة قصيرة جداً لم تتجاوز عشر سنوات ، وهذا فى مشرق الأرض الذى فى حكم أباطرة الفرس .

أما فى القسم الغربى ، فإن الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تبسط نفوذها على أوروبا الشرقية ، وجزر البحر الأبيض ، والشام ، ومصر ، وإفريقية ؛ وكانت تنافس الامبراطوية الفارسية فى الجزيرة العراقية ، والموصل لم تقو على مواجهة القوة العربية الاسلامية ، إذ انهزمت الجيوش الرومانية الجرارة ، فى اليرموك ، ثم فى أجنادين ؛ وأخيراً فى موقعة « عين شمس » الفاصلة التى قضت نهائياً على نفوذ الروم فى آسيا ، وإفريقية ، وبهذا أظلّ النفوذ العربى الاسلامى هذه الرقعة الفسيحة من قارتى آسيا ، وإفريقية ، وأظلت مبادىء الاســـلام ، وحضارته ، وشريعته السمحة شعوب تلك الأقطار الشا عة .

لقد كان هذا كله فى فترة وجيزة ، لا تعدو بضعة عشر عاماً، بل أدنى من ذلك بكثير ، فأحدث ذلك ذهولا خطيرا فى أنحاء الدنيا ، إذ لم يكن يجول بخاطر أحد ممن يرقبون التطورات العالمية ، أن تبلغ الوثبة العربية هذه القمة من الحكم والسلطان .

ولكن الذى لا ريب فيه ، أن الحركة الثورية الهادفة ، التى أشعلها البعث الاسلامى ، قد أيقظت العملاق العربى ، وكشفت عن الخصائص الأصيلة للأمة العربية ، كما أوضحت لكل عربى ، أنه يتمتع بمقومات فطرية ممتازة ، وأنه لم يترهل من الترف والسرف والتبذل ، كما كان الحال فى دولتى الأكاسرة والقياصرة ، بل ظلت الفطرة الانسانية على جبلتها فى جمهرة القبائل والشعوب العربية ، على اختلاف مشاربها وأقاليمها ولهجاتها .

ومرة أخرى ، نؤكد أن هذا الانتصار الساحق، الذى أحرزه العرب المسلمون فى ميادين الحرب والسياسة ، وفى أدب، البحث والفكر ، والمناظرة ، رغم عدم ممارستهم لأساليب الفلسفة ، والحضارات الرائجة فى بعض الأمم والشعوب التى كانت تصاقبهم ، وتغاملهم ، كان مثاراً لتساؤلات ، ومؤامرات لدى دول العالم .

هذه واحدة ، ينبغى أن نعيها ونذكرها دائما فى مستقبل العروبة والاسلام فى أخريات العهد الرشيد ، وإبان الفتنة الكبرى ، التى بدأت بطعن عمر ثم تفاقم أمرها فى عهد عثمان وخلفائه .

أما الأخرى ، فإن أمر دراستها ، ينبغى أن يتجه شطر الصراع الذى سلف للمسلمين مع يهود إسرائيل ، أولئك الذين حاولوا تدعيم مركزهم فى يثرب من إقليم الحجاز بشتى الوسائل والأساليب، المادية العسكرية والثقافية اليهودية ، ثم بالمحالفات والاستحواذ على بعض ضعاف النفوس ، من منافقى العرب ، حتى لقد بلغ منهم

الأمل والطموح ، إلى حد أن يصنعوا التيجان المرصعة ، ليضعوها على رأس العميل الوضيع عبد الله بن أبى فى أرض الحجاز، ولكن الذى كتب على اليهود، الذلة أينما ثقفوا خلق الظروف التى جعلت حملة المبادىء الاسلامية ، ودعاة الحنيفية ملة إبراهيم الحقيقية ، يهاجرون إلى يثرب، ويركزون فيها نشاط الحركة الاسلامية التى آمن بها جمهرة الأوس والخزرج — وهم أهل المدينة الأولون — ثم نظموا مع إخوتهم المهاجرين ، دولة جديدة ، وأمة مثالية ، يقوم على قيادتها محمد رسول الله الذى استطاع بحكمته السديدة ، أن ينهض بكل المرافق العامة فى أول دولة عربية سجلها التاريخ لتلك الأمة ، فى عصر الجشع الاستعمارى القديم الذى نفذ إلى أطراف الجزيرة من دولتى الفرس والروم، ثم اقتحم منطقة الحجاز فى شكل حصون حربية يَسَّرَ لليهود إقامتها فى شمالى يثرب ، وعلى جانبى الطرق التجارية ، الموصلة بين الشام والحجاز ، حيث القوافل العربية تواصل نقل تجارتها الدائبة بين الشام والحجاز .

نقول : إن إقامة ددلة عربية إسلامية فى بلد أحاطه اليهود بالقواعد العسكرية بقصد التركيز والتوسع الإسرائيلى من جهة ، ثم بفرض تدعيم الاستعمارين الفارسى والرومانى من جهة أخرى ، خيب أمل اليهود ، وهز ركائز الاستعمار الفارسى فى العراق واليمن ، والرومانى فى مصر والشام ، وشمالى إفريقية . ولهذا هب اليهود أولا فى شبه حركة جنونية ، يكيدون للاسلام ورسوله ودولته ، ويدبرون ضروب المؤامرات لهدم مبادىء الدين ، وإذاعة المفتريات والشائعات الضارة بدولة العرب .

وإذ قد رأينا فيما سبق، طرفا من النشاط الإسرائيلى ضد الإسلام ودولته، فلا نرى أن نعيد الآن تفاصيله ، وفقط نشير هنا إلى أن تأمين دعوة الإسلام واستتباب

الأمن والنظام،قدأصبح غير ممكن مع وجود شراذم العدوان الاسرائيلية الحاقدة والضالعة علنا مع أعداء الدين والدولة .

وبالرغم من ذلك كله ، فإن رسول الله (ص) لم يعجل فى أخذهم بتلك الأفعال ، بل صبر عليهم ، حتى أسفروا عن حقيقة موقفهم بالاعتداءات المتلاحقة على المسلمين والمسلمات ، بل لقد قرروا ضرب الجيش الاسلامى فى ظهره يوم الخندق وغيره ، مما اقتضى فرض الحصار عليهم ، وإنزال الجزاء العادل بهم وبامثالهم ، سواء بطردهم من أرض الدولة ، أو تأميم مؤسساتهم وأموالهم .

على أن الذى أثار حفيظة اليهود أكثر من أى شىء آخر ، هو : الاعلان العالمى العام بإلغاء نظام الربا ، الذى أذاعه القرآن الكريم وأكده بالتنفيذ والتطبيق العملى النبى محمد (ص) ، وبهذا فقد اليهود مبالغ ضخمة كانت مستحقة لهم بحكم شريعة الربا الفاحش ، التى كانوا يمارسونها فى أوسع مدى ، وإلى أبعد الحدود .

ومع هذا فقد رضخ اليهود للأمر الواقع ، فى عهد النبى (ص) وصاحبيه ولم يتمكنوا من إثارة فتنة ذات بال ، إذا استثنينا « حركة الردة » التى ظنوها قاصمة الظهر لدولة العرب الإسلامية ، ولكن حزم الصديق وحكمته ، وصمود المسلمين ، فوت عليهم هذا الغرض ، إذ أخمدت تلك الحركة الانفصالية الخطيرة فى بضعة أشهر ، وواصل العرب بعدها — وهم كتلة واحدة ، نضالهم ضد طغاة الفرس والروم ، حتى دحروهم كما سبق .

ومما لاريب فيه ، أن اليهود منذ ذلك الوقت ، وهم دائبو التفكير والتدبير فى عمل شىء يشبع نفوسهم الطلعة إلى الإثم والعدوان ، يظاهرهم بقايا الفرس الذين تقلص نفوذهم .

لهذا : فقد بدأت الحلقة الأولى من سلسلة الفتنة ، والتآمر ضد الإسلام ، ورجاله ودولته، بجريمة اغتيال عمر التى أسلفنا جملة عنها ، ثم باغتيال عثمان وعلى ومحاولة اغتيال معاوية وعمرو ، مما نعرض لبسطه فى الفصول التالية ، وبعد أن نقدم ترجمة موجزة للتعريف بهذا الرجل العظيم ، عثمان بن عفان رضى الله عنه، الذى حمل عبء الخطر الأكبر الذى استعر فى العقد الرابع ، من القرن الأول للهجرة النبوية .

الفصل الأول

عثمان يواصل توجيه الجهاد

نسبه وسيرته :

هو : عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. ولد فى السنة الخامسة من ميلاد الرسول (ص) ومن عام الفيل ، وشب على مكارم الأخلاق ، وعرف بالحياء والحلم ، وشجاعة الجنان .

أسلم على يد أبى بكر فى مرحلة الدعوة السرية ، وتزوج بنتى رسول الله (ص) رقية وأم كلثوم ، وهاجر الهجرتين : الحبشة والمدينة ، حضر المشاهد كلها عدا بدراً التى عاقه عنها تمريضه لزوجته المشرفة على الموت ، وسفر بين المسلمين والمشركين فى عمرة الحديبية . ومن أجله بايع الرسول صحبه بيعة الرضوان . ولقد أسهم فى تبوك بقدر كبير من المال لم يستطعه سواه ، ووضع نفسه وماله ونفوذه تحت تصرف دينه ورسوله .

كتب لأبى بكر وعمر ، وكان من كبار أعضاء مجلس الشورى فى زمن الرسول وصاحبيه . ثم بعد أن طعن عمر اتفقت أغلبية أهل الشورى على انتخابه خليفة بعد عمر . فساس الدولة خير سياسة فى أيامه الأولى ، ثم ابتلى بالفتن والدعاوى التى نفشت أباطيلها فى الأمصار ، إلى جانب أقاربه من بنى أمية الذين زينوا له حسن تقديمهم على المهاجرين والأنصار ، وأنه صلة منه لأرحامهم ، وهم ذوو كفاية وقدرة أكثر من غيرهم ، فكانت العاقبة ما نتلو بعد فى موضعه .

فتوح عثمان :

بعدأن بلغ المدالإسلامى غاية مابعدها غاية فى عهد عمر . إذ أزال الامبراطورية الفارسية من لوحة الوجود ، وضم أملاكها إلى الدولة . وطرد الرومان من الشام وفلسطين ومصر وطرابلس وبرقة ، وقسمت هذه الأقطار إلى ولايات على كل منها أمير يأتمر بأمر المدينة ، ولم يكن حين تولى عثمان شىء من النضال بين المسلمين ومجاوريهم يستحق أن يطلق عليه مواقع مهمة ، بل كل ما حدث إنما هو إما إخضاع لإقليم يحاول الانتفاض ، وإما توسع فى أنحاء صغيرة متاخمة .

ولهذا فإننا سنذكر أهم الولايات التى قام أمراؤها ببعض الحركات الحربية فى عصر عثمان .

جهاد الكوفة : ومن أهم الولايات التى كانت لها حروب ، ولاية الكوفة ، وقد كان ميدانها فى الرى وأذربيجان ، وكان بالكوفة أربعون ألف جندى ، وقد رابط منهم عشرة آلاف بالرى ، ومثلهم بأذربيجان بعد فتحهما ، وقد انتقضت أذربيجان فى إمارة الوليد بن عقبة للكوفة ، فأخضعها لحكم الدولة الاسلامية .

وحدث أن أرادت أرمينية أن تخرج على الخلافة ، فمنعت الجزية والخراج فأرسل إليها الوليد ، أحد قواده ، وهو : سلمان بن ربيعه الباهلى ، فأعادها إلى الطاعة .

وفى إمارة سعيد بن العاص على ولاية الكوفة ، تم فتح طبرستان ، وقد سار إليها بجيش كبير شمل بعض أبناء المهاجرين والأنصار ، ومنهم الحسن والحسين إبنا

على ، والعبادلة أبناء عمر وعمرو ، والعباس والزبير ، حذيفة بن اليمان ، وغيرهم. وقد صالح سعيد بن العاص أهل طبرستان .

وحوالى سنة ٣٢ هـ وصل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى إلى بحر الخزر (قزوين) حيث استولى على إقليم بلنجر ، جنوبى البحر المذكور .

ولكن الترك الضاربين حول البحر اجتمعوا وهجموا على جيش العرب المسلمين ، وأوقعوا به هزيمة شديدة ألجأت بعضهم إلى الفرار إلى جرجان وجيلان ، والبعض الآخر ارتد جنوبا ووصل إلى أملاك الدولة الإسلامية .

جهاد البصرة : أما البصرة فكانت لا تقل عن الكوفة أثراً فى الفتح والتوسع وكانت مغازيها فى بلاد فارس وخراسان وثغر السند والأقاليم المتاخمة لأملاكها ، فنى عهد عبد الله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله ابن معمر ، فسار إليهم ابن عامر وأوقع بهم هزيمة منكرة.

وفى عهد ابن عامر قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس قتله بعض أتباعه كما أسلفنا.

وحوالى سنة ٣١ عصى أهل خراسان ، فسار إليهم أمير البصرة فى جيش كثيف فما كاد يشرف على الطبسين حتى تلقاه أهلها طالبين الصلح فأجابهم :

أما أهل قهستان : فقد قاتلوا ودافعوا عن بلادهم ، ولكن كرات المسلمين كانت شديدة ، فطلب القهستانيون الصلح فصالحهم ابن عامر . وكذلك حذت نيسابور حذو طبس الأولى ، فعرضت الصلح بدون قتال .

ومن أشهر قواد البصرة : الأحنف بن قيس ، فقد فتح هذا الرجل بجيشه مدن طخارستان ومرو الروذ ، وصالح أهل بلخ وأخضعهم ، ولم تمتنع عنه سوى خوارزم من تلك الجهات الفارسية .

وقد عاد عبد الله بن عامر بعد أن ظفر بهذه الفتوح إلى ولايته (البصرة).

جهاد الشام : أما الشام، فقد جمعت لمعاوية بن أبى سفيان، فأصبح قائد أجنادها جميعاً ، وكانت له غزوات مع الروم فى البر والبحر، وقد وصل معاوية إلى عمورية مسقط رؤوس أباطرة بيزنطة وأسكن الحصون التى بين الشام وبين عمورية جماعة من الجند كمسالح تحميها من هجمات الروم، وتحمى الحدود أيضاً من الأعداء .

وقد امتدت فتوحات معاوية إلى أقصى بلاد أرمينية، فأخضعها وصالح أهلها ثم استمر فى فتوحه إلى تفليس جهة باب الأبواب جنوب غربى الخزر .

وحوالى سنة ٢٨ هـ فتح معاوية جزيرة قبرص، وهى من الغزوات البحرية الناجحة التى جعلت المسلمين يفكرون جدياً فى مواصلة هذا اللون من النضال البحرى المفيد مما مكن لهم فى تجهيز الأساطيل العظيمة فيما بعد ، ففتحوا معظم الجزر فى بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وصيروه بحيرة إسلامية .

جهاد مصر : وأما فى الفسطاط : فقد كان أميرها إلى أواخر عهد عثمان عمرو بن العاص ، وقد أسلفنا فتحه للاسكندرية صلحا ، والآن فى سنة ٢٥ هـ، أى بعد ثلاث أو أربع سنوات نقض الروم الصلح ، وأغاروا على الأسكندرية، فسار إليها عمرو ، وهدم أسوارها، وأوقع بالروم شر هزيمة ، وغنم كثيراً من مراكب الأسطول الرومانى .

وقد أراد عمرو أن يمد رقعة ولايته فى المغرب . فأعد جيشاً بقيادة عبد الله ابن سعد بن أبى سرح ، وسيره إلى سواحل أفريقية الشمالية، وقد سار عبد الله ، وفتح فى طريقه كثيراً من المدن ، بعد طرابلس غرباً ، وقد عاد بعد أن غنم مغانم كثيرة .

أهم نتائج هذه الفتوح :

قد يخطىء من يظن أن حروب العرب فى صدر الإسلام ، إنما كانت لغرض الفتح والتوسع ، للاستعمار أو المال والنفوذ ، وإرغام الدنيا على اعتناق مبادىء الإسلام ، كرها أو طوعا ، ولذلك فإن مهمة المؤرخ النزيه من أشق المهام ، ولا سيما حين يعرض لبحث نتائج حروب تعتبر فى زمننا الحاضر خاطفة . فقد استطاع العرب أن يفتحوا الدنيا المعروفة حينئذ فى أقل من جيل .

ومن الغريب : أن تتركز هذه الفتوحات ، وتظل تشهد لهؤلاء الغزاة بالعبقرية والنضوج فى الحرب وسياسة الشعوب ، بل فى التعمير والإنشاء ، وطرق الحكم والإدارة ، مما جعل البلاد التى حلوها فاتحين تخضع لحكمهم ، لا كخضوع البلاد المحتلة اليوم بل إطاعة الراضى المطمئن لأمثل إدارة شرعها الإنسان لأخيه الانسان . فما هى الحوافز لهؤلاء العرب المسلمين إلى فتح بلاد الأمم ، وما هى النتائج الحقيقية التى أثمرتها تلك الحروب ؟ ذلك ما نوضحه بعد ، فى إيجاز :

إن المتتبع لتاريخ المسلمين ، وكيف ظلوا زمنا — فى بدء الدعوة — لا يستطيعون الجهر بمبادئهم ، ولا عبادة ربهم ، إلا سرا وخفية من الناس ، حتى إذا ما أحس العالم بدينهم طاردهم وتآمر عليهم ، وأعلن حربا إجماعية على نبيهم ، فهؤلاء سادة العرب ، وعلى رأسهم قريش ، قد بيتوا أمرهم على قتل الرسول وتشريد صحبه المسلمين .

وهذا امبراطور فارس يرسل إليه نبى الإسلام ، ورئيس الدولة الاسلامية محمد بن عبد الله ، كتابا يفيض رقة وعذوبة ، ويخلص له النصح وسبل الهداية ،

فيجيبه بتمزيق الكتاب الكريم ، ويرسل إلى أحد عماله بأن ينكل برسله ، ويستأصل أتباعه حتى لا يبقى فى الجزيرة من يقول « لا إله إلا الله » .

وهذا امبراطور الروم يقف من المسلمين موقف العداء السافر ، فيعين المتمردين فى مشارف الشام على المسلمين ، ويمدهم بالأسلحة والعتاد ، ويحارب العرب بالعرب ، وغير هؤلاء ممن حاربهم المسلمون لو فتشنا عنهم من التاريخ الصحيح لوجدناهم جميعاً قد بدأوا بالعداء ، وحاولوا الوقوف فى سبيل المبادىء الاسلامية ، التى لم تكن إلا دعوة التحرير والمساواة وشريعة الإصلاح المنتظر لشتى مناحى الحياة .

ونرى من هذه الإلمامة السريعة . أن الحروب الاسلامية فى عهد النبى وخلفائه الراشدين . ترجع جملة الأسباب التى شنت من أجلها إلى أمرين اثنين ، هما : الدفاع عن النفس . وحماية الدعوة الاسلامية . وأما الأموال ، والنفوذ ، وتوسيع رقعة الدولة . فهى أمور ترتبت على القتال بحكم الظروف وملابسات الحرب وتقاليدها .

ويمكن إجمال أهم النتائج الايجابية لفتوح الراشدين فى الأمور الآتية :

أولا — ظهور الأمة العربية فى الميدان الدولى :

فقد كانت هذه الأمة وقت رسالة الاسلام ، موزعة هنا وهناك ، لا يجمعها نظام واحد تدين له بالولاء ، وليست لها سياسة موحدة ، ولا شريعة منظمة ، بل كانت منها جماعة تتبع الفرس فى العراق واليمن ، وأخرى تدين للروم فى الشام وما جاورها وكانت شهرة العرب فى التنازع والتنابذ ، والهمجية والفوضى —

اللهم إلا ذلك الضرب من الفصاحة الفطرية والبلاغة البدوية التى لا يد لهم فيها ، ولا شأن لقومهم فى تكلفها ، وما اشتهر به العربى من الأنفة ، والشجاعة ، والكرم ، والنجدة ، والتى استغلها المستعمرون من الفرس والروم فى ضرب القبائل ، بعضها ببعض ، ففرقوا بينهم ليسودوا عليهم ، ويسخروا جزيرتهم لصوالحهم ، وشهواتهم المتعددة .

فلما توحدت الجزيرة ، وانضوت تحت شريعة الاسلام ، أصبح للعرب شخصية ، ودولة قوية أمكنها أن تقوض دولة الفرس والروم ، وأن تؤسس على أنقاض الظلم والطغيان ، والاستبداد التى أشاعها هؤلاء فى الدنيا ، دولة مؤسسة على التقوى من أول يوم . فشاع العدل . وعمت المساواة . وأخصب الناس فى كل شبر دان بالإسلام . ورضى بإدارته . وبذلك أصبح للأمة العربية صفة دولية قوية . وكانت الدولة الإسلامية العظمى .

على أن من أهم الانقلابات المترتبة على ظهور الدولة العربية فى أحضان الإسلام ذلك الانقلاب الشامل الذى غمر المعمورة كلها . فلقد زالت امبراطورية الفرس نهائيا . وأصبحت أملاك الأكاسرة قطعة من الدولة العربية الإسلامية . وغزت مبادىء الإسلام قلوب الفرس فدانوا — طوعا لا كرها — بمبادئه ، وأسلموا لله ، وأصبحوا من أخلص الناس لتعاليم محمد ، وشريعة القرآن .

وليس الروم المسيحيون بأقل شأنا من الفرس ، فهذه أملاك الدولة البيزنطية فى آسيا وأفريقية تقتطع من أباطرة الروم ، وتتبع الدولة الاسلامية ويعتنق الشاميون والمصريون والأفريقيون إلا قليلا منهم — مبادىء الإسلام ، ويصبحون عاملا قويا من عوامل نشره والدفاع عن دولته . وهذا الانقلاب ليس إلا وليد الحروب التى دافع بها العرب المسلمون عن أنفسهم ومبادئهم فكان انتصارهم على الظالمين

وتملك أرضهم وديارهم ورعاياهم الذين رضوا بشريعة العرب ، وقوانين الإسلام التى تضمن للجميع العدل والرحمة والمساواة .

ثانيا — التطور فى فنون الحرب والسياسة :

فقد كانت الحرب تنشأ بين الشعوب من أجل قطعة من الأرض، يراد تملكها أو بسبب اعتداء يقع على بلد أو قبيلة ،ولكنها الآن تطورت فأصبحت الحروب بسبب المبادىء ، فالمسلمون يريدون أن تكون مبادئهم هى السائدة على الجميع والمشركون والمجوس وغيرهم يريدون سيادة مبادئهم، وهنا اصطدمت هذه المبادىء المتناقضة ، وأصبح اتباعها وجهاً لوجه .

على أن هذا لم يكن كل شىء فى التطور الحربى ، بل نجد لونا جديداً آخر، وهو ما كان يعرضه الغزاة العرب على أعدائهم من : الاسلام أو الجزية أو المناجزة وعدم التعديل فى هذه الكلمات الثلاث حسب ترتيبها ، وهذا ضرب لم يعرف لدى الفرس والروم ولا غيرهما من قبل .

ثم هذه المعاهدات، التى أبنا بعضا منها فيما سلف ، لم تكن معروفة بشكلها الاسلامى قبل ظهور الدولة الاسلامية وحروبها .

على أن النتيجة الفريدة التى نجمت عن حروب المسلمين بعد فتح البلاد ، هى تلك السياسة الفذة التى أرضت جميع الشعوب ، إلا من كان فى قلبه حقد على العدل والمساواة ممن كانت تحدثهم نفوسهم بالفتن والعصيان ، وهؤلاء اضطروا المسلمين أحيانا إلى الشدة معهم والتنكيل بهم .

لقد ساس المسلمون الشعوب التى فتحوها ، فأحبتهم وقدرتهم ، وامتزجت معهم حتى كان هذا اللون البديع من عباقرة الإسلام فى الشرق الإسلامى ؛ وأسبانيا ومصر الاسلاميتين ؛ وغيرهما .

ثالثاً — ومن أهم النتائج التي ترتبت على الحروب ، إلى جانب توسيع رقعة الدولة ، ونشر مبادىء الاسلام فى البلاد المفتوحة ، وانتشار العلوم ، والحضارة العربية والاسلامية تسرب المبادىء الاسلامية إلى الملل والنحل الأخرى ، التى كانت تدين بها الأمم المجاورة ، وقد زالت بعض هذه الديانات بعد أن التقت بالاسلام ، فى أول جولة ، من جولات النضال ، وذلك يظهر بوضوح فى ديانات الفرس من زرادشتية ، ومانوية ومزدكية . ومن تلك الديانات ما صمدت ، ولكنها بدأت تعدل فى مبادئها وفقاً لما ينادى به العرب فى كل مكان من توحيد الله . ونلحظ هذا التعديل بعد الاسلام ، فى الخلاف الذى نشأ حول عبودية المسيح وألوهيته والوهبة العذراء وبشريتها ، وعبادة الصور وتقديسها ، أو باعتبارها أموراً عادية ، ولقد تفاقم هذا النزاع بين قساوسة المسيحية ولا سيما فى بيزنطة وأيا صوفيا حيث كان المسلمون والمسيحيون يلتقون كثيراً ويتحادثون فى الدين وغيره بحكم العادة . ولعل كثيراً من مذاهب المسيحية يدين بوجوده لتعاليم محمد والقرآن .

فالفتوحات الاسلامية إذن أنتجت تعديلات كثيرة فى الملل ، والديانات الأخرى ، بل ان الباحث عن نشوء الفرق المسيحية أو جلها ، وكذلك اليهودية ليرى أن أساسها احتكاك هؤلاء بالمسلمين وتسرب الاسلام بمبادئه الصافية الصريحة إلى نفوسهم .

وعلى الجملة فإن حروب الراشدين التى كان هدفها — كما أسلفنا — الدفاع عن النفس والمبادىء قد أثمرت ثمراً شهياً طيباً فى تأمين النفس والمبادىء ، وأصبح الراكب يسير من صنعاء إلى بصرى ، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه كما أخبر رئيس الدولة الأول ﷺ .

هذا فضلا عن ذلك الابتكار والتجديد فى نظم الحكم والادارة مما سجله

علماء الدنيا بالحمد والثناء على العرب الفاتحين وأسلوبهم الحازم فى معاملة الشعوب التى دانت لدولتهم أمداً طويلا ، وخضعت لسلطانهم فترة غير قصيرة.

ونجترىء بهذا القدر من نتائج حروب الخلفاء ، لنسرع بكم إلى حقبة غامضة من أحقاب التاريخ الاسلامى. وتلك فتنة السبئية فى الأمصار على الخليفة الثالث، وما انتهت إليه ، ثم خلافة على ونزاعه مع معاوية وكيف انتهى هذا النزاع .

ومع اكفهرار ليل الحوادث المتناقضة فى هذه الحقبة . فإننا نرجو أن نوجز كلمة فى هذا تعطينا فكرة واضحة يمكن الاطمئنان إليها بإذن الله تعالى .

الفصل الثاني

فتنة فى الأمصار

من أهم أسباب الفتنة تلك الدعاية الخبيثة التى تولى بثها ابن السوداء[1] وألف لها أنصارا يدعون لمذهبه فى الوصية والرجعة[2] ، والطعن على ولاة عثمان بما زعموه أمرا بالمعروف ونهياً عن المنكر .

ومن أهم الأسباب أيضاً عزل عثمان عمال عمر ، وتولية بدلهم من أقاربه ، فعزل عمرو بن العاص عن الفسطاط ، وولى بدله عبد الله بن سعد ، وعزل أبا موسى الأشعرى ، وعزل المغيرة بن شعبة وولى على العراق عبد الله بن عامر وجعل مروان وزير الخلافة الأول ، والمتصرف فى جميع شئونها . ومعاوية منفرد بأجناد الشام وبذلك أصبح المهاجرون والأنصار ليس لهم من أمر الدولة شيء ، وقد قامت بسيوفهم وتضحياتهم .

ولذلك تفاعلت هذه الأسباب مجتمعة ، وكانت تلك الفتنة الجامحة التى لم يستطع كبار المسلمين أن يحولوا بينها وبين هدفها الوحيد من عزل عثمان أو قتله إن لم يعتزل .

---

(١) هو عبد الله بن سبأ أحد يهود اليمن الذين أسلموا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ونظم دعايته ليوقع الفوضى بين المسلمين فى عهد عثمان كما سنوضح بعد .

(٢) من مبادىء السبئية القول برجعة الرسول بعد موته ؛ ويقيسون ذلك على رجوع موسى من التيه أو ماروى من رجعة عيسى بن مريم كذلك يقول ابن السوداء بأن الرسول نص على خلافة على بعده ، ووصى للمسلمين فى نص وضعوه كذبا على رسول الله وسنشرحه فى الفصول التالية من الكتاب .

ولما ارتفعت الشكوى من عمال عثمان وإشاعة استبدادهم بالرعية فى إماراتهم ، ذهبت وفود من الفسطاط والبصرة والكوفة متظلمة من أمراء عثمان فى نواحيهم وقد حاول عثمان أن يصلح الأمر ويتلافاه كما تكلم على عدة مرات فى هذا الشأن وصرف الوفود إلى بلادها ولكن عثمان بتحريض مروان بن الحكم فيما قيل قد أبى الاستماع إلى نصائحه ، وأخيرا جاءت الوفود إلى المدينة تحمل كتابا يقال إنه من مروان ، كتبه بخطه . وختمه بخاتم الخليفة وأرسله مع ورش غلام عثمان إلى عامله على مصر يأمره الخليفة بقتل الذين وفدوا على المدينة ولقد عرض هذا الكتاب على الخليفة عثمان ، فصرح بأنه لا يعلم من أمره شيئا ، وهنا طلب منه أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه ، فاستشاطوا غضباً ، وحاصروا الخليفة فى بيته ويقال ان أقاربه تخلوا عنه وقت الشدة وهربوا من المدينة ولكن علياً وأولاده ومواليه دافعوا عنه دفاعاً مشهوداً بحيث لم يستطع المتآمرون أن يتغلبوا عليهم إلا بعد جهد عظيم

وأخيرا تسلق إثنان منهم جدار بيته وقتلاه وهو ابن اثنين وثمانين أو ست وثمانين عاماً وكان متوسط القامة بارز عضلات الوجه يمتاز بالجود والكرم البالغ، والحدب الشديد على أقاربه وكان مما أذاعه المغرضون عنه منح مروان بن الحكم وعبد الله بن سعد بن أبى سرح أموالا طائلة من بيت المال كما منح غيرهما من أقاربه .

وقد جلبت عليه تلك الشائعات سخط كثير من قادة الرأى العام ونظراً لخطورة هذه الفتنة فإننا نرى أن نفصل ظروفها وملابساتها من المصادر العربية الأصلية وذلك فيما يتلو .

يقول المؤرخون : لما ورد ابن السوداء إلى الشام لقى أباذر فقال: يا أبا ذر ، ألا تعجب من معاوية يقول : المال مال الله . ألا إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجنه من دون الناس ويمحو اسم المسلمين فأتاه أبو ذر فقال لمعاوية: مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله الساعة قال : يرحمك الله ياأباذر ألسنا عباد الله والمال ماله.قال. فلا تقله.قال. سأقول مال المسلمين فأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له

مثل ذلك فقال : أظنك يهودياً . فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به عبادة وأتى به معاوية فقال : هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر ، وكان أبو ذر يذهب إلى أن المسلم لا ينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شىء ينفقه فى سبيل الله أو يعده لكريم . ويأخذ بظاهر القرآن « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فكان يقوم بالشام ويقول : يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم . فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وشكا الأغنياء ما يلقون منهم .

فأرسل إليه معاوية بألف دينار فى جنح الليل فأنفقها. فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذى أرسله إليه فقال اذهب إلى أبى ذر فقل له: انقذ جسدى من عذاب معاوية فإنه أرسلنى إلى غيرك وانى أخطأت بك ففعل ذلك فقال له أبو ذر يابنى : قل له والله ما أصبح عندنا من دنانيرك شىء ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله كتب إلى عثمان : إن أبا ذر قد ضيق على، وقد كان كذا وكذا الذى يقوله الفقراء، فكتب إليه عثمان : إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، ولم يبق إلا أن تثب، فلا تنكأ القرح وجهز أبا ذر إلى، وابعث معه دليلا ، وكفكف الناس بنفسك ما استطعت، وبعث إليه بأبى ذر، فلما قدم المدينة؛ ورأى المجالس فى أصل جبل سلع قال: بشر أهل المدينة بغارة شعواء، وحرب مذكار ، ودخل على عثمان فقال له ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره . فقال : يا أباذر ، على أن أقضى ما على. وأن أدعوا الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد وما على أن أجبرهم على الزهد، فقال أبو ذر ، لا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والأخوان ، ويصلوا القرابات. فقال كعب وكان

حاضرا — من أدى الفريضة فقد قضى ماعليه ، فضربه أبو ذر فشجه، وقال له : يا ابن اليهودية،ما أنت وما ههنا ، فاستوهب عثمان كعباً شجته، فوهبه . فقال : أبو ذر لعثمان : فأذن لى فى الخروج من المدينة ، فإن رسول الله ﷺ أمرنى بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعاً فأذن له ، فنزل الربذة وبنى بها مسجداً،وأقطعه عثمان عـــدداً من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه كل يوم عطاء ؛ وكذلك على رافع بن خديج ؛ وكان قد خرج أيضاً عن المدينة لشىء سمعه وكان أبو ذر يتعاهد المدينة مخافة أن يعود إعرابياً ؛ وأخرج معاوية إليه أهله ومعهم جراب مثقل يد الرجل؛ فقال؛انظروا إلى هذا الذى يزهد فى الدنياماعنده فقالت امرأته ؛ والله ما هو دينار ولا درهم؛ولـكنها فلوس. كان إذا خرج عطاؤه ابتاع منه فلوساً لحوائجنا .

ولما نزل أبو ذر الربذة،أقيمت الصلاة وعليها رجل يلى الصدقة، فقال: تقدم يا أبا ذر فقال : لا.تقدم أنت فإن رسول الله (ص) قال لى:اسمع وأطع وإن كان عليك عبد مجدع وأنت عبد ولست بأجدع ، وكان من رقيق الصدقة ، إسمه مجاشع (١) .

وقصة أبى ذر هذه،كان ينبغى أن تفتح الأعين على ابن السوداء وشرذمته ، ولا سيما وقدقبض عليه عبادة بن الصامت،وقدمه بحذافيره إلى معاوية رضى الله عنه.

بيد أن القوم حينئذ كانوا لا يأخذون بالظنة ، ولا يعاقبون بالشبهة ، ولعل معاوية كان يقدر أن كلمة ابن السوداء ، إنما أملاها مجرد السعى للمعرفة، والتفقه فى الدين،واستجلاء الجائز من غيره حتى فى تسمية الأشياء، والتعبير عن المبادىء والمثل ، ولهذا فإنه لم يعمل على التحقيق معه،والبحث عن دخيلة أهدافه ونواياه

---

(١) راجع الطبرى وابن الأثير فى قصة أبى ذر رضى الله عنه .

وكل ماقلم به ، هو اخطارعثمان بما حدث ،وإبعاد أبي ذر عن الشام حتى لايحرض الفقراء على الأغنياء ، وتكون صراعا طبقياً بين طوائف الأمة ، وربما تزهق فيها الأرواح . . ولكن ينبغى أن لا نغفل قول الخليفة لمعاوية «إن الفتنة قد أخرجت خطها وعينيها » .

وإذن فقد عرف عثمان مما حدث ، أن الجدال ليس بريئا ، وإنما هو لغرض الفتنة ، لأن حق الفقراء ليس موضع جدل ، بل هو من أركان الإسلام الخمسة . كذلك ينبغى أن لا نهمل قول الصحابى الجليل أبى الدرداء لابن سبأ : أظنك يهوديا وإذا أضفنا كل ذلك إلى تعلق عبادة بن الصامت بابن السوداء ، وتقديمه إلى حاكم الشام يتضح لنا أن نشاط هذا الحبر الخبيث (ابن سبأ) قد كشف ـ ولو إلى حدما ـ هذه الدعوة ولكن من الحق أن نقرر أيضاً ، أن حقيقة الدعوة السبئية كانت معماة على المسلمين ولم يكن يعرف عنهم أكثر من أنهم جماعة تدعو إلى الزهد والنسك ، وإسناد الأمور إلى من ترشحهم مواهبهم وتضحياتهم لها ، ثم هم يسيرون فى الناس متظاهرين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حسبة لله تعالى ، ومن ثم انخدع بهم جمهور المسلمين .

ومع هذا فإن السبئية ، قد استغلت اعتزال أبى ذر فى قرية الربذة القريبة من المدينة ، فأشاعت ما أشرنا إليه من نفيه واضطهاده . والتضييق عليه ولعل هذا يحفزنا لأن نجمل أمورا فعلها عثمان ، وهى مشروعة فى الدين والسياسة ولكن السبئية ، اتخذت منها سبيلا للطعن على عثمان وعهده وعماله .

وأول شيء يواجه عثمان فى سنة استخلافه ، هو تنفيذ وصية عمر فى ارجاع سعد بن أبى وقاص إلى الكوفة، بعد عزل المغيرة بن شعبة . يقول ابن الأثير فى ذلك . عزل عثمان المغيرة بن شعبة سنة ٢٤هـ عن الكوفة ، واستعمل سعداً بن أبى وقاص عليها بوصية عمر . فإنه قال : أوصى الخليفة بعدى أن يستعمل سعدا ،

فإنى لم أعزله عن سوء ولا خيانة ، فكان أول عامل بعثه عثمان فعمل عليها سنة وبعض أخرى ، وقيل بل اقر عثمان عمال عمر سنة ، لأن عمر أوصى بذلك ، ثم عزل المغيرة بعد سنة واستعمل سعدا .

وفى نفس هذه السنة تم عزل سعد بن أبى وقاص عن الكوفة وابداله بالوليد ابن عقبة وهو أخو عثمان لأمه ، وذلك بسبب خلاف شديد نشب بين سعد وعبدالله بن مسعود الذى كان على بيت مال الكوفة ، فرأى عثمان أن يحسم الأمر بعزل الاثنين عنها وتولية الوليد .

وثمة أمور أخرى حدثت من عثمان ، مثل الزيادة فى الحرم المكى ، مما ترتب عليه هدم بعض البيوت المجاورة وضمها إليه ، وقد دفع عثمان الثمن لأصحاب هذه البيوت، ومن رفض منهم تسلم استحقاقه وضعه فى بيت المال على ذمة صاحبه.

وفى سنة ٢٦ﻫ عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر ، وولى عليها عبدالله بن سعد بن أبى سرح — وهو أخو عثمان من الرضاعة — ويقال إن عمرو بن العاص قد غضب لذلك

وفى سنة ٢٩ ﻫ عزل عثمان أبا موسى الأشعرى عن البصرة . واستعمل عبد الله بن عامر وهو خال عثمان . يقول ابن الأثير فى سبب عزل أبى موسى : وكان سبب عزله أن الأكراد كفروا فى السنة الثالثة من خلافة عثمان ، فنادى أبو موسى فى الناس ، وحضهم على الجهاد وذكر من فضل الجهاد ماشيا ، فحمل نفر على دوابهم وأجمعوا على أن يخرجوا رجاله . وقال آخرون ، لا نعجل بشىء حتى ننظر ما يصنع، فإن اشبه قوله فعله ، فعلنا كما فعل فلما خرج ، أخرج ثقله من قصره على أربعين بغلا ، فتعلقوا بعنانه وقالوا : أحملنا على بعض هذه الفضول ، وارغب فى المشى ، كما رغبتنا ، فضرب القوم بسوطه فتركوا دابته فمضى ، وأتوا عثمان فاستعفوه منه وقالوا ما كل مانعلم نحب أن تسألنا عنه فأبدلنا به وقد أبدلهم عثمان عنه عبد الله بن عامر بن كريز وسنه لم تتجاوز خمسا وعشرين وجمع له عثمان جند أبى موسى الأشعرى ، وجند عثمان بن أبى العاص الثقفى من عمان والبحرين ، واستأنف ابن عامر الجهاد على نطاق واسع .

وفى سنة ٢٩ هـ زاد عثمان فى مسجد النبى ﷺ ونقل إليه الجعن من بطن نخل ، وبناه بالحجارة المنقوشة ، وجعل عمده من حجارة فيها رصاص ، وجعل طوله ستين ومائة ذراع (١٦٠) وعرضه خمسين ومائة ذراع (١٠٥) ، وجعل أبوابه على ما كانت عليه أيام عمر ، ستة أبواب وفى نفس تلك السنة حج عثمان بالناس ، وضرب فسطاطا بمنى ، فكان أول فسطاطا ضربه عثمان بمنى ، وأتم الصلاة بها وبعرفة ، فكان أول ماتكلم به الناس فى عثمان علناً حين أتم الصلاة وقد عاب كثير من الصحابة إتمام الصلاة حتى لقد سألوا عثمان عن السبب فى هذا الصنيع الذى يفعله لأول مرة مخالفا الرسول وخليفتيه ، بل حتى عثمان نفسه قبل سنة ٢٩ هـ ويقال ان عثمان اجاب معتذرا عن ذلك بأنه رأى رآه وانه قد اتخذ بمكة اهلا ، وبالطائف مالا ، وأنه فوق ذلك شهد من أهل اليمن وآخرين يقولون ان الصلاة للمقيم ركعتان وانهم احتجوا بصلاته . فاراد أن يعلمهم ان صلاة المقيم أربع تسكينا لهذه الفتنة .

وبالرغم من هذا فان الذى فعله عثمان فى منى ، قد لفت أنظار الصحابة بالذات فجعلهم يشفقون على عثمان ، بل وقد يتسامحون فى الاستماع الى الشائعات التى راجت فيما بعد .

وفى سنة ٣٠ هـ عزل عثمان الوليد بن عقبة عن الكوفة ، وولاها سعيد بن العاص ، كما انه حدث تسيير أبى ذر — حسب طلبه — الى الربذة كما سبق .

جمع القرآن :

وفى هذه السنة كان أمر المصاحف ، وما نجم عن ذلك من جدال . يقول المؤرخون : لما عاد حذيفة من غزو الرى والباب ، قال لسعيد بن العاص والى الكوفة ، لقد رأيت فى سفرتى هذه أمراً لئن ترك الناس ليختلفن فى القرآن ، ثم لايقومون عليه أبدا . قال وما ذاك قال : رأيت أناسا من أهل حمص يزعمون ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد ، ورأيت أهل

دمشق يقولون ان قراءتهم خير من قراء غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنهم قرءوا على ابن مسعود . وأهل البصرة يقولون مثل ذلك، وانهم قرءوا على أبى موسى ، ويسمون مصحفه لباب القلوب ، فلما وصلوا الى الكوفة ، أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم مايخاف ، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين ، وقال له أصحاب ابن مسعود ، ماتنكر . ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود ، فغضب حذيفة ومن وافقه . وقالوا انما أنتم اعراب فاسكتوا فانكم على خطأ . وقال حذيفة والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين ولاشيرن عليه ان يحول بين الناس و بين ذلك، فاغلظ له ابن مسعود، فغضب سعيد وقام، وتفرق الناس، وغضب حذيفة وسار الى عثمان فاخبره بالذى رأى، وقال. انا النذير العريان ، فادركوا الأمة ، فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر ، فاعظموه ورأوا جميعا مارأى حذيفة ، فأرسل عثمان الى حفصة بنت عمر، ان ارسلى الينا بالصحف ننسخها، وكانت هذه الصحف هى التى كتبت فى أيام أبى بكر. فإن القتل لما كثر فى الصحابة يوم اليمامة، قال عمر لابى بكر . ان القتل قد كثر واستحر بقراء القرآن يوم اليمامة ، وانى اخشى ان يستحر القتل بالقراء فيذهب من القرآن كثير ، وانى أرى ان تأمر بجمع القرآن. فأمر أبو بكر ، زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبى بكر ، ثم عند عمر ، فلما توفى عمر أخذتها حفصة فكانت عندها ، فارسل عثمان اليها فأخذها منها . وأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير، وسعيد ابن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان . إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش ، فانما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، فلما نسخوا الصحف . ردها عثمان الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف ، وحرق ماسوى ذلك ، وأمر ان يعتمدوا عليها ويدعوا ما سوى ذلك ، فكل الناس

عرف فضل هذا الفعل، إلا ما كان من أهل الكوفة فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبي ﷺ وأما أصحاب عبدالله ومن وافقهم، فقد امتنعوا من ذلك، وعابوا الناس... ولما قدم ابن مسعود الكوفة قام إليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس على المصحف، فصاح وقال: أسكت. فعن ملأ منا فعل ذلك، فلو وليت منه ما ولى عثمان، لسلكت سبيله.

هذه قصة جمع القرآن. وهي تحكي لنا قصة توحيد كلمة الأمة الاسلامية، كلما انحرفت بها السبل، وتعددت المذاهب والاهواء، ولسنا نجد وسيلة عملية مؤكدة النجاح في جمع شعوب المسلمين وقبائلهم، وإزالة الشقاق والفرقة من بينهم سوى هذا السبيل القاصد وهي اجتماعهم على كتاب الله.

سقوط الخاتم النبوى :

ومن الأشياء التي لاكتها ألسنة السبئية سقوط خاتم النبي (ص) الذي كان في يد عثمان، في بئر أريس — وهي على ميلين من المدينة، وكانت قليلة الماء، وكان رسول الله (ص) اتخذه لما أراد أن يكاتب الاعاجم، يدعوهم إلى الله تعالى، فقيل له إنهم لا يقبلون كتابا، إلا مختوما، فأمر رسول الله (ص) أن يعمل له خاتم من حديد، فلما عمل جعله في اصبعه، فأتاه جبريل فنهاه عنه، فنبذه، وأمر فعمل له خاتم من نحاس وجعله في اصبعه، فقال جبريل: انبذه فنبذه، وأمر رسول الله (ص) بخاتم من فضة فصنع له، فجعله في اصبعه فأمره جبريل أن يقره، فاقره، وكان نقشه ثلاثة أسطر · محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر، فتختم به رسول الله (ص) حتى توفى، ثم تختم به أبو بكر حتى توفى، ثم عمر حتى توفى، ثم تختم به عثمان ست سنين، فحفروا بئرا بالمدينة شربا للمسلمين. فقعد على رأس البئر، فجعل يعبث بالخاتم فسقط من يده في البئر فطلبوه فيها ونزحوا ما فيها من

الماء ، فلم يقدروا عليه ، فجعل فيه مالا عظيما لمن جاء به واغتم لذلك غما شديدا ، فلما يئس منه صنع خاتما آخر على مثاله ونقشه ، فبقى فى أصبعه حتى هلك ، فلما قتل ذهب الخاتم ، فلم يدر من أخذه

ومن العجيب أن يتخذ السبئية من قصة الخاتم ذريعة للطعن على عثمان وعهده ، حتى لقد رموه بالتهاون وانتهاك الحرمات ، لأن خاتما فى يده سقط فى البئر بقضاء الله وقدره .

رأى آخر فى السبئية :

يرى بعض الباحثين ، أن شخصية ابن سبأ شخصية أسطورية ولا وجود له وإنما هى فرية لفقها سيف بن عمر التميمى ، ثم نقلها عنه السرى وغيره ، فاثبتها الطبرى فى كتابه « تاريخ الأمم والملوك » وابن عساكر فى « تاريخ دمشق » ثم تداولها المتأخرون من أمثال ابن الأثير ومن عاصره أو تلاه فرددوا جميعا هذه الأسطورة ، لمجرد تبرير قتل عثمان (١) .

(١) يقول السيد / مرتضى العسكرى فى كتابه « عبد الله بن سبأ » المطبوع فى سنة ١٣٨١ بالقاهرة « اشتهرت قصة ابن سبأ وشاعت ، وقد رأيت أن الذين يذكرون سند روايتهم لها ، ينتهون إلى الطبرى بلا واسطة أو بواسطة واحدة أو أكثر . وفى الكتاب والمؤرخين من يوردها فى تأليفه ولا يذكر سند روايته ولا المصدر الذى اعتمد عليه فإذا ذكر مصادر بحثه بالجملة وجد اسم الطبرى أو أسماء الكتب التى أخذت عنه .

وتحت عنوان « سند الطبرى » يقول: قد أورد الإمام أبو جعفر محمد بن يزيد ابن خالد بن جرير الطبرى الآملى المتوفى سنة ٣١٠ هـ قصه السبئية فى كتابه « تاريخ الأمم والملوك » منحصرا عن طريق سيف بن عمر التميمى . فقد قال فى ذكره حوادث سنة ٣٠ هـ (وفى هذه السنة أعنى سنة ٣٠ هـ كان ماذكر من أمر أبى ذر ،واشخاص معاوية اياه ، منها فى أمور كثيرة كرهت ذكر أكثرها . فأما العاذرون معاوية فى ذلك ، فانهم ذكروا فى ذلك قصة كتب بها إلى السرى ، =

وفاة أبي ذر :

في سنة ٣٢ هـ فاضت روح الصحابي الجليـــــل أبي ذر الغفاري في قرية « الربذة » وقد حزن عثمان لوفاته ، وأمر بضم أولاده إليه ، ورعايتهم ، وسد جميع احتياجاتهم .

يذكر أن شعيبا حدثه سيف عن عطية ، عن يزيد التميمي قال . لما ورد ابن السوداء الشام ، لقي أبا ذر فقال . يا أباذر ألا تعجب لمعاوية . ثم يورد في ذكر حوادث سنة ٣٠ .. ٣٦ قصة ابن سبأ والسبئية في مقتل عثمان وحرب الجمل عن طريق سيف وحده ، وليس له طريق آخرلها وللطبري إلى أحاديث سيف طريقان .

١ — عبيد الله بن سعيد الزهري عن عمه يعقوب بن ابراهيم عن سيف ، وما يخرجه الطبري من أحاديث مشافهة .

٢ — السري بن يحيى . عن شعيب بن ابراهيم ، عن سيف ، ويخرج الطبري بهذا الطريق . أحاديث سيف من كتابه « الفتوح والردة » وكتابه « الجمل ومسير عائشة » بلفظ — كتب إلي . .

هذا وينتهي السيد العسكري في بحثه هذا الذي خص به قصـــة السبئية بالحديث ، إلى القول بأن عبد الله بن سبأ أسطورة لفقها سيف التميمي ، ولاحظ لها من الصحة .

ولكن إذا نحينا الدعوة السبئية من المجتمع الإسلامي الثوري السياسة والنزعة ، والتعاوني المبادىء والسلوك ، فمن يكون ذلك الذي لفته إلى الملكية والاحتكارية ، والطبقية وملحقاتها . .

هل يمكن أن تكون تلك الأحاديث المفتراة على النبي وأصحابه ، وعامة المؤمنين والتأويلات المنحرفة لآيات الكتاب وكلماته من غير فاعل ، أم ان بعض المسلمين قد فعلها وارتد بعد اسلامه ؟

ثم أليس من الخير للأمة أن تعلم أن الذين حرفوا الكلم الالهي عن مواضعه ، هم أنفسهم الذين أشعلوا الفتنة وكان بكل أسف — في المسلمين اعراب وسذج — سماعون لهم ، طالما فطن بعض العلماء إلى هذه الحقيقة وكشف عنها ، مهما كانت منزلته من الثقة والضبط ، فان ذلك أجدر بأن لا يلصق هذا الاثم بمسلم أو مسلمة أيا كان .

على أن للمبادىء التي تناقلتها جمهرة من الفرق الغالية فيما بعد قد كشفت عن دعوة ابن سبأ وأثرها في تلك المبادىء فلا ضرورة إلى جعله أسطورة .

ومع هذا فقد قامت قيامة المفرضين بعد وفاة الرجل ، وأخذوا يذيعون المفتريات ضد عثمان زاعمين أنه عذب أباذر ، وأهانه ، وغير ذلك ليثيروا الرأى العام .

دعوة حكام الأقاليم لبحث الموقف :

لم تكن أنباء المغرضين خافية عن عيون عثمان وأجهزته فى أول الأمر ، وإن لم تتضح لهم حقيقة أشخاصهم ، ولهذا فقد أرسل عثمان كتابا إلى الأمصار ليقرأ على الناس ، وقد جاء فيه « أما بعد ، فإنى آخذ العمال بموافاتى فى كل موسم ، وقد سارت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته ، وليس لى أو لعيالى حق قبل الرعية إلا وهو متروك لهم وقد رفع إلى أهل المدينة ، أن أقواما يشتمون ، وآخرين يضربون ، فيامن ضرب سراً وشتم سراً ، من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم ، فليأخذ بحقه حيث كان منى أو من عمالى ، أو تصدقوا ، فإن الله يجزى المتصدقين » يقول الطبرى ، ولما قرىء الكتاب على الناس بكوا ودعوا لعثمان .

وبعث إلى عمال الأمصار ، فقدموا عليه : عبد الله بن عامر ، ومعاوية ، وعبد الله بن سعد وأدخل معهم فى المشورة سعيدا وعمرا فقال : ويحكم . ماهذه الشكاية ، وما هذه الإذاعة إنى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم ، وما يعصب هذا الأمر الابى . فقالوا له : ألم تبعث ، ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ، ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشىء . لا والله ما صدقوا ولا بروا . ولا نعلم لهذا الأمر أصلا وما كنت لتأخذ به أحدا فيقيمك على شىء وما هى إلا « إذاعة » لا يحلُّ الأخذ بها ولا الانتهاء إليها . قال : فأشيروا على . فقال سعيد بن العاص : هذا أمر مصنوع ، يصنع فى السر فيلقى به إلى غير ذى المعرفة فيخبر به فيتحدث به الناس فى مجالسهم .

قال : فما دواء ذلك . قال : طلب هؤلاء القوم ، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم .

وقال عبد الله بن سعد : خذ من الناس الذى عليهم ، إذا أعطيتهم الذى لهم ، فإنه خير من أن تدعهم .

قال معاوية : قد وليتنى . فوليت قوما لا يأنيك عنهم إلا الخير . والرجلان أعلم بناحيتهما . قال : فما الرأى . قال : حسن الأدب . قال : فما ترى يا عمرو : قال : أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر . فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك ، فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين . إن الشدة تنبغى لمن لا يألوا الناس شرا ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح وقد فرشتهما جميعا اللين . فقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال : كل ما أشرتم به سمعته . . ولكل أمر باب يؤتى منه . إن هذا الأمر الذى نخاف على الأمة ، كائن ، وإن بابه الذى يغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة ، إلا فى حدود الله انى لم آل الناس خيرا ولا نفسى . ووالله ان رحى الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها . . كفكفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا تعوطيت حقوق الله ، فلا تدهنو فيها .

هذا مثل من محاولة عثمان ، إخماد الفتنة قبل تفاقمها، ولكن باللين والمؤاخاة والمتابعة ؟؟ اللين والمؤاخاة . . كلمات جميلة ، وأسلوب سمح كريم يأمر بانتهاجه أعظم رئيس لكبرى دول الأرض فى ذلك الحين . وقد كان حريا بالذين فتنوا أن يدفنوا أحقادهم ، ويشرئبوا بقلوبهم وأفئدتهم إلى رجل المؤاخاة والتسامح ، والخير

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ح ٥ ص ٩٩ .

بيد أن تلك الدعوة ، أو هذه الخطوة لم تسفر عن جمالها إلا بعد أن اتسع الفتق ، وحزب الأمر ، فلم تلق الدعوة الكريمة ، ما ينبغى لها من سمع وانصات ..

ولذلك فقد كان المؤتمر الذى أسلفنا جملته ، والمنعقد فى موسم سنة ٣٤ هـ من أهم العوامل فى تعجيل الساعة التى يقضى فيها على عثمان . فاصحاب الفتنة قد علموا بدون شك بما دار فى هذا المؤتمر ، وعرفوا كل أغراضه ومقاصده ، وعلموا أن عثمان لن يغنى عن نفسه شيئا ، ولن يعدل عن جبلته المفطورة على الحياء والسماحة والحب ، وتجنب الأذى والاساءة حتى إلى مبغضيه .

هذا الرجل ، لن ينزل من سمو فضائله ، لينازل المفتونين والحاقدين ، ولذلك فانه يرفض فى بساطة ، عرض معاوية ، أن ينتقل أمير المؤمنين إلى دمشق ، أو يبعث إليه معاوية بجيش يحرسه . يقول الطبرى «قال معاوية لعثمان (بعد انتهاء المؤتمر) : أمير المؤمنين انطلق معى إلى الشام ، قبل أن يهجم عليك من لاقبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا . فقال : أنا لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشىء ، وإن كان فيه خبط عنقى ، قال : فابعث إليك جندا منهم يقيم معك بين ظهرانى أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو اياك ، قال : أنا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم ، واضيق على أهل دار الهجرة والنصرة ؟؟[1] » .

هذا وعندما يلح عليه معاوية ، ويخوفه الاغتيال والقتل ، لا يزيد فى رده عليه بغير تلك الكلمة الخالدة « حسبى الله ونعم الوكيل[2] »

وأخيرا حوصر الرجل فى بيته أكثر من أربعين ليلة ، ثم انقضوا عليه وقتلوه ،

---

(١) نفس المصدر السابق

(٢) نفس المصدر السابق

وهو يتلو كلام الله ، و يرتل من مصحفه آياته البينات ، ولم يرفع وجهه عن كتاب الله حتى غشيته الغوغاء ، فالتفت إليهم ، فى وقار وحزم وسخرية ، ولم يطبق المصحف ، ثم قال : إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ثم لا يرفع الله عنكم الاختلاف أبدا[1] .

ولكن الاشقياء من خبثاء السبئية لم يصبروا على الرجل حتى يصلح ما زعموه فاسدا ، بل تعجلوا فعجَّل الله لهم العذاب ووقع ما تنبأ به الصحابى الكريم ، مما نعرض له فيما بعد وشيكا .

(١) نفس المصدر السابق

الفصل الثاني

عثمان للتاريخ

يتحدث كاتبون معاصرون عن أخطاء عثمان ، وتشبثه بالحكم وإمارة المؤمنين ، ويستدلون على تلك الدعوى ، بأن عثمان كان يأخذ من بيت المال لنفسه وأقاربه،وقال لدعاة الفتنة حينما طلبوا منه اعتزال أمور الأمة : لا أنزع قميصا ألبسنيه الله ، أو مثل قوله:لأن أقدم فتضرب عنقي في غير حد أحب إلى من أن أنزع سربالا ، سربلنيه الله عز وجل ، ويردف هؤلاء قولهم أو دعواهم تلك بمثل هذه العبارة : لم تكن الخلافة عند عثمان — إذن — تكليفا تلقاه من المسلمين ، ويستطيع أن يرده عليهم إن شاء هو ، أو شاءوا هم ، وإنما كانت الخلافة عنده ثوبا أسبغه الله عليه ، وليس له أن ينزعه عن نفسه ، وليس لأحد غيره أن ينزعه عنه ، وإنما الله وحده هو الذى يملك تجريده من هذا الثوب .

ويقول بعض آخر من أصحابنا هؤلاء : فهم عثمان ـ يرحمه الله ـ ان كونه إماما يمنحه حرية التصرف فى مال المسلمين بالهبة والعطية ، فكان رده فى كثير من الأحيان « وإلا ففيم كنت إماماً » كما يمنحه حرية أن يحمل ، بنى معيط على رقاب الناس، وفيهم الحكم طريد رسول الله . لقد منح عثمان من بيت المال زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه ، مئتى ألف درهم ، فلما أصبح الصباح جاءه زيد بن أرقم خازن بيت المال ، وقد بدا فى وجهه الحزن وترقرقت فى عينه الدموع فسأله أن يعفيه من عمله ، ولما علم منه السبب وعرف أنه عطيته لصهره من مال المسلمين : قال مستغربا : أتبكى يا ابن أرقم أن وصلت رحمى .. فرد الرجل الذى يستشعر روح الإسلام المرهف : لا يا أمير المؤمنين . ولكن ابكى لأنى أظنك

أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته فى سبيل الله فى حياة رسول الله . والله لو أعطيته مائة درهم لـكان كثيرا فغضب عثمان على الرجل الذى لا يطيق ضميره هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين وقال له : ألق بالمفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك . . يقول مؤلف « العدالة الاجتماعية فى الإسلام »، والأمثلة كثيرة فى سيرة عثمان على هذه التوسعات ، فقد منح الزبير ذات يوم ستمائة ألف . ومنح طلحة مئتى ألف ، ونفل مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية ، ولقد عاتبه فى ذلك اناس من الصحابة على رأسهم على بن أبي طالب ، فأجاب : إن لى قرابة ورحما فأنكروا عليه وسألوه : فما كان لأبى بكر وعمر قرابة ورحم فقال : إن أبا بكر وعمر ، كانا يحتسبان فى منع قرابتهما ، وأنا أحتسب فى إعطاء قرابتى ، فقاموا عنه غاضبين يقولون : فهديهما والله أحب إلينا من هديك. يقول مؤلف العدالة المذكورة : نعم وأحب إلى الإسلام ، وأقرب إلى حقيقة الإسلام . وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابة عثمان ، وفيهم معاوية الذى وسع عليه عثمان فى الملك ، فضم إليه فلسطين وحمص ، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة . ومهد له بعد ذلك ، أن يطلب الملك فى خلافة على وقد جمع المال والأجناد ولقد كان الصحابة يرون هذا الانحراف عن روح الإسلام ، فيتداعون فى المدينة لإنقاذ الإسلام ، وإنقاذ الخليفة من المحنة [١] .

وفى سبيل تعزيز الرأى الحديث الذى يقول : إن منصب الخلافة كان فى صدر الدولة العربية الإسلامية يمنح شاغله حق البقاء فيه مدى الحياة ، مهما غير وبدل ، وأن ذلك هو رأى الصحابة ، يقول بعض المعاصرين : وعذر عثمان

---

(١) من كتاب العدالة الاجتماعية لسيد قطب ص ١٨٦ — ١٨٨ .

حتى ذلك أنه رأى صاحبيه من قبل قد نهضا بالخلافة ، فلم تنزع عن أحدهما ما أقام على الحياة ، فهو إذن مثلهما قد نهض بالخلافة ، ويجب أن يستمسك بها ما امتدت له أسباب الحياة . . وإذا كان هذا رأيه فى الخلافة وفيما تبيح له من سلطان ، فليس غريباً أن يضيق بالذين يجادلونه فى سلطانه[1] ، ويقول قبل ذلك ، وأخرى يجب أن نلاحظها فى تفسير السياسة المالية لعثمان، وهى أنه لم يكن يرى، فيما يظن أن للمسلمين الحق ، فى أن يراقبوه فضلا عن أن يعاقبوه ، فهو قد أعطى العهد الذى أعطاه ، وهو مسئول عن هذا العهد أمام الله ، لا أمام الناس ، يدل على ذلك اقتناعه بأن الذين طلبوا إليه أن يخلع نفسه ، قد طلبوا إليه شيئاً عظيما ، وقوله لهم ولغيرهم ما كنت لأخلع قميصاً قمصنيه الله .

ومما له صلة بهذا الحديث ما يراه بعض آخر من الباحثين فى تاريخ الإسلام ، وهو المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، إذ يقول: كانت النظم القائمة فى الروم وفى الفرس ، هى التى تأثر بها نظام الحكم الاسلامى ، فقد أنشأ عمر الديوان ، ثم ازداد تأثرا بها فى عهد عثمان[2] .

وواضح من هذه التعليقات التى أسلفناها لثلاثة من كتابنا المعاصرين ، على عهد عثمان ، أنهم جميعاً يكادون يتهمون العهد وصاحبه بالانحراف عن عهد رسول الله ﷺ وصاحبيه ، وبذلك يكون التبرير المنطقى على أمير المؤمنين الشيخ ، عثمان بن عفان رضى الله عنه .

---

(١) الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين .

(٢) الإمبراطورية الإسلامية ص ٣٤ .

وقبل أن نناقش هذه الآراء التى تمثل جميع الأطراف فى هذه المسألة ، نضع بين أيديهم جميعاً ما رواه ثقات المؤرخين ، بالإضافة إلى ما أبناه فيما سلف .

يقول الطبرى فى حوادث سنة ٣٥ هـ[1] كان أهل مصر ، كاتبوا أشياعهم من أهل الكوفة وأهل البصرة ، وجميع من أجابهم ، أن يثوروا خلاف أمرائهم ، واتعدوا يوماً حيث شخص أمراؤهم ، فلم يستقم ذلك لأحد منهم ولم ينهض إلا أهل الكوفة فإن يزيد بن قيس الأرحبى ثار فيها واجتمع إليه أصحابه ، وعلى الحرب يومئذ القعقاع بن عمرو ، فأتاه فأحاط الناس بهم وناشدوهم ، فقال يزيد للقعقاع : ما سبيلك علىّ وعلى هؤلاء ، فوالله إنى لسامع مطيع ، وإنى للازم لجماعتى وهم ، إلا أنى أستعفى ومن ترى من إمارة سعيد فقال. اتستعفى الخاصة من أمر قد رضيته العامة ، قال فذاك إلى أمير المؤمنين ، فتركهم والاستعفاء ولم يستطيعوا أن يظهروا غير ذلك،فاستقبلوا سعيدا فردوه (عن ولاية الكوفة)واجتمع الناس على أبى موسى الأشعرى،وأقره عثمان رضى الله عنه .

ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج إلى الأمصار ، وكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف ويسألون عثمان عن أشياء لتطير فى الناس ، ولتحقق عليه ، فتوافوا بالمدينة ، وأرسل عثمان رجلين، مخزوميا وزهريا فقال: أنظرا مايريدون، واعلما علمهم ، وكانا ممن قد ناله من عثمان أدب ، فاصطبرا للحق ، ولم يضطغنا ، فلما رأوهما باثوهما (كاشف السبئية الرجلين) فأخبروهما بما يريدون .فقالا : من معكم على هذا من أهل المدينة ، قالوا ثلاثة نفر: قالا فكيف تريدون أن تصنعوا ، قالوا : نريد أن تذكر له أشياء قد زرعناها فى قلوب الناس ، ثم نرجع إليهم

---

(١) الأمم والملوك جـ ٥ ص ١٠١ .

فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج ولم يتب ، ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه . فرجعا إلى عثمان بالخبر ، فضحك وقال : اللهم سلم هؤلاء ، فإنك إن لم تسلمهم شقوا[1] » وبعد أن يذكر الطبرى رأى عثمان فى موقف كل من عمار بن ياسر ، ومحمد بن أبى بكر وغيرهما من الساخطين ، يقول « فأرسل (عثمان) إلى الكوفيين والبصريين ونادى بالصلاة جامعة » وهم عنده فى أصل المنبر ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا بهم فحمد الله وأثنى عليه ، وأخبرهم خبر القوم .

ثم قال ان هؤلاء ذكروا أمورا قد علموا منها مثل الذى علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ليوجبوها على عند من لا يعلم . وقالوا : اتم الصلاة فى السفر ، وكانت لا تتم . ألا وإنى قدمت بلدا فيه أهلى فأتممت لهذين الأمرين أو كذلك . قالوا نعم .

وقالوا : وحميت حمى . وإنى والله ما حميت إلا حمى قبلى . والله ما حموا شيئا لأحد ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رعيه احدا ، واقتصروا لصدقات المسلمين ، يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ولا نحوا أحدا وما لى من بعير غير راحلتين ، وما لى ثاغية ولا راغية ، وإنى قد وليت ، وإنى أكثر العرب بعيرا وشاه ، فما لى اليوم غير بعيرين لحجى .. ا كذلك . قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : كان القرآن كتبا فتركتها إلا واحدا ؟ ألا وان القرآن واحد ، جاء من عند واحد ، وإنما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء .. ا كذلك .. قالوا : نعم .

---

(١) نفس المرجع السابق .

وقالوا : انى رددت « الحكم » وقد سيره رسول الله ﷺ والحكم مكى سيّره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف ، ثم رده رسول الله ﷺ فرسول الله سيره ، ورسول الله ردّه . ا كذلك . قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : استعملت الأحداث ، ولم استعمل إلا مجتمعا محتملا مرضيا . وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه ، وهؤلاء أهل بلدهم .. ولقد ولى من قبلى أحدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله (ص) أشد ممــا قيل لى فى استعماله أسامة . أ كذاك . قالوا : اللهم نعم . يعيبون للناس مالا يفسرون .

وقالوا : أعيطت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه . وإنى إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس فكان مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فرددته عليهم ، وليس ذلك لهم .. ا كذاك ، قالوا : نعم .

وقالوا : إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم . فأما حبى ، فإنه لم يمل معهم على جور ، بل أحمل الحقوق عليهم . وأما اعطاؤهم . فانى ما أعطيهم إلا من مالى ، ولا استحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس . ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى ازمان رسول الله (ص) وأبى بكر وعمر وأنا يومئذ شحيح حريص . أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى ، وفنى عمرى ، وودعت الذى لى فى أهلى ، قال الملحدون ما قالوا وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد زدته عليهم ، وما قدم علىّ إلا الأخماس ، ولا يحل لى منها شىء إذ تولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ، ولا تبلغت من مال الله بفلس فما فوقه ، وما انبلغ منه ما آكل إلا من مالى

وقالوا : أعطيت الأرض رجالا ، وأن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون

والأنصار أيام افتتحت ، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح ، فهو اسوة أهله ، ومن رجع إلى أهله ، لم يذهب ذلك ماحوى الله له ، فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب ، فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى[1] » يقول الرواة : وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه فى بنى أمية ، وجعل ولده كبعض من يعطى ، فبدأ ببنى أبى العاص ، فأعطى آل الحكم ، رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف فأخذوا مائة ألف ، وأعطى بنى عثمان مثل ذلك ، يقول المؤرخون « ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف (من أهل الكوفة والبصرة وسائر اتباع ابن سبأ) وأبى المسلمون إلا عقوبتهم ، وأبى عثمان إلا تركهم ، فذهبوا ورجعوا إلى بلادهم على أن يغزوهم مع الحجاج ، كالحجاج فتكاتبوا وقالوا موعدكم ضواحى المدينة فى شوال ، حتى إذا دخل شوال من سنة اثنتى عشرة[2] ، ضربوا كالحجاج فنزلوا قرب المدينة . وذلك فى سنة ٣٥ هـ إذ خرج أهل مصر فى أربع رفاق على أربعة أمراء المقلل يقول : ستمائة ، والمكثر يقول « ألف » على الرفاق ، عبد الرحمن بن عديس البلوى — وهو رجل — فيما قيل له صحبة ، وممن بايع تحت الشجرة[3] — وكنانة بن بشر الليثى ، وسودان بن حمران السكونى ، وقتيرة ابن فلاق السكونى ، وعلى القوم جميعاً الغافقىُّ بن حرب العكىُّ ، ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب ، وإنما خرجوا كالحجاج ، وخرج أهل الكوفة فى أربع رفاق وعلى الرفاق ، زيد بن صوحان العبدى ، والاشتر النخعى ، وزياد بن النضر الحارثى ، وعبد الله بن الاصم أحد بنى عامر بن

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) سنة اثنتى عشرة من بدء خلافة عثمان رضى الله عنه ، وقد آثرنا أن ننقل هذه العبارة حرصا على الأمانة العلمية أنظر الطبرى والمسعودى .

(٣) مروج الذهب ج١ ص٤٤٠ .

صعصعة، وعددهم كعدد أهل مصر، وعليهم جميعاً ، عمرو بن الأصم ، وخرج أهل البصرة فى أربع رفاق . وعلى الرفاق حكيم بن جبله العبدى ، وذريح بن عباد العبدى، وبشر بن شريح القيسى ، وابن المحرش بن عبد عمرو الحنفى ، وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعا . حرقوص بن زهير السعدى ، سوى من تلاحق بهم من الناس فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون عليا ، وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلحة وأما أهل الكوفة فإنهم يشتهون الزبير، فخرجوا وهم على الخروج جميع ، وفى الناس شتى لا يشك كل فرقة أن النصر معها وأن أمرها سيتم دون الآخريين ، فخرجوا حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث مراحل ، تقدم جماعة من أهل البصرة ونزلوا ذا خشب ، وناس من أهل الكوفة ، فنزلوا الأعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذى المروة ، ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة ، زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم ، وقالا : لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد . فإنه بلغنا أنهم قد عسكروا لنا فو الله إن كان أهل المدينة قد خافونا واستحلوا قتالنا ولم يعلموا علمنا ، فهم إذا علموا علمنا أشد ، وان أمرنا هذا لباطل ، وإن لم يستحلوا قتالنا ووجدنا الذى بلغنا باطلا ، لنرجعن إليكم بالخبر قالوا : إذهبا ، فذهب الرجلان فلقيا أزواج النبى ﷺ وعليا وطلحة والزبير وعائشة ، وقالا إنما نأتم (نقصد) هذا البيت وتستعفى هذا الوالى من بعض عمالنا ، ما جئنا إلا لذلك ، واستاذناهم للناس بالدخول ، فكلهم أبى ونهى . . فرجعا إليهم ، فاجتمع من أهل مصر نفر فأتوا عليا ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير ، ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة . . يقول الرواة : فغضب على وطلحة والزبير ، وطردوا هؤلاء الذين عرضوا عليهم عزل عثمان وعرضوا باسناد الأمر إليهم ، وقام هؤلاء السادة من المهاجرين ، فبعثوا بأبنائهم لحراسة عثمان والسهر على رعايته ، وأخذوا يعملون جاهدين على رد الكيد عنه بكل سبيل ولكن القدر سبقهم ، فاعتدى السبئية على عثمان بعد تمهيدات كيدية ، وحصار شديد .

أما بعد :

فإن الشبه التى عبرعنها نفر من الباحثين فى العصر الرشيد من المعاصرين ، ليست جديدة إلا من نافذة العرض والزمن ، والأسلوب الحديث ، ولذلك فقد أردنا حسمها من نفس دفاع الرجل الذى حامت حوله وزعم هؤلاء أن جملتها، كانت السبب المباشرفى ثورة الأمصارعليه ، وطلب اعتزاله ، فلما رفض تخلصوا منه بإراقة دمه وقتله ·

ومن أطرف التبريرات التى ساقها كتابنا أولئك ، أن عثمان قد تلاعب بشريعتى المال والسياسة فظن أن المال ملك يمينه ، وأن رياسة الأمة تخليد مدى الحياة لشخصه ، وبذلك كان يكره أن يعارض ، أو يناقش فى شىء من ذلك ؟؟

إن مثل هذا الـكلام ، الملقى على مسئولية أصحابه ، لاحظ له من الحقيقة ولا من التاريخ أو الواقع الإسلامى ·

ولعل فى النص الذى قدمناه من أوثق مصادرنا العربيةوالإسلامية ، مايؤمن شخصية عثمان ، وتصرفاته السياسية والمالية من الانحراف إلى الامبراطورية أو التسلط ، فالرجل — كما تحدث إلى السبئية — بمشهد من الصحابة لم ينحرف عن سنة رسول الله والشيخين من بعده ، ولم يقترف ما ينافى الشورى ، وإقامة العدل والـكفاية فى الدولة الإسلامية الاشتراكية النزعة .

كذلك لم يستحل عثمان. كما أكد فلسا فأكثر من مال المسلمين لنفسه أو لأقاربه، ولم يعزل عاملا إلا بعد تحقيق وبينة، ولم يول إلا «مجتمعا محتملا مرضيا»، فهو — إذن — لم يركب بنى معيط والحكم رقاب الناس ولم يعط الزبير ولا طلحة ، ولا مروان ، ولا الحارث بن الحكم زوج ابنته « فلسا فأكثر » غير حقه المفروض له فى نظام الدولة

من أين — إذن — استقى مؤلف هذه «العدالة فى الإسلام» تلك المزاعم التى قالها السبئية وسبق أن ردعليها عثمان بحضور جميع الصحابة · وقدكان عثمان يذكر الإذاعة ،

ثم يناقشها ويبين وجهة نظره، فكان جميع الصحابة يقولون مؤكدين استقامة سياسته فى الحكم والادارة وأسلوب الجباية والتوزيع، وسائر الشئون العامة — اللهم نعم[1] .

وهكذا أيضا ترى أن لامجال لفهم كلمة عثمان التى قيل إنه رد بها على السبئية، من أنه لاينزع قميصا ألبسه الله إياه ، على أن الخلافة فى رأيه مقدسة، يناط شأن شاغلها فى الجزاء والمراجعة بالله وحده ، وليس للأمة أن تعترض. بل إن الأدنى إلى المنطق العربى ، الذى كان معروفا ابان العصر الأول ، أن تفهم مثل هذه العبارة، على أنها مجرد تعبير عن الرفض وكف غير المسئول عن الدخول فيما لا يعنيه ، لئلا تكون فوضى فى دولة مرد الأمر فيها إلى الأمة وحدها .

ومن غير شك أن الذين انشبوا الفتنة ، لم يكونوا يبغون إلا الفتنة ، ولم يكن لهم من هدف إلا القتل والتخريب ، واشعال الحروب الأهلية بين طوائف الأمة الإسلامية ، ولم يكن معهم صحابى واحد على رأيهم سوى ما أشيع عن عمار بن ياسر ، ومحمد بن أبى بكر ، وقيل وعبد الرحمن بن عديس ، ولم يثبت أن هذا له صحبة إلا فى رواية محمد بن اسحاق التى حكاها المسعودى فى مروج الذهب[2] .

وأخيرا نرى أن عثمان لم يقترف من الأخطاء ما يمس السياسة الشورية الديمقراطية ، أو شريعة العدل والكفاية فى توزيع الحقوق والواجبات ، ولم يكن ضعيفا أو متهاونا فى شىء من مسئولياته كلها ، وقد قرر ذلك على مرأى ومسمع من جميع الصحابة ، ورجالات الأمة فأكدوا تأمينهم على كل حرف من ذلك .

وإذن فقد كانت « فتنة لاثورة » واجهها عثمان باللين والمواتاة والتسامح ، ولم يحسم الأمر كما كان ينبغى فى مثل هذه الظروف ، ولو أنه فعل لتغير وجه التاريخ.

---

(١) راجع حديث عثمان إلى وفود الأمصار بحضور صحابة الرسول ﷺ فيما سبق .

(٢) انظر ص ٤٤٠ ج ١ .

ولـكن .. قدر الله ، وماشاء فعل . يقول الذهبي أحد أئمة الحديث والتاريخ في التذكرة . « أمير المؤمنين عثمان ، من تستحي منه الملائكة ، ومن جمع الأمة على مصحف واحد بعد الاختلاف ، ومن افتتح نوابه إقليم خراسان ، وإقليم المغرب ، وكان من السابقين المنفقين في سبيل الله ، وممن شهد له رسول الله بالجنة ، من نظر في تحرّيه وقت جمعه للقرآن ، علم مرتبته وقدره .

هاجت رؤوس الفتنة والشر ، وأحاطوا به وحاصروه ليخلع نفسه ، بقوة السبئية وبدون رأى الأمة التى انتخبته بإرادتها وقاتلوه . قاتلهم الله فصبر وكف نفسه ، حتى ذبح صبرا فى داره ، والمصحف بين يديه » .

ونجتزىء بهذا القدر الآن لنوجز جملة عن المرحلة التالية ، حيث بويع لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ثم واجه الفتنة من أول يوم أخذت له فيه البيعة ، وظل فى صراع عنيف حتى اغتيل فى سنة ٤٠ هـ ، فانتخب الشيعة ابنه الحسن الذى تنازل إلى معاوية بن أبى سفيان كما سنوضح بعد .

الفصل الرابع

عصر على

نسبه وسيرته :

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أبو الحسن، وابن عم محمد ﷺ ،لأن أبا طالب وعبد الله شقيقان ، وأمه فاطمة بنت أسد ... زوّجه الرسول ابنته فاطمة بنت خديجة رضى الله عنهما ، وأكثر المؤرخين وأهل العلم ، على أنه أول الناس إسلاما[1] ، ولد قبل البعثة بعشر سنين فى أصح الروايات، وكان ممن سبق إلى الإسلام لم يتلعثم ، وجاهـد فى الله حق جهاده ، وشهد له الرسول (ص) بالجنة ، ونهض بالعلم والعمل [2] وكان حازماً متحريا ، وشجاعاً فى الحق ، جلداً فى الحرب ، فارساً ماهراً . ومحارباً من الطراز الأول . لاتهزم له راية ، ولا يقوى على مبارزته إلا مغامر بنفسه

كفله الرسول ﷺ وهو صغير ، تخفيفاً للعبء عن عمه وكافله السابق ، أبى طالب ، إذ أصابته ضائقة ، وقد نام مكان النبى (ص) ليلة الهجرة ، مضحياً بنفسه فى سبيل الله ورسوله ، شهد المشاهد كلها عدا تبوك، إذا استخلفه الرسول فيها على أهله .

عرف بقوة العزيمة ، والثبات على الحق،والفقه فى الدين ، واستقامة السلوك،

---

(١) الإصابة جـ ٤ ص ٢٦٩

(٢) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٠

مع تواضع كريم ، وحدب شديد على الضعفاء والمساكين وابن السبيل . حتى ليقال إنه نزلت فيه الآية الكريمة « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً » فصاحته وبلاغته ، ولسنه ، مضرب الأمثال حتى اليوم ، يبغض الفرقة والخلاف ، ويحب الألفة والجماعة .

بايع لأبى بكر وعمر وعثمان ، وهو مطمئن النفس ، ساكن الفؤاد ، يؤمن بكليته بأن الأعمال خدمة عامة ، وتكليف بأداء واجب ، وليست سبيلا إلى الجاه والسلطان » والإثراء ، أو استغلال الآخرين لم يسل لعابه قط لمنصب الخلافة وإمارة المؤمنين ، بل كان يعزف عنها كل العزوف ، توجه إليه السبئية قبل حصار عثمان ، وعرّضوا له بالخلافة ، فزجرهم وطردهم. كان أبرز الأبطال فى جميع الغزوات والفتوح الكبرى .

بيعته :

يقول الرواة : اختلفوا فى كيفية بيعته فقيل إنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب رسول الله (ص) من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير فأتوا عليا فقالوا له: إنه لابد للناس من رئيس قال لاحاجة لى فى أمركم فمن اخترتم رضيت به . فقالوا ما نختار غيرك وترددوا إليه مرارا وقالوا له فى آخر ذلك إنا لا نعلم أحدا أحق به منك لا أقدم سابقة ولا أقرب قرابة من رسول الله (ص) فقال لا تفعلوا فإنى أكون وزيراً خيرا من أن أكون أميرا ، فقالوا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك قال ففى المسجد فإن بيعتى لا تكون خفية ولا تكون إلا فى المسجد ، وكان فى بيته وقيل فى حائط لبنى عمرو فخرج إلى المسجد متوكئاً على قوس ، فبايعه الناس. وكان أول من بايعه من الناس ، طلحة بن عبيد الله وبايعه الزبير وقال لهما على إن أحببتما أن تبايعانى وإن أحببتما بايعتكما فقالا : بل نبايعك وقالا بعد ذلك إنما فعلنا ذلك

خشية على نفوسنا ، وعرفنا أنه لا يبايعنا وخرجا إلى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر فيماقيل وبايعه الناس وجاءوا بسعد بن أبى وقاص ، فقال له على : بايع فقال: لاحتى يبايع الناس ، والله ماعليك منى من بأس ، فقال خلوا سبيله، وجاءوا بابن عمر ،فقالوا بايع قال لاحتى يبايع الناس. قال على: إئتنى بكفيل قال لا أرى كفيلا، قال الأشتر : دعنى أضرب عنقه قال على : دعوه أنا كفيله ، وبايعت الأنصار إلا نفرا يسيرا منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدرى ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج ، وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عجرة ، وكانوا عثمانية

ولم يبايعه عبد الله بن سلام، وصهيب بن سنان . وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون ، والمغيرة بن شعبه . فأما النعمان بن بشير فإنه أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التى قطعت وقميص عثمان الذى قتل فيه وهرب به فلحق بالشام . فكان معاوية يعلق قميص عثمان. وفيه الأصابع على منبر المسجد فإذا رأى ذلك أهل الشام زادوا غيظا[1] .

يقول المسعودى: إن علياً بعد أن استقرت البيعة له . انتزع أملا كا كانت لعثمان أقطعها جماعة من المسلمين وقسم مافى بيت المال على الناس ولم يفضل أحدا على أحد وإن قميص عثمان ذهبت به إلى معاوية أم حبيبة بنت أبى سفيان وأم المؤمنين ، مخضبا بدمائه ومعها النعمان بن بشير الأنصارى[2] وقد بايعت الكوفة أخذ له البيعة على أهلها أبو موسى الأشعرى ، وكان عليها عاملا لعثمان.

يقول المؤرخون . وأتى المغيره بن شعبة عليا فقال له إن حق الطاعة النصيحة

---

(١) أنظر بيانه فى (كلمة عنه) بعد قليل .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٤ .

وإن الرأى اليوم تحوز به مافى عد. وإن التصارع اليوم تضيع به مافى غد..أقرر معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت . قال : حتى أنظر فخرج من عنده وعاد إليه من الغد فقال : إنى أشرت عليك بالأمس برأى وتعقبته ،وإنما الرأى أن تعاجلهم بالنزع فتعرف السامع من غيره ويستقل أمرك ثم خرج فتلقاه ابن عباس خارجاً وهو داخل فلما انتهى إلى على . قال رأيت المغيرة خارجاً من عندك ففيم جاءك قال جاءنى أمس بكيت وكيت ، وجاءنى اليوم بزيت وزيت. فقال أما أمس فقد نصحك، وأما اليوم فقد غشك قال فما الرأى قال : كان الرأى أن تخرج حين قتل عثمان أو قبل ذلك فتأتى ينبع فتدخل دارك فتغلق عليك بابك فإن العرب كانت لجائلة مضطربة فى أمرك لا تجد غيرك. فأما اليوم فإن بنى أمية يستحسنون الطلب بأن يلزموك شعبة من هذا الأمر .

على أن وفادة المغيرة بن شعبة فيما يبدو كانت بباعث النصيحة فعلا فى أول الأمر وقد نصح علياً ، ولكن لم يكن لدى على استعداد لقبول هذا التوجيه للظروف القائمة والمحيطة بعلى . فإن الشكوى من الذين قتلوا عثمان إنما كانت فى ظاهرها على الأقل من هؤلاء العمال فكان لابد لحسم الشكوى من عزلهم جميعاً حتى يمكن استئناف حياة جديدة مع أشخاص يطمئن إليهم ولذلك نرى علياً لا يعير نصيحة المغيرة . لا سيما وأنه لم يبايع ـ أى اهتمام ولهذا فقد أصدر قراراً بعزل جميع عمال عثمان واستبدالهم بآخرين

يقول الرواة : بعث على عماله إلى الأمصار فبعث عثمان بن حنيف على البصرة. وعمارة بن شهاب على الكوفة وكانت له هجرة، وعبيد الله بن عباس على اليمن. وقيس بن سعد على مصر . وسهل بن حنيف على الشام ، فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل لمعاوية فقالوا من أنت ؟ قال : أمير . قالوا : على أى شىء .

قال : على الشام قالوا: إن كان عثمان بعثك فحيا هلا بك. وإن كان بعثك غيره فارجع قال : أو ما سمعتم بالذى كان قالوا : بلى فرجع إلى على .

وأما قيس بن سعد فإنه لما انتهى إلى أيلة لقيته خيل فقالوا من أنت ، قال: من فالةٍ عثمان فأنا أطلب من أوى إليه وانتصر به قالوا : من أنت ، قال قيس بن سعد . قالوا : إمض فمضى حتى دخل مصر فافترق أهل مصر فرقاً،فرقة دخلت فى الجماعة وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت . وقالوا: إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم وإلا فنحن على جذيلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا . وفرقة قالوا: نحن مع على ما لم يقد ويقتل إخواننا وهم فى ذلك مع الجماعة . وكتب قيس إلى أمير المؤمنين بذلك .

وأماعثمان بن حنيف فسار،فلم يرده أحد عن دخول البصرة ولم يوجد فى ذلك لابن عامر رأى ولا حزم ، ولا استقلال بحرب. وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم ودخلت فرقة فى الجماعة وفرقة قالت ننظر مايصنع أهل المدينة فنصنع ماصنعوا.

وأما عمارة فأقبل حتى إذا كان قرب الكوفة لقيه طليحة بن خويلد وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو إلى الطلب بدمه.فخرج حين رجع القعقاع من إغاثة عثمان فيمن اجابه حتى دخل الكوفة ، فطلع عليه عمارة قادماً من الكوفة فقال له : إرجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلا وإن ابيت ضربت عنقك فرجع عمارة وهو يقول . احذر الخطر ما يماسك الشر خير من شر منه فرجع إلى على بالخبر .

وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن فجمع يعلى بن امية كل شىء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال . ولما رجع سهل بن حنيف من طريق الشام واتته الأخبار ورجع من رجع دعا على طلحة والزبير فقال إن الذى كنت احذركم قد وقع وإن الذى وقع لايدرك إلا باماتته وإنها فتنة كالنار كلما سعرت إزدادت واستثارت. فقالا له فأذن

لناأن نخرج من المدينةفقال سأمسك الأمرمااستمسك.فإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكي .وكتب إلى معاوية.وإلى أبى موسى.فكتب إليه أبو موسى بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم . وبين الكاره منهم بالذى كان والراضي بالذى قد كان ومن بين ذلك حتى كان علىّ على المواجهة من أمر أهل الكوفة وكان رسول على إلى أبى موسى معبد الاسلمى وكان رسوله إلى معاوية سبرة الجهنى.فقدم عليه فلم يكتب معاوية بشىء ولم يجبه.وماطل فى الرد على رسوله.وجعل الجهنى كلما تنجز الكتاب لم يزده معاوية على المماطلة بالوعود حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان فى شهر صفر سنة ٣٦. دعا معاوية برجل من بنى عبس يدعى قبيصة فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه « من معاوية إلى على » فقال : إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، ثم أوصاه بما يقول لعلى . وعند ذلك سرّح رسول على وخرجا ــ رسول على مع رسول معاوية إلى على ــ فقدما المدينة فى ربيع الأول لغرته فلما دخلا المدينة رفع العبسى الطومار . كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون إليه فتفرقوا إلى منازلهم. وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضى الرسول حتى دخل على علىّ فدفع إليه الطومار وسلمه إليه فلم يجد فى جوفه كتابة فقال للرسول ماوراءك قال. آمِنٌ أنا. قال نعم . ان الرسل آمنة لا تقتل. قال رسول معاوية . ورأنى أنى تركت قوما لا يرضون إلا بالقَودَ « القصاص » قال على. مِمنْ . قال . من خيط نفسك . وتركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق . فقال على . منىّ يطلبون دم عثمان ألست موتوراً كترة عثمان ، اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان ، نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ، فإنه إذا أراد أمراً أصابه ، أخرج . قال ؛ وأنا آمن قال على . وأنت آمن ، فخرج العبسى ، وصاحت السبئية وقالوا . هذا الكلب ،هذا وافد الكلاب اقتلوه فنادى يالمضر يالقيس الخيل والنبل إنى أحلف بالله جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف فانظروا كم الفحولة والركاب ، وأحاطوا به فمنعته مضر ، وجعلوا يقولون له .

اسكت . فيقول : لا والله لا يفلح هؤلاء أبداً . فلقد أتاهم ما يوعدون. فيقولون له اسكت . فيقول: لقد حل بهم ما يحذرون. إنتهت والله أعمالهم وذهبت ريحهم. ثم انصرف .

طلحة ، والزبير

فى الروايةالسابقة التى ذكرهابعض المؤرخين مثل ابن الأثير والطبرى يتضح أن طلحة والزبير قد هربا من المدينة ولحقا بمكة بدون علم على ، بل وربما وهما منابذان له . . ولكن بعض المؤرخين يرى أنهما كانا على وفاق مع على. وأنهما عرضا عليه أن يخرجا من المدينة ليكوناله ظهراً فى الأمصار الأخرى(١) .

يقول هؤلاء: قال طلحة لعلى دعنى فلأخرج إلى البصرة فأكون ظهراً لك وأنا فى قوة. وقال الزبير: وأنا أيضاً أذهب إلى الكوفة وأكون ظهراً لك وأنا فى قوة. ولكن علياً أبدى لهما ضرورة وجودهما إلى جانبه فعاودا الطلب مرة أخرى فأذن لهما على فخرجا ولكنهما لم يذهبا إلى البصرة والكوفة وإنما لحقا بمكة ، وأحب أهل المدينة أن يعلموا رأى على فى معاوية ليعرفوا بذلك رأيه فى قتال أهل القبلة، أيجسر عليه أو ينكل عنه فدسوا إليه زياد بن حنظلة التميمى وكان منقطعاً إلى على. فجلس إليه ساعة ، ثم قال له علىّ يازياد تيسّر «تجهز » فقال : لأى شىء. فقال: تغزو الشام ، فقال زياد : الأناة والرفق أمثل وتمثل

ومن لايصانع فى أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بميسم

فتمثل علىٌ وكأنه لايريده :

متى تجمع القلب الذكى وصارماً   وأنفاً حمياً تجتنبك المظالمُ

---

(١) أنظر مروج الذهب جـ ٢ ص ٦ وتاريخ الأمم ؛ ومحاضرات الحضرى.

ثم خرج زياد إلى الناس وأعلمهم بأن عليا سيحارب معاوية وكل من يخرج عليه .

موقعة الجمل :

بعد أن خرج طلحة والزبير من المدينة ، ولم يذهبا إلى العراق بل إلى مكة كما أسلفنا . لقيا عائشة أم المؤمنين، ووالى مكة الذى كان قد ولاه عثمان وهو عبد الله ابن عامر الحضرمى . كما لقيا بنى أمية الذين خرجوا من المدينة بعد قتل عثمان ، والتفّ حولهم أعرابُ البوادى والغاضبون للاعتداء على أمير المؤمنين .

وكانت أم المؤمنين عائشة قد قضت نسكها ورجعت فى طريقها إلى المدينة، ثم بلغها نبأ قتل عثمان . فيقال إنها غضبت إ-تبشاعاً لهذه الجريمة فرجعت ثانية إلى مكة فالتقت بطلحة والزبير واجتمع عددهائل من المسلمين فى المسجد الحرام، ثم توجهت عائشة إلى المسجد وخطبت الناس فقالت : يا أيها الناس ، إن الغوغاء من أهل الأمصار ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس . استعمال من حدثت سِنَّه وقد استعمل أسنانهم قبله، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم ، وهى أمور قدسبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها إستصلاحا لهم ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خاجوا (اضطربوا) وبادروا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ،واستحلوا الشهر الحرام ، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ، ويشرد من بعدهم ، والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنباً خلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء » . وهنا وبعد أن انتهت أم المؤمنين من تلك الكلمة الثائرة قام عبد الله بن عامر الحضرمى أمير مكة وقال : ها أنذا لها أول طالب ، وأول مجيب .

على أن الأمر تفاقم بتجمع الناس ورؤيتهم لطلحة والزبير وقد كانا بالمدينة وتحدثا بكل الجرائم التى ارتكبها السبيئة ، فازدادت ثورتهم ، والتهبت عواطفهم ، واندفعوا يريدون السير إلى المدينة ، فأشار بعضهم بالتريث ، والذهاب أولا إلى الشام . فقال عبد الله بن عامر : قد كفا كم معاوية أمر الشام . فقال طلحة والزبير فأين إذن قال : البصرة . فإن لى بها صنائع وهم من أنصار طلحة . فأجمع أمرهم على السير إلى البصرة . وهنا عرض لهم أمر التجهز لما ينتظرهم من حرب بينهم وبين المؤيدين لعلى . والمعارضين لعهد عثمان . ولكن يعلى بن أمية الذى كان أميراً على اليمن أبدى استعداده لتمويل هذا الجمع بكل احتياجاته المدنية والعسكرية وكان من قوله « معى ستمائة ألف ، وستمائة بعير » . ثم تلاه ابن عامر وقال : معى كذا وكذا وبذلك أصبح فى استطاعة هذه الجموع أن تسير وهى واثقة بالنصر ، وتجهزت السيدة عائشة لتسير مع هذه الجموع فتصدى لها أزواج النبى محمد ﷺ ممن كانوا فى مكة ونهوها عن الخروج ولكنها أصرت ، ثم واصل هؤلاء سيرهم حتى عسكروا بجوار البصرة .

وبعثت أم الفضل بنت الحارث رجلا من جهينة ، يدعى ظفراً ، فاستأجرته على أن يطوى ويأتى عليًا بكتابها ، فقدم علىّ بكتاب أم الفضل بالخبر ، وهنا قام على بالتجهز للحيلولة دون تلك الجموع والاستيلاء على البصرة ، فأمر على المدينة تمام بن العباس ، وبعث إلى مكة قثم بن العباس . ثم أسرع بالخروج على رأس قوة ضاربة ، وهو يرجو أن يلحقهم بالطريق ، وأراد أن يعترضهم ، ففاتوه فجد فى السير بعد أن أعد العدة . يقول الاخباريون : بلغ عليا الخبر وهو فى المدينة باجتماعهم على الخروج

البصرة ، وبالذى اجتمع عليه ماؤهم طلحة ، والزبير ، وعائشة ، ومن تبعهم . وبلغه قول عائشة ، وخرج على يبادرهم فى تعبئته التى كان تعبّى بها إلى الشام ، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين فى سبعمائة رجل .

ولقيه فى الطريق عبد الله بن سلام ، فأخذ بعنانه ، وقال :

يا أمير المؤمنين : لاتخرج ، فوا الله لئن خرجت من المدينة لاترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً . ولكن لم يلق هذا النصح قبولا من أصحاب على .

وأرسل علىّ إلى أهل الكوفة أن يتجهزوا ويستعدوا ، وذهب رسولاه إليهم محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن جعفر ، وقابلا أبا موسى الأشعرى أمير الكوفة ، وسلماه كتاب على . ثم قاما فى الناس وطلبا منهم الخروج إلى أمير المؤمنين، فلم يجابا إلى ذلك،بل توجه أهل الكوفة إلى أبى موسى لأخذ رأيه ، فقال لهم : كان الرأى بالأمس ، ليس اليوم . إن الذى تهاونتم فيه فيما مضى ، هو الذى جرّ عليكم ماترون اليوم .

إنما هما أمران : القعود سبيل الآخرة ، والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا . فلم ينفر إلى على أحد من أهل الكوفة ، فغضب رسولا على ، وأغلظا القول لأبى موسى فقال لهما : والله إن بيعة عثمان لفى عنقى ، وعنق صاحبكما ، فإن لم يكن بد من قتال ، فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا .

فرجعا إلى على وأخبراه بما حدث من أبى موسى ـ وعلىّ معسكر فى ذى قار ـ فأمر الأشتر أن يذهب مع ابن عباس إلى أبى موسى الأشعرى ليعدل عن رأيه فى

منع الناس من الانضمام إلى على ضد أصحاب الجمل ، فكلما أباموسى واستعانا عليه بنفر من أهل الكوفة . يقول الرواة : فقـــام لهم أبو موسى وخطبهم ، وقال :

أيها الناس . إن أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه ، أعلم بالله وبرسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا لحقا وأنا مؤدّ إليكم نصيحة : كان الرأى أن لا تستخفوا بسلطان الله «يعنى باتباع القانون» وأن لا تجترئوا على الله . وأن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا . فهم أعلم بمن تصلح له الإمارة (فى ابن الأثير الامامة) .

وهذه فتنة صماء . النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان خير من القاعد . والقاعد خير من القائم . والقائم خير من الراكب والراكب خـير من الساعى . فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف . وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار . وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر . وتنجلى هذه الفتنة فرجع ابن عباس والأشتر إلى على ، فأخبراه الخبر ؛ فأرسل ابنه الحسن ، وعمار بن ياسر وقال لعمار . انطلق فأصلح ما أفسدت . فأقبلا حتى دخلا المسجد، وكان أول من أتاهما المسروق بن الأجدع . فسلم عليهما ، وأقبل على عمار فقال : يا أبا اليقظان : علام قتلتم عثمان . قال : على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا . قال: فو الله ما عاقبتم بمثل ماعوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . فخرج أبو موسى ، فلقى الحسن ، فضمه إليه .

وأقبل على عمار فقال : ياأبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا، فأحللت

نفسك مع الفجار. فقال: لم أفعل ولم يسؤنى، فقطع الحسن عليهما الكلام، وأقبل على أبى موسى. فقال له. لم تثبط الناس عنا، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء فقال صدقت بأبى أنت وأمى، ولكن المستشار مؤتمن. سمعت رسول الله (ص) يقول: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشى، والماشى خير من الراكب، وقد جعلنا الله إخوانا وقد حرم علينا دماءنا وأموالنا.

فغضب عمار وسبه وقام وقال: أيها الناس، إنما قال له وحده أنت فيها قاعد خير منك قائماً. فقام رجل من بنى تميم فسب عمارا وقال. أنت أمس مع الغوغاء، واليوم تسافه أميرنا وثار الناس، وجعل أبو موسى يكفكف الناس، ولكن زيد بن صوحان ثار ووقف على باب المسجد ومعه كتاب إليه من عائشة تأمره فيه بأن ينصرها ويلزم بيته. وكتاب آخر إلى أهل الكوفه بمعناه، فأخرجهما فقرأهما على الناس، ثم قال. أمرت أن تقر فى بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة، فأمرتنا بما أمرت به، وركبت ما أمرنا به.

فقال له شبث بن ربعى. يا عمانى (كان زيد بن صوحان من عبد القيس وهم يسكنون عمان) سرقت بجلولاء فقطعت يدك، وعصيت أم المؤمنين، وقام أبو موسى وقال. أيها الناس. أطيعونى وكونوا جرثومة العرب، يأوى إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف، إن الفتنة إذا أقبلت فقد شبهت، فإذا أدبرت بينت، وإن هذه الفتنة فاقرة كداء البطن تجرى بها الشمال والجنوب، والصبا والدبور، تذر الحليم وهو حيران.. إلزموا بيوتكم.. أطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم.. فقام زيد فشال يده المقطوعة فقال: ياعبد الله بن قيس. رد الفرات على أدراجه من حيث أتى، يعود كما بدا، فإن قدرت على ذلك، فستقدر على ما تريد، فدع عنك مالست مدركه، سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين.

إنفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق ، فقام القعقاع بن عمرو فقال : إنى لكم ناصح أمين وعليكم شفيق . أحب لكم أن ترشدوا ، ولأقولن لكم قولا وهو الحق . أما ما قال الأمير فهو الحق ، لو ان إليه سبيلا ، وأما ما قال زيد ، فزيد عدو هذا الأمر ، فلا تستنصحوه والقول الذى هو الحق ، أنه لابد للناس من إمارة تنظم الناس ، وتنزع الظالم وتعز المظلوم ، وهذا أمير المؤمنين ، وقد أنصف فى الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح فانفروا وكونوا من هذا الأمام بمرأى ومسمع ،

وقال عبد الخير : يا أبا موسى . هل بايع طلحة والزبير ؟ قال نعم : قال هل أحدث ما يحل به نقض بيعته . قال : لا أدرى . قال : لادريت . نحن نتركك حتى تدرى ، هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة ، إنما الناس أربع فرق : على بظهر الكوفة ، وطلحة والزبير بالبصرة ، وفرقة بالحجاز لاغناء بها ولا يقاتل بها عدو . فقال أبو موسى : أولئك خير الناس وهى فتنة ، فقال عبد الخير . غلب عليك غشك يا أبا موسى فقال سيحان بن صوحان . أيها الناس لابد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعز المظلوم ، ويجمع الناس ، وهذا واليكم يدعوكم لتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه ، وهو المأمون على الأمة ، الفقيه فى الدين ، فمن ينهض إليه فإنا سائرون معه . فلما فرغ سيحان . قال عمار . هذا ابن عم رسول الله (ص) يستنفركم إلى زوجة رسول الله ﷺ وإلى طلحة والزبير ، وإنى أشهد أنها زوجته فى الدنيا والآخرة ، فانظروا ثم انظروا فى الحق ، فقاتلوا معه ، فقال له رجل : أنا مع من شهدت له بالجنة ، على من لم تشهد له ، فقال الحسن . اكفف عنا فإن للاصلاح أهلا ، وقام الحسن بن على فقال . أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به .

وان أمير المومنين يقول . قد خرجت مخرجى هذا ظالماً أومظلوماً . وانى اذكر الله رجلا رعى حق الله إلا نفر ، فإن كنت مظلوما أعاننى ، وان كنت

ظالما أخذ منى - والله ان طلحة والزبير أول من بايعنى وأول من غـدر ، فهل استأثرت بمال أو بدلت حكما . فانفروا ومروا بالمعروف وانهوا عن المنـكر ، فسامح الله الناس.. فأجابوا ورضوا .

وبعد ذلك وجد الحسن أنصارا وأعوانا فقال . أيها الناس إنى غاد فمن شاء أن يخرج معى على الظهر ، ومن شاء فى الماء ، فنفر معه قريب من تسعة آلاف، أخذ فى البر ستة آلاف ومائتان ، وأخذ فى البحر ألفان وأربعمائة .

ويقال ان الأشتر بعث به على بعدالحسن ، وأنه دخل مسجدالـكوفةفوجد الحسن وعمارا فى نزاع مع أبى موسى ، فتركهم ودعا القبائل أن تتبعه إلى القصر حتى اجتمع معه عدد كبير . فدخل قصر الإمارة وأخلاه من عبيد أبى موسى وموظفيهوخاصته ، واحتل القصر ، فخرج هؤلاء إلى أبى موسى بالمسجد فأخبروه أن الأشتر طردهم وأهانهم . فخرج أبو موسى من المسجد إلى القصر فدخله فصاح به الأشتر . أخرج . فقال أبو موسى . اجلنى هذه العشية . فقال الأشتر . هى لك ولا تبيتن فى القصر الليلة وحاول الناس نهب متاع أبى موسى فمنعهم الأشتر وقال: أنا له جار . فـكُفُّوا عنه ، فـكَـفُّوا ، ونفروا إلى على، وانضموا إلى العدد الذى أسلفناه، فبلغ عددمن انضم إلى جيش على حوالى اثنى عشر ألفا فى أصح الروايات[١]

ومهما يـكن من شىء ، فقد عسكر أصحاب على ، واصحاب طلحة والزبير وعائشة (أصحاب الجمل) يقول المسعودى[٢] « وكان مسير على إلى البصرة فى

---

(١) انظر الـكامل لابن الاثير ج ٣ ص ١١٥ وما بعدها.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣ .

سنة ست وثلاثين ، وفيها كانت وقعة الجمل ، وذلك فى يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى ، وقتل فيها من أصحاب الجمل وأهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفا ، وقتل من أصحاب على خمسة آلاف ، وقد تنازع الناس فى مقدار من قتل من الفريقين فمن مقال ، ومكثر . فالمقلل يقول . قتل منهم سبعة آلاف على حسب ميل الناس وأهوائهم إلى كل فريق منهم ، وكانت وقعة الجمل وقعة واحدة فى يوم واحد . ويقول الطبرى « ان صاحب الجمل الذى اشترى للسيدة عائشة رضى الله عنها . قال : بينا أنا أسير على جمل إذ عرض لى راكب فقال : ياصاحب الجمل . تبيع جملك . قلت نعم . قال بكم ؟ قلت : بألف درهم . قال مجنون أنت ؟ جمال تباع بألف درهم . قال قلت نعم . جملى هذا . قال : ومِمَّ ذلك . قلت . ما طلبت عليه أحدا قط ، إلا ادركته ، ولا طلبنى وأنا عليه أحد قط إلا فتُّه . قال : لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا . قال : قلت ولمن تريده . قال لأمك قلت : لقد تركت أمى فى بيتها قاعدة ما تريد براحا قال : إنما أريده لأم المؤمنين عائشة . قلت : فهو لك . خذه بغير ثمن . قال لا ولكن ارجع معنا إلى الرجل فلنعطك ناقة مهرية ، ونزيدك دراهم . قال فرجعت فأعطونى ناقة لها مهرية ، وزادونى أربعمائة أو ستمائة درهم ، فقال لى « يا أخا عرينة هل لك دلالة بالطريق ، قال : قلت نعم أنا من أدرك الناس قال فسر معنا فسرت معهم ، فلا أمر على واد أو ماء إلا سألونى عنه حتى طرقنا ماء الحوأب فنبحتنا كلابها . قالوا : أى ماء هذا قلت : ماء الحوأب . قال : فصرخت عائشة بأعلى صوتها ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ثم قالت : أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقا . ردونى . تقول ذلك ثلاثا . فأناخت وأناخوا حولها ، وهم على ذلك ، وهى تأبى حتى كانت الساعة التى أناخوا فيها من الغد . قال فجاءها ابن الزبير فقال : النجاء النجاء ، فقد أدرككم والله على بن أبى طالب ، قال فارتحلوا وشتمونى فانصرفت فما سرت إلا قليلا ، وإذا أنا بعلى وركب معه نحو من ثلثمائة . فقال لى على : يا أيها الراكب فأتيته

فقال : أين اتيت الظعينة ؟ قلت فى مكان كذاوكذا ، وهذه ناقتها وبعتهم جملى. قال : وقد ركبته . قلت نعم وسرت معهم حتى أتينا ماء الحوأب فنبحت عليها كلابها . فقالت كذا وكذا فلما رأيت اختلاط أمرهم ، انفتلت وارتحلوا — فى حديث طويل لاضرورة للاتيان على بقيته(١) .

ولكن هل ترك الفريقان الأمر يسير فى طريق الحرب الساخنة بعد أن ظلوا فترة فى التجهز والإعداد ، وهم فى قلق واضطراب ؟

لقد أرسل على إلى أصحاب الجمل ، رسولا أمينا راشداً ، وهو القعقاع بن عمرو، وزوده بتعليمات خاصة قد تجمع الكلمة ،وتدفن الضغن،واختبره فيما ليس لديه فيه أوامر ، فوجده واعيا حسن الحديث ،وكان القعقاع من الصحابة الأجلاء، الذين فطروا على حب الامن والسلام والعمل على استتبابها فى ربوع الدولة ، كما كان رئيس الشرطة فى مدينة الكوفة فى عهد عثمان ، وولاية أبى موسى الأشعرى، وقد توجه القعقاع إلى السيدة الفاضلة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وقابلها وأبلغها رسالة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقدم ما يقدر عليه من نصح ، وميل إلى الوحدة والجماعة ، يقول المؤرخون : لما نزل على ذاقار (مكان قرب البصرة) ارسل ابن عباس والأشتر بعد محمد بن أبى بكر، ومحمد بن جعفر ، وأرسل الحسن بن على وعمار بن ياسر . نخف فى ذلك الأمر جميع من كان نفر فيه ولم يقدم فيه الوجوه أتباعهم .

وكان القعقاع بن عمرو أحد رؤساء الجماعة التى نفرت مع على ، إلى جانب الرؤساء الآخرين مثل : سعد بن مالك، وهند بن عمرو، والهيثم بن شهاب ، ومثل زيد بن صوحان، والأشتر مالك الحارث النخعى، وعدى بن حاتم، ويزيد بن قيس ،

---

(١) الأمم والملوك جـ ٥ ص ١٧٠ .

ممن رؤساء النفار دون الجماعة ، فلما نزلوا على ذى قار، دعا على القعقاع من أصحاب النبي ﷺ فأرسله إلى البصرة وقال له : إلق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية ، فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة ، وقال : كيف أنت صانع فيما جاءك ، منهما ، مما ليس عندك فيه وصاة منى فقال : نلقاهم بالذى أمرت به ،فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى ، اجتهدنا الرأى وكلمنـــــاهم على قدر ما نسمع ، ونرى أنه ينبغي . قال : أنت لها . فخرج القعقاع حتى قدم البصرة ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها ، فسلم عليها وقال : أى أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة . قالت : أى بنى . إصلاح بين الناس قال:فابعثى إلى طلحة والزبير ، حتى تسمعى كلامى وكلامهما . فبعثت إليهما فحضرا ، فقال : إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد فقالت : إصلاح بين الناس ،فما تقولان أنتما أمتابعان أم مخالفان . قالا : متابعان . قال فأخبرانى ما وجه هذا الاصلاح. فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن انكرناه لا نصلح. قالا . قتلة عثمان رضى الله عنه . فإن هذا ان ترك ، كان تركا للقرآن . وان عمل به ، كان إحياء للقرآن فقال . قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم ، أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستمائة إلا رجلا،فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم،وطلبتم ذلك الذى أفلت يعنى حرقوص بن زهير ،فمنعه ستة آلاف، وهم على رجل ، فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون .

فقالت أم المؤمنين، فتقول أنت ماذا.قال . أقول هذا الأمر دواؤه التسكين فإن أنتم بايعتمونا،فعلامة خير وتباشير رحمة ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وان أنتم أبيتم إلا مكابرةهذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ، ولا تعرضونا للبلاء ، ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم.وايم الله إنى لأقول هذا وأدعوكم إليه،وإنى لخائف ان لا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة ، التى قل متاعها ، ونزل بها ما نزل فإن هذا

الأمر الذى حدث، ليس يقدر وليس كالأمور فقالوا . نعم إذاً . قد أحسنت وأصبت المقالة. فارجع فإن قدم علىّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر، فرجع القعقاع إلى علىّ فأخبره، فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كرهذلك من كرهه ، ورضيه من رضيه ، وأقبلت وفود البصرة نحو على حين نزل بذى قار، فجاءت بنو تميم . وبكر قبل رجوع القعقاع ، لينظروا ما رأى اخوانهم من أهل الكوفة ، وعلى أى حال نهضوا إليهم وليعلموهم أن الذى عليه رأيهم الاصلاح، ولا يخطر لهم قتال على بال (١) .

وبذلك التقى القوم جميعاً عند نقطة محددة ، وهى أن يعودوا أمة واحدة، أخوة متحابين ، وأن يعملوا جميعاً على تسكين الفتنة بكل سبيل ، ثم بعد ذلك يحققون فى هذا الأمر الذى نجم عنه قتل عثمان . وهذا ما اتفق عليه على وشيعته وأصحاب الجمل ، ثم أمر على بالرحيل . وقال من خطابه أو البيان الذى أذاعه « ولا يرتحلن معنا غداً أحد أعان على عثمان بشىء وليغن السفهاء عنى أنفسهم» يقول ابن الأثير (٢) « وأشرف القوم على الصلح، ورجعت وفود أهل البصرة برأى أهل الكوفة ورجع القعقاع من البصرة ، فقام على خطيبا ، فحمد الله وذكر الجاهلية وشقاءها، والإسلام والسعادة، وانعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه ، ثم حدث هذا الحدث الذى جرّه على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا. حسدوا من أفاءها الله عليه وعلى الفضيلة، وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها ، والله بالغ أمره ألا وأنى راحل غداً فارتحلوا، ولا يرتحلن أحد أعان على عثمان بشىء من أمور الناس وليغن السفهاء عنى أنفسهم. فاجتمع نفر منهم: علباء بن الهيثم، وعدى بن حاتم وسالم بن ثعلبة القيسى، وشريح

(١) تاريخ الأمم والملوك ﺟ ٥ ص ١٩٢ .

(٢) الكامل فى التاريخ ﺟ ٣ ص ١١٧

ابن أوفى ، والأشتر النخعى فى عدة ممن سار إلى عثمان، ورضى بسير من سار، وجاء معهم آخرون وابن السوداء ، وخالد بن ملجم ، فتشاوروا فقالوا : ما الرأى. وهو والله أبصر بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقرب إلى العمل بذلك ، وهو يقول ما يقول ، ولم ينفر إليه سواهم ، والقليل من غيرهم فكيف به إذا شام القوم وشاموه[1] ورأوا قلتنا فى كثرتهم ، وأنتم والله ترادون وما أنتم بالحى من شىء . فقال الأشتر : قد عرفنا رأى طلحة والزبير فينا وأما على فلم نعرف رأيه إلى اليوم ، ورأى الناس فينا واحد. فان يصطلحوا مع على ، فعلى دمائنا. فهلموا بنا نثب على على وطلحة فنلحقهما بعثمان ، فتعود فتنة يرضى منافيها بالسكون . ولكن هذا لم يعجب ابن سبأ فانبرى ابن السوداء ، يستمع إلى مختلف الآراء ويناقشها مما نوجزه بعد :

---

(١) يعنى اصطلحوا .

الفصل الخامس

الفتنة تتفاقم

مؤتمر ابن السوداء :

بعد خطبة على السابقة ، دعا ابن سبأ إلى اجتماع عاجل ، لمناقشة الموقف بعد اتفاق على وأصحاب الجمل على انهاء حالة التوتر ، وقد أبدى بعض المؤتمرين أراء لم تعجب ابن السوداء ، مثل رأى علباء بن الهيثم بأن ينصرفوا ويتركوهم .فقد عقب عبد الله بن سبأ على هـذا بقوله : بئس ما رأيت . ود والله الناس انكم انفردتم ولم تكونوا مع أقوام براء ، ولو انفردتم لتخطفكم الناس .

وقال عدى ابن حاتم : والله مارضيت ولا كرهت ، ولقد عجبت من تردد، من تردد عن قتله فى خوض الحديث ، فأما إذا وقع ما وقع ، ونزل من الناس بهذه المنزلة ، فإن لنا عتادا من خيول وسلاح . فإن أقدمتم أقدمنا ، وإن أمسكتم أمسكنا .

قال ابن السوداء : أحسنت .

وقال سالم بن تعلبة : من كان أراد بما أتى الدنيا فإنى لم أرد ذلك ، والله لئن لقيتهم غدا لا أرجع إلى شىء .

قال ابن السوداء : لقد قال ابن ثعلبة قولا .

وقال شريح ابن أوفى :أبرموا أموركم قبل أن تحرجوا (تقعوا فى الحرج والضيق)

ولا تؤخروا أمراً ينبغى لكم تعجيله ، ولا تعجلوا أمراً ينبغى لكم تأخيره ، فإنا عند الناس بشر المنازل ، وما أدرى ما الناس صانعون إذا ماهم التقوا . .

قال ابن السوداء : ياقوم . إن عزكم فى خلطة الناس ، فإذا التقى الناس غدا فأنشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر.فمن أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم ، عما تكرهون فابصروا الرأى وتفرقوا عليه . والناس لا يشعرون . يقول الرواة : وأصبح علىّ على ظهر ومضى ،ومضى معه الناس ، حتى نزل على عبد القيس فانضموا إليه وسار من هناك حتى نزل الزواية ،ثم غادرها إلى البصرة ،وسار طلحة والزبير وعائشة فالتقوا عند موضع قصر عبيد الله بن زياد ، فلما نزل الناس،أرسل شقيق بن ثور إلى عمر بن مرحوم العبدى، أن اخرج فإذا خرجت فمل بنا إلى عسكر على فخرجا فى عبد القيس وبكر بن وائل فعدلوا إلى عسكر على ، فقال الناس : من كان معه هؤلاء غلب . وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال . فكان يرسل على إليهم يكلمهم ويدعوهم، وكان نزولهم فى النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، ونزل بهم على وقد سبق أصحابه وهم يتلاصقون به. فلما نزل قال أبو الجرباء للزبير : إن الرأى أن تبعث الف فارس إلى على قبل أن يأتيه أصحابه ، فقال الزبير : قد فارقنا وفدهم على أمر ، وأنا أرجو أن يتم لنا الصلح ، فابشروا واصبروا .

يقول المؤرخون : بعث على إلى طلحة والزبير وعائشة : ان كنتم على مافارقتم القعقاع ، فكفوا ودعونا ننظر فى هذا الأمر ، فنزلوا فى البصرة والقوم لا يرتابون فى اتمام الصلح وعودة الوحدة إلى الصفوف ومشت السفراء بين الفريقين ، ثم بات القوم ينتظرون السلام ، وانتهاء حالة الحرب الوشيكة الحدوث .

بيد أن السبئية الذين أشرنا إلى مؤتمرهم السابق ، وما انتهى إليه من ضرورة

أنشاب القتال بين المسلمين ، قاموا فى الغلس ، ووضعوا السلاح فى عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير عن السبب فقيل لهما : إن أهل الكوفة هم الذين اعتدوا عليهم ليلا . فيقال إن طلحة والزبير قالا : إن عليا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمات وإنه لن يستجيب للصلح ولن يطاوعنا .

وسأل على عن الخبر — وكان السبئية قد وضعوا رجلا قريبا منه يخبره بما يريدون — فقيل له : لقد فوجئنا بقوم من أصحاب عائشة وطلحة والزبير ، قد بيتونا ، فرددناهم من حيث أتوا ، فوجدنا القوم متأهبين للقتال وهجموا علينا ، فثار الناس ، واشتبكوا فى المعركة . فقال على : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لن يطاوعانا ، ولم يكن بد من القتال .

أما أم المؤمنين عائشة فقد كانت فوق الجمل فى هودجها بين أهل البصرة ، وكان ذلك اليوم من أشد أيام المسلمين هولا ، فقد فيه المسلمون بعد المعركة التى لم تمكث أكثر من بياض يوم واحد حوالى اثنى عشر ألفا على أقل تقدير .

يقول المسعودى[1] : لما قدم على البصرة دخل مما يلى السقف ، فأتى الزاوية فورد موكب نحو ألف فارس يقدمهم فارس على فرس أشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلد سيفاً معه راية ، وإذا القوم مدججون بالسلاح والحديد ، فقيل من هذا . فقالوا : أبو أيوب الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ وهؤلاء الأنصار وغيرهم ، ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفاً ، متنكب قوساً ، معه راية على فرس أشقر فى نحو ألف فارس . فقيل من هذا . فقالوا :

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٧

هذا خزيمة بن ثابت الأنصارى ذو الشهادتين ثم مر فارس آخر على فرس كميت معتم بعمامة صفراء من تحتها قانسوة بيضاء متقلد سيفاً متنكب قوساً فى نحو ألف فارس من الناس ومعه راية فقيل من هذا فقالوا : أبو قتادة بن ربعى . . ثم مر فارس آخر على فرس أشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه ومن خلفه معه راية بيضاء فى ألف من الناس ، وحوله مشيخة وكهول وشباب ، كانوا قد أوقفوا للحساب . أثر السجود قد أثر فى جباههم. فقيل من هذا فقالوا : هذا عمار بن ياسر فى عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم . ثم مر فارس آخر على فرس أشقر عليه ثياب بيض ، متنكب قوسا ، متقلد سيفا تخط رجلاه فى الأرض فى ألف من الناس ومعه راية بيضاء . فقيل من هذا . قالوا : هذا قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى . ثم مر فارس آخر ، على فرس أشهب ما رأينا أحسن منه ، عليه ثياب بيض بلواء ، فقيل من هذا فقالوا : عبد الله بن عباس فى عدة من أصحاب رسول الله ﷺ ثم تلاه فارس آخر فى موكب أشبه الناس بالأولين ، فقيل من هذا . فقالوا : قثم بن العباس أو سعيد بن العاص ثم أقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضاً ، واشتبكت الرماح ، ثم ورد موكب فيه خلق كثير من الناس ، عليهم السلاح والحديد مختلفوا الرايات فى أوله راية كبيرة يقدمهم رجل كأنما كسر وجبر [1] ، وكأنما على رؤوسهم الطير ، وعن ميسرتهم شاب حسن الوجه قيل من هؤلاء . فقالوا : هذا على بن أبى طالب وهذا الحسن والحسين عن يمينه وشماله . وهذا محمد بن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى . وهذا الذى خلفه ، عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم . . وهؤلاء المشايخ من أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فساروا حتى

(١) كسر وجبر معناه أنه رجل شديد الساعدين . نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء وهذا مثل عربى تقوله العرب فى وصفها إذا عبرت عن الرجل القوى المتواضع.

نزلوا الموضع المعروف بالزاوية ، فصلى (على) أربع ركعات وعفر خديه على التربة وقد خالط ذلك دموعه . ثم رفع يديه يدعو :

« اللهم رب السموات وما أظلت ، والأرضين وما أقلت، ورب العرش العظيم هذه البصرة ، أسألك من خيرها وأعوذ بك من شرها ، اللهم أنزلنا خير منزل وأنت خير المنزلين . اللهم هؤلاء القوم . قد خلعوا طاعتى وبغوا على ونكثوا بيعتى . اللهم احقن دماء المسلمين » .

وبعث إليهم من يناشدهم الله فى الدماء . وقال : علام يقاتلونى فأبوا إلا الحرب ، فبعث رجلا من أصحابه يقال له « مسلم » معه مصحف يدعو إلى الله ، فرموه بسهم فقتلوه ، فحمل إلى على . وقالت أمه :

يارب إن مسلما أتاهم   يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه لحاهم   وأمه قائمة تراهم

وأمر على رضى الله عنه ، أن يصافوهم ولا يبدءوهم بقتال ، ولا يرموهم بسهم ولا يضربوهم ولا يطعنوهم برمح حتى جاء عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى من الميمنة بأخ له قتيل ، وجاء قوم من الميسرة برجل قد رمى بسهم فقتل . فقال على : اللهم اشهد ، وأعذروا إلى القوم . ثم جاء عمار بن ياسر بين الصفين . فقال : أيها الناس ، ما أنصفتم نبيكم حيث كففتم عقائل تلك الخدور، وأبرزتم عقيلته للسيوف . وعائشة على جمل فى هودج من رفوف الخشب ، قد ألبسوه المسوح وجلود البقر وغيرها ، فدنا عمار بن ياسر من موضعها ، فنادى : إلى ماذا تدعيننى . قالت : إلى الطلب بدم عثمان . فقال : قتل الله فى هذا اليوم الباغى والظالم والطالب بغير الحق ، ثم قال : أيها الناس . إنكم لتعلمون أينا الممالىء فى قتل عثمان ، ثم أنشأ يقول وقد رشقوه بالنبل :

فمنك البكاء ومنك العويل ومنك الرياح ومنك المطر

وأنت أمرت بقتل الأمير وقاتله عندنا من أمر

وتواتر عليه الرمى واتصل ، فحرك فرسه وزال عن موضعه . فقال : ماذا تنتظر يا أمير المؤمنين ، وليس لك عند القوم إلا الحرب . فقام على رضى الله عنه . فقال :

أيها الناس ، إذا هزمتموهم ، فلا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيرا ولا تتبعوا موليا ولا تطلبوا مدبرا، ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل ولا تهتكوا سترا ولا تقربوا من أموالهم ، إلا ما تجدونه فى عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله(١)

لم يحاول على رضى الله عنه ، أن يستغل الموقف، أو يباهى بقوته التى تفضل قوة خصومه ، ولكنه ظل إلى آخر لحظة ، بل وحتى أثناء القتال وبعده ، يعمل جاهدا على تضييق دائرة الانقسام والشجار ، بقدر استطاعته .

يقول الرواة : «وخرج على بنفسه حاسرا على بغلة ، لا سلاح عليه ، فنادى: يازبير أخرج إلى ، فخرج شاكياً سلاحه ، فقيل لعائشة . فقالت واحرباه باسماء فقيل لها : إن علياً حاسر ، فاطمأنت ، واعتنق كل واحد منهما صاحبه . فقال له على : ويحك يازبير . ما الذى أخرجك قال : دم عثمان . قال : قتل الله أولانا بدم عثمان . أما تذكر يوم لقيت رسول الله ﷺ فى بنى بياضة وهو راكب حماره ، فضحك إلى رسول الله (ص)، وضحكت أنت معه فقلت أنت:

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٨ — ٩

يارسول الله . ما يدع على زهوه . فقال : ليس به زهو . أتحبه يازبير . فقلت : إنى والله لأحبه . فقال لك : انك والله ستقاتله وأنت له ظالم . فقال الزبير : أستغفر الله ، لو ذكرتها ما خرجت . فقال : يازبير . ارجع فقال : وكيف أرجع الآن . وقد التقت حلقتا البطان . هذا والله العار الذى لا يغسل . فقال : يازبير . ارجع بالعار ، قبل أن تجمع العار والنار ، فرجع الزبير ، وهو يقول :

اخترت عارا على نار مؤججة ما أن يقوم لها خلق من الطين
نادى على بأمر لست أعلمه عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين
فقلت حسبك من عدل أباحسن فبعض هذا الذى قد قلت يكفينى

فقال ابنه عبد الله : أين تدعنا . فقال : يابنى . أذكرنى أبو حسن بأمر كنت قد أنسيته فقال لا والله ، ولكنك فررت من سيوف بنى عبد المطلب، فإنها طوال حداد تحملها فتية أنجاد . قال : لا والله. ولكنى ذكرت ما انسانيه الدهر ، فاخترت العار على النار . أبالجبن تعيرنى . لا أبالك ، ثم أمال سنانه فشد فى الميمنة فقال على أفرجوا له فقد هاجوه . ثم رجع فشد فى الميسرة ، ثم رجع فشد فى القلب ثم عاد إلى ابنه فقال . أيفعل هذا جبان ، ثم مضى منصرفا حتى أتى وادى السباع والأحنف بن قيس معتزل فى قومه من بنى تميم ، فأتاه آت فقال له : هذا الزبير مار فقال : ما أصنع بالزبير ، وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضاً وهو مار إلى منزله سالماً ، فلحقه نفر من بنى تميم فسبقهم إليه عمرو بن جرموز ، وقد نزل الزبير إلى الصلاة. فقال له أتؤمنى أو أمك فأمه الزبير ، فقتله عمرو فى الصلاة، وقتل الزبير رضى الله عنه وله خمس وسبعون سنة . وقد اتهم الأحنف بن قيس فى إرسال بعض قومه لارتكاب هذا الإثم . ولكن لم يثبت ذلك .

وأتى ابن جرموز إلى على بن أبى طالب بالسيف الذى كان مع الزبير وخاتمه ورأسه،

فقال علي : سيف طال ماجلا الكرب عن رسول الله ﷺ لكنه الجبن ومصارع السوء ، وقاتل ابن صفية فى النار .

هذا . وقد اتجه على بعد رجوع الزبير إلى طلحة بن عبيد الله ، فناداه : يا أبا محمد . ما الذى أخرجك . قال : الطلب بدم عثمان ، قال على : قتل الله أولانا بدم عثمان . ثم قال : أنت أول من بايعنى ثم نكثت . وقد قال الله عز وجل : « ومن نكث فانما ينكث على نفسه » فقال طلحة : استغفر الله ، ثم رجع . وقد قيل إنه قد جرحه عبد الملك فى وجهه بعد رجوعه ، ورماه مروان ابن الحكم فقتله[1] .

وطلحة بن عبيد الله ابن عم أبى بكر الصديق ، وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمر بن كعب بن سعيد بن تيم ، وأمه «الصعبة » بنت أبى سفيان صخر بن حرب ، وأخت معاوية بن أبى سفيان أمير الشام ، وقد قتل طلحة وله من العمر أربع وستون سنة فى أصح الروايات ، ودفن بالبصرة وقبره ومسجده بها كما دفن الزبير بوادى السباع ، وقتل محمد بن طلحة مع أبيه فى ذلك اليوم ، ويقال إن عليا مر به ضمن القتلى فعرفه فقال : هذا رجل قتله بره بأبيه وطاعته له ، وكان يدعى بالسجاد ، وروى الواقدى أنه يكنى أبا سليمان . أما ابن عدى فقد قال : إن كنيته أبو القاسم .

هذا وقد انتهت وقعة الجمل — كما أسلفنا — فى يوم الخميس فى ١٥ من جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ ، ودخل على مدينة البصرة بعد أن ظل فى معسكره ثلاثة أيام متألما ، وندب الناس إلى موتاهم فدفنوهم ، فطاف عليهم — وبعد أن صلى على جميع القتلى من الفريقين وترحم عليهم جميعا — وخطب الناس فقال : يا أهل المسجد ،

---

(١) المسعودى ج ٢ ص ١١ .

يا أهل المؤتفكة يا جند المرأة . يا أتباع البهيمة ، رغا فأجبتم . وعقر فانهزمتم ، أخلاقكم رقاق ، وأعمالكم نفاق ، ودينكم زيغ وشقاق ، وماؤكم أجاج وزعاق (١) .

يقول الطبرى : كان قتلى وقعة الجمل ، عشرة آلاف نصفهم من أصحاب على . ونصفهم من أصحاب عائشة وقيل قتل من أهل البصرة فى المعركة الأولى خمسة آلاف، وفى المعركة الثانية خمسة آلاف،فكان عشرة آلاف قتيل من أهل البصرة ومن أهل الكوفة خمسة آلاف .

أما المعركة الأولى التى يشير إليها الطبرى قبل وقعة الجمل فهى التى حدثت بين أصحاب الجمل وبين عثمان بن حنيف.

وذلك أن القوم(طلحة والزبير وعائشة)دخلوا البصرة قبل مجىء على ومن معه فخرج إليهم عثمان بن حنيف فمنعهم وجرى بينه وبينهم قتال، ثم إنهم إصطلحوا بعد ذلك على كف الحرب إلى قدوم على ؛ فلما كان فى بعض الليل بيتوا عثمان بن حنيف فأسروه وضربوه ، كما يقال إنهم نتفوا لحيته ، ثم خلوا عنه خشية من أخيه سهل ابن حنيف بالمدينة ، وأرادوا بيت المال فمنعهم الخازن وموظفوه فقتل منهم حوالى سبعين رجلا غير من جرح وأصيب.

هذا وقد بايع أهل البصرة لعلى، وفى مقدمتهم الأحنف بن قيس وسائر القبائل العربية، ثم توجه على إلى بيت المال، فإذا فيه حوالى ستمائة ألف . فقسمها على من شهد وقعة الجمل فيقال إنه أعطى كل رجل خمسمائة خسمائة . يقول الطبرى : وقال على لمن قسم عليهم المال . لكم إن أظفركم الله عز وجل بالشام مثلها إلى

(١) نفس المصدر السابق والزعاق غير العذب .

أعطياتكم ، وخاض فى ذلك السبئية وطعنوا على على من وراء وراء[1] ، فاتهموه بأنه قد بدد الأموال ، وحابى شيعته الخ . .

وقد أسند على إمارة البصرة إلى الصحابى الجليل عبد الله بن عباس ، كما أسند ولاية الخراج إلى زياد بن أبى سفيان ، ثم انصرف على عائداً إلى الكوفة حيث أخذ يتجهز لإخضاع معاوية بن أبى سفيان أمير الشام الذى رفض أن يعتزل أمر ولاية الشام ، حسبما نوضح بعد .

أما بعد : فهل كانت هناك مبررات قوية تفرض هذه المعركة التى سفكت فيها دماء طاهرة كان الإسلام فى أشد الحاجة إلى بقائها .

إن الذى نراه ، أن المسئولية ، يجب أن يتحملها هؤلاء الذين ألهب السبئية مشاعرهم وعواطفهم وأثاروا العصبية القبلية بينهم ، فانساقوا فى أتون الجاهلية التى هدمها الإسلام ، فقاموا يطالبون بثأر عثمان بحسبانه رجلا من بنى أمية ، أو رجلا من عامة الشعب ، لا باعتباره رئيس دولة ، وأمير المؤمنين ، وجميع أفراد الأمة مسئولون عن جريمة اغتياله .

لقد كان الذين يحرضون على القتال ، وإثارة الجماهير ضد على إلى جانب السبئية جماعة من بنى أمية ، مثل مروان بن الحكم ، وغيره ، كما أن بعض القبائل تعصبت لأفراد منها ممن قتلهم أصحاب الجمل ، وبذلك اختلطت عوامل الفتنة الإجرامية التى أشعلها ابن السوداء ، بعصبية القبائل والبطون ، ولم تفلح نصائح على وسائر العقلاء فى كف الفريقين عن الالتحام ، وقتال بعضهم بعضاً .

وهكذا انتهت هذه المعركة التى يسرت على المسلمين بعد ذلك أن يواجه بعضهم بعضاً ، وأن يستحل بعضهم دماء بعض ، مما نتحدث عنه فى صفين وشيكا .

---

(١) الامم والملوك جـ ٥ ص ١٢٣ .

يقول الشيخ الخضرى — رحمه الله — « لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه . فإن طلحةوالزبيروعائشة ، خرجوا — كما يقولون — للطالبة بدم عثمان الذى سفك حراما ، من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك . ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين رئيس يرجع إليه الأمر ، فى تحقيق هذه القضية الخطيرة ، التى تناط بالاعتداء على رئيس الدولة الذى اختارته بكامل حريتها وإرادتها .

إن إعطاء الحق للأفراد فى أن يتجمعوا لإقامة حد قصر رئيس الدولة فى إقامته أو بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذى أسس عليه الإسلام .

ولكن الفتن إذا أقبلت تشابهت وإذا أدبرت تبينت ، ولم يكن عند على من الأناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع أحسن مما كان .

حقيقة ان هؤلاء الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً ، أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه عليه الأمر . وعلى أصحاب الجمل .(١)

ومهما يكن من شىء ، فإن صحابة النبى ﷺ لم يكن ليحدث بينهم ماحدث لولا الدسائس السبئية التى أشرنا إليها ، ولكن هل كانت تلك الدسائس، هى كل ما سعر الفتنة ، أم كانت هناك أشياء حدثت ، ولم تتضح للناس حكمتها . ذلك ماسوف نعرض له بالبحث إثر حديث الفتنة إن شاء الله تعالى .

---

(١) المحاضرات جـ ١ ص ٥٩.

الفصل السادس

بين على ومعاوية

لم يكن فى برنامج على — فيما يبدو — أن يقاتل أصحاب الجمل ، ولكن الظروف التى أشرنا إليها قد ألجأته إلى خوض المعركة ، فكان ما قدر الله .

ولذلك فإنه ما أن انتهى من تلك المعركة حتى أخذ يفكر جديا فى أمر معاوية الذى أعلن المعارضة من دون الولاة ، وبعث رسولا من قبله بيلغ علياً أن معاوية يضع فى عنقه مسئولية قتل عثمان ، وقد حاول على جاهداً حسم الأمر بالحسنى والتفاهم ، فلم يصل إلى حل يحقن الدماء . يقول المؤرخون : بعد أن استقر على بالكوفة ، واصل البحث فى أمر معاوية ، فبعث بجرير بن عبد الله البجلى ، رسولا إلى معاوية ابن أبى سفيان ، يطلب إليه بذل البيعة له ، فذهب جرير إلى الشام ، ولقى معاوية وأبلغه رسالة على . ولكن معاوية ماطله ، واستنظره ، حتى يريه موقف عرب الشام من على ومن حوله ممن اشترك فى التحريض على عثمان .

لقد كان أهل الشام ثائرين لمقتل عثمان حتى ليروى أنهم قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ، وكان الشام — فى ذلك الوقت — مجمع أجناد المسلمين ، إذ كانت الثغر الذى يجاور الأمبراطورية الرومانية المحاربة للدولة الإسلامية ، وبعد سقوط الدولة الفارسية تركزت زهرة الجيوش الإسلامية تجاه الروم ، ولهذا فقد كان لدى معاوية القوة الرئيسية الضاربة فى أجناد الشام التى هو أميرها كما كان معاوية من دهاة السياسة ، ورجال العرب ، وله من طول الباع فى جذب الأنصار ، ومقاربة الناس ما ليس لسواه .

لقد عاشر معاوية أهل الثغور الشامية، مدة طويلة، وكان سياسياً محنكا، وإدارياً ماهراً حتى إن السبئية الذين أفسدوا فى الأرض، وخدعوا كبار الصحابة، لم تنطل عليه ألاعيبهم، بل لقد تمكن من كشفهم والقبض على رأسهم، ونفيه من الشام — كما سبق .

و إذن فلم يكن من السهل أن يستجيب معاوية لعلى، بعد أن أعلن معارضته لبيعته .

ولهذا فقد فشلت سفارة جرير، كما تنبأ الأشتر النخعى[1]، إذ رجع جرير وأخبر علياً بعناد معاوية، فبعث على بوفد آخر، من بشير بن عمرو الأنصارى وسعيد بن قيس الهمدانى، وشبث بن ربعى التميمى، فساروا حتى وصلوا الشام وقابلوا معاوية . فتكلم بشير بن عمرو، وقال : « يامعاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة. وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه، وإنى أنشدك الله، أن تفرق جماعة هذه الأمة . وأن تسفك دماءها بينها » فقطع معاوية كلامه وقال : هلا أوصيت صاحبك بذلك . فقال ابن عمرو : إن صاحبى ليس مثلك . إن صاحبى أحق بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى الإسلام. قال معاوية. فماذا يقول . قال يأمرك بتقوى الله وأن تجيب ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك فى دنياك وخير لك فى عاقبة أمرك . قال معاوية : و نترك دم عثمان . لا والله لا أفعل ذلك أبداً .

هذا وبعد جدال كثير بين سفراء على ومعاوية، لم يصل الطرفان إلى حل الموقف، فرجع الوفد إلى على، وبسط له موقف معاوية وأنه غير راغب فى مسالمته .

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ١٤٠ .

وأنه لن يعترف له ببيعة ، وإنما هو يطلب تسليم قتلة عثمان ليقتلوا به ، ثم يكون الأمر للأمة ، فإن شاءت اختارت علياً وإن شاءت رفضت بيعته واختارت غيره، وأسهب الوفد فى نعت حالة عرب الشام ، وتربصهم بعلى ، واتهامهم إياه بالاشتراك فى التحريض على عثمان وإيواء قتلته .

ولهذا فقد خرج على فعسكر بالنخيلة ، خارج الكوفة ، فقدم عليه عبد الله ابن عباس فى جموع أهل البصرة ، وأخذ يتجهز لحرب معاوية .

معاوية يستشير عمرو بن العاص :

بلغت أنباء خروج على معاوية ، فاستدعى عمرو بن العاص للاستشارة فيما يصنع إزاء على بن أبى طالب — وكان قد ذهب إلى الشام قبل قتل عثمان — فى أغلب الظن — يقول ابن الأثير فى ذلك : كان عمرو قد سار عن المدينة قبل أن يقتل عثمان نحو فلسطين ، وسبب ذلك أنه لما أحيط بعثمان قال : يا أهل المدينة لا يقيم أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله بذل . . من لم يستطيع نصره فليهرب . فسار معه ابناه عبد الله ومحمد ، فسكن فلسطين حتى قتل عثمان ، فسار إلى دمشق وهو شديد الحزن على هذا الحادث ، فلقى معاوية ولزمه ، حتى كان الخلاف بين على وبين معاوية ، فمال معاوية ضد على — وقد أشار عمرو على معاوية بأن يقف من على موقفا مشابها لمسلكه ، فإذا سار على إلى الشام لحربه فعليه أن يخرج أيضاً لملاقاته فى حومة الوغى[1] .

(١) الكامل ج ٣ ص ١٤٠.

على يبعث بولاته إلى الأمصار :

لم يقتصر أمر على بعد مبايعته على الاعداد لإخضاع معاوية بأى سبيل ، ولكنه أصبح مسئولا عن شتى مرافق الدولة المترامية ، ولهذا فإنه كان قد عين على مصر قيس بن سعد بن عبادة الانصارى ، وأرسله أميرا عليها بعد أن قتل محمد ابن حذيفة الذى وليها بعد طرد عبد الله بن سعد والى عثمان ، ثم اشتبك فى قتال مع معاوية بقصد استرداد مصر إلى ولاة عثمان مرة أخرى ، وقد قتل ابن حذيفة فى هذه المعارك . ولكن أهل مصر حالوا دون استيلاء معاوية عليها إلى أن جاءهم قيس بن سعد من قبل أمير المؤمنين على.

هذا وقد نسب إلى محمد بن حذيفة أنه الذى سرب المصريين إلى عثمان . ولكن لم يثبت هذا . على أنه يروى أن محمد بن حذيفة ظل أميراً على مصر حتى جاء قيس بن سعد فتسلمها منه ، أما عبد الله بن أبى سرج ، فقد لجأ إلى معاوية ، ولم يشتبك فى حرب مع ابن أبى حذيفة [٢] ومهما يكن من أمر ، فقد دخل قيس مصر ، وتمكن من أخذ البيعة من أهلها لعلى بن أبى طالب . يقول الطبرى: فى سنة ٣٦ بعث على بن أبى طالب على مصر ، قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى. وقال له : سر إلى مصر فقد وليتكها ، واخرج إلى رحلك ، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك فخرج قيس فى سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر ، فصعد المنبر فجلس عليه ، وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقرىء على أهل مصر وفيه « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو.

---

(١) الأمم والملوك ج ٥ ص ٢٢٦.

أما بعد . فإن الله عزوجل بحسن صنعه وتقديره، وتدبيره ، اختار الاسلام دينا لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به الرسل عليهم السلام إلى عباده ، وخص به من انتخب من خلقه ، فكان مما أكرم الله عز وجل هذه الأمة وخصها به من الفضيلة ، أن بعث إليهم محمدا ﷺ فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة لكيما يهتدوا ، وجمعهم لكيما لايتفرقوا ، وزكاهم لكيما يتطهروا . . فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عز وجل ، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته . ثم ان المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين ، عملا بالكتاب والستة واحسنا السيرة ، ولم يعدوا السنة . ثم توفاهما الله عزوجل رضى الله عنهما، ثم ولى بعدهما وال فأحدث أحداثا ، فوجدت الأمة عليه . مقالا ، فقالوا ثم نقموا عليه فعبروا . ثم جاءونى فبايعونى ، فاستهدى الله عزوجل بالهدى واستعينه على التقوى . ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله (ص) والقيام عليكم بحقه ، والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب والله المستعان . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقد بعثت اليكم قيس بن سعد بن عبادة ، أميرا فوازروه وكاتفوه وأعينوه على الحق . وقد أمرته بالاحسان إلى محسنكم، والشدة على مريبكم ، والرفق بعوامكم وخواصكم ، وهو ممن أرضى هديه وأرجو صلاحه ونصيحته . أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملازاكيا وثوابا جزيلا ورحمة واسعة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد أن انتهى قيس بن سعد من قراءة خطاب على إلى أهل مصر ، قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال« الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل ، وكبت الظالمين . أيها الناس. إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا (ص) فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسة رسوله (ص) فإن

نحن لم نعمل لـكم بذلك فلا بيعة لنا عليـكم . فقام الناس فبايعوا واستقامت له مصر ، وبعث عليها عماله ، إلا أن قرية منها يقال لها : « خربتا » فيها أناس قد اعظموا قتل عثمان رضى الله عنه ، وبها رجل من كنانة ثم من بنى مدلج ، يقال له يزيد بن الحارث من بنى الحارث . فبعث هؤلاء إلى قيس: إنا لا نقاتلك فابعث عمالا . فالأرض أرضك . ولـكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى مايصير إليه أمر الناس .

كذلك قام مسلمة بن مخلد الأنصارى ، ورهط من بنى ساعدة عشيرة قيس بن سعد ، فنعوا عثمان ، ودعو إلى الطلب بدمه . فأرسل قيس بن سعد إلى مسلمة بن مخلد يقول : ويحك .. على تثب فوالله ما أحب أن أملك الشام إلى مصر ، وانى قتلتك فارسل إليه مسلمة . انى كاف عنك مادمت أنت والى مصر .

لقد أحسن على اختياره قيسا لهذه المهمة ، فقد كان يتمتع بحزم ، وسداد رأى ، وحلم وسعة أفق ، فاستطاع أن يسكن الفتنة وأن يهدىء من حالة السخط التى كان يمثلها أهل خربتا ، وبعض الأنصار من عشيرته بزعامة مسلمة بن مخلد.

وكانت امارة قيس قبل موقعة الجمل كما أسلفنا ، ولذلك فقد جعل مصر لا تثور على على إبان اشتباكه مع أصحاب الجمل .

لقد أصبح قيس — وهو الرجل المحنك — شوكة فى جنب معاوية ، وكان يحتل جانبا كبيراً من اهتمامه منذ اعتزم على الخروج إلى صفين ، إذ يصبح معاوية محصورا بين مصر والعراق وبهذا يكون من المحتمل جدا ، أن يطبق عليه على من الشرق ، وقيس من الغرب ؛ فيقضيان عليه بأسرع مما قد يظن .

ومن ثم فقد كتب معاوية إلى قيس رسالة جاء فيها « أما بعد . فانـكم

نقمتم على عثمان فى أثرة رأيتموها ، ، أو ضربة سوط ضربها ، أو شتيمة رجل أو فى تسييره آخر أو فى استعماله لفتى ، فإنكم قد علمتم، إن كنتم تعلمون أن دمه لم يكن يحل لكم ، فقد ركبتم عظيما من الأمر وجئتم شيئاً ادا ، فتب إلى الله عز وجل ياقيس بن سعد،فانك كنت من المجلبين على عثمان بن عفان رضى الله عنه.. فاما صاحبك ، فانا استقينا أنه الذى أغرى به الناس وحملهم على قتله حتى قتلوه، وأنه لم يسلم من دمه عظم قومك .فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل . تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا ظهرت مابقيت ولمن أحببت من أهل بيتك وسلطان الحجاز ، مادام لى سلطان،وسلنى غير هذا مما تحب فانك لا تسألنى شيئاً إلا أعطيته ، وا كتب إلى برأيك فيما كتبت به إليك والسلام فكتب إليه قيس.أما بعد . فقد بلغنى كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان رضى الله عنه ، وذلك أمر لم أقارفه ، ولم أطف به . وذكرت أن صاحبى هو الذى أغرى الناس بعثمان ودسهم إليه حتى قتلوه ، وهذا مالم أطلع عليه .

وذكرت أن عظم عشيرتى لم يسلم من دم عثمان ، فأول الناس كان فيه قياما عشيرتى وأما ماسألتنى من متابعتك وعرضت على من الجزاء ، فقد فهمته،وهذا أمر لى فيه نظر ، وليس هذا مما يسرع إليه ، وأنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلى شىء تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله . والمستجار الله عز وجل ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . . فلما قرأ معاوية كتابه لم يره إلا مقاربا مباعدا ، ولم يأمن أن يكون له فى ذلك مباعدا مكايدا .

فكتب إليه معاوية : أما بعد . فقد قرأت كتابك ، فلم أرك تدنوا فاعدك سلما ، ولم أرك تباعد فاعدك حربا . أنت فيما ها هنا كحنك الجزور ، وليس مثلى يصانع المخادع ولا ينزع للمكايد ، ومعه عدد الرجال ، وبيده أسنة الخيل ، والسلام عليك .

فلما قرأ قيس بن سعد ، كتاب معاوية ، ورأى أنه لا يقبل معه المدافعة والمماطلة أظهر له ذات نفسه ، فكتب إليه « بسم الله الرحمن الرحيم . من قيس ابن سعد ، إلى معاوية بن أبى سفيان. أما بعد :فإن العجب من اغترارك وطمعك فى ، واستسقاطك رأيى.أتسومنى الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة،وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلا وأقربهم من رسول الله ﷺ وسيلة وتأمرنى بالدخول فى طاعتك . طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزور ، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم من الله عز وجل .

وأما قولك . إنى مالىء عليك مصر خيلا ورجلا . فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك ، إنك لذو جد :والسلام «يقول الرواة: فلما بلغ معاوية كتاب قيس بن سعد، أيس منه وثقل عليه مكانه»[1].

ولكن هل يسكت معاوية وعمرو عن قيس بن سعد . ؟ لقد نثرا كنانة الدهاء الذى عرفا به فى المجتمع العربى ، ففكرا فى شىء يبغض قيسا إلى على بن أبى طالب بدون إراقة قطرة من الدم. يقول الطبرى «وكان معاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص جاهدين على أن يخرجاه من مصر ليغلبا عليها فكان قد امتنع فيها بالدهاء والمكايدة فلم يقدرا عليه ولا على أن يفتتحا مصر ، حتى كاد معاوية قيس بن سعد من قبل على . وكان معاوية يحدث رجالا من ذوى الرأى من قريش يقول . ما ابتدعت مكايدة قط كانت أعجب عندى من مكايدة كدت بها قيساً من قبل على ، وهو بالعراق حين امتنع منى قيس . قلت لأهل الشام . لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة تأتينا نصيحته سراً .

---

(١) إقرأ ترجمة وافية لقيس بن سعد فى « عصر الأمويين » للمؤلف

ألا ترون إلى ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا . يجرى عليهم أعطياتهم، وأرزاقهم ويؤمن سر بهم ، ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه في شيء قال معاوية : وهممت أن أكتب بذلك إلى شيعتى من أهل العراق ، فيسمع بذلك جواسيس على عندى وبالعراق . فبلغ ذلك عليا ونماه إليه محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر بن أبى طالب ، فلما بلغ ذلك عليا . اتهم قيساً وكتب إليه ، يأمره بقتال أهل خربتا ، وأهل خربتا يومئذ عشرة آلاف . فأبى قيس ابن سعد أن يقاتلهم ، وكتب إلى على : إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم ، وأهل الحفاظ منهم . وقد رضوا أن أؤمن سربهم وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت أن هواهم مع معاوية . فلست مكايدهم بأمر اهون على وعليك من الذى أفعل بهم ، ولو أنى غزوتهم ، كانوا لى قرنا . وهم أسود العرب ، ومنهم بسر بن أرطاة ، ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج . فذرنى فأنا أعلم بما أدارى منهم . فأبى على الاقتالهم ، وأبى قيس أن يقاتلهم . فكتب قيس إلى على : إن كنت تتهمنى فاعزلنى عن عملك ، وابعث إليه غيرى . فعبث على ، الاشتر أميرا على مصر ، حتى إذا صار بالقلزم ، شرب شربة عسل كان فيها حتفه . فبلغ معاوية وعمرا . فيقال أن عمرا قال : إن لله جندا من عسل . فبلغ عليا وفاة الاشتر ، فأرسل محمد بن أبى بكر أميرا بديلا عنه ، ويقال أن المسألة بالعكس . إذ أن الذى مات بالقلزم هو محمد بن أبى بكر ، وأن الاشتر هو الذى خلفه[1] .

وعلى أية حال فإن الاشتر لم يصل مصر ، وإنما الذى ذهب ليحل محل قيس هو محمد بن ابى بكر فى أرجح الرويات . يقول الاخباريون : بعث على محمداً أميراً بدل قيس بن سعد على مصر وكتب معه إلى أهل مصر كتابا ، فلما قدم على قيس قال له : ما بال أمير المؤمنين ماذا غيره أدخل أحد بينى وبينه . قال له : لا .

---

(١) الأمم والملوك للطبرى جـ ٥ ص ٢٣٠ .

وهذا السلطان سلطانك . قال : لا أقيم معك ساعة واحدة ، وغضب حين عزله . فخرج منها مقبلا إلى المدينة . فقدمها فجاءه حسان بن ثابت شامتا به ، وكان حسان عثمانيا . فقال نزعك على وقد قتلت عثمان ، فبقى عليك الاثم ولم يحسن الشكر . فقال له قيس يا أعمى القلب والبصر . والله لولا أن ألقى بين عشيرتى وعشيرتك حربا لضربت عنقك . أخرج عنى . ثم ان قيس بن سعد وسهل بن حنيف ، خرجا حتى قدما على علىّ ، فخبره قيس فصدقه على ، ثم ان قيسا وسهلا شهدا مع على صفين[1] .

واما خراسان فقد أمر على عليها خليد بن طريف اليربوعى . وبهذا فإن عليا يكون قد أمسك بمقاليد الأقطار الإسلامية كلها ما عدا الشام . وهنا أعد العدة لإرغام معاوية على تركها بقوة السلاح ، إذ لم تفلح المفاوضات .

مقدمات صفين :

بعد أن استقر رأى على وأصحابه على حرب معاوية ، خرج إلى النخيلة – كما سبق – ثم عقد مؤتمرا ودعا ذوى الرأى لمناقشة الموقف . فأشار عليه قوم بأن يقيم ويبعث الجنود وأشار آخرون بالمسير ، فأبى على إلا أن يباشر القتال بنفسه ، فجهز الناس ثم بعث زياد بن النضر الحارثى طليعة فى ثمانية آلاف ، وبعث معه شريح ابن هانىء فى أربعة آلاف ، وخرج على من النخيلة بمن معه ، فلما دخل المدائن انضم إليه من فيها من المقاتلة والجنود ، وولى على المدائن سعد بن مسعود الثقفى عم المختار ابن عبيد . ووجه من المدائن معقل بن قيس فى ثلاثة آلاف وأمره أن يأخذ طريق

---

(١) نفس المصدر السابق .

الموصل حتى يوافيه . فلما انتهى على إلى « الرقة » أمر بإقامة جسر على الفرات ليعبر إلى الشط الغربى حيث الشام ،فأقام أهل المنطقة جسرا بعد تهديد مالك الأشتر لهم لامتناعهم فى أول الأمر ، ثم عبر على والجيش بجميع توابعه وعتاده ووقف الأشتر يرقب حركة العبور ، حتى لم يبق من الناس أحد إلا عبر إلى الشام ، ثم عبر هو آخر الناس ، وتكاثرت الخيل حتى زحم بعضها بعضاً [١] .

يقول المسعودى[٢] ، وسار معاوية من الشام ،وقد تنوزع فى مقدار من كان معه ، فمكثر ومقلل ،والمتفق عليه من قول الجميع خمس وثمانون ألفاً ،فسبق علياً إلى « صفين » وعسكر فى سهل أفيح اختاره قبل قدوم على ،على شريعة لم يكن على الفرات أسهل منها للوارد إلى الماء ،وما عداها مواضع إلى الماء وعرة، ووكل أبا الأعور السلمى بالشريعة مع أربعين ألفاً ، وكان على مقدمته . .

أما على وجيشه فقد باتوا عطاشا قد حيل بينهم وبين الماء . فقال عمرو بن العاص لمعاوية : إن علياً لا يموت عطشاً هو وتسعون ألفاً من أهل العراق ، وسيوفهم على عواتقهم ولكن دعهم.. يشربون ونشرب فقال معاوية: لا والله أو يموتوا عطشاً كما مات عثمان . وعلى يدور فى عسكره بالليل ، فسمع قائلا يقول :

أيمنعنا القوم ماء الفرات وفينا الرماح وفينا الحجف[٣]
وفينا على له صولة إذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن غداة لقينا الزبير وطلحة خضنا غمار التلف
فما بالنا الأمس أسد العرين وما بالنا اليوم شاة النجف

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٨ .
(٢) ج ٢ ص ١٧ .
(٣) الحجف التروس والدرق جمع حجفة وهى الترس إذا كان من جلد بدون خشب .

وألقى فى فسطاط الأشعث بن قيس رقعة بهذا المعنى ، فأتى عليا وأخبره ، فقال له : أخرج فى أربعة آلاف من الخيل حتى تهجم فى وسط عسكر معاوية ، فتشرب وتستقى لأصحابك أو تموتوا عن آخركم ، وأنا أسير فى خيل ورجالة وراءك ، فسار الأشعث وهو يرتجز :

لأوردن خيـــلى الفراتا شعث النواصى أو يقال ماتا

ثم دعا على الأشتر ، فسرحه فى أربعة آلاف من الخيل والرجالة ، فصار يؤم الأشعث صاحب رايته ، وهو رجل من النخع . ثم سار على وراء الأشتر بباقى الجيش ، ومضى الأشتر حتى هجم على عسكر معاوية ، فأزال أبا الأعور عن الشريعة ، وغرق منهم عدد كثير من الرجال والخيل ، واضطر معاوية إلى الارتحال عن الموضع الذى سبق أن اتخذه وقد كشف الأشتر أهل الشام عن الماء ، ثم نزل على وجيشه فى الموضع الذى كان فيه معاوية وجنده ، وعطش أصحاب معاوية لبعدهم عن الماء ، فبعث معاوية إلى على يستأذنه فى وروده واستقاء الناس منه ، فأذن لكل طالب ماء أن يرد ويأخذ حاجته ، ثم أرسل على إلى معاوية ، يطلب إليه الدخول فيما دخل فيه الناس ، والإقرار له بالبيعة ، وتوحيد الكلمة وحقن الدماء ، ولكن المراسلات بينهما طالت حتى بلغت أكثر من شهر إذ بدأت فى أواخر ذى الحجة من سنة ٣٦ هـ إلى نهاية شهر المحرم من سنة ٣٧ هـ . ولكن لم تؤد المفاوضات إلى نتيجة .

وفى آخر يوم من المحرم سنة ٣٧ هـ بعث على إلى أهـــل الشام إنى احتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ، وإنى قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ، فلم يردوا عليه جوابا إلا : السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منا .

وفى غرة صفرمن سنة ٣٧ هـ أصبح القوم جميعاً على أهبة الاستعداد، فتصاف أهل الشام وأهل العراق ، واشتبك الفريقان فى قتال مرير ، ظل طوال اليوم ، ثم أسفر آخر النهار عن آلاف القتلى والجرحى .

وفى يوم الخميس ـ وهو اليوم الثانى للقتال ـ اشترك القوم فى عراك جبار ، كان أشد عنفاً من اليوم السابق ، وهكذا ظلت تلك المعركة الصاخبة ما يقرب من عشرة أيام متتالية ، حتى كان اليوم العاشر من صفر سنة ٣٧ هـ وتفاقم أمر المعركة ، وتهاوت الرؤوس والجثث ، واشتد الخطب على الفريقين ، وازداد فى أهل الشام ، القتل حتى لقد أصبحت هزيمتهم قاب قوسين أو أدنى فعند ذلك رأى معاوية أن يضع حداً لهذا الشجار ، فاجتمع بعمرو بن العاص ، وطلب منه الرأى حتى يمكن الإبقاء على البقية الباقيةمن أبطال الإسلام. الذين هزموا فارس والروم بالأمس القريب . فأشار عمرو بطلب التحكيم . فأصدر معاوية أمراً إلى جميع كبار المسلمين من شيعته بأن كل من يحمل مصحفا فليرفعه على رمحه ، فكثر فى الجيش رفع المصاحف ، وارتفعت الضجة ونادوا « كتاب لله بيننا وبينكم . من لثغور الشام ، بعد أهل الشام ، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ، ومن لجهاد الروم ، ومن للترك ، ومن للكفار ورفع فى معسكر معاوية نحو خمسمائة مصحف [1] .

وهنا لم يكن بد من الاستجابة لهذه الدعوة التى أشار بها عمرو بن العاص. فلما رأى أهل العراق ذلك ،قالوا نجيب إلى كتاب الله،ولكن علياً أفهمهم أنها خديعة وأنهم مافعلوا ذلك إلا بعد أن عضتهم الحرب. ولكن اهل العراق كانوا

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧ .

قد يئسوا من طول القتال ، ثم رأوا فى عدم الاستجابة للدعوة إلى كتاب الله ، لوناً من الاستهانة بذلك الكتاب الذى يعتبر دستور دينهم وسلوكهم . ولهذا طلبوا إلى على أن يوافق على التحكيم ، فأعلن موافقته ووقف القتال فوراً ريثما تبحث القضية وتدرس فى أناة ومكث. وبواسطة هيئة قضائية تختار لهذا الغرض، كما نفصل ذلك بعد .

أمر التحكيم :

فى العرض السابق لمعركة صفين ، استبعدنا كثيراً من التفاصيل التى قالها رواة الأنباء لعدم اطمئناننا إلى صدقها ، وإنما أثبتنا فقط وصفاً موجزاً للحقائق التى حدثت بالفعل ، وهى جوهر الخلاف بين الخصمين ، ثم هى السبب فى عدم الالتقاء عند نقطة تقنع كلا منهما ، فنجم التراشق بالأقلام واللسان ، ثم التماسك بالرماح والسنان ثم تدخل الرأى ، وشائج الأخوة والدين ، فكان السلام بعد الخصام ، وارتضى الطرفان أن يعودا إلى الحكمة والقرآن ، إذ حدثت المعركة بعد أن توادعا شهراً كاملا ، كاد يتم فيه الصلح لولا إساءة الذين اضطلعوا بعبء التمهيد له مثل شبث وأضرابه .

مسئولية السفراء:

على أن من الحق أن نشير إلى أن بعض الأفراد الذين قاموا بالمفاوضة بين على ومعاوية لم يكونوا موفقين فى الأسلوب الذى عرضوا به وجهات النظر للطرفين.

وعلى سبيل المثل ، عندما بعث على إلى معاوية بالوفد الثلاثى قبل صفين ، قال شبث بن ربعى أحد أعضائه لمعاوية . يامعاوية . إنى قد فهمت ما رددت به إنه والله لا يخفى علينا ما تطلب · إنك لم تجد شيئا تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم إلا قولك · قتل عثمان مظلوما · فنحن نطلب بدمه ، فاستجاب لك سفهاء طغام ، وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل لهذه المنزلة .

ولعل هذا وأشباهه ، مما أوغر صدر معاوية ، وجعله يختار الطريق الشائك حفاظا على كرامته الشخصية ، ثم لعدم اطمئنانه إلى الذين يحيطون بعلى ، من أمثال شبث بن ربعى ممن يعتبرون من ذوى الرأى . وإذن فكيف بغيرهم من الدهماء .

ومهما يكن من شى ، فإن تهيب القوم من قتال بعضهم بعضاً هو الذى مهد لتلبية داعى الكف عن العنف ، والالتجاء إلى الرأى والبحث ، والتحكيم .

لقد سبق لهم قبل المعركة ، أن لجأ القوم إلى الموادعة فى المحرم ، ومشت بينهما الرسل تمهيداً للصلح وإزالة الشقاق، ولكن لأمر ما لم يوفق السفراء فى أسلوب العرض ، أو سلوك السبيل الواضح فى التعبير عن وجهتى النظر لكل من على ومعاوية ، ففشلت المفاوضات وكانت حرب العشرة أيام فى معركة صفين قد أهلكت عشرات الألوف من أبطال نهاوند وأجنادين ، وممن كان ينبغى أن يدخروا للقاء الروم ، والقوط فى معارك العدل والحرية ، وإغاثة الشعوب .

والآن وقد رضى الناس بالقضاء وحكم القانون، فقد أخذوا يبحثون الموقف على هذا الضوء فأرسل على إلى معاوية وشيعته وفدا على رأسه ، الأشعث بن قيس حسب طلبه ، ليسأله عما يريد . يقول الرواة :

جاء الأشعث بن قيس إلى على بن أبى طالب ، فقال له : ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن. فإن شئت أتيت معاوية ، فسألته : ما يريد ، فنظرت مايسأل . قال : إئته إن شئت فسله فأتاه فقال : يا معاوية لأى شىء رفعتم هذه المصاحف . قال : لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله عز وجل به تبعثون منكم رجلا ترضون به ، ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله، لا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقا

عليه ، فقال الأشعث بن قيس : هذا الحق ، فانصرف إلى على فأخبره بالذى قال معاوية . فقال الناس : فإنا قد رضينا ، وقبلنا ، فقال أهل الشام : فإنا قد اخترنا عمرو بن العاص .

فقال الأشعث بن قيس: وأولئك القوم الذين صاروا خوارج بعدُ ، فإنا قد رضينا بأبى موسى الأشعرى .

قال على . فإنكم قد عصيتمونى فى أول الأمر ، فلا تعصونى الآن . إنى لا أرى أن أولى أبا موسى .

فقال الأشعث ، وزيد بن حصين الطائى ، وآخرون : لا نرضى إلا به ، فإنه ما كان يحذرنا وقعنا فيه .

قال على : فإنه ليس لى بثقة ، قد فارقنى وخذل الناس عنى ثم هرب منى ، حتى آمنته بعد أشهر . ولكن هذا بن عباس ، نوليه ذلك . قالوا : ما نبالى ، أنت كنت ثم ابن عباس ، لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر . فقال على : فإنى أجعل الأشتر .

قال الأشعث — فيما يروى — وهل سعر الأرض غير الأشتر ، أو وهل نحن إلا فى حكم الأشتر . قال على : وما حكمه .

قال الأشعث : حكمه أن يضرب بعضنا بعضا بالسيوف .

وهنا رأى على أن الفتنة كادت تقع فى شيعته ، فقال . ابيتم إلا أبا موسى . قالوا . نعم ، قال . فاصنعوا ما أردتم ، فبعثوا إليه ـ وقد اعتزل القتال — فأتاه مولى له ، فقال . إن الناس قد اصطلحوا . فقال . الحمد لله رب العالمين ، قال . قد جعلوك حكما . قال . إنا لله وإنا إليه راجعون .

وجاء أبو موسى حتى دخل العسكر ، وجاء الأشتر حتى أتى عليا ، فقال : إجمعنى بعمرو بن العاص ، فو الله الذى لا إله إلا هو ، لئن ملأت عينى منه لأقتلنه .

وجاء الأحنف ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك قد رميت بحجر الأرض وإنى قد عجمت هذا الرجل ، وحلبت أشطره ، فوجدته كليل الشفرة ، وانه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير فى أكفهم ، ويبعد عنهم حتى يصير بمنزلة النجم منهم ، فإن أبيت أن تجعلنى حكما ، فاجعلنى ثانيا أو ثالثا ، فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها ، ولن يحل عقدة أعقدها إلا عقدت لك أخرى أحكم منها ، فأبى الناس إلا أبا موسى والرضى بالكتاب .

فقال الأحنف : فإن أبيتم إلا أبا موسى ، فادفئوا ظهره بالرحال فكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه علىّ أمير المؤمنين ، فقال عمرو : اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم ؛ فأما أميرنا فلا .

وقال له الأحنف : لا تمح اسم إمارة المؤمنين ؛ فإنى أتخوف إن محوتها ، لا ترجع إليك أبداً ، وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبى ذلك علىّ مليا من النهار ، ثم إن الأشعث بن قيس قال : امح هذا الاسم فمحى .

وقال علىّ : الله أكبر ، سنة بسنة ، ومَثَل بمَثَل ، والله إنى لكاتب بين يدى رسول الله (ص) يوم الحديبية إذ قالوا لست رسول الله ولا نشهدلك به ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتبه .

فقال عمرو بن العاص : سبحان الله ، ومثل هذا أن نشبه بالكفار ، ونحن مؤمنون ..

فقال علىّ : يا ابن النابغة ، ومتى لم تكن للفاسقين وليا .. فى كلام كثير ساقه المؤرخون والاخباريون ، نشك فى صحة صدوره بهذا الأسلوب ، وإن كان توتر الأعصاب قد بلغ مداه ، وهم بشر على كل حال رضى الله عنهم جميعاً .

وقد كتب الكتاب كما رأى الذين ندبوا لإملائه من الفريقين المتنازعين ، وهذه نسخته كما رواها الطبرى فى تاريخه (١) . . وقد كتب هذا الكتاب فى يوم الأربعاء ١٣ من صفر ، سنة ٣٧ هـ على أن يعلن القرار فى رمضان من نفس العام .

وثيقة التحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، قاضى علىّ ، على أهل الكوفة ، ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين . وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين . انا نتزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره . وان كتاب الله عز وجل بيننا : من فاتحته إلى خاتمته : نحيى ما أحيا ، ونميت ما أمات .

فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل — وهما : أبو موسى الأشعرى

(١) الأمم والملوك جـ ٦ ، ص ٢٩ — . ويقول المسعودى . إن الصحيفة كتبت لأيام بقين من صفر سنة ٣٧ . وقيل . بعد هذا الشهر (مروج الذهب جـ ٢ . ص ٢٩) .

عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص القرشى عملا به ، ومالم يجدا فى كتاب الله عز وجل : فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة .

وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والميثاق والثقة من الناس . انهما آمنان على أنفسهما وأهلهما . والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين : كلتيهما عهد الله وميثاقه انا على مافى هذه الصحيفة وان قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ، فإن الامن والاستقامة ، ووضع السلاح بينهم . أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم .

وعلى عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص : عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ، ولا يرداها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا . . وأجـــل القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخّراه على تراضٍ منهما .

وإن توفى أحد الحكمين ، فإن أمير الشيعة يختار مكانه ، ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط . وان مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه ، مكان عدل بين أهل الـكوفة وأهل الشام . وإن رضيا وأحبا : فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا .

ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على مافى هذه الصحيفة . وهم أنصار على من ترك ما فى هذه الصحيفة ، وأراد فيه إلحاداً وظلماً ... اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة .

وقد شهد من أصحاب على : الأشعث بن قيس الـكندى ، وعبدالله بن عباس ، وسعيد بن قيس الهمدانى ، وعبد الله العجلى ، وحجر بن عدى الـكندى ،

وعبد الله بن الطفيل العامرى ، وعقبة ابن زياد الحضرمى، ويزيد بن حجية التيمى. ومالك بن كعب الهمدانى ، ومن أصحاب معاوية أبو الأعور السلمى وعمر ابن سفيان وحبيب بن مسلمة الفهرى ، والمخارق بن الحارث الزبيدى ويزيد ابن عمرو العذرى وحمزة بن مالك الهمدانى ، وعبد الرحمن بن خالد المخزومى ، وسبيع بن يزيد الأنصارى ، وعلقمة بن يزيد الأنصارى ، وعتبة بن أبى سفيان ، ويزيد بن الحر العبسى [١] .

ويحدثنا الطبرى عن موقف الناس بعد كتابة الصحيفة ، وكيف حدثت حركة تذمر شديد فى شيعة على، مما دفع مثل الأشعث بن قيس لأن يقرأ الصحيفة على جموع القبائل حتى تهدأ ثورة نفوسهم. فيقول : لما كتبت الصحيفة دعى لها الأشتر فقال : لا صحبتنى يمينى ولا نفعتنى بعدها شمالى ، إن خط لى فى هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة . أو لست على بينة من ربى من ضلال عــدوى . أو لستم قد رأيتم الظفر لو لم تجمعوا على الجور . فقال له الأشعث ابن قيس : إنك والله ما رأيت ظفراً ولا جوراً . هلم إلينا فإنه لا رغبة بك عنا : فقال : بلى والله لرغبة بى عنك فى الدنيا للدنيا والآخرة للآخرة ، ولقد سفك الله عز وجل بسيفى هذا دماء رجال ما أنت عندى خيرا منهم ، ولا أحرم دما . وخرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم فيقرؤونه حتى مر به على طائفة من بنى تميم ، فيهم عروة بن أدية — وهو أخو أبى بلال فقال عروة بن أدية : أتحكمون فى أمر الله عز وجل الرجال، لا حكم إلا الله . ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفه ، واندفعت الدابة ، وصاح به أصحابه أن املك

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٦ ص ٢٩ — ٣٠

يدك . فرجع فغضب للأشعث قومه وناس كثير من أهل اليمن ، فمشى الأحنف ابن قيس السعدى ، ومعقل بن قيس الرياحى ، ومسعر بن فدكى وناس كثير من بنى تميم ، فنتصلوا إليه ، واعتذروا فقبل وصفح[1].

ولعل من الواضح مما سبق ، أن عليا وكثيراً من كبار شيعته لم يكونوا مطمئنين إلى نتيجة التحكم ولكن الجمهور، والغالبية الساحقة ممن عضتهم كوارث الفتنة عضا عنيفا سروا بالصلح ورضوا به مهما كانت النتائج ، وقد عبر عنهم الأشعث بن قيس، وأملى اراداتهم على الأشتر وأصحابه،بل وعلى علىٍّ نفسه . إذ فرفضت جماهير الشيعة العلوية أبا موسى الأشعرى ، لأنه فى نظرهم الرجل الوحيد الذى سينهى حالة الحرب ويعيد السلام إلى أرض العروبة والاسلام ، وحتى لو نجم عن ذلك ابعاد على نهائيا عن رياسة الدولة لأن هدف الناس قد أصبح متركزا فى أمر واحد لا ثانى له ، وهو إنهاء حالة الحرب . وليكن بعد ذلك ما يكون هذا فيما يبدو هو الذى كان يشغل جماهير العرب والمسلمين بعد أحداث الجمل وصفين .

اجتماع الحكمين :

فى الوثيقة السابقة، جعل أقصى مدة لإعلان قرار التحكيم ، شهر رمضان من سنة ٣٧ هجرية إلا إذا رأى الحكمان مد المدة فلهما ذلك ، وبهذا كان لابد من الاسراع فى بحث القضية الخطيرة التى سوف ينجم عنها سلام دائم ، أو حرب مبيرة .

وفى دومة الجندل ــ وهو المكان العدل بين الكوفة والشام حسب نص الوثيقة ــ اجتمع أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص، وأخذا يبحثان الموقف،

---

(١) نفس المصدر السابق .

ويقلبان وجوه الرأى . يقول بعض الرواة : لما اجتمع عمرو بأبى موسى ، أخذ يقدم عبد الله بن قيس فى الكلام ويقول : انك صحبت رسول الله(ص)قبلى، وأنت أكبر منى سنا ، فتكلَّمْ ثم اتكلَّمُ . وكان عمرو قد عود أباموسى ان يقدمه فى كل شيء ، وإنما اغتره بذلك ليقدمه فيبدأ بخلع على. .فنظرا فى أمرهما وما اجتمعا عليه ، فاراده عمرو على معاوية فأبى ، وأراده على ابنه فأبى ، وأراده أبو موسى على عبد الله بن عمر فأبى عليه عمرو. قال : فأخبرنى ما رأيك يا أبا موسى . . قال رأيى ان أخلع هذين الرجلين ، عليا ومعاوية ، ثم نجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من شاءوا ومن أحبوا . فقال له عمرو : الرأى ما رأيت وقال عمرو : يا أبا موسى : انه ليس أهل العراق بأوثق بك من أهل الشام لغضبك لعثمان وبغضك للفرقة ، وقد عرفت حال معاوية فى قريش ، وشرفه فى عبد مناف ، وهو ابن هند وابن أبى سفيان. فما ترى. قال : أرى خيراً. أما ثقة أهل الشام بى فكيف يكون ذلك وقد سرت إليهم مع على؟ وأماغضبى لعثمان . فلو شهدته لنصرته، وأما بغضى للفتن فقبح الله الفتن. وأما معاوية فليس بأشرف من على . ثم باعده أبو موسى ، فرجع عمرومغموما ثم أقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فتكلم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال :ان رأيى ورأى عمرو، قد اتفقا على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة . قال عمرو : صدق . ثم قال . يا أبا موسى فتكلم ، فتقدم أبو موسى ليتكلم فدعاه ابن عباس فقال . ويحك انى لأظنه قد خدعك . ان كنتما قد اتفقتما على أمر ، فقدمه قبلك ، فيتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده ، فان عمرا رجل داهية ، ولا آمن ان يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت به فى الناس ، خالفك. فقال له أبو موسى: انا قد اتفقنا . . فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أيها الناس : انا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نر شيئا هوأصلح لأمرها وألم لشعثها من أن لا تتباين أمورها، وقدأجمع رأيى ورأى صاحبى عمرو،على خلع على ومعاوية ، وأن نستقبل هذا الأمر ، فيكون شورى بين المسلمين ، فيولون أمورهم من أحبوا ، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أموركم وولوا من رأيتم لها أهلا . ثم تنحى ، وقام عمرو مقامه فحمد الله واثنى عليه ثم قال: ان هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلعه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية فى الخلافة ، فانه ولى عثمان ، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فقال له أبو موسى: مالك . لا وفقك الله . فقال له عمرو : مثلك مثل الحمار يحمل أسفارا ثم حدث هرج ، ولغط انصرف بعده أبو موسى إلى مكة ، ورجع عمرو إلى الشام حيث سلم بامارة المؤمنين على معاوية[1].

هذه رواية نصر بن مزاحم لقصة الحديث الذى دار بين عمرو وأبى موسى ، ثم للقرار الذى قضيا به وأعلنه أبو موسى ، ثم نقضه عمرو، كما يزعم مؤلف «وقعة صفين » . على ان أبا الحسن المسعودى ، قد روى القصة كما ذكرها ابن مزاحم، مما يدل على انه أخذها عن طريقه ولكنه أوضح لنا عدد القتلى فى صفين حيث يقول « وقد تنوزع فيمن قتل من أهل الشام والعراق ، فذكر عن يحيى بن معين ان عدة من قتل بها من الفريقين ، مائة ألف وعشرة آلاف من الناس. من أهل الشام تسعون ألفا، ومن أهل العراق عشرون ألفا.. ونحن نذهب إلى أن عدد من حضر الحرب من أهل الشام بصفين ، اكثر مما قيل فى هذا الباب،وهو خمسون ومائة ألف مقاتل سوى الخدم والأتباع . وعلى هذا يجب ان يكون مقدار القوم جميعا من قاتل ومن لم يقاتل من الخدم وغيرهم ، ثلثمائة ألف. بل أكثر من ذلك لان أقل من فيهم معه واحد يخدمه ، وفيهم من معه الخمسة والعشرة من الخدم والاتباع ، وأكثر من ذلك .

(١) نفس المصدر السابق

وأهل العراق ، كانوا فى عشرين ومائة ألف مقاتل دون الاتباع والخدم . وأما الهيثم ابن عدى الطائى وغيره ، فذكروا ان جملة من قتل من الفريقين جميعا، سبعون ألفا.من أهل الشام خمسة وأربعون ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا ، فيهم خمسة وعشرون بدريا ، وان العدد كان يقع بالاحصاء للقتلى فى كل وقعة ، وتحصيل ذلك يتفاوت لأن فى قتلى الفريقين من يعرف ، ومن لا يعرف، وفيهم من غرق ، وفيهم من قتل فى البر ، فأكلته السباع فلم يدركهم الاحصاء، وغير ذلك مما يعسر[١] .

ويصف المسعودى حال الناس عندما وقع التحكيم فيقول «ولما وقع التحكيم تباغض القوم جميعا . يتبرأ الأخ من أخيه ؛ والابن من أبيه ، وأمر على بالرحيل لعلمه باختلاف الكلمة وتفاوت الرأى وعدم النظام لأمورهم .

ولما دخل على الكوفة ، حدثت حركة انفصالية خطيرة ، وهى مسألة الخوارج ، اذ يروى أنه فوجىء بالناس ممن صاروا ، حرورية ، بعد ذلك ينادونه قائلين « جزعت من البلية ورضيت بالقضية ، وقبلت الدنية ، لا حكم إلا الله » فيقول لهم : حكم الله انتظر فيكم فيقولون « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . فيقول على:فاصبر ان وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

وهكذا فتح باب الجدل ،والفتنة ، وانشق أصحاب على عليه حتى الجىء أخيرا إلى محاربتهم إلى أن قضى نحبه بأيدى هؤلاء الذين كانوا بالأمس ينصرونه ويقاتلون عدوه .

---

(١) انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠

ومما ذكره المسعودى ، زيادة على ما أسلفنا أن معاوية اجتمع بعمرو قبل لقائه لأبى موسى وأوصاه بقوله « يا أباعبد الله . ان أهل العراق . قد اكرهوا عليا على أبى موسى » وأنا وأهل الشام راضون بك وقد ضم اليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأى ، فخذ الجد ، وطبق المفصل ، ولاتلقه برأيك كله » وقد وافاهم سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن يغوث الزهرى ، والمغيرة بن شعبة الثقفى ، وغيرهم . وهؤلاء ممن قعد عن بيعة على فى آخرين من الناس ، وذلك فى شهر رمضان(١) .

يقول المرحوم الخضرى : يظهر للمتتبع أخبار مابين على ومعاوية ، ان الرجلين كانا على تباين تام فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ماليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم ، وزاد به الفكر حتى كان يرى ان الاشياخ يعلمون ويغضون عنه وكان يرى فى معاوية انحطاطا هائلا عنه ، ولماذا لأنه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله وحاربوه ، وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا فى الاسلام إلا كرها » ،

ولكن هل مايقوله المرحوم الخضرى ، له حظ من الصحة .. ان الذى نراه فى هذا ان عليا ما كان يحقر أحداً أو يترفع عن أحد ، وإنما كان يريد ان تسير الأمور العامة فى سبيلها القاصد الذى الذى شرعه الله ورسوله ، من الشورى ، واحترام رأى الأمة ، والأخذ على يد الذين يعملون بأى وسيلة على تمزيق وحدتها ، واحداث الفتن بينها ، ومن ثم فقد حاول رد أصحاب الجمل ، وأهل صفين بالحسنى ، حرصا على الاخوة والوحدة ، وحقن الدماء . فلم يمكنه المفسدون والمخدوعون . . .

ولقد بويع لعلى من جماهير أهل المدينة ، وغالبية أعضاء مجلس الشورى ، ثم

---

(١) نفس المصدر السابق .

بذلت الأمصار الأخرى البيعة له ، ولم يتخلف عن هذا إلا معاوية وأهل الشام ، وهم أقلية بالنظر إلى بقية أقطار الدولة . وجماهير الأمة فى رأى على، فكان ذلك الموقف من معاوية ، فوق اتهام على بايواء قتلة عثمان ، من عوامل السخط والغضب على معاوية ، كما كان لابد من أن يسلك السبيل التى سلكها حتى لاينفرط عقد الوحدة العربية ، والاسلامية ، إذ لايتصور أن يترك رئيس دولة مسئول بعض الناس يتجمعون بدعوى المطالبة باقامة الحدود . وإذن فماهو عمله، وماهو اختصاصه ؟

ومع هذا فإننا ربما نتزه معاوية عن الاسفاف الذى اتهمه به الاخباريون وجلهم من غلاة التشيع ، ونرى أنه قد اجتهد هو وعمرو ومن على رأيهما ، وقد يكون التوفيق جانبهما بعض الشىء ، ولكننا مع هذا نشك كل الشك فى ذلك الخضم الهائل الذى حشيت به كتب المؤرخين من أخبار على ومعاوية وأنصارهما ، والجدل ، والاتهام الذىفاضت به تلك المؤلفات . ونظن أن الحقيقة وراء ذلك كله ؛ وهى اختلاف وجهات النظر فى تكييف الموقف بعد اغتيال الرجل الفاضل عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وإذا كنا قد نلصق بعلى شدته على معاوية ؛ ونبرر به عناد معاوية حتى حاربه فى صفين ؟ فهل نستطيع تبرير خروج أم المؤمنين عائشة ؛ والصحابيين الجليلين : طلحة ، والزبير مما نجم عنه وقعة الجمل ؛ وقتل آلاف المسلمين بها .

ألم يكن من الأفضل للذين خرجوا : أن يتريثوا بعض الوقت ليروا ماذا سوف يصنع على مع الذين اقترفوا جريمة قتل أمير المؤمنين عثمان بعد أن تهدأ العاصفة وتسكن الفتنة .

لقد قتل عثمان بعد إذاعات ملأت الجو بأن عماله يعاقرون الخمر ، ويعتدون على الناس ، ويفعلون الأفاعيل ، ولم يكن علىّ راضيا عن مسلك السبئية ولا تصرفاتهم ، بل كان دائماً يؤكدلهم صدق عثمان وبراءته مما يتهمونه به ، وقددافع عنه بنفسه وبنيه وبكل طاقته . ثم حم القضاء فلم يستطع له رداً ، ثم أرغم على أن يقبل رياسة الدولة ، من جماهير أهل المدينة التى كانت حتى ذلك الوقت تعتبر الهيئة الممثلة للأمة فى انتخاب أمير المؤمنين ، فهى أشبه بمجلس الأمة فى العصور الحديثة .

ومع هذا فإن الرجل الفاضل على بن أبى طالب لم يكتف برأى جمهرة أهل المدينة ، وإنمـــا تمسك بالرفض حتى يحضر زملاؤه الذين سبق أن وضعتهم الأمة موضع المرشحين لرياستها وقيادتها . فاستدعى طلحة ، والزبير ، وسعداً ، وابن عمر . وبايعه طلحة ، والزبير ، ولم يمتنع سعد وابن عمر . وإنما وعدا ببذل البيعة بعد أن ينجلى الموقف ويبايع الناس .

علىّ إذن — لم يتخلّ عن عثمان ولم يخذله ، ولم يسلك سبيلا ما ، ليصل إلى رياسة هذه الأمة ، ولم يقبل هذه الوظيفة إلا عن طريق الاستفتاء العام — بلغة العصر ولم يكن راغبا فى هـــذا المنصب ، بل كان كارها له ، ولـكنه ألجىء إلى قبوله من الجماهير وإذن فليتحمل مسئولياته كاملة ، وليؤد الأمانة . أمانة الحفاظ على النظام والأمن وتنفيذ القوانين ، واللوائح بكل دقة .

على ان من أبجديات القانون : أن يكون عقاب المتهم بارتـكاب جريمة ما عن طريق الهيئات المختصة ، وليس عن طريق الأفراد والجماعات ، وهذا هو المنطق الذى سار عليه على ، ونصح به كل من خرج ضده ، وقد استجاب له أصحاب الجمل وعرفوا أنه الحق وروح الإسلام .

بيد أن أهل الفتنة من السبئية الذين أومأنا إلى مؤتمراتهم التآمرية بتوجيه الحبر الأسود عبد الله بن سبأ ، قد دبروا إشعال الحرب بين الإخوة فى حادث « الجمل » كما أن أشباها لهم كذلك هم الذين سعروها فى صفين .

وإذن : فلولا تلك العناصر المندسة بين المسلمين لما حدث بينهم ما حدث ولكن قدر الله وما شاء فعل .

وأخيراً أعلن قرار التحكيم ، وفيه عزل على ومعاوية كما سبق . ولكن هل رضخ المحكمون لهذا القرار ، أم رأوا ، أو رأى بعض منهم . أن القرار لم يصدر وفق القضية المعروضة للبحث ، وهى القتال ، بينما الذى بحث وأعلن الحكم فيه هو رياسة الدولة ، ولم يتعرض لأمر الدماء التى أريقت فى صفين .

وإذن : فلا بد من إجمال وجهة نظر المتنازعين ، وبخاصة على بن أبى طالب فى هذه المسألة الخطيرة .

يقول المؤرخون : بعد أن اختلف أبو موسى وعمرو فى إعلان صيغة القرار الذى سبق أن اتفقا على إعلانه ، لحق أبوموسى بمكة ، ورجع عمرو إلى معاوية فسلم عليه بالخلافة ، ورجع عبد الله بن عباس إلى على بالكوفة ، فرده إلى البصرة أميراً عليها ، ثم اجتمع الناس بالكوفة ، فقام على فيهم خطيباً ، فقال : الحمد لله : وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدثان الجلل . وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول لله .

أما بعد :

فإن المعصية تورث الحسرة . وتعقب الندم : وقد كنت أمرتكم فى هذين

الرجلين . وفى هذه الحكومة أمرى . ونحلتكم رأيى . لو كان لقصير أمر . ولكن أبيتم إلا ما أردتم . فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

أمرتهمُ أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصحَ إلا ضحى الغدِ

ألا ان هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين ، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله. فحكما بغير حجة بينة . ولا سنة ماضية واختلفا فى حكمهما ، وكلاهما لم يرشد ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . . استعدوا وتأهبوا للسير إلى الشام ، وأصبحوا فى معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين ثم نزل وكتب إلى الخوارج بالنهروان « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين ، وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس . أما بعد : فان هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حكمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا القرآن، حكما . فبرىء الله منهما ورسوله والمؤمنون . فإذا بلغكم كتابى هذا فاقبلوا إلينا ، فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه ، فكتبوا إليه : أما بعد . فانك لم تغضب لربك ، وإنما غضبت لنفسك . فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك . وإلا فقد نبذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين ، فلما قرأ كتابهم أيس منهم ورأى ان يدعهم ويمضى بالناس حتى يلقى أهل الشام فيناجزهم ، فقام فى أهل الكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد . فإنه من ترك الجهاد فى الله وادهن فى أمره كان على شفا هلكة إلا أن يتداركه الله . فاتقوا الله وقاتلوا الذين لبسوا لهذا الأمر أهلا . والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل

كسرى وهرقل :

على بن أبى طالب ، يحذر المسلمين من أسلوب الحكم الذى كان يسير عليه كسرى وهرقل ، ويتوجس خيفة من معارضيه ، بل انه ليرى أن الأمر الذى يتشبثون به ، أبعد بكثيرمن الطلب بدم عثمان والقصاص من قتلته . . انه — فى رأى على — أسلوب الحكم والسياسة ، فهو يرى أن توزع الأموال على المستحقين ، ولو خلا بيت المال ، طالما توجد الضرورات الشديدة إلى انفاقها . وهذا ما صنعه فى ولاية البصرة بعد وقعة الجمل ، كما سبق . بل هذا هو رأيه حين وضع عمر الديوان ، فقد قال لعمر : أرى أن تنفق جميع ما فى بيت المال حتى يشبع الناس ، وينعموا .

ولكن عثمان وجمهرة الصحابة ، رأوا أن يدخر فى الخزانة العامة شىء للطوارىء ، وأن يعطى الناس قدر الكفاية ، وبقدر الإمكان ، مع ملاحظة البلاء والتفوق فى الأعمال والخدمات .

وعلى الجملة : فإن الذى يبدو من سلوك على ، وتوجيهاته ، وبياناته ، أنه كان مفطورا على العدل والمساواة ، وكراهية الترفع والطبقية ، كما كان مجبولا على حب المساكين والعمال ، والبطولات الراشدة ، والشغف الشديد بتطبيق الكفاية والعدل على أوسع نطاق .

ومن ثم ، فإنه لم يقبل أن تصبح سياسة الحكم، موضوعا للجدل والمهاترة ، أو محلا للمساومة والمناورة ، وإنما هو يرضى من الناس ، الوضوح ، والصراحة ، والصدق مع النفس ، والاستقامة فى المجتمع ، كما يقدس الواجب ، ولا يقبل فى ادائه شفاعة أومداراة . وقد أسفرعن تلك النعوت بجلاء فى مواقفه المختلفة، سواء إبان بيعته ، أم بعد ذلك حينما طلب منه المغيرة وغيره عدم عزل عمال عثمان ، ولا سيما معاوية ، مع أن الشكوى لم تكن إلا منهم .

كذلك نرى هذا الخلق واضحاً فى محاورته لرسل معاوية ، ومن قبل لأصحاب الجمل . . حدث ابن الأثير فى تاريخه قال :

بعث معاوية إلى على ، حبيب بن مسلمة الفهرى ، وشرحبيل بن السمط ، ومعن بن يزيد الأخنس ، فدخلوا عليه . فحمد الله حبيب وأثنى عليه ثم قال : أما بعـــد فإن عثمان كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله وينيب إلى أمره. فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتوه فادفع الينا قتلة عثمان ان زعمت أنك لم تقتله ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولونه من أجمع عليه أمرهم ، فقال له على : ما أنت لا أم لك والعزل وهذا الأمر . اسكت لست هناك ولا بأهل له . فقال والله لتريني بحيث تكره . فقال له على : وما أنت لا أبقى الله عليك إن أبقيت علينا . اذهب فصوب وصعد ما بدا لك.

وقال شرحبيل : ما كلامى إلا مثل كلام صاحبى ، فهل عندك جواب غير هذا . فقال على : ليس عندى جواب غيره . ثم حمد الله وأثنى عليه وقال :

أما بعد : فإن الله تعـــالى بعث محمدا ﷺ ، بالحق . فأنقذ به من الضلالة والتهلكة ، وجمع به من الفرقة، ثم قبضه الله إليه ، فاستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فأحسنا السيرة وعدلا وولى الناس عثمان ، فعمل أشياء عابها الناس ، فساروا اليه فقتلوه . ثم أتانى الناس فقالوا لى : بايع ، فأبيت . فقالوا بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وانا نخاف ان لم تفعل أن يتفرق الناس، فبايعتهم فلم يرعنى إلا شقاق رجلين قـــد بايعانى وخلاف معاوية . . ألا وانى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإماتة الباطل وإحياء الحق ومعالم الدين ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولـكم وللمؤمنين .

قالا : تشهد أن عثمان قتل مظلوما. قال لهما : لا أقول انه قتل مظلوما ولا

ظالماً ، قالا : من لم يزعم أنه قتل مظلوماً فنحن منه براء ، وانصرفا فقال على بعد انصرافهما : إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء ، إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهـــادى العمى عن ضلالتهم . إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون [1] » .

والذى نعنى به فى مثل هذه المواقف من على ، أن الرجل كان يرى أنه رئيس دولة منتخب مثل أسلافه ، وأن الأمة هى التى أسندت إليه أمرها بعدأن حاول جاهداً رفض هذا الأمر ولـكنهم أرغموه ، ولقد اختارته جميع الأمصار والأقطار ، وبذل له البيعة جميع المرشحين ممن يعتد برأيهم ، وحتى سعد وابن عمر لم يطعنا فى انتخابه ، وانما توقفا مليا لظروف تتعلق بأشخاصهما ، ووعدا بالبيعة متى بايعت الأمصار .

وإذن فلعلى حق الطاعة على الأمة ، وليس لأى فرد أو جماعة أن تطلب منه اعتزال أمور الناس وإلا لأصبحت الحياة فوضى ، وينعدم النظام والأمن ، لأن كل فرد لا يعجبه أو لا يلبى طلبه رئيس الدولة المنتخب ، فى شىء ما ، يذهب إليه ويطالبه بالتخلى عن مسئولياته !!

وهذا منتهى الاسفاف ، والا فتيات على حق الامة ، واختصاصات من اختارته لرعاية شئونها وإدارة مرافقها ، وليس من منطق السياسة والحـكم ، أن تسود الفردية فى دولة شورية ديمقراطية .

على أن الذى نراه أن عليا كان له كل الحق فى رد كل مشاكس إلى حدود

---

(١) آية ٥٣ من سورة الروم المـكية .

الطاعة والجماعة ، لولا هذه السحب القاتمة التى لبدت الجو إثر قتل رئيس الدولة عثمان . فلقد وجد بعض الناس سبيلا إلى الطعن فى إمارة على، التى تمت فى ظروف هذه الفتنة ، فزعموا أن البيعة له ، لم تخل من التهديد للناس وان السبئية كانوا سادة الموقف فى اختيار على ، وهم الذين قتلوا عثمان بن عفان رضى الله عنه . ولكن : هل بذل البيعة من السبئية لعلى فى تلك الظروف ، يسوغ قذف الرجل بأنه قد اشترك فى التحريض على عثمان ، بينما هو لم يسكن إبان حصار عثمان ، بل تحرك وبذل كل ما يستطيع للدفاع عنه ، والحفاظ على كرامته وقدره ، بله سلامته وحياته .

على أن الذى يلفت النظر فى مسألة الهجوم على عثمان ، بعد أن ظل معتكفاً فى بيته أكثر من خمسين يوما فى حالة حصار ، أنه لم يحاول أحد من المحيطين بمنزله أن يتسلق الجدر ويقتله ، كما أنه كان من اليسير على المصريين ومن معهم أن يتخلصوا منه إبان خروجه للصلاة الجامعة ، وعودته إلى بيته — لو أرادوا — ولكن الحقيقة فى أغلب الظن — أن سبب القتل كان عارضا بالنسبة للشاكين من عرب مصر — على الأقل — وإن كان هو الهدف الذى دبره أصحاب ابن السوداء ، ولكن لم يكن أهل مصر من شيعته سوى نذر يسير منهم ربما قد استغواهم هذا الآثم الخبيث . يقول المؤرخون : وقد انتهى النضال إلى ذروته عندما رشق أحد المدافعين عن عثمان ، رجلا من المصريين بحجر فقتله ، وطالب الثائرون بتسليم القاتل . فلم يجابوا إلى طلبهم ، فانقضوا على المنزل من المنازل والعقارات المجاورة وقتلوا الخليفة عثمان .

وإذن : فلم يكن هدف المصريين بالذات هو قتل عثمان ، وإنما كان فحسب مجرد الشكوى من مظالم لهم « بدليل أنه عند ما تدخل على » ، وابن أبى حذيفة فى الأمر ، وتحدثوا إلى عثمان وبذل الخليفة وعدا بالنظر فى

شكواهم ، انصرفوا راجعين إلى مصر ، لو لا ذلك الخطاب المشئوم الذى ضبطوه مع ورش غلام عثمان ، والذى كتبه مروان ليعاقب الشاكين فى شدة وقسوة ، فعند ذلك رجعوا للتحقق من صحة الخطاب ، واستبعدوا أن يحدث ذلك من أمير المؤمنين عثمان ، وقد صدق ظنهم . فإن عثمان لم يـكن يعلم بشىء من محتوياته . ولـكنهم ثاروا لما حدث كشأن سائر البشر ، ثم كان قتل غلمان عثمان لبعضهم ، فازدادت ثورتهم ، وأفلت الزمام من قادتهم ، وذوى الرأى فيهم ، فاشتبـكوا فى معركة نجم عنها قتل عثمان رضى الله عنه .

وبهذا يمـكن أن يكون التدبير من ابن سبأ ، الذى سبقت الإشارة إليه قد أثر فى أهل البصرة وأهل الـكوفة دون جمهور أهل مصر بسبب إقامة كثير من الفرس واليهود فى العراق ، حتى أن قاتل عمر كان من الفرس الذين وفدوا من العراق ، وليس من مصر ، ولا من تدبير أهلها .

كذلك نرى أن ابن السوداء عندما يطرده معاوية حوالى سنة ٣٠ هـ من الشام لا يذهب إلى مصر ، وإنما يتجه إلى البصرة ، ثم إلى الـكوفة ، وفيهما يبيض ويُفرخ . أما ما يزعمه بعض المؤرخين من وجود ابن السوداء مع أهل مصر إبان رجوعهم بخطاب ورش ، فقد يـكون ذلك أيضا من تدبير السبئية الذين يندسُّون دائما بين الساخطين ، لاستغلال الظروف وانتهاز الفرص .

يقول المرحوم الأستاذ عبدالحميد العبادى « لم يـكن ممـكنا أن تظلّ مصر وقداتضحت مكانتها فى الفتوح الـكبرى بمنأى عن مجرى الأحداث السياسية ، والانقلابات العامة . التى رجّت الدولة الاسلاميه رجّاً عنيفاً .. والحق أننا نلحظ أثر مصر بارزا فى أشدّ هذه الحوادث وأحرجها . ولنبدأ بالفتنة الـكبرى التى كان أقطع أحداثها مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

لا نريد أن نخوض فى هذا المقام. فى أسباب هذه الفتنة ، فقد اختلطت فيها العوامل الاقتصادية والاجتماعية بعصبية القبائل العربية، وقد يكون عجبا من العجب أن تشترك مصر فى هذه الفتنة وأن تبوء بالجانب الأكبر فيها ـ فيما روى الأخباريون ـ مع أنها فى ذلك الوقت كانت أرغد أقاليم الدولة الاسلامية حالا وأحسنها إدارة ونظاماً .. غلطة صدرت عن السياسة العليا، هى فى نظرنا السبب فى انقلاب مصر على عثمان وتلك هى عزل عمرو بن العاص عن مصر، وتوليته مكانه أحد أقاربه وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح .وعمرو رجل نفاع ضرار ، يرجى للشر كما يرجى للخير، ولم يفطن الخليفة الثالث لذلك عندما عزل عمرا عن مصر ، كما فطن له معاوية من بعد(١) ! !

وفى موضع آخر يبين الأستاذ العبادى قدر مصر لدى العرب والعالم الاسلامى فيقول : « لم تكن مصر فى نظر العرب عندما أقدموا على فتحها فى سنة ١٨ هـ كغيرها من الأقطار التى فتحوها فى نهضتهم العظمى، بل كان فى أخيلتهم وخواطرهم مكانة ممتازة لا تشبهها إلا مكانة قطر آخر هو الشام .. ذلك بأن القرآن الكريم ذكر مصر فى مواضع عدة ذكراً كريماً تارة بالتصريح وأخرى بالاشارة والتلميح فمن ذلك قول القرآن مخبراً عن فرعون، «أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » وقوله مخبراً عن يوسف عليه السلام « أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين وقوله ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا» وكما اشتمل القرآن على جملة آيات فيها تنويه بقدر مصر وخطرها وثرائها ، فإن السنة النبوية ذكرت مصر ونوهت بأهلها خاصة، لأسباب وردت فى قصص الكتب المقدسة . من مثل ما يروى من أن النبى ﷺ قال : إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً . . . والمعروف من التاريخ المقدس، أن مصر دخلها غير

(١) أنظر كتاب « صور وبحوث من التاريخ الإسلامى » ص ١٢٥

واحد من الأنبياء والرسل فقد قدمها إبراهيم الخليل عليه السلام، ودخلها يوسف، ويعقوب والأسباط، وفيها ولد موسى ونشأ عليه السلام كادخلها عيسى وأمه عليهما السلام [١] ومنها هاجر أم إسماعيل جد العرب العدنانيين، وأصل عرب الحجاز، فالمصريون أخوال الحجازيين . ومارية أم إبراهيم بن محمد رسول الله ﷺ أيضاً مصرية . فالمصريون كذلك أخوال لبعض ولد النبي ﷺ وهناك العلاقات التجارية الكبرى بين مصر والحجاز، ثم إن المصريين هم الذين كانوا فى الجاهلية يصنعون الثياب البيضاء المعروفة بالقباطى لتكسى منها الكعبة ، منذ العصر الجاهلى واستمر ذلك فى العصر الاسلامى وإلى يومنا هذا [٢] .

كل هذه الذكريات المستمدة من المصادر التى ذكرناها ، كانت تجول بخواطر العرب عندما أقدموا على فتح مصر . فلما تم لهم فتحها فعلا واختلطوا بأهلها ، وعاينوا نيلها العجيب وتربتها الخصبة وخيراتها الوافرة وآثارها الرائعة ، ووضعها الجغرافى الفريد ودعة أهلها وانصرافهم إلى العمل والتكسب بالزراعة والصناعة والتجارة . كل ذلك جعلهم يرون أن قد صدق الخبر الخبر، فانطلقت ألسنتهم تشيد بجو مصر وخيرات مصر ، ونيل مصر ، وعجائب مصر وجعلوها « جنة الدنيا » و « كنانة الله فى أرضه » وقالوا « من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثله فى الدنيا ، فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها » .

ومن قبيل ذلك الوصف البديع، ما بعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يصور فيه اختلاف الأفق المصرى من لدن أن يكون مغموراً بمياه الفيضان ، إلى أن ينحسر عنه الماء وتحرث الأرض ، وتخضر بالعشب والنبات ، وتنضج

---

(١) نفس المصدر (٢) أنظر السيرة النبوية لابن إسحاق (نبى البر)

الزروع وتتنوع ألوانها فيقول : فبينا مصر — يا أمير المؤمنين — لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباحة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء[1] .

ومرة أخرى ، تعود فنؤكد أن عرب مصر الذين خرجوا إلى المدينة شاكين إبان عهد عثمان لم يكن فى منهجهم قتل الرجل فى أغلب الظن وإنما الحادثان المشئومان . خطاب ورش ، وقتل أفراد منهم بيد موالى عثمان وأفراد من موظفى الخليفة، هما اللذان أثارا حفيظة المصريين فحاولوا اقتل مروان ، وقاتل من قتل منهم ، فكانت معركة ، أفلت فيها الزمام فقتل عثمان رضى الله عنه .. ومع ذلك ، فلن نستطيع اغفال حب المصريين لعلى بن أبى طالب وتفضيله لخلقه وكفايته عن سائر معاصريه مثل طلحة والزبير. ونجتزىء بهذا الموجز لأطوار الفتنة، لننهى الكلام بجملة عن بيت على وأولاده ، ونبذة من شمائله ، ثم عن تنازل الحسن ابنه لمعاوية رضى الله عنهما.

بيت على وولده :

أول امرأة بنى بها على بن أبى طالب ، هى فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ وقد أنجب منها حسنا وحسينا . ويقال أنها ولدت أبنا آخر يسمى محسنا توفى صغيرا ، كما ولدت له زينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى ، ولم يتزوج عليها حتى توفيت بعد رسول الله (ص) ببضعة أشهر .

وتزوج بعد وفاة فاطمة ، أم البنين بنت حزام ، فولد لها منه العباس وجعفر وعبد الله وعثمان ، وقتلوا مع الحسين فى كربلاء ، ولم يعقبوا ولدا إلا العباس.

---

(١) وقد أثبتنا فيما سبق وصف مصر لعمرو بن العاص رضى الله عنه فراجعه ..

وتزوج ليلى ابنة مسعود الحنظلية ، فولدت له عبيد الله وأبابكر ، وقد قتلا مع الحسين ، وقيل إن الذى قتل عبيد الله هو المختار بن أبى عبيد ، ولا بقية (خلف) لهما .

وتزوج أسماء بنت عميس الخثعميةفولدت له يحيى ، ومحمدا الأصغر ، ويقال أنهما لم يتركا خلفا ، وحكى الواقدى ، أن أسماء ولدت له عونا .

وانجب من الصهباء ، أم حبيب بنت ربيعة التى يقال أنها أم ولد ، من سبى خالد بن الوليد فى عين التمر . أنجب منها عمر ، ورقية ، وقد عاش على حوالى خمس وثمانين سنة .

وتزوج أمامة بنت أبى العاص من بنى عبد مناف ، وأمها زينب بنت رسول الله (ﷺ) فولدت له محمدا الأوسط .

وتزوج خولة ابنة جعفر بن قيس الحنفية فولدت له محمدا الأكبر الذى عرف بمحمد بن الحنفية .

وتزوج أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفى ، فولدت أم الحسن ورملة الكبرى ، وكان له بنات من أمهات شتى منهن . أم هانىء وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وأم كلثوم وفاطمة ، وأمامة وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ونفيسة بنات على رضى الله عنه يقول الطبرى . وتزوج محياة ابنة امرىء القيس من قبيلة كلب ، فولدت له جارية هلكت صغيرة وحدث الواقدى عن طريف هذه الفتاة أنها كانت تخرج إلى المسجد وهى جارية فيقال لها . من أخوالك فتقول . وه . وه. تعنى كلبا . فجميع ولد على لصلبه أربعة عشر ذكرا ، وسبع عشرة امرأة . وكان النسل

من ولد الخمسة : الحسن والحسين . ومحمد بن الحنفية ؛ والعباس بن الكلابية وعمر بن التغلبية .

عماله على الأمصار :

كان واليه على المدينة فى آخر سنى حياته ، أبا أيوب الانصارى ، وقيل سهل ابن حنيف ، والكوفة مقر الحكم للدولة وعلى البصرة عبد الله بن العباس وكانت إليه الصدقات والجند والمعاون كلها مدة ولايته وكان على قضاء البصرة من قبل على ، أبو الأسود الدؤلى ، وتولى زياد بن أبى سفيان أمر البصرة فترة قصيرة ؛ بعثه بعدها إلى فارس لحربها وخراجها أما عامله على البحرين واليمن وما يليها . فهو قثم بن العباس[١] .

كلمة عن على :

مكث على فى الخلافة خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ؛ وقيل أكثر من ذلك بيوم أو بعض يوم[٢] ، وكان أصلع إلى القصر أقرب ، عظيم العينين[٣] ، عظيم اللحية كثير شعر الصدر ، فوق الربعة ضخم عضلة الذراع ، ضخم عضلة الساق ؛ وكان من أحسن الناس ، ولا يغير شيبه ، كثير التبسم[٤] . لم يلبس فى أيامه ثوبا

---

(١) تاريخ الأمم للطبرى جـ٦ ص ٨٩ وكتاب الكامل لابن الأثير جـ٣ ص ٢٠١

(٢) الطبرى فى تاريخ الأمم جـ٦ ص ٤٠

(٣) نفس المصدر

(٤) الكامل فى التاريخ جـ٣ ص ٢٠١

جديداً ولا اقتنى ضيعة ولا ربعاً إلا شيئاً يسيراً مما تصدق به وحبسه ، وكان يقول : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها الدنيا مسجد أحباء الله ، ومصلى ملائكته ومهبط وحيه ، ومتجر أوليائه . اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة . فمن ذا يذمها وقد آذنت ببنيها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها ، ومثلت لهم ببلائها البلاء ، وشوقت بسرورها إلى السرور[1] .

دخل ضرار بن حمزة على معاوية — وكان ضرار من خواص على — وافداً . فقال له : صف لى علياً . قال : أو تعفينى يا أمير المؤمنين . قال معاوية : لابد من ذلك . فقال : أما إذا كان لابد من ذلك ، فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يعجبه من الطعام ما خشن ، ومن اللباس ما قصر ، وكان والله يجيبنا إذا دعوناه ، ويعطينا إذا سألناه ... يبسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويرحم المساكين ، ويطعم فى المسغبة ، يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة . يكسو العريان وينصر اللهفان ويستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل وظلمته ، وكأنى به وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ، وهو فى محرابه قابض على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ويقول :

يا دنيا غرى غيرى ، إلى تعرضت ، أم إلى تشوفت . هيهات . هيهات . لاحان حينك ، قدابنتك ثلاثا لا رجعة لى فيك. عمرك قصير ، وعيشك حقير . وخطرك يسير . آه من قلة الزاد ووحشة الطريق ، فقال له معاوية : زدنى شيئاً من كلامه . فقال ضرار : كان يقول : أعجب مافى الإنسان قلبه ، وله مواد

---

(١) نفس المصادر السابقه .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٥

من الحكمة وأضداد من خلافها ، فإن سنح له الرجاء أماله الطمع ، وإن مال به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه القنوط قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعده الرضا نسي التحفظ .. فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد . فقال معاوية : زدني كل ما وعيته من كلامه . قال ضرار : هيهات أن آتي على جميع ما سمعته منه . ثم قال : سمعته يوصي كميل ابن زياد (وكان من قوله) : « يا كميل . ذبّ عن المؤمن ، فإن ظهره حمى الله ، ونفسه كريمة على الله ، وظالمه خصم الله واحذركم من ليس له ناصر إلا الله .

وقيل لعلي رضي الله عنه : منْ خيار العباد ، قال : الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساءوا استغفروا ، وإذا ابتلوا صبروا ، وإذا غضبوا غفروا[١] .

يقول المسعودي «حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة . ونيفاً وثمانين خطبة يوردها على البديهة ، تداول الناس ذلك عنه قولا وعملا[٢] .

بعد أن تولى الخلافة ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[٣] :

إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً ، بين فيه الخير والشر ، فخذوا الخير ودعوا الشر . الفرائض أدُّوها إلى الله سبحانه ، يؤدِّكم إلى الجنة . إن الله حرم حرماً غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها . وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ، ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت . فإن الناس أمامكم وإن

(١) نفس المصدر السابق

(٢) نفس المصدر

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبري جـ ٥ ص ١٥٧

ما من خلفكم الساعة تحدوكم .. تخففوا تلحقوا . فإنما ينتظر الناس أخراهم . اتقوا الله عباده فى عباده وبلاده . إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه . وإذا رأيتم الخير فخذوا به . وإذا رأيتم الشر فدعوه . واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض . هذا مثل من بياناته الرائعة وكلماته الراشدة رضى الله عنه وأرضاه .

الحسن بن على :

بويع للحسن — رضى الله عنه — بعد أن توفى على بن أبى طالب بيومين فى أرجح الروايات : وإذ كان الاعتداء على أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، قد حدث فى ١٧ من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ وتوفى بعد يومين من ضربة ابن ملجم (١) .

---

(١) سبب قتل على هو عداؤه الشديد للخوارج ، وقتل كثير من رءوسهم فى الحروب التى نشبت بينه وبينهم ، ومع هذا فإن الطبرى ذكر فى سبب القتل قصة مؤتمر عقده الخوارج وقرروا فيه قتل الذين فرقوا جماعة المسلمين — فى زعمهم — وهم معاوية وعمرو ، وعلى . يقول فى ذلك « من حديث ابن ملجم وأصحابه أن ابن ملجم والبرك بن عبد الله ، وعمرو بن عبد بكر التميمى ، اجتمعوا فذكروا أمر الناس وعابوا على ولاتهم ثم ذكروا أهل النهروان ، فترحموا عليهم ، وقالوا : ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون فى الله لومة لائم . فلو شرينا أنفسنا فاتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم لاخواننا . فقال ابن ملجم . أنا أكفيكم علياً . وقال البرك . أنا أكفيكم معاوية . وقال عمرو بن بكر . أنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا وتواثقوا . ثم أخذوا أسيافهم واتعدوا لسبع عشرة تخلوا من رمضان ، أن يثبت كل واحد منهم على صاحبه فأقبل كل منهم إلى المصر الذى صاحبه فيه . فأما ابن ملجم المرادى فخرج فلقى أصحابه بالكوفة . وكاتمهم أمره كراهة ان يظهروا شيئاً من أمره . ثم لقى امرأة من تيم الرباب يقال لها « قطام » ابنة الشحنة ، وقد قتل أبواها وأخوها يوم النهروان وكانت فائقة الجمال =

. . . .

=فلما رآها التبست بعقله ونسي حاجته التي جاء لها ثم خطبها. فقالت : لا أتزوجك حتى تشفي لي قال: ومايشفيك. قالت:ثلاثة آلاف وعبدوجارية وقتل علي بن أبي طالب. قال هو مهر لك. فأما قتل علي (فلا أراك) ذكرته لي وأنت تريديني قالت : بلى التمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ، ويهنئك العيش معي . وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها . قال : فوالله ماجاءبي هذا المصر إلا قتل علي ، فلك ماسألت .. قالت : إني أطلب لك مايسند ظهرك ويساعدك على أمرك فبعثت إلى رجل من قومها من تيم الرباب (وكان علي قتل عشرة منهم)يقال له وردان. فكلمته فأجابها . وأتى ابن ملجم رجلا من أشجع يقال له شبيب بن بجرة، فقال له : هل لك في شرف الدنيا والآخرة . قال : وما ذاك قال : قتل علي بن أبي طالب . قال ثكلتك أمك . لقدجئت شيئاً إدا . كيف تقدرعلى علي . قال . أكمن له في المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة ، شددنا عليه فقتلناه . فإن نجونا شفينا أنفسنا وادركنا ثأرنا . وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا ومافيها . قال ويلك لو كان غير علي لكان أهون علي . قد عرفت بلاءه في الإسلام وسابقته مع النبي صلى الله عليه وسلم وما أجدني أنشرح لقتله . قال ابن ملجم: أما تعلم أنه قتل أهل النهروان العبادالصالحين قال بلى قال : فتقتله بمن قتل من إخواننا . فأجابه: فجاءوا قطام وهي في المسجدالأعظم معتكفة . فقالوا لها قدأجمع رأينا على قتل علي . قالت: فإذا أردتم ذلك فأتوني . ثم عاد إليها ابن ملجم في ليلة الجمعة التي قتل في صبيحتها علي سنة ٤٠ فقال : هذه الليلة التي واعدت فيها صاحبي ، أن يقتل كل واحد منا صاحبه فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي . فلماخرج ضربه شبيب بسيفه فوقع السيف في عضادة الباب ، وضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهرب وردان ، حتى دخل منزله فدخل عليه رجل من بني أبيه وهو ينزع الحرير عن صدره والسيف ، فأخبره بما كان وانصرف ، فجاء بسيفه فعلا به وردان حتى قتله. وخرج شبيب نحو أبواب كندة في الغلس. وصاح الناس فلحقه رجل من حضرموت يقال له عويمر وفي يد شبيب السيف فأخذه وجثم عليه الحضرمي، فلما رأى الناس =

فيكون الحسن قد بايعوه بالخلافة فى ٢١ من رمضان سنة ٤٠ . يقول الطبرى «ضرب على ليلة الجمعة فمكث يوم الجمعة والسبت وتوفى ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٤٠ وهو ابن ثلاث وستين سنة» وبهذا قال جمهرة المؤرخين — روى أن جندب بن عبد الله، دخل على علىّ بعد ضربته، فسأله، فقال : يا أمير المؤمنين . إن فقدناك — ولا نفقدك — فتبايع الحسن . فقال : ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر، ثم دعا حسنا وحسينا فقال «أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شىء زوى عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصما، وللمظلوم ناصرا، وأعملا بما فى الكتاب، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم، ثم نظر إلى محمد ابن الحنفية فقال : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم . قال . فإنى أوصيك بمثله وبتوقير أخويك، لعظم حقهما عليك، فاتبع أمرهما ولا تقطع أمرا دونهما . ثم التفت إلى حسن وحسين وقال : أوصيكما به، فإنه شقيقكما ؛ وقد علمتما أن أباكما كان يحبه .

= قد أقبلوا فى طلبه وسيف شبيب فى يده خشى على نفسه فتركه، ونجا شبيب فى غمار الناس، فشدوا على ابن ملجم فأخذوه، إلا أن رجلا من همدان، أخذ سيفه فضرب رجله فصرعه وتأخر على، ورفع فى ظهره جعدة بن هبيرة بن أبى وهب. فصلى بالناس الغداة (الفجر) ثم قال على : على بالرجل، فادخل عليه . ثم قال . أى عدو الله ألم أحسن إليك، قال . بلى . قال فما حملك على هذا قال: شحذته أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه. فقال على . لا أراك إلا مقتولا به، ولا أراك إلا من شر خلقه .

وبذكر الطبرى (ج ٦ ص ٨٥) أن ابن ملجم عندما ضرب عليا قال: الحكم لله يا على لا لك ولا لأصحابك . ثم أهوى على قرنه بالسيف، فقال على. لايفوتنكم الرجل فاخذ ابن ملجم وأدخل عليه فقال . النفس بالنفس إن أنامت فاقتلوه كما قتلنى وإن بقيت رأيت فيه رأيى .

وقال للحسن : أوصيك أى بنى . بتقوى الله ، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء ، فإنه لاصلاة إلا بطهور ، ولا تقبل صلاة من مانع الزكاة . وأوصيك بغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم، والحلم عندالجهل، والتفقه فى الدين . والتثبت فى الأمر ، والتعاهد للقرآن وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش .

ويروى أنه لما حضرت عليا الوفاة ، قال للحسن : أوصيك يا حسن وجميع ولدى وأهلى ، بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، فانى سمعت أبا القاسم — صلى الله عليه وسلم — يقول : إن صلاح البين أفضل من عامة الصلاة والصيام ... والله الله فى أصحاب نبيكم ، فإن رسول الله أوصى بهم ، والله الله فى الفقراء والمساكين فاشركوهم فى معايشكم . . الصلاة . الصلاة لاتخافن فى الله لومة لائم . يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم . . فى وصية طويلة سجلها الطبرى فى تاريخه[1] .

ذلك وبالرغم من أن عليا لم يشر ببذل البيعة لأحد من أبنائه حتى لا ينحرف الناس عن شريعة الشورى ، ولا يحمل نفسه مالا يحب ، فإن أنصاره بايعو لابنه الحسن كما سبق .

ولكن الحسن — رضى الله عنه — كان كارها فى هذا الأمر ، راغباً فى جمع كلمة المسلمين على أى شخص لأن الجماعة خير من الفرقة ، وإذ كان معاوية رضى الله عنه — أقوى شخصية تصلح لرياسة دولة الاسلام فى هذا الظرف ، فقد أخذ يفكر جديا فى جمع الأمة من حوله، وبدا ذلك واضحا فى أسلوبه فى تقبل بيعته

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٨٠

من الشيعة ، إذ كان يشترط على من يبايعه أن يسالم من سالم ويحارب من حارب ، وعندما قال بعضهم فى مبايعته، أبايعك على الكتاب والسنة وقتال المحلِّين (ولعله يقصد معاوية ومن معه) قال : على كتاب الله وسنة نبيه ، فإن ذلك يأتى من وراء كل شرط .

كان مثل هذا الأسلوب فى اختيار الخلفاء غير معروف لدى الناس حينذاك، ولا سيما فى جماعة الشيعة الذين لا يفكرون فى مهادنة معاوية ، فضلا عن إسناد أمر الأمة إليه مع وجود أبناء على وغيرهم . ولهذا فقد راجت الإذاعات بأن الحسن يرفض عدواة معاوية . ولا يفكر فى استئناف القتال معه وكان الحسن فعلا مشغولا بوضع حد لتلك الفتنة التى فرقت وحدة الأمة ، وكادت تجعل أعداءها يعدون العدة لغزوها بعد أن تفوقت عليهم فى كل الميادين . يقول الطبرى : فى سنة ٣٥ ﻫ سار قسطنطين بن هرقل فيما ذكر محمد بن عمر الواقدى فى ألف مركب، يريد أرض المسلمين ، فسلط الله عليهم قاصفا من الريح ففرقهم ، ونجا قسطنطين بن هرقل فأتى صقلية ، فصنعوا له حماما ، فقتلوه فيه . وقالوا : قتلت رجالنا .

وإذن فقد انتهز الروم فرصة الخلاف الذى استعر بين المسلمين ، وأرادوا أن ينتقموا لأنفسهم ولولا أن الله سبحانه لطف بالأمة فاغرق أسطول الأروام ، ثم قتل امبراطورهم بأيدى الروم أنفسهم ، لربما كان للدولة الإسلامية ، شأن آخر إبان الفتن التى عمت أقطار الدولة آنئذ ، ثم تفاقمت بعد سنة ٣٥ ، وكادت تهدم حصونها ومعاقلها بأيدى المؤسسين لها ، ولولا الضعف البالغ الذى كان يخيم على أعدائها ، لفكروا جديا فى القضاء عليها بأسرع مما يظنون ..

ومهما يكن من شىء فقد قدر الله لهذه الأمة أن تجتمع بعد هذه المحنة المبيرة ؛ وأن تتحد وتتكتل مرة أخرى ، بفضل النوايا الطيبة التى دفعت الحسن بن على

ومعاوية بن أبى سفيان ثم بفضل الجهود الجبارة التى بذلها عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وبنو العباس وعلى وغيرهم من ذوى النفوس الصافية، والقلوب المؤمنة فى العمل على إعادة الوحدة والألفة الى دولتهم العظمى .

وإذا كان المؤرخون قد سجلوا بعض المهاترات الشكلية فى أسلوب إتمام هذه الوحدة الجامعة بين الحسن ومعاوية ، فان الرغبة الصادقة التى أبداها الرجلان، قد ذللت هذه الصعوبات حتى قضت عليها ، والتقى الطرفان فى مدينة الكوفة فى سنة ٤٠ للهجرة حيث تم توقيع وثيقة الوحدة واجتماع الكلمة، وإعادة السلام والوئام إلى دولة الإسلام فكان عام الجماعة المبارك فى تاريخ هذه الأمة .

يقول المسعودى : بويع الحسن بن على بن أبى طالب بالكوفة بعد وفاة على أبيه بيومين فى شهر رمضان من سنة أربعين، فوجه عماله إلى السواد والجبل ، وقتل الحسن ، عبد الرحمن بن ملجم ، ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن لخمس بقين من شهر ربيع فى سنة ٤١ وكانت وفاة الحسن ، وهو يومئذ ابن خمس وخمسين سنة .. ودفن بالبقيع مع أمه فاطمة بنت رسول الله(ص)[١] .

ويقول ابن جرير الطبرى[٢] . «بايع أهل العراق الحسن بن على بالخلافة . فطفق يشترط عليهم الحسن: إنكم سامعون مطيعون ، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت ، فارتاب أهل العراق فى أمره ، حين اشترط عليهم هذا الشرط ، وقالوا ماهذا لكم بصاحب، وما يريد هذا القتال، فلم يلبث الحسن بعدما بايعوه إلا قليلا حتى طعن طعنة أشوته (لم تصب منه مقتلا) فازداد لهم بغضا وازداد منهم ذعرا ،

---

(١) مروج الذهب ج٢ ص ٥٠

(٢) الأمم والملوك ج٦ ص٩٣

فكاتب معاوية وأرسل إليه بشروط ، قال : إن أعطيتنى هذا فأنا سامع مطيع ، وعليك أن تفى لى به ، ووقعت صحيفة الحسن فى يد معاوية وأرسل معاوية قبل هذا إلى الحسن بصحيفة بيضاء مختوم على أسفلها وكتب إليه أن اشترط فى هذه الصحيفة التى ختمت أسفلها ما شئت فهو لك ، فلما أتت الحسن اشترط أضعاف الشروط التى سأل معاوية قبل ذلك ، وأمسكها عنده ، وأمسك معاوية صحيفة الحسن التى كتب إليه يسأله الوفاء له بما فيها . فلما التقى معاوية والحسن سأله الحسن أن يعطيه الشروط التى شرط فى السجل الذى ختم معاوية فى أسفله ، فأبى معاوية أن يعطيه ذلك فقال : لك ما كتبت إلى أو لا تسألنى أن أعطيكه . فإنى قد أعطيتك حين جاءنى كتابك . قال الحسن : وأنا قد اشترطت حين جاءنى كتابك وأعطيتنى العهد على الوفاء بما فيه فاختلفا فى ذلك ، فلم ينفذ معاوية للحسن من الشروط شيئاً .

وبعد . فهل تعتبر الأحداث التى أثارها ابن السوداء فى الدولة الإسلامية ، ثورة إصلاحية لم يقدر لها الظفر كما يزعم بعض المعاصرين ، أم هى « فتنة » ومؤامرة اشترك فى إيقاظها نفس الذين أثاروا فتنة الردة ، وتآمروا على اغتيال عمر ؟

إن الذى نراه ، هو نفس ما رآه الصحابة والتابعون ، وعلماء الأمة من المحدثين والفقهاء والمؤرخين ، وجماهير المسلمين من أنها كانت فتنة كسابقتيها ثم أجهز عليها الحسن بن على ، ومعاوية بن سفيان فى سنة ٤١ هـ . وبهذا قضى على تلك المؤامرة العدوانية ، وكان عام الجماعة من أسعد الأيام فى تاريخ العروبة والإسلام .

وإلى هنا ينتهى هذا البحث فى عصر الراشدين ، والله ولى التوفيق .

وكان الفراغ من تأليف هذا الكتاب فى غرة شهر رمضان المبارك لسنة ١٣٨٢ « الموافق ٢٥ يناير سنة ١٩٦٣ »

عبد الحميد بخيت

القسم الثاني

بحوث ودراسات

في حضارة الاسلام ،وجمع القرآن ،وسير الأبطال

(الحضارة الإسلامية فى عصر الراشدين)

مقوماتها — مظاهرها — إدارة الدولة

مقدمة

مما لاريب فيه أن عصر الأربعة الراشدين ، يعتبر العصر الذهبى ، للدولة الإسلامية .

وليس ذلك لتمتع هؤلاء بصحبة النبي ﷺ وأخذهم عنه ،أو ممارسة التجربة معه ، أوما إلى ذلك من مقومات لها وزنها الخطير فى الإعداد والتوجيه وسلوك الناس . فحسب

و إنما — إلى جانب هذا — لتطبيق المبادىء الإنسانية التى جاءت بها شريعة محمد ﷺ فى المجتمع العربى ، ثم فى المحيط العالمى ، مما أوحى بالتفكير العميق ، فى وضعية المبادىء ، والروح الجديدة التى نشأت عنها ، وتفجرت منها ثم سرت فى أنحاء الدنيا ، كما تسرى الحياة فى جسم الإنسان ، أو الغيث المنهمر فى الهضاب والصخور لا يلبث أن يشق سبيله، إلى بلد ميت فيحيي لأرض بعد موتها وينهض الناس ، للانتفاع بما انتهى إليه من أنهار وجداول، يسقون منها زروعهم وأنعامهم ، وأنفسهم ، ويعمد المفكرون منهم إلى بناء الجسور ، والخزانات؛و إنشاء السدود،و استخراج الحرارة والكهرباء من مياهه المتدفقة ، وهكذا كانت مبادىء الإسلام ، أشبه بسر الحياة،أو الغيث المنتظر إبان الجفاف والاملاق ، فأدرك الراشدون من سلف هذه الأمة قدره ، وقدرته فى النهوض والارتقاء وتم لهم النصر على كبرى دول الأرض ، رغم الضعف والقلة،والفقر والمسغبة ولكن الوعى والإيمان ، والإيجابية ، لاتهزم بأية قوى مادية مهماعظم شأنها

ومن ثم فقد اتسعت فتوح الدولة الإسلامية ، إبان العهد الرشيد ، بشكل لم يعهد له مثيل فى تاريخ البشر .

لقد عرف التاريخ قوة الإسكندر المقدونى ، كما عرف قوى فراعنة وادى النيل ، وأكاسرة فارس ، وقياصرة الروم ، وسائر الفاتحين العظام فى القديم والحديث ، ولكن المؤكد ، أن أحداً من هؤلاء ، لم تبلغ فتوحه ما بلغته فتوح الدولة العربية بعد الإسلام ، وعلى الأقل ، لم تتركز حضارة الفاتحين القدامى والمحدثين ، كما تركزت حضارة الفاتحين المسلمين ، ولذلك فإننا نستطيع أن نقرر بأن حجة الحضارة ، وليس سلطان السلاح ، هى التى هزمت القوى الامبراطورية القديمة وأزالتها من حكم الشعوب ، ثم مكنت لحضارة الإسلام فى أرض الأكاسرة والقياصرة وغيرهم ، فأخرجت منهم خير أمة فى القرنين السابع والثامن لميلاد المسيح عليه السلام .

***

ولكن ما هى الحضارة التى أنشأها الإسلام ، إنشاءاً ، وخلقها خلقاً .

أهى تلك المزيج من تقاليد العرب ، وآداب الإسلام ، أم هى هذه المظاهر الاجتماعية والفكرية والتنظيمية التى وفدت إلى الدولة الإسلامية بعد التعريب الواسع النطاق لأفكار وآداب الأمم الأخرى منذ العصر العباسى ؟ وإذن فهل حضارة الإسلام ، هى هذا الخليط المتراكم من فلسفات الشرق والغرب أم ان حركة الترجمة والتعريب ليست سوى لون من ألوان النشاط الثقافى ، لمجرد المعرفة ، والعلم بما عند الآخرين ، من تجارب قد تفيد الإنسانية ، إذا ما سلطت عليها أضواء الاسلام ، واشعاعاته القوية .

الشريعة والحضارة :

إن جملة الأسس التى أنشأت الحضارة الإسلامية ، هى أصول تلك الشريعة وأحكامها وآدابها ، فهى التى شكلت حياة الأمة ، وأفاضت من روحها

على توجيه نظم الحـكم والسـياسة ، ومسائل المال والاقتصاد ، والمجتمع بوجه عام .

النظام السياسى :

ولعل من يتتبع أسلوب الاختيار لرئيس الدولة العربية بعد الإسلام لن يخالجه شك فى سمو هذا النظام البديع الذى وجهت إليه « الاسلامية » فقد كانت « الشورى » أساساً لانتخاب أمراء المؤمنين ، ولم تتدخل عوامل أجنبية عن شريعة الشورى ، سواء فى تنصيب أبى بكر أو عمر أو عثمان وعلى ، بل وحتى الحسن ومعاوية ، رغم الملابسات التى أحاطت بذلك .

ولهذا فقـد أطلق المؤرخون على ذلك العهد عنوان « الراشدين » لأن الغلب والصراع ، والمناورات السياسية وغير السياسية التى تلابس اختيار رؤساء الدول الشورية « الجمهورية » لم يكن لها وزن فى ذلك العصر ، إلى جانب الدقة البالغة فى تطبيق شريعة الـكفاية والعدل فى المجتمع الإسلامى .

والحديث عن الشورى أو الديمقراطية السـياسية المثالية التى وجهت إليها شريعة محمد (ص) وتمثلت بوضوح فى عصر الراشـدين ، يعطف بنا شطر الديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية الاقتصادية ، أو بعبارة العصر « الاشتراكية » و « التطبيق الاشتراكى » .

لقد بزَّ الخلفاء الراشدون ، فى هذا المجال ، جميع المذاهب التى نادت ، وما زالت تعمل جاهدة على مناهضة الفروق ، والطبقية والحرمان ، والسلبية فى المجتمعات العالمية ، لتصل إلى عدالة التوزيع لمقدرات المجتمع البشرى .

والذين يطالعون سيرة الرسول (ص) وسيرة الراشدين من بعده سيؤمنون بأن النبي محمداً (ص) إمامٌ مثاليٌّ للاشتراكية الحديثة فى أضوء صورها، وأوسع مجالاتها وكذلك جميع أصحابه .

والجمل الموجزة التى نقدمها اليوم لمقومات الحضارة الاسلامية ، ليست إلا دراسات ممهدة لبحث أوفى لمظاهر وأصول تلك الحضارة فى شتى فروعها، نسل الله سبحانه أن يوفق لإخراجه قريباً . والله ولى التوفيق .

المقومات الأساسية لحضارة الإسلام

« ١ »

قبل الحديث عن مقومات الحضارة الإسلامية فى الصدر الأول ، نرى أن نشير إلى وصف موجز ، صاغه بعض المورخين والكتاب المتأخرين ، لهذه الحضارة ، وأهم مقوماتها ومظاهرها .

يقول سيد أمير على ... طرأ تغيير هام على الشعب العربى خلال الثلاثين سنة التى عاشت فيها الجمهورية (عصر الراشدين) إذ لم تكن حياة العرب الاجتماعية عندئذ قد استقرت نظمها . ولكنهم منذ ذلك الحين شرعوا يكونون لهم ذوقاً خاصاً ، ساعدهم فيما بعد على ترقية تلك الحياة .. فشيدت المبانى الجميلة ، وازدانت بها المدن الكبرى كما أصبحت الحياة محفوفة بالترف والفخامة ، وأطلق على العجم والترك والروم ، الذين اعتنقوا الإسلام ، اسم الموالى عقب انتسابهم إلى الأسر العربية ... ولما كانت قواعد الإسلام ومبادئه تميل إلى الديمقراطية ، ذات الصبغة الاشتراكية فقد أصبح الناس جميعاً ، غنيهم وفقيرهم ، متساوين أمام الله ، وأصبح الحكام والولاة حماة للشعوب من الاستبداد والظلم.. أما الإيرادات فلم تكن تنفق لمنفعة الأمراء والحكام أو لإثرائهم ، وإنما كانت تستخدم لخير المسلمين جميعاً ، كما كانت الزكاة تجبى من الأغنياء وتنفق فى وجوهها المشروعة .

وفى صدر الإسلام لم يكن يخشى على بيت المال من الغصب والنهب ، إذ كان يوزع على الجنود والفقراء كما كانت الغنائم توزع بالسوية على الصغير والكبير والحر والعبد ، والذكر والأنثى.. لعدم وفرة الأموال فى تلك الفترة ، وعدم كفايتها لغير الضرورة . ولذلك لم تمسك السجلات فى عهدى الرسول (ص) وأبى بكر لعدم الحاجة إليها .

ولما كان عهد عمر ، وكثرت الإيرادات ، وتعددت مصادر الفيء ، رؤى استبدال هذا التقسيم برواتب معينة ، فخصصت الرواتب من الايرادات العامة ، لكل فرد من المسلمين الذين لم يقتصر ذلك عليهم وحدهم ، بل كان لأهل الذمة منه نصيب كبير ... كذلك لم تقرر رواتب ملكية أو مصروفات استثنائية .. ولم يفكر النبي (ص) ولا خليفته عمر ، فى تقسيم الأراضى ، إذ كان ذلك يؤدى إلى إفقار الأسر ، ومن أجل ذلك منع تقسيم أراضى المدينة كما أن الأراضى الأميرية فى البلاد المفتوحة ، لم توزع على الجنود . بل بقيت ملكا للدولة على أن تقسم إيراداتها بعد سداد المصروف على مستحقيها .

ويقول الدكتور هيكل : « إن القواعد الجديدة التى جاء بها الإسلام لتنظيم السلوك والمعاملات . كانت مقدمة لتنظيم سياسى ، لا مفر من استقراره . وفى مقدمة القواعد التى تأثر بها النظام السياسى للاسلام ، الإيمان بالله ، وبأنه وحده له العبادة ، فقد أدى هذا الإيمان إلى تقرير مبادىء المساواة والأخاء والحرية فالمؤمنون جميعاً سواسية أمام الله . تجرى عليهم جميعاً سنته بالقسط ، ولا فضل لعربى على عجمى ، وهم لذلك إنما يجزون بأعمالهم والناس أحرار فى كل شيء . أحرارا فى العقيدة نفسها ، فلا إكراه فى الدين ، ولا إيمان إلا بعد اقتناع بالحجة والموعظة الحسنة .

ولئن لم يضع الإسلام للحكم نظاما مفصلا ، فقد وضع مبادىء أساسية للحضارة الإنسانية من شأنها أن تتطور على الزمن . . . والأساس الإسلامى للحضارة روحى يدعو إلى حسن إدراك الانسان لصلته بالوجود ومكانه منه ، وفى البلوغ بهذا الإدراك حد الإيمان ، وعلى هذا الأساس الروحى يجب أن ينظم الانسان سلوكه فى الحياة ، على مبادىء الأخوة والمحبة والبر والتقوى ، وعلى أساس هذه المبادىء كذلك ، يجب أن ينظم الحياة الاقتصادية للجماعة الإنسانية .

كيف نستخلص من هذه المبادىء التى وضعها الإسلام ، أساساً للحضارة مما يمكن أن يكون نظاماً للحكم ، صالحا لتحقيق أغراضها . . نستخلص هذا النظام من تاريخ الاسلام نفسه . لقد دعا الاسلام إلى وحدة العقيدة على أساس بسيط كل البساطة ، يتقبله العقل الانسانى فى مختلف الأمم والأزمان.. ففكرة التوحيد من البساطة والوضوح بحيث يدعو إليها كل عقل وكل جنان .

هذا هو المبدأ الأول ، للحضارة الاسلامية . . والمبدأ الثانى ، هو ثبات سنة الكون ، وقد وردت آيات كثيرة تنص على أنه لن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا . . وقد انتهى العلم فى عصرنا إلى تقرير هذا المبدأ فى أ ر الأحياء وغير الأحياء . . إننا لو استطعنا أن نبلغ من طريق العلم معرفة شئون الأحياء بالدقة التى تعرف بها مواقيت كسوف الشمس وخسوف القمر ، لأتيح لنا أن نقرر على أساس علمى ثابت مصير الانسانية بعد قرون وقرون .

وحدانية الله ، وثبات سنته فى الكون ، يقتضيان المساواة بين الناس . . وهذه المساواة هى المبدأ الثالث من مبادىء الحضارة الاسلامية ، وعلى أساسها أقام العرب مجتمعهم ، وصلاتهم بغيرهم من الأمم . . هذه المبادىء وما يتصل بها من قواعد الخلق تعتبر فى نظر الإسلام ، واجبات وثيقة الاتصال بالايمان بالله ، ويراها فروضا لا يصح للانسان أن ينزل عنها أو يتهاون فيها . . هى حقوق إزاء أمثاله ، وواجبات عليه ازاء بارئه جل شأنه . . هو خالقه ليستمتع بها ، واستمتاعه الصحيح بها ، عبادة لله ، فإذا هو نزل عنها أو قصر فيها ، كان مسئولا أمام الله فى هذه الدنيا ، وكان مسئولا أمامه فى الآخرة .

والاسلام يقر التملك ، والأسرة ، والميراث ويقررها . ويرى بعضهم لذلك أنه يتفق فى اتجاهه الاقتصادى مع المذهب الفردى . وهذا خطأ . فالإسلام حين يقرر التملك والأسرة والميراث ، يجعل فى مال ذى المال ، حقا معلوماً للسائل

والمحروم ، ويجعل فر ا على الجماعة أن تكفل للفرد حياته . . وهذه الكفالة تبدأ من يوم يولد ، وتظل إلى يوم يموت ، وهي لا تقف في حدود القوت لمن لايجد القوت ، بل هي تتناول حاجات الفرد الانسانية على اختلاف صورها . . فمنذ عهد النبي (ص) كان تعلم الناس وتفقههم في دينهم بعض واجبات الجماعة للفرد . وأمر الصحة كأمر التعليم .

ونظرية الواجب أساسية في النظام الإسلامي ، وهي مستمدة من مسئولية الإنسان أمام الله ..والجماعة الإنسانية مسئولة أمام الله كمسئولية الفرد سواء بسواء .

هذا وبعد أن يسهب الدكتور هيكل في شرح الواجب يقول: وتقرير نظرية الواجب على هذا النحو ، يجعل ما نسميه في التفكير الحديث حقوقاً . بعض هذا الواجب علينا أفراداً وجماعات ، ولهذا لا تملك النزول عنه. فالحرية العقلية واجب والدفاع عن حرية الغير واجب ، ورسول الله يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره وحب الخير واجب ، وفعله واجب ، وتضامنه مع الجماعة واجب .

وتحت عنوان « أسس الاشتراكية الاسلامية» يقول ــ رحمة الله عليه ــ : الاشتراكية الاسلامية تناقض الشيوعية ، وتخالفها إذ تعتبر الملك والأسرة والميراث نظماً أساسية في الحياة الاجتماعية لكنها ترى الغنى الفاحش مصدر طغيان يخشى خطره ، لذلك عملت على الحيلولة دون قيام الملكية الكبيرة على أساس غير المجهود الذاتي ، فحرم القرآن الربا ، وجعل الميراث وسيلة فعالة لتفتيت الملكية ، ثم فرض للفقراء حقوقاً على الأغنياء ، وجعل هذا كله من فرائض الإيمان ،فكفل بذلك للاشتراكية الإسلامية القوة والبقاء .

ويستطرد بعد ذلك فيقول : على هذا الأساس ، كانت الزكاة ركنا من أركان الاسلام ، وكانت الصدقة فريضة من فرائض الايمان ،والزكاة لها قواعدها والوالي ينظمها حسب مقتضيات الوقت كما تنظم الحكومات الضرائب ، ويقتضيها

الناس بقوة الشرع وسلطانه ، فإذا نكل الناس عن أدائها أكرهوا عليه ، وامتناع العرب عن أداء الزكاة هو الذى أدى إلى حروب الردة فى عهد أبى بكر . أما الصدقة، ففريضة تعبدية أوجبها الإسلام على كل قادر عليها لخير من هو فى حاجة إليها، وجعل جزاءها عند الله كجزاء الإيمان ، وذلك قوله تعالى «انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين .. وقوله جل شأنه . . إنما الصدقات للفقراء والمسكين » إلى أن يقول سبحانه « فريضة من الله والله عليم حكيم » والأحاديث الواردة فى الصدقة متفقة مع ما جاء فى كتاب الله تعالى ، وقوية غاية القوة .

تحديد الثروة :

إن نزعة الإسلام إلى تحديد الثروة، ورغبته عن الثروات الضخمة ، واضح فى القرآن كل الوضوح . من ذلك قوله تعالى «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ومنه قوله تعالى : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم » وهذه كلها ميول اشتراكية واضحة . على أن أشد ميول الإسلام الإشتراكية ، اتفاقاً مع ما تنادى به بعض المذاهب الإشتراكية ، المعتدلة فى عصرنا الحديث ، جعله العمل الأساس الأول لتوزيع الثروة ، واعتباره رأس المال ، وسيلة للعمل ، وليس عُنصراً قائماً بذاته تترتب لصاحبه ثمرات كالتى تترتب للعامل ، أو لمالك الأرض وغير الأرض من أدوات الإنتاج . . هذا الاعتبار هو السبب الجوهرى ، لتحريم الربا ... إذ معناه اشتراك رجل لا يعمل فى ثمرة عمل يقوم به غيره .

ومن الملاحظ على رأى المرحوم الدكتور هيكل ، أنه يجعل الزكاة التى من أركان الإسلام شيئاً آخر غير الصدقة ، ويقرر أن آية التوبة «إنما الصدقات — الآية » وكل آية أو حديث فيه كلمة صدقة لا تدل على الزكاة ، لأن هـذه منظمة بقواعد خاصة ، ولها وضعية خاصة بين أركان الدين . أما الصدقة بهذا

الاسم ، فإنها فريضة على كل من يملك ما يزيد على كفايته ، فإن لم يؤد هذه الفريضة كان آثما ويسأل أمام الله ، ولكنه فيما يبدو لا يقاتل على أدائها، وإنما يطلب منه بالحكمة والموعظة الحسنة .

وإننا لنرى أن هذا الاجتهاد الواعى ، والفهم الراشد ، فيه حل الكثير من مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية . لو علمه الناس وآمنوا به .

ومع ذلك ، فإن من الخير أن يبحث هذا الموضوع فى أناة وتبصر ، لأن المشهور لدى الناس جميعاً أن الصدقة ليست مفروضة، ولا حتى سنة مؤكدة وإنما هى من نافلة التطوع فمن تصدق فيها وله أجره ، ومن لم يتصدق فلا إثم عليه .

أما الدكتور هيكل فإنه يرى أن الصدقة ـ غير الزكاة ـ فريضة ، ويستدل بآية التوبة « فريضة من الله » مع أن بعض الفقهاء والمفسرين ، يحمل الصدقات فى تلك الآية على ركن الزكاة ويجعل مصارفها ما ورد فى تلك الآية ، ويستدل كذلك بأحاديث مسندة إلى بعض الصحابة بل إلى رسول الله نفسه ، تفيد أن الصدقة والزكاة قد يتفقان وقد يختلفان. بل لعلنا نظن أن شأنهما فى ذلك شأن كلمتى الايمان والاسلام ، أعنى أنهما إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا .. والمسألة — إذن — فى حاجة إلى دراسة مركزة حتى يستبين هذا الأمر الخطير .

وسنعود لبسط مفهوم الاشتراكية الاسلامية، التى أشار إليها السيدان / أمير على ، وهيكل كما سوف نفصل أسلوب الراشدين فى تطبيقها ، وبيان المراحل التى حدث التطبيق فيها، ثم مقارنة أسلوب العرب المسلمين، بأساليب الآخرين .. وذلك بعد الانتهاء من عرض النظم السياسية والادارية اثر إثبات آراء مؤرخى الحضارة ، استكمالا لما بدأناه .

ويقول أرنست رينان: إن القرآن هو أساس الإسلام، وقد احتفظ بكينونته القديمة

بدون أن يعتريه أدنى تبديل أو تحريف ، وعندما تستمع إلى آياته وما فيها من فصاحة وسحر تأخذك رجفة الوله والوجد، وبعد أن تتعمق فى دراسة روح التشريع المنطوية عليه بعض آيات الكتاب لا يسعك إلى أن تُجِلَّ هذا الكتاب الإلهى وتقدسه وقد برهنت البحوث العلمية والتاريخية التى قمت بها، على أنه لا صحة مطلقا ، لما اتهم به النبى ﷺ من كذب وافتراء ، مصدرها بعض التباين فى الأعراف والتقاليد القومية ، والتى أراد بعض أدعياء العلم مثل فولتير وغيره ، أن يستغلوها لتعصبهم ومرض نفوسهم ، كقولهم أن محمداً كان يريد السيطرة والسيادة ؟ ؟ .

لقد أثبتت الوثائق التاريخية وشهادات كبار علماء التاريخ ، عكس هذه الاتهامات الوقحة إذ كان النبى محمدا ﷺ بريئاً من روح الكبر وكان متواضعاً صادقاً أميناً . لا يحمل الحقد لأحد وكانت طباعه نبيلة ، وقلبه طاهراً ، رقيق الشعور .

ويستطرد أرنست رينان فيقول : لم ينصف المؤرخون الأوربيون، الإسلام باتهامه بقسوة الجهاد والفتوح ، مع أن هذا الجهاد كان ضرورياً لنشر العدالة الاجتماعية التى تزدان بها تعاليم الإسلام المشرقة ؛ ونضرب مثلا لذلك لعلمائنا المؤرخين الذين اتهموا الإسلام بالتعصب ، وحب القتال ، وحجب المرأة ، فنقول : —

ترى . كيف ولماذا قلب نصارى سوريا ، ظهر المجن ، لأباطرة الرومان المسيحيين والتجئوا إلى حمى أبى عبيدة بن الجراح ، القائد المسلم ، وانضموا إليه فى قتال الرومان لطردهم من الديار السورية . ذلك لأنهم تذوقوا العدالة التى جاء بها الإسلام ، وفضلوها على الظلم الذى كانوا يعانونه من المسيحيين الرومانيين.

إن الإسلام خال من الخرافات والأساطير ، فالمجهود العلمى ، والمنطق بارزان فى معظم التقاليد الإسلامية ، فإذا درست المذاهب الأربعة (الحنفية والمالكية ،

والشافعية والحنبلية) لا تجد غير دساتير أخلاقية متينة ، وقواعد تعبدية منسجمة، يستهدف تحرير الحق من شوائب الباطل . وما البروتستانتية التى نشر المصلحون المجددون (لوثر وأتباعه) لواءها سوى صورة لتقاليد البساطة الاسلامية ، سواء فى طقوس العبادة ، أو فى استئصال عادات الاغريق الوثنية .

وإذن فلا يحق لأوروبا أن تلجأ إلى طبع الأديان غير المسيحية بطابع حضارتها وأن توسعها طعناً وتزييفاً . إن محمداً العظيم ، جاء بشريعة انبثقت عنها مدنية عالمية لا ينبغى إلى جانبها ، إتهام أتباعها المتأخرين بالجمود ، لأن فترات الازدهار والانحطاط مرت على جميع أمم الأرض بما فيها أوروبا المتعجرفة ، ومايدرينا ، فقد يعود العقل الاسلامى الخلاق ، الموهوب ، إلى إبداع مدنية أرقى من زميلتها التى اندثرت ، بل مايدرينا ما عساه يكون بعد قليل للمدنية الأوروبية الراهنة ، التى هى وليدة التمدن الاسلامى القديم .

ويقول المرحوم الشيخ محمد عبده ، تعليقا على كلمة الفيلسوف الفرنسى رنان تالله لو انبريت أنا بنفسى للدفاع عن الاسلام ونبيه لما استطعت أن أجيده ، كما أجاده هذا العبقرى الفرنسى .

ونجتزىء بما أسلفناه من آراء المفكرين فى وضعية الحضارة الاسلامية ، لنحدثكم — فى إيجاز مناسب — عن تلك الحضارة ، ونبدؤه بالخلافة ونظام الحكم :

الخلافة كنظام سياسى :

إذا اعتبرنا كلمة « خلافة » عنوانا لنظام الحكم الاسلامى ، فيجب أن يكون هذا النظام مرتكزاً على الشورى ، وبإرادة حرة من جميع المسلمين . كما يجب أن يكون من يجرؤ على ترشيح نفسه لتلك الرياسة العامة على العالم الاسلامى

فوق مستوى الشهوات والشبهات ، والانفعالات إلى آخر ماشرطه الباحثون الإسلاميون .

أما إذا نظرنا إلى هـذه الـكلمة « خلافة » نظرة فاحصة ولو أنها تخالف الأخطاء المشهورة والمسطورة فى جمهرة الـكتب التاريخية ، فإننا لابد لنا من استبعادها كنظام ، مع الإبقاء عليها كلقب جديد لاينبغى أن يسعد بالتمتع به إلا شخص واحد فقط بعد محمد رسول الله ﷺ ، وهو الصديق أبو بكر خليفة النبى ﷺ ، وذلك ما ارتضيناه ، ونراه .

وعلى أى حال ، فإن رياسة الدولة الاسلامية ، الذى يقال له « خلافة » — فى نظر البعض — يعتبر نظاما جمهوريا بالمصطلح الحديث ، كما يعتبر كذلك نظاما سياسيا ديمقراطيا نظيفاً ، وأقصد بقولى « نظيفا أو سليما » أنه خال من كل شوائب الضغط والاغراء ، وصادر عن إدارة حرة من ضمائر الجماهير اعنى عن الشورى. وهى وضع الأمور على بساط البحث والمناقشة، ثم الانتهاء الى ماترضاه الأمة ، وجماهيرها ويستوى فى ذلك ، أن تجتمع كل الأمة ، أو ممثلوها فى حرية واختيار — فالمهم هو أن تتحقق الشورى ، وينعدم الاستبداد ، والاستغلال بشتى صوره ، حتى يكون الحـكم ديمقراطيا أعنى صادراً عن رأى الجماهير .

على أن الملاحظ فى « الديمقراطية » التى قبستها الأمم عن الفلسفة الاغريقية ثم تداولت استعمالها الدول الحديثة أنهاقاصرة على النواحى السياسية ، ولم تستعمل حتى الآن ، كتقويم للأمور الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية إلا فى بعض الدول والعصور .

الشورى جامعة :

أما كلمة الشورى ، فإنها كلمة جامعة لـــكل الشئون ، وذلك هو الذى تصرح به الآية الـكريمة «وشاورهم فى الأمر ــ وأمرهم شورى بينهم» فالشورى

عامة ، تستعمل فى السياسة والاقتصاد ، والمجتمع ، وليست مقصورة على النظم السياسية لأن الأمر موضوع التشاور لايختص بالأمور السياسية وإنما يتناول كل أمر

على أن توكيد الاسلام لواحدنية الله ، وجعل الايمان بها جواز الدخول فيه هو أساس نظرته العلمية ، وهو كذلك أساس روحه الديمقراطية ، فكلمة العقل تتطلب من كل الكائنات العاقلة ، نفس السلوك فى نفس الظروف ، وبقدر مايكون الناس عقليين ، يكونون سواسية عند الله ، انه لافرق بين انسان وآخر من حيث الانسانية ، ولافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . وهكذا أكد الإسلام معنى المساواة النظرية والعملية . وهذا فى ذاته نصر باهر سبق به الإسلام ماجرت عليه معظم الأديان الأخرى [1] .

ومن الوجهة النظرية نجد أن كل دين يعترف بأن الله رب الناس ، وأن الناس أخوة ، غير أنه من الناحية العملية ، ظل هذا المبدأ مادة من مواد العقيدة لايكاد ينسحب على المعاملات اليومية فى الحياه ، فإن الصراع على أساس اللون والتمييز على أساس المولد والمركز والثروة ، قد أضعف من مبدأ الأخوة وكاد يطمس معالمه .

ولكن الإسلام باعتراف أعدائه ، حطم التمييز العنصرى والقبلى بين المسلمين فلافضل فيه لشريف قرشى على عبد حبشى ، لافى الصلوات وحدها ، بل فى المعاملات الاجتماعية اليومية . لقد قال الفيلسوف برناردشو عبارة فيها كثير من الحق . قال « إن المحك الصحيح للديمقراطية هو حرية التزاوج »وقد يستطيع الفرد فى أداء العبادات أن يتخذ موقف المساواة مع غيره ، كما يستطيع أن يتظاهر بمظهر المساواة فى الحياة السياسية والاقتصادية وحتى المشاركة فى الطعام ولكن كل هذا قد يكون مجرد عرض ظاهرى فى مناسبات خاصة أما حرية التزاوج فهى المحك الذى لايخطىء .

---

(١) انظر همايون كبير فى كتابه « العلم والديمقراطية والإسلام »

الدعوة إلى التجريب سبب آخر من أسباب إصرار الإسلام على المساواة بين الناس أمام الله ، وفى المجتمع ، ذلك لأن تعلق أنظار الناس بجنة عرضها السموات والأرض ، يمكن الإنسان من أن يحتمل أو يغضى عما قد يواجهه فى حياته من هوان . ولكن إذا كانت الحياة الراهنة هنا ذات أهمية عظمى، فإن من الضرورى أن يدرك الفرد قيمته فى هذا الكون ، وهذا أيضاً مايفسر خلو الاسلام من طبقة كهنوتية .

وفى معظم الأنظمة الدينية والاجتماعية القديمة ، كان رجال الدين يعملون كوكلاء عن الله ، وككل الوكلاء فى الحياة العلمانية ، كانت لهم سلطة تربو كثيراً على قيمة الخدمات التى يؤدونها .

لقد كانوا سدنة العلم ، وهم وحدهم العليمون بالطقوس السرية الضرورية لاسترضاء القوى الخفية التى تتحكم فى مقاديرنا . . كان لرجال الدين سلطة ولم تكن عليهم مسئولية . و إذا كانت السلطة تفسد صاحبها ، فإن السلطة بغير المسئولية ، تكون أكثر إفساداً وإضرار ، فسلطة رجال الدين ، قد جعلتهم حكومة أثرياء ، طابعها الرجعية والطغيان . والاسلام باستغنائه عن طبقة رجال الدين ، كطبقة لها نفوذها وسلطانها ، قد رفع من شأن الفرد وقيمته ، وحرره من صورة تعد من أبشع صور العبودية الفكرية .

وهذه الدعوة إلى الديمقراطية ، قد وجدت تعبيراً حيا عنها فى عدة نظم جديدة استحدثها الاسلام ، وكان أول هذه النظم وأبرزها ، هو الاعتراف للمرأة بالشخصية القانونية ، فجعل لها الحق فى التصرف والتملك .

وإذا كانت الشرائع السابقة ، قد منحت المرأة مركزاً أدبيا وروحيا رفيعا فإن الوضع الاقتصادى — وهو أساس الوضع الاجتماعى كله . لم تستمتع به المرأة

إلا فى ظل الاسلام ؛ وبذلك صححت الوضعية القانونية للمرأة فى المجتمع البشرى .

وكذلك كان الاسلام ، إذ وجه ضربته إلى طغيان الامتيازات التى استأثر بها الرجل ، عونا للديمقراطية فى إحراز نصر جديد فى مجال المساواة بين الجنسين .

أسلوب الاسلام فى تأكيد التضامن الاجتماعى :

لقد أوضح الاسلام ، أن أخطر شىء على التضامن الاجتماعى هو تركيز الثروات فى أيد قليلة ، قد ينجم عنه إثارة السخط والقلق فى المجتمع ، بسبب سوء التوزيع الذى يترتب عليه عادة تقسيم الأمة إلى طبقات ، وإن لم يتدارك هذا الخطر فى الوقت المناسب فانه سوف يتحول إلى تمييز متوارث بين فئات المجتمع .

وثمة طريقتان يمكن بهما منع هذا التحول . إحداهما إلغاء الملكية الفردية إلغاء تاما ، ونزع ما فى حوزة الناس من أملاك ، وهذه هى الطريقة التى سلكتها الشيوعية نظريا وتطبيقيا .

أما الطريقة الثانية ، فهى الابقاء على الملكية الفردية ؛ مع وضع قيود على تكديس الثروة ، والتأكد من أنها لا تتركز فى ايد بذاتها بل يتداولها المجتمع باستمرار ، وقد اختار الاسلام الطريقة الثانية وشرع من القوانين مايقضى على الاحتكار ، ويفرض التداول وكان من أهم هذه التشريعات ، نظام الميراث فهو يحد بطريقة لاتخطىء من تفاقم الدخل غير المكتسب ، وبالتالى يؤدى إلى الابقاء على مرونة النظام الاجتماعى عن طريق التداول المستمر لثروة الأسرة .

كذلك فقد كانت الزكاة من أهم أركان الاسلام ، وهى كذلك من أنجع السبل فى تحصين بقاء التداول فى الأموال والمقومات ، وفى فرض الاشتراكية الاقتصادية فى كل

رؤوس الأموال التى تنطبق عليها ضوابطها . لأن الشعور بأن المجتمع صاحب حق فى الثروة التى فى يد كل فرد فيه ؛ يدعم التكافل الاجتماعى ، وبالتالى يحد من شرة التكالب على حيازة الثروات حتى من طرقها المشروعة .

على أن فكرة إسهام الأغنياء فى أعمال البر والخدمات الاجتماعية فكرة قديمة . والجديد فى الزكاة أنها اجبارية ، ومحدودة المقدار بنسب معتدلة جداً إذا قورنت بالضرائب التى تفرضها الدول المعاصرة .

وإذا نظرنا إلى هذا النظام ، ونظرنا فى الوقت نفسه إلى قانون المواريث ، وكانت نظرتنا إليهما من حيث الروح . لا من زاوية النص الحرفى فحسب، وجدنا أنهما يحولان دون تركيز الثروة فى دوائر الأسرة ويحرران الممتلكات من اعتبارات المولد والمصالح الخاصة .

لقد أومأنا فيما سبق — إلى حرية التزاوج التى دعا إليها الاسلام كل المؤمنين وهى محك الديمقراطية — كما قال برنارد شو — وضمان لتطبيقها فى المجتمع الإسلامى . وكذلك كانت فكرة الاسلام فى الزكاة والميراث إسهاما لتحقيق نفس الهدف ونفس الغاية

على أننا لا نستطيع أن نتجاهل مسألة إلغاء الأسماء القبلية والعائلية وإقامة الأخوة الانسانية بدلها، تحقيقا لمعنى المساواة داخل المجتمع.. ان الظلم فى توزيع الثروة يميل دائما إلى أن يأخذ شكل طبقات مختلفة ولكن هذا الاتجاه يضعف ، بل قد يقضى عليه ، إذا نحن أزلنا المظاهر التى تؤدى إلى استمرار وجود الفوارق ،فاسم الأسرة شعار لكبريائها ولا يكاد انسان ينطق ـ عادة ـ باسم الأسرة حتى يتحدد وضع الفرد فى المجتمع . لا على أساس خصائصه الشخصية الذاتية ، ولكن على أساس المركز الذى حددته له صدفة الانتساب إلى أسرة بذاتها ، تتميز بوضع

خاص فى النظام الاجتماعى . فإلغاء الأسماء القبلية والعائلية ، والألقاب المصطنعة فى العصور الحديثة وملحقاتها ، يقضى على مثل تلك الشمارات ، ويزيد من الاهتمام بذاتية الفرد .

إن حل مشكلة التفاوت الاجتماعى والاقتصادى ، ينبغى أن يكون بروح العلم وروح الدين معا ، وبهذا يمكن تقرير الديمقراطية فى المجتمع البشرى .

ولعل من البديهيات أن الإسلام قد بدأ دعوته على أساس العلم « إقرأ باسم ربك » ثم أردف ذلك بتقرير الديمقراطية فى أول مقومات شريعته « لا إله إلا الله » .

وأخيراً فصل المنهاج السلوكى الذى ينبغى أن يأخذ به الفرد وتطبقه الجماعة وبهذا قامت حضارة الاسلام على ركائز العلم والديمقراطية وجدية السلوك

ولاية العهد :

الدولة الاسلامية فى أصل نشأتها — لم تقم على الغلب والتملك ، ولم تكن وليدة الضغط أو ناشئة عن الإرهاب ، أو التسلط بالأنساب والأحساب ، والطبقات ولكنها تأسست على دعائم الحرية ، والأخاء والمساواة ، ودراسة الكيفية التى لابست ظروف وجودها يؤكد هذه الحقيقة .

فقد هاجر النبى والمؤمنون إلى يثرب « المدينة » فى أوائل القرن السابع الميلادى فراراً من اضطهاد أهل مكة والمشركين ، فاستقبلهم أهل المدينة بالحفاوة والابتهاج ، وتسابقوا فى إكرامهم وايثارهم على أنفسهم .

وكان الرسول (ص) قد أكد الروابط المشتركة بينهم فى وحدة العقيدة برباط المؤاخاة الذى يجعل من كل اثنين من المهاجرين والأنصار أسرة واحدة وبهذا تم اندماج المؤمنين من المهاجرين وأهل يثرب فى جامعة إسلامية واحدة .

كذلك أصدر الرسول (ص) بيانا سياسيا ، أوضح فيه كفالة الحريات العامة ، وتطبيق مبدأ التكافؤ ، بين المواطنين فى السلم والحرب ، وكان ذلك كله برغبة الجميع ورضاهم ، وكامل حريتهم ومشورتهم .

بل نلاحظ أ كثر من هذا ، وهو انضمام بعض يهود المدينة إلى الدولة الجديدة برياسة محمد رسول الله ، واستعدادهم للمشاركة فى الدفاع عنها بأموالهم ، ونصت الوثيقة التأسيسية على ذلك . وبهذا الشكل نشأت دولتنا الاسلامية .

وإذن فلم يحدث أى اعتراض من الجماعات التى تشكلت منها دولة الإسلام ، بل كان الحب والشورى ، والاخاء شعار الدولة ، والعروة بين المؤسسين لها ، والداعين إليها . . ومن الأمور الهامة ، التى ينبغى عدم إغفالها ما قررته الوثيقة التأسيسية من تأكيد المساواة والعدالة بين جميع المواطنين ، على اختلاف عقائدهم وتقاليدهم وفق مواد الوثيقة ، وبنودها .

على هذا الأساس ، وبهذا الشكل الديمقراطى السليم ، قامت الدولة الإسلامية وأخذت مكانها ومكانتها ، ووضعت التشريعات والقوانين المناسبة ، على مراحل متدرجة جاوزت عشرة أعوام ، حتى استكملت جميع المقومات المعتبرة فى العرف السياسى وأصبحت دولة ذات سيادة حقيقية ومطلقة على جميع سكانها وأراضيها ومقدراتها كما أقامت علاقات سياسية واقتصادية وثقافية مع جيرانها ، تحكمها مبادئها التى قامت عليها من الحق والعدل ، والتعاون .

وإذ كان يحكم نظام هذه الدولة . التكافؤ التام بين أفرادها . فلم يكن فى دستورها امتيازات أو فروق ، أو سيادة لعنصرية أو إقليمية ، بل كانوا سواسية كأسنان المشط لافضل لأحد منهم على الآخر .

ومن ثم فقد كان أمرهم كله شوريا ، يختارون حكومتهم بكل حريتهم ، وجماهيرهم هى أهل الحل والعقد فى دولتهم ، ولا يملك فرد منهم أن يلزمهم بشىء لا يتفق مع إرادتهم .

هذه هى الأسس العامة التى قامت عليها دولة العرب المؤمنين فى صدر الإسلام ، وقد سلك سبيلها الراشدون من خلفاء النبى (ص) وظلت الشورى معمولا بها إلى عهد معاوية رأس الدولة الأموية ، إذ قام بعرض اسم ابنه يزيد على الأمصار ، ولكن زياداً واليه بالعراق نصحه بالتريث والأناة ،فعدل معاوية أول الأمر ، ولكن بعد وفاة زياد ، وتحت تأثير بعض رجاله . عاود الدعوة لأخذ البيعة لابنه؛ وتم له ما أراد ، وبذلك بدأت الشورى تتقلص من المجال السياسى فى الدولة الاسلامية .

ولسنا بصدد مناقشة معاوية وبطانته فى هذا التقليد الجديد الذى أدخلوه فى تنصيب رئيس الدولة فى الإسلام . فقد أوضحنا ذلك مفصلا فى موضعه .

ولاية العهد فى العصر الأموى:

على أن هذا التقليد الذى حدث فى عهد معاوية . سار على هديه جميع خلفاء الأمويين مع تعديل أملته الظروف ، ولكنه لتدعيم مركز ولاية العهد وتفاقم شررها . وليس لتهذيبها أو الحد من ضرواتها

ولنأخذ مثلا مروان بن الحكم . فقد اختار ولى عهده ، عبد الملك بن مروان ابنه ، وهذا بالمثل اختار الوليد وسليمان ابنيه ، وهكذا نجد جميع أمراء الدولة الأمويه يختارون أولياء عهودهم ، ما عدا نفرا قليلا منهم ، وهم معاوية الثانى ، ويزيد الثالث ، ومروان بن محمد آخر خلفاء الدولة ، وذلك لظروف خاصة ، اقتضت ذلك .

ومما يستحق الذكر ، أنهذه السابقة أصبحتسنة فى عصرالعباسينوغيرهم من الدول التى حكمت فى العالمين العربى والاسلامى ، وبذلك قام أصحاب الأقلام ، والانتهازيون بصياغة الأحكام ، وإقحام النصوص لإلباس هذه الأوضاع ثوب الشرعية مع أنها مصادرة للديمقراطية النظيفة التى أوصى بها محمد (ص) ، وطبقها خلفاء النبى الراشدون .

وكانت الأمور التى تناط بالخليفة هى :

١ — تعيين حكام الأقاليم .

٢ — محاسبتهم عن كل ماينسب إليهم .

٣ — تعيين القضاة .

٤ — تعيين جباة الأموال .

٥ — تعيين قائد الجيش .

٦ — تعيين والى الصلاة .

وكان الخليفة أحياناً يفوض إلى الحكام الاداريين ،تنظيم أقاليمهم حسب ظروفها وبذلك كانوا يقومون بإسناد الوظائف إلى رجال يختارونهم ، ثم يخطرون الخليفة بذلك الاختيار للموافقة عليه .

الدواوين:

يعتبر عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أول حاكم سياسى فى الاسلام شرع فى إنشاء الديوان ، وسجل فيه جميع أصحاب الرواتب وقد ظل تنظيم عمر سائداً مع تعديلات وزيادات اقتضتها ظروف التطور ؛ وقد أشرنا إلى ذلك فى القسم الأول .

أما فى العهد الأموى ، فقد أصبحت الدواوين أربعة ، هى :

(١) ديوان الخراج ، ويشبه وزارة الخزانة فى الوقت الحاضر ، وإيراداته العامة هى :

١ — الخراج ، وهو عائد الأراضى الزراعية التى يعمل فيها الفلاحين، بعد خصم نفقاتها وكفايتهم .

٢ — الزكاة ، وهى نسبة معينة تجبى من الأموال والركاز والمقومات وما إليها :

٣ — الجزية ، وهى ضريبة على الذميين المحاربين الذين دخلوا فى حماية الدولة.

٤ — الفىء ، وهو ما يؤخذ من الأعداء بدون قتال ٠

٥ — العشور وهى الضرائب التى تؤخذ من التجار الأجانب عن الدولة ، نظير تصريف سلعهم فى ربوعها .

(ب) ديوان الخاتم ، وهو الذى كان يختص بإصدار القرارات ، والأوامر إلى الولاة ، ويهيمن على شئون جميع الولايات ، كما كان يختص بختم جميع الرسائل الصادرة إلى الولايات وغيرها وكان محل عناية الخلفاء الأمويين ٠

(حـ) ديوان الجند . وكان مختصا بحصر جند الولايات، ورواتبهم، وجميع السجلات الخاصة بشئون الجيوش ، ويشبه وزارة الحرب فى وقتنا الحاضر .

(د) ديوان المستغلات ، ويختص بشئون الإيرادات المتفرقة التى تجبى إلى الخزانة العامة (بيت المال) من مختلف المرافق ، مثل ضرائب الأسواق ، والمبانى وما إليها .

وكانت الخدمة العسكرية إجبارية على جميع العرب ، وكان الجندى وهو فى ميدان القتال يتقاضى راتبا أكثر من راتبه إبان السلم . وسنعرض فى الحديث عن الادارة بتفصيل واف .

توحيد العملة :

ظلت العملة الذهبية والفضية ومفرداتهما ، على حالها ، بدون تغيير طوال عصرى النبى (ص) وأبى بكر .. وفى عهد عمر ضرب الدراهم على نقش الكسروية . وشكلها بأعيانها وأضاف إليها بعض كلمات مثل «لا إله إلا الله» والحمد لله ، إلا أن الوزن بقى على حالته .

وفى عهد عثمان ، ضربت دراهم ، وكتب عليها « الله أكبر » ، واستمر الوضع النقدى كما هو فى عهد على . أما فى عهد معاوية الأول ، فيقال انه أنقص العملة فى الوزن ، ولكن الشكل ظل كما هو فى الأقاليم الإسلامية ، كما يقال إن معاوية أيضا ضرب دنانير جديدة وعليها صورة تمثال متقلد سيفا . وفى عهد عبد الله بن الزبير (٦٤ — ٧٢ هـ) ضربت عملة بمكة عاصمة خلافته ، وكانت مستديرة الشكل ، كما كانت دراهم ، نقش على أحد وجهيها ، (محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر : أمر الله بالوفاء والعدل . . . وضرب مصعب بن الزبير ، دراهم بالعراق .

وفى عهد عبد الملك بن مروان بحث أمر الأوزان والنقود ، وسائر المكاييل ، وأنشأ داراً كبرى نسك النقود ، وتوحيد العملة المعدنية .

وفى سنة ٧٦ هـ قام بضرب عملة موحدة بعد أن كانت فارسية ورومية ومصرية وما إليها ، وقد جعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا إلا حبة بالشامى . وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطا ، والقيراط أربع حبات ، وكل دانق قيراطا ونصف قيراط .

كذلك ضرب الحجاج بالعراق ، امتثالا لأمر عبد الملك ، وكان على نقشها صورة بارزة ولم يمتنع المسلمون ، وفى مقدمتهم أصحاب رسول الله (ص) عن التعامل بها ، وكذلك كبار التابعين ، حتى ان سعيد بن المسيب العالم الجليل ، كان يبيع بها ويشترى فى مدينة رسول الله (ص) .

وقد أبنا فى حديثنا عن عبد الملك طرفا من ذلك كما أوضحنا الإصلاح الذى قام به فى تعريب ديوان الرسائل والخاتم ، وديوان الخراج ، بعد أن كانت بلغات الأقاليم التى لا تتكلم العربية فليراجع فى موضعه .

طراز البناء :

لم يقف المسلمون فى فن العمارة عند الأشكال التى وجدوها لدى الفرس والرومان وغيرهم بعد الفتح ، بل أوجدوا طرازاً عربيا اسلاميا يناسب مبادئهم وتقاليدهم ، وقد أبدعوا فى ذلك حتى تفوقوا على الأمم الأخرى ، ولكن فى إطار تقاليدهم ومقدساتهم..فنراهم مثلا ، يشيدون القصور الفاخرة ،ويزخرفونها بالأقواس والقباب والأعمدة ، والمداخل المنسقة .

الحياة العقلية :

لم تزدهر الحياة العقلية فى الفلسفة والعلوم والفنون ، كما ازدهرت فى عصر الدولة العباسية بسبب حركة الفتوح التى شغلت بها الدولة فى كل عهودها حتى آخر القرن الأول الهجرى ، حيث شغل أواخر عهد خلفائها بالمعارضين لسياستهم من الموالى ودعاة الأسرة العباسية ، فلم يحدث استقرار عام فى الدولة حتى توجه نشاطها إلى مجالات الفكر والاختراع . . .

وبالرغم من ذلك فقد قامت حركة علميه على نطاق محدود ، فى الصر الأموى ، إذ أخذ بعض خلفائها يستدعى العلماء فى الكيمياء والفلك والطب ، ونقلت بعض مؤلفات فى هذه العلوم من اللسان اليونانى وغيرهباشراف مدرسة الاسكندرية .

أما فى ميدان الفكر فقد كان لمدرسة جعفر الصادق ، أثر بارز فى تلك النهضة التى ظهرت فيما بعد فى الآراء الفقهية والاعتقادية ، إذ كان أبو حنيفة صاحب المذهب المشهور تلميذاً فى مدرسة جعفر الصادق ، التى كان من أبرز أهدافها تقرير حرية الإرادة التى دعا الاسلام إلى تحريرها .

كذلك نشأت فى العصر الأول فرق أهل السنة بزعامة الحسن البصرى ، وفرقة المعتزلة التى قادها واصل بن عطاء .

وإلى جانب هؤلاء ، كانت انتفاضات فلسفية أخرى قد تتفق أو تختلف مع أهداف الحكم الأموى مثل المدارس الدمشقية التى أسسها معبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى ، وأبو يونس الاسوارى . أما جهم بن صفوان فكان يقول بالقدر ، ويزعم أن الأمر أنف ، لا يعلم قبل حدوثه .

وبالجملة فإن العصر الأموى ، كسلفه عصر الراشدين ، لم تزدهر فى جنباته البحوث الفلسفية بسبب تعبئة جميع قوى الدولة فى الحروب الخارجية ، ثم الفتنة التى شغلت الناس فى فترات متلاحقة فى العصرين .

وقدأشرنا فى حديثنا عن الراشدين ،إلى الفرق التى بدأت تأخذ وضعها فى ذلك العصر وهى أهل السنة أوجمهور الأمة،ثم الشيعة،ثم الخوارج الذين ظهروا فى عهد على ، وكان فى السقيفة حزب الأنصار .. ولكن تلك الفرق كلهامنذ مؤتمر السقيفة وبيعة أبى بكر إلى أن كانت حركة القدرية فى أواخر العصر الأموى ، لم يكن نشاطها البارزفى غير «الخلافة»والحديث عن حرية الارادة . غير أنها— بدون شك— كانت نواة لتلك النهضة الفكرية التى نشطت فى عصر الدولة العباسية .

« ٢ »

أبنا فيما سبق أهم مقومات الحضارة الاسلامية، ونتحدث فيما يتلو عن التخطيط الاجتماعى الذى رسمه الاسلام فى المجتمع البشرى بادئين بأولى لبناته وهى الأسرة التى تتألف من الزوجين : الرجل والمرأة . .

وإذ كان الرجل هو الوجه البارز ، فى السلم والحرب ، والقيادة والتوجيه، مما أوحى إلى غالبية الشعوب فى شتى الأزمان والأجيال،أن تجعله كل شىء حتى فى الاستبداد بالأموال والمناصب،وسائر مقومات الحياة الاجتماعية ، والسياسية،

والاقتصادية ، وتجعل المرأة — وهى النصف الآخر للأسرة — لاتملك حتى من أمر نفسها شيئا ، وبهذا تعطل عن الحركة والعمل والايجابية ، مايربو على نصف المجتمع ، بل لقد جرى على كثيرات من النساء ، أقسى ألوان العنت والاجرام مما أدى بهن إلى الانزلاق فى أتون الشطط والانحراف ، والسلبية ، فقد انحدرت القيمة الانسانية ، بله الاجتماعية حتى للمرأة الفاضلة . إن هذه الوضعية الخسيسة التى فرضها الفرس والروم ، وغيرهما على المرأة ، تجعل الانسان يتساءل فى إصرار . . وما هو موقف الإسلام ، الذى تقولون وتؤكدون أنه دين الحضارة والمدنية من المرأة ، وهل وضع من التشريعات والحصانات مايصون كرامتها وعزتها . .

إننا نشهد مناظر كثيرة فى المجتمع الاسلامى المعاصر ، وبعض هذه الأوضاع لا تقنع طالب البحث أو الراغب فى الحق . فهل قوّم الإسلام المرأة ، تقويما يتسق مع آدميتها وأخوتها للرجل . . أم هو قد أقرحجب المرأة ، وحبسها وعدم التصريح بخروجها من سجون الأحياء إلا مرتين اثنتين فى عمرها الطويل المديد. مرة يوم زفافها ، والثانية والآخرة يوم وفاتها . . لقد كانت هذه التقاليد هى المعروفة المتبعة لدى أباطرة الفرس وقياصرة الروم ، بل لقد وصلت إلى فرنسا الثورة فى عصر نابليون بونابرت ، كما يقول الأستاذ العقاد فى كتابه (عبقرية محمد) صلى الله عليه وسلم .

ولقد تمكن الاسلام بحضارته الايجابية الراشدة ، أن يجعل الجمهورية ، والديموقراطية ، والاشتراكية ، أسلوبا فى الحكم والسياسة والاقتصاد ، فهل استطاع كذلك أن يمكن لمبدأ المساواة الذى يجعل من المرأة انسانا حراً كريما ليس مسترقا لرجل ما ، وليس عبداً إلا لله الذى بيده وحده الخلق والأمر .

المرأة فى المجتمع الإسلامى :

ما من شك فى أن شريعة محمد ﷺ قد أنصفت المرأة ، ولعل النظرة العابرة

فى تعاليم الاسلام ، وآدابه ، تؤكد حرية المرأة كإنسان ، كما تؤكد تكافؤها كعضو متعاون فى أكثر من مرفق من شئون المجتمع العامة ، ولامبرر إطلاقا لسلبها تلك الحرية التى أكدتها لها الأوضاع الطبيعية والانسانية والدينية .

ولذلك فقد رفع الاسلام من شأن المرأة عما كانت عليه لدى جميع الأمم ، التى كانت إبان نزول القرآن ، فقرر لها الحق،فى ممارسة جميع حقوقها المشروعة — شخصية واجتماعية— كالزواج والطلاق ، والتربية والتعليم وسائر الحقوق .

وإذا كان من المحظور على المرأة ، أن تتهاون فى مقدسات شرفها وعفتها وكرامتها ، فإن ذلك وأشباهه ، محظور على الرجل كذلك « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ... وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن .. »

وهذا غاية العدل فى وزن الطاقات البشرية ، وإيضاح تكافؤها وتعاونها، بل إنه لحسم واضح صريح فى أفقيتها المطلقة ، ووقوفها على خط الخلق والأمر ، فى مساواة لاريب فيها وبدون ما طبقية أو تمايز ، بينها وبين الرجل ، فكلاهما مكلف بالإيمان والعمل الصالح

التشريعـــات الاجتماعية :

على أن من ينظر فى التشريعات الاسلامية المنوطة بالمرأة سواء فى المواريث، وتقييد حرية الانفصال الأسرى ، أو بسط نوع من الاشراف لعقلاء الرجال على عائلاتهم وزوجاتهم ، لا يرتاب فى سلامة هذه التشريعات .

النسبة إلى الآباء:

كذلك لا يخدش حرية المرأة ومساواتها — فى الخلق والأمر — للرجل : ماجرى عليه التقليد القديم من نسبة المواليد إلى آبائهم . والاسلام إذ يقر هذا

لايوجبه ولايحرم غيره . ولعل ذلك من الوضوح بحيث لايحتاج إلى دراسة وبحث . فقد قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ..» كما أخبر عن المسيح عيسى عليه السلام بأنه ابن مريم ، وكرر ذلك فى أكثر من مناسبة فى القرآن الكريم ... وليس فى هذا النسب المختلف بين الأب والأم أى مساس بكرامة الرسولين الكريمين .

وهكذا يمكن أن ننظر إلى الأوضاع المشابهة ، من نافذة الحق والعدل ، وليس من زوايا الرواسب والتقاليد الموروثة .. ولنأخذ مثلا ، مسائل الاستلحاق التى تحدث عنها جمهرة المؤرخين وفقهاء الشريعة ، واستغلها بعض غلاة التشيع لقوم ضد آخرين ... إن مثل هذه الأمور لاتعدوا أن تكون مسائل اجتهادية، ليس فيها نصوص محكمة تلزم المجتمع بوضع معين حتى يكون تشريعاً مرسوماً تلتزم به الأمة ، وتنفذه الدولة .

أما والأمر منوط بالتوجيهات التى رسمها القرآن ، فإنه يعتبر من المشروع غير المحظور أن ينسب الإنسان إلى أبيه أوأمه ، أو حتى إلى الدولة ، ولاضرر ولا ضرار .

وإذا كان الحديث ، ذا شجون كما قيل ، فإن هذا يذكرنا بما أفاض فيه المؤرخون من قصة استلحاق زياد بأبى سفيان بن حرب ، حتى لقد صوروا منها مسرحية طريفة يعرضونها فى المناسبات والمساجلات . يقول الطبرى ، زعموا أن رجلا من عبد القيس ، كان مع زياد لما وفد إلى معاوية فقال لزياد : إن لابن عامر عندى يداً ، فان أذنت لى أتيته ، قال: على أن تحدثنى بما يجرى بينك وبينه . قال نعم فأذن له ، فأتاه . فقال له ابن عامر : ان ابن سمية ، يقبح آثارى ، ويعترض لعمالى . لقد هممت أن آتى بقاسمة من قريش ، يحلفون بالله ، أن أباسفيان لم يَرَ سُمَيَّة . فلما رجع سأله زياد ، فلم يخبره ، فألح عليه فأخبره.

فأخبر زياد معاوية بذلك . فقال معاوية لحاجبه : إذا جاء ابن عامر فاضرب وجه دابته عن أقصى الأبواب ، ففعل ذلك به ، فأتى ابن عامر يزيد فشكا إليه ذلك ، فركب معه حتى أدخله ، فلما نظر إليه معاوية ، قام فدخل . فقال يزيد لابن عامر : اجلس فكم عسى أن يقعد فى البيت عن غير مجلس ، فلما أطال خرج معاوية وهو يتمثل :

لنا سباق ، ولكم سباق قد علمت ذلكم الرفاق

ثم قعد فقال : يا ابن عامر . أنت القائل فى زياد ما قلت . أما والله لقد علمت العرب أنى كنت أعزها فى الجاهلية : وإن الاسلام لم يزدنى إلا عزا ، وإنى لم أتكثر بزياد من قلة . ولم أتعزز به من ذلة ، ولكن عرفت حقا له ، قد وضعته موضعه . فقال يا أمير المؤمنين : نرجع إلى ما يحب زياد . قال إذن نرجع إلى ما تحب فخرج ابن عامر إلى زياد ، فترضاه ، فلما قدم زياد الكوفة قال : قد جئتكم فى أمر ما طلبته إلا لكم ، قالوا ما تشاء . قال : تلحقون نسبى بمعاوية . قالوا : أما بشهادة الزور . فلا . فأتى البصرة فشهد له رجال . يقول ابن الأثير «هذا ما ذكره أبو جعفر فى استلحاق معاوية نسب زياد ، ولم يذكر حقيقة الحال ، وإنما ذكر حكاية جرت بعد استلحاقه.. فانه من الأمور المشهورة الكبيرة فى الاسلام . لا ينبغى إهمالها . وكان ابتداء حاله أن سمية أم زياد كانت لدهقان فارسى ، ثم آلت إلى الطبيب الثقفى الحارث بن كلده . فولدت عنده أبا بكرة واسمه نفيع ، فلم يقربه الحارث ، ثم ولدت له نافعا فلم يقربه به أيضاً . فلما نزل أبو بكرة إلى النبى (ص) حين حضر الطائف ، قال الحارث لنافع أنت ولدى وكان الحارث قد زوج سمية من غلام له اسمه عبيد — وهو رومى — فولدت له زيادا وكان أبو سفيان بن حرب قد سار فى الجاهلية إلى الطائف . فنزل على أبى مريم السلولى الخمار ، فأتاه بسمية فاتصل بها فعلقت بزياد ، ثم وضعته ...

إلى آخر تلك القصص التى ساقها ابن الأثير وأتينا عليها فى مؤلفنا « عصر الأمويين » ، مما يضفى عليها لونا من تلك الأساطير الهادفة

على أن هذه القصص وما شاكلها ، مما ترتب عليه جدل كثير بين غلاة التشيع وغيرهم ما كان ينبغى أن تثير هذه السفسطة التى تفرق الوحدة ، وتسىء إلى قوم لقوا ربهم وذهبت دولتهم .

ولقد تحدث القرآن الكريم،عن مثل عليا من رجالات العالم ، وقادةالبشر ، كمثل من أشرنا إليهم آنفا ، وكالرجل الصالح الذى أمر موسى — عليه السلام — أن يلقاه ويتلقى عنه العلم ، ومبادىء السلوك ، ولم ينسب هذا العبد الصالح إلى أب أو أم ، ومع ذلك لم يكن هذا مما ينال من كرامته أو سمعته .

ولهذا نرى أن مسألة الاستلحاق التى شغلت حيزاً كبيراً من وقت الفقهاء والمؤرخين والباحثين ، حتى ان رجلا جليلا مثل ابن الأثير ، يقول : إنها من الأمور الكبيرة فى الإسلام لا ينبغى إهمالها » . . . إن هذه المسألة ، ليست من فرائض الدين ولا من سننه ، وليس فى الكف عن الحديث فيها ضرر أو ضرار ، بل العكس هو الصحيح ، الذى يعصم القلم واللسان من القذف وترديد المفتريات والشعوبيات .

إن مسألة الاستلحاق ، لاوزن لها فى المقررات الدينية أو الأوضاع الاجتماعية اللهم إلا من حيث التقاليد المرعية لبعض الشعوب ، التى تعتز بأنسابها ، وتفاخر بآبائها . وإن كان هذا التقليد ، قد لا تسلكه جميع الأمم فى القديم والحديث . فان بعض الشعوب تنتسب إلى جدها الأعلى ، أو شهرة أحد آبائها الأولين . وربما ينسب الأبناء إلى أمهاتهم لمعنى خاص ، مثل انتساب أحد أبناء على بن أبى طالب إلى أمه ، وهو محمد بن على الذى اشتهر فى التاريخ بابن الحنفية ، ومثل جميع أفراد الأسرة التى حكمت مصر والمغرب العربى ردحا من الزمن وعرفت

كذلك باسم « الدولة الفاطمية » وهـكذا لانجد أى نص يوجه إلى وضع خاص فى النسبة إلى الأب أو الأم ، وإنما ترك ذلك للمجتمع وأصحاب الشأن يكيفونه حسب العرف والمصلحة ، أما توجيه الإسلام ، فإنه مسفر عن حقيقته فى مسلكه العلمى وتعبيراته السديدة ، إذ نسب بعض المصطفين الأخيار إلى أمهاتهم أحيانا ، وإلى آبائهم تارة ، ولم ينسبهم إلى أحد تارة أخرى ، ولم يعقب على شىء من ذلك باستحسان أو استهجان بل جعل كل ذلك عدلا وقواما ، ولله الحجة البالغة .

أما الأمر فى الآية الـكريمة « ادعوهم لآبائهم ، هو أقسط عند الله » فإنه خاص بالأدعياء الذين لهم آباء معروفون مشهورون ، ثم هو كذلك مقصود به ابطال تقليد جاهلى فى حظر الزواج بمطلقات الأدعياء ممن ليسوا بأبناء .

على أن هذه النظرة الفسيحة المتسقة مع المبادىء والأوضاع الإسلامية ، تذلل أمامنا السبيل فى تقبل ماهو واقع بالفعل فى بعض الشعوب من إلحاق أنساب مجهولى النسب بالدولة ، حرصا على شخصيات قد يكون لها قدر وإيجابية ، فى دفع ركب التطور والنهوض ، والتقدم الحضارى .

وهكذا ينبغى أن ننظر إلى الناس مجردين عن آبائهم وأمهاتهم ، أو أصلهم وحسبهم ، لأن المسئولية المشروعة لاتعدو شخص الإنسان وحده ، ولا ينبغى أن نزنه بالوراثة أو النسب . أو غير ذلك مما يعتبره المتخلفون من رواسب المجتمع ولـكن « كل نفس بما كسبت » ولاتزر وازرة وزر أخرى » ذلك هو منطق الإسلام ومنطق الحضارة الإنسانية .

ومن ثم نرى أن كل ما دار حول نسب زياد واستلحاقه بأبى سفيان ، وشغل به حيز ضخم من الوثائق ، والأسفار ، ليس إلا أقاصيص ابتدعوها ، لإشاعة الفتنة فى المجتمع الإسلامى .

ومن ذلك يتضح أن المرأة مساوية للرجل في انتساب أولادها إليها، وأن هذا أبرز ضروب المساواة في المجتمع البشري .

لكن تبقى بعد ذلك أمور هامة ، ينبغي بحثها وإبداء الرأي فيها ، وذلك مثل جعل الطلاق في يد الرجل ، كما يرى جمهرة الفقهاء وبهذا يستطيع الرجل أن يرفض الطلاق . رغم كراهية الزوجة في معاشرته ، فيذرها كالمعلقة ، فلا يمكنها الزواج من غيره ، أو التحلل من أغلال معاشرته ، وهذا — إن صح — كان أدنى إلى فرض التسلط والطبقية ، مما لا يتفق مع شريعة المساواة التي تؤكدها مبادىء الإسلام ومقرراته .

ولكن هل جعل الطلاق في يد الزوج ، يثير كل تلك الإنفعالات ، والتخرصات، ويجعل بعض السطحيين يحاول اتهام الاسلام دين العدل والكفاية والمساواة ، بأنه يفرض سيطرة طبقة من الذكران على الأناث .

إن الدراسات القشرية لمقررات الشريعة ، قد تثير هذه الشبهات ، ولكننا حين نعمق نظرتنا إلى روح الاسلام ، سوف نقتنع بكل ما أوصى بسلوك سبيله ، ولتوضيح ذلك نقول : إن مصدر هذه الشبهة هو اللمسة العابرة لظاهر الآية القرآنية « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » . ثم اختلاف الفقهاء من أئمة الاجتهاد في تفسير القوامة في الآية الكريمة « الرجال قوامون على النساء » . إذ رأى البعض أنها رياسة الانسان القوي الذي ينفق ويوجه ، بحكم وضعه الشخصي ، والاجتماعي وهذا شيء جُبل عليه الرجل بالفطرة ، ورشح لممارسته بالغريزة ، فليس من العدل أن ينزع منه هذا السلطان الذي يعتبر صمام الأمن ، وعصب النظام ، وذلك لا يقدح في شريعة المساواة في الحقوق والواجبات بين الذكران والأناث ، لأن من المساواة أن توزع الأعمال والسلطات على أهل الذكر بها ، والمتخصص في دقائقها بحكم الخلق والتكوين ، أو التربية والتعليم .

على أن وضع مقاليد الأسرة فى يد الرجل الرشيد ، سوف يحصنها من الهزات والانتكاسات ، ويسبغ عليها ألوانا من الجلال والنقاء ، والايجابية . وهذا بدوره يضع حداً فاصلا بين الوحدة الرشيدة لكيان الأسرة ، وبين الانهيار المتربص الذى غالباً مايكون بسبب توتر الأعصاب . وقصر النظر الذى يدب إلى عروتها . وهذا الرأى يفرض وضع السلطة العليا للأسرة فى يد الزوج ، ويستند إلى ماروى من ذلك الأثر الكريم « الطلاق لمن أخذ بالساق » إلى جانب ظاهر الآية السابقة .

بيد أن ثمة جمهرة أخرى من العلماء والباحثين ، فسروا القوامة بالتوجيه والارشاد ، بحيث يكون الرجل فى محيط الأسرة بمثابة المعلم القدوة ، الذى يعتبر قوله وعمله وسلوكه ، أسوة حسنة لزوجه وأولاده ، وسائر توابعه . ولكن لاسلطان للرجل على إرغام المرأة ، حتى تظل فى عصمته أنىّ ومتى شاء ، فقدأباح لها أن يكون أمرها بيدها ، وطلاقها وعصمتها طوع إرادتها ، وسواء عليها أن يرضى الزوج أو يغضب طالما هى كارهة فى معاشرته . فذلك هو الأنسب لمبادىء الحنيفية السمحة ، وشريعة العدل والتكافؤ .. وكل ماهنالك أن الأسرة من حقها أن تقدم الزوج لحكم الأسرة وتصريف أمورها بالمعروف ، وحرية إرادة ورضا كامل من الزوجة وجميع أفراد الأسرة تطبيقا لشريعة الشورى ، وإعمالا للنص المحكم « وشاورهم فى الأمر — وأمرهم شورى بينهم » . وإذا كانت الشورى واجبة فى اختيار الوحدات السياسية ، فإن ذلك أوجب فى اللبنة الأولى فى بناء الأمة التى تختار منها هذه الوحدات ، وليشب أفراد الأسرة المسلمة ديمقراطيين منذ الطفولة ، فيكون ذلك أدعى إلى الامن والاطمئنان .

تعقيب : على أن الناظر فى هذين الرأيين ، لايكاد يشك فى استهداف كل منهما لمعانى كريمة ، وسديدة فى الحق والعدل والصالح العام . لأن من

يوصون بجعل السلطة فى يد الزوج ، إنما يذهبون إلى ذلك حفاظا على كيان الأسرة وعزتها وأمنها ووحدتها ، وللابقاء على الروابط الوثيقة بينها ، ومن ثم كان — فى رأيهم — من الحتم أن يوضع صمام الأمن والأمان ، والمحافظة على الهدوء والنظام . فى يد واعية رشيدة ، حتى لاينجم عن تصرفات قد تكون منحرفة ، وغالبا ماتحدث من الزوجة بسبب إرهاقها بشئون البيت والأسرة ، والعمل ، فتسىء إلى العلاقات الطيبة بين أعضاء العائلة . ولهذا تقضى الحكمة بوضع السلطة فى يد الرجل حتى يحكم إشرافه وقيادته الحازمة لأهله وولده ومن يعول . وليس فى ذلك استبداد أو طبقية بشكل ما .

أما هدف الرأى الثانى ، فهو تقرير الحرية الإنسانية للمرأة ، بغض النظر عن اعتبارها عضوا فى محيط أسرة ، تفرض عليها بعض الواجبات ، لا الأغلال أو القيود ، ومن ذلك أن تعطى القوس لباريها ، وأن تقبل راضية النفس، بوضع السيف فى موضع السيف ، والندى فى موضع الندى .

وإذ كان الرجل أقدر وأقوى ، على تحمل الأعباء الثقال ، والكفاح والقتال، فإن من الحكمة ومصلحة المرأة أن لاتؤخره لتتصدر ، أو تنحيه لتتقدم ، فذلك ليس من منطق العدل أو صالح البشر ، وهذا كله لايقدح فى تقرير مبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات ، بل يدعمه ويقويه .

ومهما يكن من شىء ، فإن الخلاف فى تلك المسألة ، لايعدو بحث ماينبغى لتحصين الأسرة من الهزات والانتكاسات وليس للمساس بمبدأ المساواة الذى قررته الشريعة ، وأكده النبى الكريم صلى الله عليه وسلم .

مسألة الميراث : أما فى هذه المسألة الحيوية . التى فرضت للرجل أكثر من نصيب المرأة فإن الأوضاع الاجتماعية التى درج البشر على ممارستها منذ فجر التاريخ حتى اليوم . بل سوف يظل — فيما يبدو — يحرص عليها أشد الحرص، وهى قيام الذكران بالإنفاق وتحمل العبء الأكبر من التبعيات، والالتزامات، يفرض

— فى منطق العدل — أن يعوض هؤلاء عما يصيبهم فى سبيل تلك المسئوليات بينما لانكاد نشهد الغالبية الساحقة من النساء حتى اليوم يقمن بإكرام ضيف أو سد حاجة محتاج ، بل إنهن مازلن يقبضن من الرجال المهور والهدايا والاتحافات المتلاحقة ولا يدفعن لهم شيئا .

وإلى جانب هذا فإن النساء مازلن — رغم مرور آلاف السنين والأجيال — يعشن فى خيال الزينة وزخرف الحلى والجواهر الكريمة ، وقليل منهن من توجه طاقتها شطر العلم والفن ، والعمل الإيجابى المنتج .

لقد فرضت الشرائع كلها منذ أبى البشر إلى محمد خاتم النبيين (ص) على المرأة أن تؤمن وتعمل . ولم يقل دين ولا رسول ، ان المرأة خلقت لمجرد المتعة، أو لتكون تمثالا من تماثيل الزينة فى بيوت الرجال ... فكم من النساء استجبن لهذه الدعوات الكريمة على مر العصور .

تحديد الأنصبة :

ومما يتخرص به بعض المفتونين باتهام الإسلام، مسألة أنصبة الميراث وتحديدها بالشكل الذى حددت به... والواقع أن الجدال فى هذا غير مستساغ فى منطق العقل لأن التركات منذ أقدم العصور ، مثار الخصومات ، والمطامع ، بل لقد ثبت بالتجربة أنها العوامل المباشرة فى حدوث الجرائم الخطيرة فى المجتمع ، فانها إذا ماتركت بدون تحديد ، وجعل إلى الأمم ، أمر توزيعها . فسوف يؤدى ذلك إلى صراع ، وسفك دماء ، وتمزيق وحدة الامة . ولذلك فقد كان من حكمة شريعة الإسلام أن تفرض التحديد بشكل قاطع لاشبهة فيه . وأن تلبسه ثوب القداسة ، وتنص عليه فى كتاب الله ، فلا يفكر نبى أو رسول فضلا عن حاكم أو امبراطور ، فى تعديله أو تشذيبه ، أو تعطيل فريضته .

وهذا من مفاخر الإسلام ، لامن مثالبه ، فإن الوقاية من حدوث الجريمة

خير من علاجها بعد وقوعها ، وفى التحديد بشكل دينى مقدس ، ما يحصن المجتمع ويقيه شر الجرائم الناجمة عن تقسيم التركات .

على أن الذين فى قلوبهم مرض ، ممن يثيرون هذه السفسطة ، لم يقيموا الدنيا ويقعدوها ضد المزدكية والماركيسة ، وغيرهما ممن نادوا بإلغاء الميراث من أساسه ، بحجة أن تقسيم التركات ينجم عنه جرائم تفسد الروابط البشرية ، مع أن فى هذا اعترافا ضمنيا ، بما برر به المشترعون المسلمون ، فريضة المواريث . . . ولتأكيد « الإسلامية » لمبدأ المساواة ، وردت فى القرآن الكريم نصوص كثيرة ، تكشف للناس — كل الناس فى كل العصور — أن الرجل والمرأة متكافئآن فى الحقوق والواجبات ، والجزاءات ، والعقوبات . . يقول الله تعالى فى القرآن الكريم « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر ، نصيبا مفروضا » ويقول القرآن العزيز « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » ويقول الكتاب « والمؤمنون والمؤمنات . بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمن الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله . إن الله عزيز حكيم » وفى هذه الآية من سورة التوبة (رقم ٧١) جمع الله سبحانه كل مقومات الحياة الإنسانية والدينية والاجتماعية . وقرن فيها المرأة بالرجل ، حتى فى الاضطلاع بعبء الأمر والنهى المطلقين من كل قيد أو تحفظ ، سوى بين الرجل والمرأة . وليس بعد هذا من تطبيق لمبدأ المساواة كمقوم للحضارة الإسلامية الإنسانية .

وفى التسوية حتى فى العقوبة أورد الكتاب هذه النصوص « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم . نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون » ويقول جل شأنه

« بسم الله الرحمن الرحيم . سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون (١) الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين (٢) الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة . والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك . وحرم ذلك على المؤمنين (٣) من سورة النور المدنية) . وفى مسألة الطلاق شرع الله قبل وقوعه التحكيم مع كفالة حقوق الرجل والمرأة على السواء وبدون مساس بكيان المرأة وحريتها الشخصية والاجتماعية . يقول الله فى ذلك « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا (آية ٣٥ من سورة النساء المدنية (وإذن فالمساواة الكريمة بين الرجل والمرأة ، هى شريعة محمد ﷺ المحكمة . وأما ما قد يرى من سلوك وتصرفات فى بعض الشعوب والمجتمعات الإسلامية فالمسئولية فيها ليست على مبادىء الإسلام ، وإنما تقع على الذين ابتدعوها ومارسوها إن لم تتفق مع مقوماته الحضارية التى أوصى بها الكتاب ونفذها المعصوم منذ أربعة عشر قرنا . .. ونختم هذه الإشارة العابرة فى هذه المسألة بكلمة ساقها بعض المؤرخين المعاصرين قال ، يظن بعض علماء الاجتماع ، أن الإسلام هضم المرأة حقها حيث أعطاها النصف فى الميراث ، وجعل الرجل يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ، وجعل الطلاق بيد الرجل ومنح الرجل سلطة ليست للمرأة ، فحرمها الكثير من الحقوق التى يتمتع بها الرجل ... ويكفى فى الرد عليهم أن نحيلهم إلى ما كتبه المنصفون . .

لقد كانت المرأة فى العصور القديمة والوسطى عند اليونان والرومان وغيرهم كالمتاع أو كالحيوان ، فلم يكن لها حق التملك عن أى طريق ولم يكن لها ميراث أصلا ، كما لم يكن لها حظ من التعليم والتهذيب ... أما الإسلام فقد أوجب تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة ، كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن أبناءهم وبناتهم « واذكرن

ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » . كما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى جميع الحقوق . . . فقد أباح لها أن تزوج نفسها وأن توكل غيرها دون اعتراض عليها ، كما أباح أن يكون أمرها بيدها ، فتطلق نفسها متى شاءت ، وقد أباح الاسلام الطلاق على أنه ضرورة ، وقد قال فيه الرسول ﷺ أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . .

أما ان الرجل يصح له التزوج بأكثر من واحدة فيرجع إلى : (١) إن هذا خير طريق للاكثار من النسل الذى يعمل الاسلام على تشجيعه فى بعض الظروف حتى تنتشر فى الأرض أنواع جديدة من الأجيال المؤمنة الواعية . التى تعبد الله وتحكم بالعدل . وبذلك يمكن عزل الرواسب الرجعية والصهيونية ، إن لم يتمكن المؤمنون من القضاء عليها وإزالة أثرها ، فالتعدد — إلى جانب الضرورات الأخرى — مقصود به ، جعل الغالبية الساحقة من المؤمنين

٢ — وثمة ظروف أخرى مثل العقم والحروب والحالات المشابهة التى يكثر فيها النساء ويقل الرجال .. هذه الطوارىء احتاط الاسلام لها ، فشرع التعدد بشروطه المذكورة فى فقه الشريعة ، وبهذا تكون مشروعية التعدد نعمة على البشرية ، تحصن المجتمع من الوصيفات والجوارى ومن سائر ألوان الفحشاء والمنكر . . ونجتزى بهذا لنرجع الحديث إلى أسلوب التوزيع لمصادر بيت المال « الخزانة العامة » ثم دراسة موجزة ، لتشريعى الزكاة والصدقة ، وهل هما مترادفان أم متباينان ، وبهذا تكمل الصورة العامة فى الاقتصاد الاسلامى .

(٣)

أسلوب التوزيع للدخل القومى

(ا) مصادر الانتاج والدخل :

أبنا فيما سبق جملة المصادر التى تجبى منها الأموال لتمويل الخزانة العامة ، « بيت المال » وقد ظلت هذه الموارد بدون تغيير كبير ، فى عصرى الراشدين والأمويين ، كما استمر أسلوب التوزيع الذى اتخذه عمر بن الخطاب ، سائدا فى الدولة الاسلامية لبضعة قرون ، باستثناء بعض الانحرافات الجانبية فى السياسة الاقتصادية ، منذ اندلعت الفتنة الكبرى فى أواخر العصر الرشيد .

على أن الملاحظ فى المصادر التى أسلفناها ، وهى الزكاة والصدقات والغنائم والفيء والجزية والخراج والعشور وما اليها ، أن بعضها ثابت فى كل الظروف ، وعلى مر الزمن مثل الزكاة والصدقات ، والخراج . . إلى حد ما . وبعضها موقوت بأسباب ومبررات طارئة مثل الجزية والفيء والغنائم والجمارك (العشور) وسائر الموارد التى تمول ديوان المستغلات الذى أنشأه الأمويون فيما بعد.

ومن ثم فان الزكاة — وهى مصدر الدخل الثابت — قد جعلت ركنا من أهم أركان الاسلام وشددت الشريعة فى وجوب جبايتها من كل مال أو مقوم يبلغ النصاب المحدد فى محله من فقه الشريعة . وشرع قتال من يمتنعون عن أدائها لخزانة الدولة « بيت المال » فقاتل عليها أبو بكر وجباها بالقوة ، بل أطلق على الممتنعين اسم « المرتدين » كما سبق.

والجدير بالملاحظة كذلك ، أن العشور منوطة بالتجارة الواردة من خارج الدولة وأنه لو توقفت لأمر ما ، فإن هذا المصدر ينقطع عن تمويل بيت المال ،

والأمر كذلك فى الجزية ، والغنيمة والفىء فإن إسلام من تجبى منهم يرفعها عنهم ، ثم لا يبقى من مصادر الدخل الذى يمد الخزانة العامة ، إلا الزكاة والصدقات والخراج .

على أن الخراج كذلك معرض للهزات ، إذ هو مرتبط بنسبة الإنتاج الزراعى فى القلة والكثرة ، ووضعُ الملكية العامة لأرض الخراج ، فى يد الدولة ، كما استقر عليه الرأى ، والتطبيق فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه · لا يجعلنا نجزم بكفاية تلك المصادر الثابتة فى جميع الظروف والتطورات المتجددة ..

ولعل هذا هو السبب الحقيقى فى رفض عمر قسمة الأراضى الزراعية فى البلاد التى تم فتحها بين الجنود كغنائم ، وقد أبدى ملاحظة هامة فى هذه المسألة التى تشغل حيزا ضخما من اهتمام العالم اليوم .يقول المؤرخون ، وكان عمر لما فتح السواد والشام ، شاور الناس فى قسمة الأرض التى فتحها المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم ومافتحوا ، فقال عمر : فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء ، وحيزت . ماهذا برأى فقال عبد الرحمن بن عوف ، فما الرأى ، ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم ، فقال عمر ما هو إلا ما تقول . ولست أرى ذلك ... فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها (فلاحيها) وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد الثغور ،وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق فأكثروا على عمر ، وقالوا تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ، فكان عمر لايزيد على أن يقول : هذا رأيى · قالوا فاستشار المهاجرين الأولين ، فاختلفوا ، فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر ، رأى عمر . فأرسل إلى عشرة من الأنصار ، خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج من كبرائهم

وأشرافهم فلما اجتمعوا حمدالله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال: إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا معى فيما حملت من أموركم، فإنى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تفرقون بالحق .. خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا أو ذاك . معكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ، ما أريد به إلا الحق ، قالوا نسمع ياأمير المؤمنين قال : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم . وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم ، لقدشقيت. ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعدأرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه، وأنا فى توجيهه . وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم الخراج، فتكون فيئا للمسلمين ، المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه الثغر ر . لا بد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لابدلها من أن تشحن بالجيوش ، وإدرار العطاء عليهم . فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون . .فقالوا جميعا الرأى رأيك ، فنعم ماقلت وما رأيت .. إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ، وتجرى عليهم وما ينفقون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنهم ، فقال : قد بان لى لأمر ، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلوج (الفلاحين) ما يحتملون .، فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف ، وقالوا : تبعثه إلى ذلك ، فإن له بصرا وعقلا وتجربة ، فأرسل عمر اليه فولاه مساحة الأرض (أرض السواد) فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر ، بعام مائة آلف ألف درهم ،وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال .

هذا وقد صنع عمر بأرض الشام ومصر وسائر الأراضى الزراعية فى الدولة مما فتح لعهده ، ماصنعه فى سواد العراق ..وظلت نسبة الخراج مترددة بين الزيادة

والنقص حسب الناتج من الأرض ، والمقدار الذى يفرض عليها بما يتلاءم مع إنتاجها . أما بقية الأراضى التى فى أيدى أهلها المسلمين ، فقداختلفت وجهة النظر فيها ، فمن الفقهاء من يرى أنها منفعة ورقبتها للدولة ، ومنهم من يبيح تمليكها رقبة ومنفعة ، ولعل الأصل فى هذا هو الأثر المشهور (الناس شركاء فى الماء والكلأ والنار والملح) وما فيه حق ثابت بالنص للشركاء لا يملك لفرد بعينه ، بل له حق الانتفاع بالمعروف ، ولغيره كذلك ، والمسألة اجتهادية على كل حال . وأصل الاختلاف فى الرأى فيها — فى ظنى — هو تفسير حقيقة الشركة ، وحدودها ، والنتائج الإيجابية المترتبة على ذلك ، فمن نظر إلى أن الشركة ، تظل تلازم هذه الضروريات مدة بقائها ، وأنها ضرورية لكل كائن حى فقد حظر بيع الأرض ، والتصرف فيها ، وأباح الانتفاع بها بالعدل.. وأما من نظر إلى أن هذه الشركة ، تزول بالقسمة أو وضع اليد عليها بطرق مشروعة فإنه أباح تملكها على أن لا ينجم عن ذلك ضرر ما للآخرين أو للدولة أو للمجتمع .. فإن ترتب على التمليك أى ضرر أو أضرار ، فإنه يحظر اتقاء للضرر وهذه المسألة مبسوطة فى كتب الفقه ، فلتراجع ثمَّ .

مقارنة : والذى نعنى به فى هذه المسألة ، هو إبراز عدالة الإسلام ، وعمل الراشدين خلفاء النبى (ص) فى مسألة الأراضى الزراعية ، إذ سبق عمر جميع فلاسفة العالم ولا سيما فى العصر الحديث إلى هذا الأسلوب الذى يعتبر اليوم أهم الوسائل لتحقيق العدل والكفاية فى المذاهب الاشتراكية كلها علمية ونظرية ، معتدلة ومتطرفة . وهذا كمثل يحتذى ويقاس عليه كل مرفق عام يمد الجميع بمقومات حياتهم ومعايشهم . فرضى الله عن عمر وجزاه خيراً .

التأميم والتحديد إسلاميان :

تأميم الأراضى الزراعية بمعنى تمليك رقبتها للدولة ، وتنظيم الانتفاع بها بالمزارعة أو التأجير أو أى ضريبة عادلة تفرضها الدولة ، هو الأسلوب الذى سلكه عمر فى

الشام والعراق ومصر وغيرها من البلاد الزراعية التى فتحها المسلمون كما سبق .

أما تحديد الملكية بمعنى وضع حد أعلى لما يملكه المواطن فى الدولة من الأطيان الزراعية، فهو كذلك من سلطة الدولة الشرعية فى الاسلام، تفريعاً على الأصول الفقهية التى وضعت فى هذا الشأن، مثل وجوب سد الذرائع، وتقديم دفع الضرر على جلب النفع ، والمسألة على كل حال من المصالح المرسلة، ويسرى عليها كذلك الأصل المتفق عليه « لاضرر ولاضرار » ثم : الضرورات تبيح المحظورات « فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، فلا إثم عليه » .

وقد روى المؤرخون ، أنه لما فتحت الأندلس فى العصر الإسلامى، صودرت أملاك الأشراف ورجال الدين ، ثم وزعت على عبيد الأرض والفلاحين وسائر الطبقات التى كانت محرومة إبان الإقطاع الاجتماعى والدينى والسياسى والذى فرض امتيازات لا تحصى للكهنة والنبلاء والسادة والأشراف . يقول بعض المستشرقين «لقد كان الفتح الإسلامى حسنة لأسبانيا إذ حقق ثورة اجتماعية ذات أهمية بالغة، قضت على آلام رزح الأسبان تحتها عدة قرون. ولقد زالت امتيازات الكنيسة والنبلاء . ووزعت الأراضى المصادرة بين عدد كبير من الأفراد الذين ظلموا ، واستغلهم السادة ردحاً من الزمن ، وكان توزيع الملكية على العمال الزراعيين (أقنان الأرض) مصدراً للسعادة ، وسبباً فى ازدهار الزراعة فى أسبانيا العربية . . ولقد حكم العرب وفق الطريقة الآتية : أنقصت الضرائب عما كانت عليه من قبل ، ثم بعد أن صودرت أراضى الأغنياء وزعت بين الفلاحين ، وبذلك نمت المحاصيل ، وزادت غلة الأرض . .. ويقول السيد مصطفى حسنى : إن الدول الإسلامية فى أوائل قيامها ، كانت سياستها بالنسبة إلى تملك الأرض المفتوحة تتخذ أحد طريقين :

١ — إما نقل الملكية إلى الدولة ، على أن يكون عمالها الزراعيون أجراء عليها .

٢ — وإما تقسيمها إلى ملـكيات صغيرة بين عمالها حتى يصبحوا جميعاً مالـكين لها وتزول معالم الملـكيات الـكبيرة وآثارها المفجعة .

ولو استمر الإسلام فى سيره الطبيعى ، ولم ينحرف ولاة السوء عن هدفه الإشتراكى العظيم . لظلت أراضى الشام ومصر والعراق ، كما كانت ملـكا للدولة ، يشتغل الناس فيها بخراج المقاسمة ، وبذلك تـكون بلادنا أول بلاد فى العـالم ، طبقت مبدأ ملـكية الدولة لرقبة الأراضى . . هذا المبدأ الذى نادى به كثير من العلماء الاجتماعيين فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وطبقته روسيا فى الربع الأول من هذا القرن ...

وقد استمر الأمر إلى عهد عبد الملك بن مروان ، لا يجرى فى أراضى هذه البلاد بيع ولا شراء ، ثم أذن عبد الملك والوليد ، وسليمان فى الشراء ، على أن يدفعوا ثمنها إلى بيت المال ، وأراد عمر بن عبد العزيز أن يرد الأمر إلى نصابه ، فينتزع الأراضى من أيدى أصحابها الجدد ، ولـكنه وجد من الصعوبة ما لم يجد معه حيلة ، فقد تقسمت الأراضى فى المواريث ومهور النساء والديون والمعاملات وغيرها ، فأقر ما كان قبل عهده ، ونهى عن شراء الأراضى وبيعها بعد ذلك ... وكذلك حاول أبو جعفر المنصور فى العصر العباسى ، فلم يستطع ... يقول الأوزاعى : «أجمع رأى عمر وأصحاب رسول الله (ص) لما ظهر على الشام والعراق على إقرار أهل القرى على ما كان بأيديهم ، يعمرونها ويؤدون خراجها ويرون أنه لا يصح لأحد من المسلمين شراء هذه الأراضى طوعاً ولا كرها . لاتفاقهم على أنها لا تباع ولا تورث .. ومن هذا نعلم حكم أراضى مصر والشام والعراق فى العهود الإسلامية الأولى (راجع كتاب اشتراكية الإسلام) .

ولنـكمل الحديث عن موضوع الخراج نثبت لـكم ما ذكره مؤلف تاريخ الإسلام السياسى بمصادره . يقول : « المال الوارد لبيت المال ، إما أن يكون ضريبة

على الأرض ، أو عن أشياء أخرى غير الأرض ... فضريبة الأرض تسمى عشرا وخراجا . ويؤخذ العشر من غلة الأرض التى أسلم أهلها بدون قتال أو التى فتحت عنوة فصارت غنيمة للمسلمين. ثم قسمها الخليفة على الفاتحين (تقدم أن عمر رفض التقسيم وأبقى الأرض ملكا للدولة فليلاحظ ذلك) ... ويؤخذ الخراج عن الأرض التى فتحها المسلمون عنوة إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ، ووقفها على المسلمين ... ويضاف إلى ذلك الزكاة وكان لبيت المال موارد أخرى ، كنصيب من الفىء والغنائم والركاز وكجزية الرؤوس ، والعشر أو العشور ... ويقول الماوردى: « وأما الأرضون التى استولى عليها المسلمين فتقسم إلى ثلاثة أقسام : أحدها ما ملكت عنوة وقهراً حتى فارقوها بقتل أو أسر أو جلاء ، فقد اختلف الفقهاء فى حكمها بعد استيلاء المسلمين عليها فذهب الشافعى إلى أنها تكون غنيمة كالأموال فتقسم بين الفاتحين إلا أن يطيبوا نفسا بتركها ، فتوقف على مصالح المسلمين ... وقال مالك : تصير وقفا على المسلمين ولا يجوز قسمتها بين الفاتحين . . . وقال أبو حنيفة ، للامام فيها الخيار بين قسمتها بين الفاتحين ، فتكون أرضا عشرية ، أو يعيدها إلى أيدى المشركين بخراج يضربه عليها ، فتكون أرض خراج ...

ومن ذلك يتضح أن سلفنا الصالح قد بحثوا أمر الكفاية الإنتاجية وعدالة التوزيع . ومن أجل هذا كان حظر تمليك الأراضى الزراعية للأفراد ، فكان خراجها إلى جانب الموارد الأخرى محققا للتوازن الاقتصادى .

(ب) أسلوب التوزيع :

أبنا فيما سبق مصادر الدخل القومى فى الدولة الإسلامية ، ونتحدث فى هذه الكلمة عن الكيفية التى كان يوزع بها على ذوى الحقوق من المواطنين ، وهل تحقق بذلك إسعاد المجتمع وإزالة الفوارق الشاسعة بين الطبقات ، ثم هل قضى

فيه على الحرمان والمذلة والمرض والفاقة ؟. إن الواقع التاريخى يقول بملء سجلاته وثائقه . . . نعم .

يقول المؤرخون : كان عمر إذا استعمل العمال ، خرج معهم يشيعهم ، فيقول إنى لم استعملكم على أمة محمد ﷺ على اشعارهم ، ولا على ابشارهم ، إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة ، وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، وإنى لم أسلطكم على ابشارهم ولا على اشعارهم . . جردوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن محمد ﷺ وأنا شريككم ، وكان يقص من عماله ، وإذا شكى إليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه ، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به ، أخذه به .

وروى الطبرى بسنده أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — استشار المسلمين فى تدوين الدواوين فقال له على بن أبى طالب : تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ، فلا تمسك منه شيئا ، وقال عثمان بن عفان : أرى مالا كثيراً يسع الناس ، وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر ، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : يا أمير المؤمنين . قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا فدون ديونا وجند جندا ، فأخذ بقوله ، فدعا عقيل بن أبى طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم وكانوا من أنسب قريش فقال: اكتبوا الناس على منازلهم فكتبوا فلما نظر فيه عمر قال : وددت والله أنه هكذا . ولكن ابدؤا بقرابة رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب ، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله . . . ويذكر الطبرى كذلك أن عمر — رضى الله عنه — حين عرض عليه الكتاب قال : ابدءوا بالأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ وضعوا عمر موضعه . فجاءت بنوعدى إلى عمر فقالوا : أنت خليفة رسول الله ﷺ فقال : أو خليفة أبى بكر وأبو بكر خليفة رسول الله ﷺ

قالوا . وذاك ، فلوجعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم فقال: بخ بخ. بنى عدى، أردتم الأكل على ظهرى وأن أذهب حسناتى لكم . لا والله . إن لى صاحبين سلكا طريقا ، فإن خالفتهما خولف بى . والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عمل . فهم أولى بمحمد منا . . فلا ينظر رجل إلى قرابة ، وليعمل لما عند الله . فإن من قصر به عمله ، لم يسرع به نسبه .

وقد حدث الثقات أن عمر — رضى الله عنه — كان يقول :

" والله الذى لا إله إلا هو ما من أحد إلا لهفى هذا المال حق ، أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد ، وما أنافيه إلا كأحدكم .

هذه نبذه قصيرة كشفنا بها عن حقيقة الرجل الذى جازف بعض الكاتبين المعاصرين فأسند إليه ابتداع التفاوت المالى الذى كان نواة للتفاوت الطبقى وزعم أنه ندم فى أواخر عمره وفكر ، فى الرجوع عنه لولا معاجلة المنية له . كما سمعت بعض ذوى المراكز الثقافية فى البلاد الإسلامية يتهم عمر أو يكاد ، مما برهن لى على تفاقم جهل الكثيرين بعدل الرجل وورعه[1] . . .

ونحن نرى أن عمر صنع ما ينبغى وأنه لم يكن يرى لأحد فضلا على أحد إلا بالتقوى ، ومظرها الجهاد فى سبيل المستصعفين فى الأرض ولهذا فقد زاد فى اعطيات الأحياء منهم مكافأة لهم واغراء لغيرهم لمنافستهم كما زاد فى اعطيات عائلات المجاهدين . وسنبين ذلك بعد .

التوزيع فى عصر الراشدين :

سجل المؤرخون طريقتين فى توزيع الدخل القومى فى عصر الخلفاء الراشدين نثبتهما فيما يلى :

١ — طريقة أبى بكر الخليفة الأول ، وتتلخص فى جعل الضرورة والحاجة ، هى الأساس فى منح الأعطيات ، والرواتب السنوية ، وسائر الأموال

(١) انظر العدالة الإجتماعية لسيد قطب.

والضروريات التى حدث فيها توزيع . وقد تم هذا كله فى مساواة تامة بين جميع الأفراد ، ذكورا وإناثا ، وسابقين فى العمل أو متأخرين فيه . وقال أبو بكر فى تبرير اختياره لهذا الأسلوب :

هذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة .

وقد روى المؤرخون ، أن عمر وبعض الصحابة اعترضوا على أبى بكر فى هذا ، وأبدوا رأيهم فى التسوية بين السابقين فى الإسلام والجهاد . وبين المتأخرين والخاملين ، فقال لهم أبو بكر : إنما أسلموا لله ووجب ثوابهم عليه يوفيهم ذلك فى الآخرة وانما هذه الدنيا بلاغ . . . وعندما انفتح معدن (كنز) بنى سليم بالقرب من المدينة ، سار أبو بكر بنفسه حتى وقف على رأس الكنز ثم استخرجه . وسار فى قسمته على رأيه فى تقسيم مايبقى من مال الزكاة وغيره فى بيت المال ، إذ سوى بين السابقين وغيرهم ، وبين الذكور والاناث والأحرار والعبيد ولم يميز أحداً على أحد . يقول كاتب معاصر ، هذه النزعة الجديدة إلى الاشتراكية لم تكن مألوفة لدى العرب ولذلك كانوا يعترضون على أبى بكر فى مساواته هذه فى التوزيع بين المسلمين وكان أبو بكر يحتج بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل القصة الشهيرة التى سجلها المحدثون والمؤرخون من سؤال النبى صلى الله عليه وسلم لأشاعرة اليمن وما يساكونه إذا أملقوا (أصابتهم ضائقة مالية) إذ أجابوا بأنهم يجمعون ما يملكه كل فرد من طعام ثم يخلطونه ثم يقسمونه بينهم بالسوية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« نعم القوم الأشاعرة هم منى وأنا منهم » . وغير ذلك من التوجيهات النبوية إلى جانب السنة العملية المتواترة .

٢ — أسلوب عمر بن الخطاب وقد جنح فى أساس التوزيع إلى اعتبار العمل والإنتاج إلى جانب الحاجة والضرورة كما رأى أن يفرض لبعض الناس

مبالغ على سبيل التعويض وبذلك فاوت فى توزيع الدخل بين المواطنين ونثبت فيما يلى طرفا مما ذكره المؤرخون .

يقول أبو يوسف فى كتابه الموسوم بالخراج ، فرض عمر لكل رجل شهد بدراً خمسة آلاف درهم فى العام وفرض لكل من كان له إسلام كاسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحداً أربعة آلاف فى كل عام وفرض لأبناء البدريين ألفين ، وفرض لكل رجل هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ولكل رجل من مسلمة الفتح ألفين ولغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح وفرض للناس على منازلهم وقرءتهم للقرآن (يعنى على قدر ثقافتهم) وجهادهم (خدمتهم للدولة) ثم جعل من بقى من الناس بابا واحداً ففرض لمن جاء من المسلمين إلى المدينة وأقام بها خمسة وعشرين ديناراً وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق ألفين إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلثمائة ولم ينقص أحداً عن ثلثمائة وقال لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم. ألف لسفره وألف لسلاحه وألف لأهله وألف لفرسه وبغله . وقد روى أن عمر برر هذا التفاوت فى الأنصبة التى وزع بها الدخل القومى على المواطنين بقوله : الرجل وبلاؤه فى الإسلام (جهاده وخدمته) والرجل وقدمه فى الإسلام والرجل وغناؤه فى الإسلام والرجل وحاجته فى الإسلام .

وهكذا نجد عمر يوزع الأعطيات على أساس مزدوج من الحاجة والعمل والتعويض وليس على أساس العمل والخدمات فقط كما ظن بعض الكاتبين فى « العدالة الإجتماعية فى الإسلام » .

لقد كان أبو بكر — فى رأينا — موفقا كل التوفيق إذ أنه وزع الأموال القليلة التى كانت تبقى فى بيت المال بعد سد النفقات الضرورية على الأسلحة والجنود وسائر المرافق الأخرى للدولة على المواطنين بالسوية لعدم كفاية الدخل

القومى لأكثر من ضروريات الحياة لكل فرد . ويستوى فيها الذكر والأنثى والسابق واللاحق والحر والعبد فلا مبرر إطلاقا للتفاوت فى مثل تلك الظروف.

أما فى عهد عمر فقد فاضت الأموال وزادت عن قدر الحاجة والضرورة فكان من المصلحة أن يراعى فى توزيع الدخل عدة إعتبارات أخرى مثل منح مكافآت اضافية لذوى الأعمال والإنتاج الرفيع كما كان من الواجب أن لايحرم الذين أصيبوا بسبب أداء واجبات كانوا يؤدونها للدولة من بذل مبالغ فوق الضرورة كتعويض لهم ومع هذا فقد فرض عمر لجميع المواطنين مايكفيهم فى ذلك الزمن كحد أدنى لدخل الفرد المجزى بكل احتياجاته وهو ثلاثمائة درهم فى العام .

وإذن ، فلم يجحف عمر بحق أحد فى مقدار ما يكفى الفرد العادى بل رتب له مايسد جميع مطالبه من مطعم وملبس ومسكن وسائر ماتستلزمه حياة الناس حينذاك وبذلك لايكون ثمة ضرر من التفاوت فى الاعطيات ولأن كل إنسان يناله من الدولة رعاية كاملة تجعله فى بحبوحة ونعمة لاتجعله يفكر فى مد بصره أو قلبه إلى مالدى الآخرين إذ كل لديه مايغنيه .

ليس من الحق إذن إتهام عمر بأنه بذر التفاوت أو الطبقية أو خالف رأى أبى بكر استهدافا للتمايز(١) وإنما المنطق يحتم أن نقرر أن اختلاف أسلوب التوزيع بسبب اختلاف الظروف وقلة الدخل وكثرته ، فحيث كانت الأموال لاتكفى لغير الحاجة كان التوزيع بالسوية وحين فاض المال تفاوت التوزيع مع تقديم المساواة فى المقدار الذى يسد الحاجة إذ لاينجم عن ذلك ضرر بالفرد أو بالدولة .

ولعل هذا سبق فى عصرى أبى بكر وعمر يجعلنا نفقه مراحل التوزيع

---

(١) انظر كتاب العدالة الاجتماعية ، وفيها اتهام عمر وقدفه الخ .

التى سلكها الخلفاء الراشدون فى صدر الإسلام كما نستطيع أن نؤكد سلامة هذه المراحل فى تقرير اشتراكية الإسلام التى قبستها أمم وشعوب كثيرة منذ القرن السابع لميلاد المسيح إلى القرن العشرين لهذا الميلاد ثم أخذت عناوين وسمات شتى ولكنها لم تخرج فى جوهرها عن اشتراكيتى أبى بكر وعمر وأسلوبهما فى توزيع الدخل القومى ، الذى ساد كذلك فى عهدى عثمان وعلى وسائر الحكومات الإسلامية .

وقد أسلفنا القول فى رأى عمر فى الأراضى الزراعية فى مصر والشام والعراق وقد أجمع مع جمهرة الصحابة على أن تظل ملكا للدولة ولا يجرى عليها بيع ولا رهن ولا إرث ولا شىء وأن ينتفع بها الفلاحون على خراج المقاسمة وذلك ما أطلق عليه فى العصور الحديثة اسم « التأميم » وقد سبق به عمر جميع فلاسفة أوروبا وروسيا والصين .

وعلى ذلك فهل ماحدث فى هذه الأراضى فى العصور الأخيرة من تصرفات بالبيع والشراء والميراث ونحوها يعتبر صحيحا أم يقع باطلا يجب على الدولة أن تصدر من القوانين مايرد الأمر إلى عهد عمر ... ؟

لقد أومأنا إلى ماقام به عمر بن عبد العزيز من إنشاء ديوان المظالم ومحاولته إرجاع الأمر إلى عصر عمر الأول وتأميم الأرض الزراعية بحيث تصبح ملكا للدولة وفى سبيل هذا نزع ملكية الأراضى التى يملكها الامويون وأقاربهم وأصدر أمرا بحظر التصرف بأى شكل فى الأراضى الزراعية فمنع بيعها وتقسيمها وهبتها وما إلى ذلك ولكن المنية عاجلته فتوقف المشروع .

رأى برنارد شو :

ولعلنا نستطيع تقدير سلفنا الراشدين إذا استعرضنا آراء فلاسفة العالم فى عصرنا الحاضر ... وننقل لكم رأى العلامة الفيلسوف « برنارد شو » فى توزيع الدخل القومى ومقدار ما يسد حاجة الفرد العادى فى المجتمع يقول : « إنه يوافق

على ما قرره ويلزمن اعتبار الحد الأدنى لدخل المواطن فى المجتمع الاشتراكى (الذى يتمتع بكفاية الإنتاج وعدالة التوزيع) المأمول بمبلغ أربعة آلاف جنيه فى العام وأطلق عليه اسم الدخل الأساسى . وهو ما يكفى للشخص لكى يكون له بيت ريفى وشقة فى المدينة ومكتبة وسيارة وبيانو واحدى وسائل الرياضة الخلوية ، ثم يقول : إننا إذا بلغنا هذا المستوى ثم تفاوت الناس بعد ذلك فوق هذا الحد الأدنى ما شاء لهم التفاوت فلن يحدث ضرر اجتماعى أوصحى من ذلك ولن يتهدد الجنس البشرى خطر الانقراض أو خطر السلالات الرديئة .

الاشتراكية فى رأى شو :

ويفسر برنارد شو الاشتراكية تفسيرا يشبه كل الشبه ما قام به أبو بكر وعمر مما يجعلنا نعجب ونتساءل عن سرهذا التوافق العجيب حتى فى رقم الدخل الأساسى للفرد كما نبين بعد . يقول الفيلسوف شو : إن الاشتراكية هى رأى أو وجهة نظر فى طريقة توزيع الدخل وهذا ليس ظاهرة طبيعية بل إنه مسألة تنظيم وهو عرضة للتغيير كأى تنظيم آخر وقد أصابه التغيير فى خلال المدة التى تعيها ذاكرة الأحياء ولا يزال فى تغيير مستمر من عام إلى عام .

أما رأى أبى بكروعمر فقد أشرنا إليه وقد اختلف شكل التوزيع فى عهديهما كنتيجة لاختلاف وجهة نظر كل منهما ، ولاختلاف مقدار الدخل فى القلة والكثرة .

ولكن اللافت للنظر هو أن عمر قال منذ أربعة عشر قرنا « لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم ، ألف لسفره وألف لسلاحه وألف لأهله وألف لفرسه وبغله » .

أما ويلز وشوفيقولان : إن الحد الأدنى لدخل الفرد فى المجتمع الإشتراكى المأمول هو أربعة آلاف جنيه ليكون له بيت ريفى وشقة فى المدينة ولتكون له مكتبة وسيارة ووسائل للرياضة والترفيه ...

عمر يرجو أن يصبح دخل الفرد أربعة آلاف درهم وشو يرجو أن يكون دخل الفرد أربعة آلاف جنيه مع ملاحظة أن درهم عمر أكثر قيمة من جنيه شو لبعد الزمن . وعمر يذكر الاحتياجات الضرورية لإنسان القرن السابع (الأول الهجرى) فيشير إلى حاجة الشخص إلى السفر وتغيير الجو مما يقتضيه الكثير من النفقات ، وشو يحدد حاجة انسان القرن العشرين إلى شقة فى المدينة ومنزل فى الريف ... وعمر يشير إلى حاجة الإنسان إلى أدوات الحمل والركوب فيذكر الفرس والبغل وشو يشير إلى السيارة أداة الركوب فى العصر الراهن وهكذا نجد توافقا بين حاجة رجال عمر إلى السلاح كحاجة أصحاب شو إلى المكتبات فما أعجب التقارب بل التوافق بين الرأيين ...

وإذن فما هو الجديد فى أسلوب شو وآماله فى تقرير العدل والكفاية فى المجتمع بله أسلوب الفلاسفة التقدميين أو حتى الذين يقال عنهم أنهم متطرفون عما صنعه عمر ثم فكر فى تطبيقه إذا كثر الدخل ومكنه من رفع المستوى لكل المواطنين ·

إننى لا أرى جديدا فى التطبيق الاشتراكى المأمول بين الماضى والحاضر فقد حدث فى واقعنا التاريخى أكثر مما يفكر فيه بل ما قد يحلم به كثير من متطرفى دعاة الاشتراكية العلمية فى القرن العسرين .

وإذن فالاشتراكية العربية يمكن تعريفها بأنها : أسلوب اجتهادى فى طريقة توزيع الدخل القومى وتنظيم العمل والإنتاج وسائر المرافق العامة من أجل المواطنين وهذا غير محكوم بنصوص بل متروك للأمة تشكله حسب المصالح واحتياجات المواطنين فى كل عصر ومصر .

أسلوب عثمان وعلى

لم يخالف عثمان بن عفان النظام الذى وضع فى عهد عمر بن الخطاب فى توزيع الدخل القومى ، وكذلك على بن أبى طالب . إذ كان هذا النظام بمشهد منهما وبرأيهما ، كما كان برأى الأمة كلها ولهذا لا نـكاد نرى جديداً فى أمر الديوان الذى دونه عمر ، سواء فى نظام الجباية أو أسلوب التوزيع .

أما الاتهامات التى وجهت إلى عثمان ، فقد أوضحناها ، وأبنا الدوافع إليها ومدى اسفافها فى فصل خاص إبان الحديث عن عهده .

كذلك لا نـكاد نعثر على أية مخالفة من على لأسلوب التوزيع الذى تم فى عصر الخليفة عمر . ولقد ظلت السياسة التى نهجها عمر هى السائدة فى جميع الشئون سواء الاقتصادى منها أم الاجتماعى بوجه عام . بل ان سائر الدول الإسلامية التى جاءت بعد الراشدين من أمويين وعباسيين ، لم تخالف فى جوهر النظام الذى وضعه المسلمون أيام عمر ، وان حدثت تطورات تمس الشكل والعرض المتغير .

ولعل هذا الديوان الذى انشأه عمر ، مستعينا بتجارب الأمم السابقة فى تنظيمه ، مثل الفرس والروم ، وغـيرهما هو الأساس الذى نظمت على مثاله دواوين الموظفين فى العصور الوسطى والعصر الحديث ، بل وإلى الوقت الراهن لأن جوهر تنظيم عمر فى منح الاعطيات والرواتب السنوية بنى على أساس العمل والانتاج ، والضرورة والتعويض ، مع احترام المؤهل العلمى والثقافى والفنى ، واعتبار الانخراط فى سلك الجندية مؤهلا يفرض لصاحبه العطاء .

كذلك سن عمر لمن يؤدون خدمة عامة للدولة راتبا من بيت المـال وأعلن أنه مسئول عن حاجة كل مواطن وأمنه وسلامته معهما بعدت به الشقة عن عاصمة الدولة .

وإذن ، فهل من جديد فى ألوان التنظيمات التى ابتدعها عالم اليوم ؟

نعم . ثمة جديد عما كان فى عهد عمر بن الخطاب وسلفه وخلفه وهو انه لم يكن يوجد فى الأمة الإسلامية ودولتها المترامية من يشكو ظلما ، أو يتسول لحاجة ، أو يخون ويغدر لدنيا أو لدين؟ لأن العدل شريعة الله ، كان هو نفسه شريعة عمر التى طبقها حرفيا فنعم الجميع بكل ماتتطلبه ضرورة الإنسان من حقوق أساسية. تناط بالمسكن والملبس والمطعم والمشرب، والعلم والصحة والثقافة والأمن والرياضة والترفيه . وبحسب عمر أن يتمنى لوكثر المال لمنح كل فرد ما يفضل على ضروراته ، بعد أن أعطى كل مواطن ما يسد تلك الضرورات التى يعتبر كثير منها اليوم من الكماليات .

وإلى أن يوفق الله سبحانه لاخراج موسوعة فى حضارة الاسلام نجتزى بهذا القدر لننتقل إلى أسلوب ادارة الدولة بوجه عام . . . والله ولى التوفيق .

إدارة الدولة

وإذ قد أوجزنا جملة عن مقومات الحضارة الإسلامية فى العصر الذهبى لتاريخ الاسلام ، وأتينا على آراء الباحثين فى الحضارات العالمية فاننا نرى أن نسوق جملة أخرى عن إدارة الدولة فى عصر الراشدين بادئين بعرض سريع لما شرعه النبى (ص) من نظم كانت هى الأساس لتلك النهضة الشاملة التى قامت فى عهد خلفائه الأربعة ، إذ كان عصره – ص – مرتبطا كل الارتباط بعصر أصحابه الأربعة حتى انه لا يمكن وضع حدود وفواصل بين المراحل التى حدثت فى هذه الفترة . واذن فلابد من الحديث عن إدارة الرسول – ص – قبل تفصيل الحديث عن إدارة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، لتشابك العصرين . فنقول وبالله التوفيق .

الادارة فى حياة الرسول (ص) .

لما ظهر الاسلام على الشرك ، طفق الرسول يدعو إلى دينه جهرة وأخذ يرسل أمثل من دخلوا فى الاسلام من الرجال ، لتلقين العرب الدين وأخذ الصدقات منهم . وإذا وفد عليه وافد يعهد اليه أن يعلم قومه دينهم و(امام كل قبيلة منها لنفور طباع العرب أن يتقدم على القبيلة أحد من غير أهلها) وإذا كان الوافد من رؤوس قبيلة يوسد اليه جباية الفىء ويأمره أن يبشر الناس بالخير ويعلمهم القرآن ويفقههم فى الدين ، ويوصيه أن يلين للناس فى الحق ، ويشتد عليهم فى الظلم ، وأن ينهاهم إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، ليكون دعاؤهم إلى الله وحده لاشريك له ، وأن يأخذ خمس الأموال وما كتب على المسلمين فى الصدقة ، وأن من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاماً خالصاً

من نفسه ودان دين الإسلام فإنه من المؤمنين ، له مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن عنها، وبعث معاذاً إلى اليمن فقال له: إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله تعالى فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب . وكتب إلى عمر بن حريث عامله على نجران كتابا فى الفرائض والسنن والصدقات والديات . واكتفى الرسول بأخذ الجزية من أهل نجران وأيلة وهم نصارى من العرب ، ومن أهل دومة الجندل وهم نصارى وأكثرهم عرب وبلغ أناساً من المشركين ممن لم يكن لهم عهد ولم يوافوا الموسم ، أن رسول الله أمر بقتال المشركين ممن لا عهد لهم فقدموا على الرسول ليجددوا حلفا فلم يصالحهم الرسول إلا على الاسلام واقام الصلاة وايتاء الزكاة فأبوا فخلى سبيلهم حتى بلغوا مأمنهم ، وكانوا نصارى من قيس ابن ثعلبة فلحقوا باليمامة ، حتى أسلم الناس ، فمنهم من أسلم ومنهم من أقام على نصرانيته. ولما كان الهدف الأسمى هو نزع الشرك من نفوس العرب أولا ، رأينا الشارع يميل إلى الرفق بأهل الكتاب لا يباديهم الشر إلا إذا قاوموه .

وقد أحسن معاملة نصارى نجران . وفدوا عليه ستين راكباً فيهم العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذى يصدرون عن رأيه وأمره ، وفيه ثمالهم وصاحب رحلهم ومعهم أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم فعاهدوه على أداء الجزية . وقال الرسول : من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة . وقال : من قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة .

وقال : من قتل نفساً معاهدة بغير حلها حرم الله عليه الجنة أن يشمها .

وجعل دية المعاهد كدية المسلم ألف دينار ، وعن مالك بن الوليد قال : أوصانى الرسول أن لا أخطو إلى إمارة خطوة ، ولا أصيب من معاهد إبرة فما فوقها ، ولاأبغى على إمام بالسوء. ولم يحارب الرسول اليهود فى خيبر وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده وأرادوا قتاله وكشفوا ستر سيدة من الأنصار . ويهود بنى النضير وبنى وائل هم الذين حزبوا الأحزاب عليه ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حربه ، وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقطع نخل بنى النضير ثم صالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أوطانهم ، ويسيرهم إلى أذرعات بالشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء على أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة ، وطاوله يهود خيبر وما كسوه ثم صالحوه على حقن دمائهم وترك الذرية ، على أن يجلوا ويخلوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبزة[1] إلا ما كان منها على الأجساد، وأن لا يكتموه شيئاً ، ثم قالوا للرسول : إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً فأقرنا فأقرهم .

وفى بنى النضير نزلت سورة الحشر . وأبيد بنو قريظة لنقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على الرسول . فأمر بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم واستفاءة أموالهم ووضع الرسول على المسلمين وغيرهم وعلى الأرضين والثمار والماشية أموالا بين الكتاب العزيز أصنافها فى عدة آيات وبين حكم انفاقها فقال : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) (واعلموا إنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) (إنما الصدقات للفقراء

---

(١) البزة هنا الثياب والأمتعة.

والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) .

فالفىء خراج يؤخذ من أرض العنوة والخراج مايؤخذ من أرض الصلح ومما فتح عنوة وأكثر أهله عليه ، والجزية مال يتقاضى من أهل الكتاب ، والعشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التى أسلم أهلها عليها كأرض العرب، أوفتح عنوة وقسم بين الغزاة . وما كانت الجزية تقبل من غير الكتابيين فى الأرض العربية ، ولا يقبل من المشركين عبدة الأصنام إلا الإسلام . ومن الأرض ماصولح أهله على النصف من ثمارهم كأهل فدك ، وجعل النبى فدك له خاصة لأنه لم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب . والأنفال والغنائم فى القتال، والصدقة فى رأى الجمهور أنواع هى الزكاة وهى عشر الغلات التى تأتى من الأرض التى خلت من سكانها أو كانت مواتاً فأحيوها ، وصدقات الماشية هى زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل والمعلوفة والصدقات عروض التجارة قال ابن حبيب : أول مابعث الله نبيه بالدعوة بعثه بغير قتال ولا جزية ، فأقام على ذلك عشر سنين بمكة بعد نبوته يؤمر بالكف عنهم ثم أنزل الله عليه :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) الآية ، وأمره بقتال من قاتله والكف عمن لم يقاتله وقال الله عزوجل : (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً) ثم نزلت براءه لثمان سنين من الهجرة فأمره بقتال جميع من لم يسلم من العرب من قاتله أو كف عنه إلا من عاهده ولم ينتقص من عهده شيئاً فقال:(فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل فى مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) . وكل ذلك كان يؤخذ ممن اهتدوا إلى الدين الحنيف ومن بقوا على دينهم من اليهود والنصارى بعدل لاشطط فيه يدفعه

المسلمون والمعاهدون طيبة نفوسهم ولم يتبرم به أحد . شكايهودخيبر — « وكانت قرية الحجاز ريفا ومنعة ورجالا » وكان فيها عشرون الف مقاتل — عبد الله بن رَوَاحة . وكان الرسول يبعثه كل عام يخرص(١) عليهم تمرهم ثم يقول : إن شئتم فلكم وإن شئتم فلى ، فكانوا يضمنونه فشكوا إلى الرسول شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه جللوا له حلياً من حلى نسائهم فقالوا: هذا لك وخفف عنا وتجاوز فى القسم . فقال عبد الله : يامعشر اليهود . انكم لمن أبغض خلق الله تعالى إلى وماذاك بحاملى على أن أحيف عليكم وأما ماعرضتم على من الرشوة فإنها السحت وإنا لا نا كلها . فقالوا :

بهذا قامت السموات والأرض . . ولقد كان الرسول يتخير عماله من صالحى أهله وأولى دينه وأولى علمه ، ويختارهم على الأغلب من المنظور إليهم فى العرب ليوقروا فى الصدور ، ويكون لهم سلطان على المؤمنين وغيرهم ، يحسنون العمل فيما يتولون ويشربون قلوب من ينزلون عليهم الإيمان ، ويكشف أبداً عمالهم أى يفتشهم ، ويسمع ماينقل إليه من اخبارهم .

وقد عزل العلاء بن الحضرمى عامله على البحرين لأن وفد عبد القيس شكاه وولى أبان بن سعيد وقال له : استوص بعبد القيس خيراً وأكرم سراتهم . وكان يستوفى الحساب على العمال . يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، وقد استعمل مرة رجلا على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال : هذا لكم وهذا أهدى إلىّ ، فقال: أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه فنظر أيُهدى إليه أم لا . وقال : من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول .

وما انفك الرسول من استشارة أهل الرأى والبصيرة ومن شهد لهم بالعقل والفضل ، وأبانوا عن قوة ايمان ، وتفان فى بث دعوة الإسلام وهم سبعة

(١) يقدر ويحصى

من المهاجرين وسبعة من الأنصار ، منهم حمزة وجعفر وأبو بكر وعمر وعلى وابن مسعود وسلمان وعمار وحذيفة وابو ذرو المقداد وبلال وسموا النقباء لأنهم ضمنوا للرسول إسلام قومهم ، والنقيب الضمين وكان له عرفاء أى رؤساء جند ويكتب له بعض جلة الصحابة من الـكملة ، والكملة فى الجاهلية وأول الإسلام هم الذين كانوا يكتبون بالعربية ويحسنون العوم والرمى . كان كاتب العهود إذا عاهد والصلح إذا صالح على بن أبى طالب . وممن كتب له ابو بكر وعمر وعثمان والزبير ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص وحنظلة الأسَيْدى والعلاء بن الحضرمى وخالد بن الوليد وعبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن عبد الله بن ابى بن سلول والمغيرة ابن شعبة وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان يكتب فيما بينه وبين العرب وجُهيَمْ بن الصلت وشرحبيل ابن حسنة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وبلغ كتابه اثنين وأربعين رجلاً وكان صاحب سره حذيفة بن اليمان وكان الحارث بن عوف المرى على خاتمه وخاتمه من فضة نقش ثلاثه أسطر محمد سطر ، ورسول سطر والله سطر ، ويضع خاتمه أيضاً عند حنظلة بن الربيع بن صيفى بن أخى أكثم ، ويكون خليفة كل كاتب من كتاب النبى غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب وكان مُعَيقيب بن أبى فاطمة يكتب مغانم الرسول وكذلك كعب بن عمرو بن زيد الأنصارى كان يقال له صاحب الغنائم وحذيفة بن اليمان يكتب خرص تمر الحجاز ، والعلاء بن عتبة وعبد الله بن الأرقم يكتبان بين الناس فى قبائلهم ومياهم وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء . وكان عبدالله بن الأرقم يجيب الملوك عن الرسول ، والزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان أموال الصدقات ، والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان المداينات والمعاملات ، وشرحبيل بن حسنة يـكتب التوقيعات إلى الملوك . ومن شعرائه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب ابن مالك انتدبهم لهجو المشركين ، وخطيبه ثابت بن قيس . وكان زيد بن ثابت ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية واليهودية . وناجية الطفاوى

ونافع بن ظريب النوفلى يكتبان المصاحف وشفاء أم سليمان بن أبى حتمة تعلم النساء الكتابة. عبادة بن الصامت يعلم أهل الصفة القرآن. وكانت دار مخرمة ابن نوفل بالمدينة تدعى دار القرآن.

وأول قاض فى المدينة عبد الله بن نوفل. ومقرىء المدينة مصعب بن الزبير. وأول لواء عقد فى الإسلام لواء عبد الله بن جحش، وعقد لسعد بن مالك الأزدى راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض وكان لواؤه أبيض أو أصفر أو أغبر وله راية تدعى العقاب من صوف أسود مكتوب على رايته: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وأول مغنم قسم فى الإسلام مغنم عبد الله بن جحش. ومن عماله أبو دجانة الساعدى وسباع بن عرفطة عاملاه على المدينة، وكان ثلاثة أرباع عماله من بنى أمية لأنه إنما طلب للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والغناء، ولم يطلب أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها كما قال معاوية. واستعمل الرسول أباسفيان بن حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب، ووجه راشد بن عبد الله أميراً على القضاء والمظالم.

وكان الرسول كثيراً ما يقول أرحم أمتى أبو بكر، وأشدهم فى دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم على، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ابن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبى بن كعب، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح. وقال: خذوا القرآن من أربعة؛ من عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وجمع القرآن أى حفظه جميعه من الأنصار أبو معاذ وزيد بن ثابت وأبو قيس بن السكن، هؤلاء أهم رجال الإدارة والقضاء والفقه والقرآن.

وهناك طبقة أخرى تتولى الأعمال مثل عتاب بن أسيد الذى استعمله

والياً على مكة ، ورزقه كل يوم درهما فقام يخطب ويقول : أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم فقد رزقنى رسول الله درهما كل يوم ، فليست بى حاجه إلى أحد . وهذا الراتب من أول ما وضع من الرواتب للعمال . وقد يكون رزقهم ما يطعمون منه على نحو ما أجرى على قيس بن مالك الأرحبى من همذان لما استعمله على قومه عربهم ومواليهم فأقطعه من ذرة يسار مائتى صاع ومن زبيب خيوان مائتى صاع جار له ذلك ولعقبه من بعده أبداً أبداً أبداً . أما كبار الصحابة فكانوا يعطون ما يتبلغون به من الغنائم وغيرها ، ومنهم من كان غنيا فى الجاهلية والإسلام فجهز من ماله جنداً فى سبيل الله ، بل منهم من أنفق كل ماله فى هذا الغرض وهو راضى مغتبط .

ولقد آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار بأخوة الإسلام والإيمان ولطالما اقطع القطائع ، وكان يتألف على الإسلام ، ويعطى من الصدقات من يريد تأليف قلوبهم ، فدعى من يأخذون ذلك «المؤلفة قلوبهم» وهم أحد وثلاثون رجلا من سادة العرب تألفهم وتألف بهم قومهم ، ليرغبوهم فى الإسلام ، ولئلا تحملهم الحمية مع ضعف نياتهم على أن يكونوا إلباً مع الكفار على المسلمين ، وما منهم إلا الشريف المسود والعالم والخطيب والشاعر والداهية الباقعة ، وكل منهم سيد فى قومه مطاع فيهم ، قال صفوان بن أمية :

لقد أعطانى رسول الله يوم حنين وإنه لمن أبغض الناس إلى ، فما زال يعطينى حتى إنه لمن أحب الناس إلى . وقال الرسول : إنى لأعطى قوماً أتألف ضلعهم وجزعهم وأكل قوماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى . وكان يعامل المسلمين بقواعد المساواة التامة ، ويفضل مثلا من الأزد الأنصار وهم الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو بن عامر وهم أعز الناس نفساً وأشرفهم ، وهم لم يؤدوا اتاوة قط الى أحد من الملوك .

كانت الحكمة فى تأليف من قضت المصلحة بتأليفهم ، وأعطى كل واحد من المؤلفة قلوبهم فى احدى غزواته مئة من الإبل ومقداراً من الفضة ، فلما دخل الناس فى الدين أفواجاً ، وظهر المسلمون على جميع أهل الملل بطل العطاء للمؤلفة قلوبهم ، ودخل بعضهم فى خدمة الدولة وتولوا العمالات وقيادة الجيوش ، ولم يبق عربى بعد واقعة حنين والطائف إلا أسلم ، ومنهم من قدم على الرسول ومنهم من لم يقدم ، وقنع بما أتاه به وافد قومه من الدين . ولما فتحت مكة دانت العرب للاسلام وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته ، فدخلوا فى دينه وقل ان دخل فيه الا من اعتقد صدق صاحبه ، وقد جاء قيس بن نشبة السامى فأسلم ورجع الى قومه فقال : يا بنى سليم ، قد سمعت ترجمة الروم وفارس واسفار الرهاب والكهان وقول حمير فما كان كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم. وقال أبو سفيان بن حرب : ما رأيت أحداً يحب أحداً من الناس كحب أصحاب محمد محمداً وكثرت الوفود فى السنة التاسعة للهجرة حتى سمى عام الوفود، وبعث رسله الى ملوك الأرض يدعوهم الى الإسلام ، وفى سنة سبع بعث دحية الكلبي بكتاب الى عظيم بصرى فدفعه هذا الى هرقل ، وبعث عبد الله بن حذافه السهمى الى كسرى ، وعمرو بن أمية الى النجاشى وحاطب ابن أبى بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية والعلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى ملك البحرين وشجاع بن وهب الاسدى الى الحرث بن أبى شمر الغسانى، والمهاجر بن أبى أمية الى الحرث ملك اليمن . وجاءت وفود العرب من كل وجهة ، وكان الرسول (ص) يكرمهم ويفضل عليهم بعطائه، ومنهم من يضيفه عشرة أيام كوفد عبد القيس ، ومنهم من يبالغ فى اكرامه كملوك اليمن ، وإنما سموا ملوكاً لأنه كان لكل واحد منهم واد يملكه بما فيه . وكانت كتبه الى ملوك الأطراف خارج الجزيرة بلغة مضر وفصيح ألفاظها وكلها موجزة ، واستعمل ألفاظاً فى بعض

كتبه الى أهالى اليمن وغيرهم غير معروفة للعرب كافة الا فى قبيل واحد ، وذلك إرادة إفهام القوم ومخاطبتهم بمألوفهم من العبارات .

قال على للرسول وقد سمعه يخاطب وفد بنى فهد : يارسول الله نحن بنوأب واحد ، ونراك تكلم وفد العرب بما لا نفهم أكثره . فقال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، وربيت فى بنى سعد .

فكان يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمون . ولم يكن للرسول بيت مال ، وكان يخبأ الأموال فى بيته وبيوت أصحابه وفى الغالب أن الفىء يقسم من يومه ، خصوصاً إذا كان من الناطق كالإبل والشاه والخيل والبغال . والرسول يعطى الآهل من الفىء حظين والعزب حظاً وما كانت تأخذه بالمشركين هوادة لا سيما بعد أن فتحت مكة ، وأطاعت الحجاز واليمن واليمامة وغيرها من اصقاع الجزيرة ، وما كان هوى من رسخ الإسلام فى قلوبهم فى شىء من حطام الدنيا ، فقد بلغ من تبادل الثقة والحب بين المسلمين فى صدر الإسلام انهم كانوا خلطاء بالمــال ، يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقاً لقوله تعالى : (و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . ولقد أهديت لعبادة بن الصامت هدية و إن معه فى الدار اثنى عشر من أهل بيته فقال عبادة : إذهبوا بهذه إلى آل فلان فهو أحوج إليها منا : قال الوليد بن عبادة فأخذتها فكنت كل ماجئت أهل بيت يقولون إذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح .

وأسلف عبد الله بن جعفر الزبير بن العوام ألف ألف درهم فلما قتل الزبير قال إبنه عبد الله لعبد الله بن جعفر إنى وجدت فى كتب أبى إن له عليك ألف ألف درهم فقال : هو صادق فاقبضه إذا شئت . ثم لقيه فقال : يا أبا جعفر

وهمت .. المال لك عليه فهو له قال:لا أريد ذاك. قال: فاختر إن شئت فهوله وإن كرهت ذلك فله فيه نظيره ما شئت ، و إن لم ترد ذلك فبعني من ماله ماشئت .

مثال آخر من هذا الإيثار ٠ كان بالمدينة فى زمن النبي شاب يقال له مالك ابن ثعلبة الأنصارى ولم يكن بالمدينة شاب أغنى منه ، فمر بالنبي والنبي يتلو هذه الآية (والذين يكنزون الى قوله فذوقوا ما كنتم تكنزون) فغشى على الشاب فلما أفاق دخل على النبي فقال : بأبى أنت وأمى هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة فقال له النبي : نعم يا مالك . قال : والذى بعثك بالحق ليمسين مالك ولا يملك ديناراً ولا درهماً . قال : فتصدق بماله كله.وما كان أصحاب رسول الله بالمنحرفين ولا المتزمتين يتناشدون الأشعار ، ويجلسون فى مجالسهم، ويذكرون جاهليتهم فإن أريد انسان منهم على شيء من أمر دينه دارت عيناه فترى حماليقها غضباً . بل كان منهم من إذا ارتكب كبيرة يعاقب عليها الإسلام يأتى الرسول يطلب اقامة الحد الشرعى عليه ،أو يسمع منه ما ينقلب به الى أهله مسروراً ، يأخذ حكمة تثلج بها نفسه ، ويعتقد أنه تحلل من ذنبه واستغفر له الرسول.

وأراد النبي محمد مرة إحصاء المسلمين فقال :ا كتبوا الى من تلفظ بالإسلام من الناس ، فكتبوا له ألفا وخمسائة رجل . وما كان يجمع المسلمين فى أول أمرهم كتاب حافظ أى ديوان مكتوب وكان إذا نودى للزحف وتخلف عنه أحدهم لعذر أو شبه عذر، يلومه الرسول وأصحابه، وإذا تبين أنه تعمد أن يكون مع المتخلفين عن القتال يعاتب ، ويقاطعه الجماعة ويجتنبونه لا يكلمه أحد . ولما أمر الرسول بالتهيؤ لغزو الروم فى اليرموك، تثاقل المسلمون عنها وأعظموا غزوهم، فنافق من نافق من المنافقين ، حين دعوا الى ما دعوا إليه من الجهاد ، وكان ذلك فى زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على

الحال من الزمان الذى هم فيه وجاء المتخلفون عن هذه الغزاة وكانوا ثمانين رجلاً فقبل الرسول منهم علانيتهم وإيمانهم ، واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله . وفى هذه الغزوة حض الرسول أهل الغنى على النفقة والحملان فى سبيل الله فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وكان من أفضل القربات أن يجهز أرباب اليسار أناسا للغزو يتكفلون بطعامهم وإطعام ذويهم،ويعطونهم السلاح والكراع واللباس ليغزوا ويرابطوا وكان المسلمون كلهم جنداً يقاتلون للدين وكان لا يزال فيهم أبداً من يبذل شطراً صالحاً من ماله فى وجوه البر والقرب لايريدون على إسلامهم ونصرهم للرسول جزاء . وجميع ماغزا الرسول بنفسه سبع وعشرون غزوة وكانت بعوثه وسراياه ثمانياً وثلاثين بين بعث وسرية ، وكان يورّى بغزواته ، وقل أن يعين لأصحابه الوجهة التى يقصدها فى غزاته ، وكتب مرة لأحدهم كتاباً وأمره أن لايقرأه حتى يبلغ مكان كذا وكذا. ولا يستكره من أصحابه أحداً أى يندبهم للعمل فان بلغه قرأ ، وذلك ليترصد بذلك قريشاً ويعلم له من أخبارهم .

ولم يكن للمسلمين سلاح جاهز .وسلاحهم القوس والنبل والحربة والسيف والدرع ثم اتخذ أنواع السلاح التى كانت موجودة إذ ذاك عند الأمم . واستعار الرسول يوم هوازن مئة درع بما يكفيها من السلاح من « صفوان ابن أمية» ليلقى بها العدو على أن تكون عارية مضمونة حتى يؤديها إليه ورأى الرسول أن اتساع الفتوح يقضى بأن يتعلم بعض أصحابه صنعة الدبابات والمجانيق والضبور أى صنائع القتال فأرسل إلى اليمن إثنين من أصحابه يتعلمانها . وكان أهل الطائف أول من رمى بالمنجنيق . وأخذ المسلمون بعد ذلك يعدون لأعدائهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، لأنهم قادمون على فتح الشام والعراق على ما بشرهم به الرسول فقال لعدى بن حاتم لعلك ياعدى إنما

يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . وقال مرة : أبشروا وأملوا ما يسركم فو الله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها فتهلككم كما أهلكتهم .

رأينا الرسول فى طور ضعفه ، ثم فى طور قوته ، يحرص على رجاله حرصه على أعز شى لديه . ولما دخل عمر فى الإسلام إعتز به وترك به المسلمون التقية فى دينهم ، بل انه كان إذا سقط فى يده أحد أذكياء المشركين أبقى عليه ، مهما كان من ايذائه للمسلمين أو له خاصة ، لعل فى حياته ما يستفيد منه الإسلام اذا أسلم . أما من قتلوا النفس التى حرم الله فهؤلاء لا تأخذه بهم رحمة ؛ قدم عليه نفر من العرب قد ماتوا هزالا فأسلموا واجتووا المدينة فأمرهم الرسول أن يأتوا إبل الصدقة يشربوا من ألبانها ففعلوا وصحوا وسمنوا فارتدوا وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل فبعث فى آثارهم فما ترجل النهار حتى جىء بهم وأوقع عليهم أشد العقوبة الشرعية .

وكان يحسن معاملة النساء عامة كما يحسن معاملة أزواجه خاصة فيؤثرن أى تأثير فى الرجال ، ويجعل منهن أدوات صالحة له يبث بواسطتهن دعوته ، ويرعى مصالح المسلمين ، وقد أوصى بهن أجمل وصاة فى خطبته يوم حجة الوداع . وهذا غاية فى حسن الإدارة والسياسة لأن حل المسائل بدون مشاكل ، أنفع من حلها بطرق جافة . والنساء فى هذا المعنى من أفعل أسباب الدعوة ، خصوصا إذا كن

كالصحابيات يأخذن بمجامع القلوب بجميل عاطفتهن وجمال بلاغتهن . وكان يسمح باستخدام النساء فى حروبه وغزواته يخدمن الجرحى ويأخذن من العطاء ويتولين من الرجال ما يصلحن له كالطعام والاسقاء ، ويحمسن من يحتاج الى تحميس وجعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة يقال لها رفيذة فى مسجده كانت تداوى الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان فيه خفيفة من المسلمين . وكذلك كانت أخت رفيدة واسمها كعبة بنت سعد الأسلمية . ومنهن من كن يخطن القرب . فالنساء فى حكومته ممرضات طاهيات ساقيات خياطات محمسات داعيات . وأمر الرسول أن لا يقتل النساء فى الحرب . فكان بذلك يستفيد من كل قوة فى بلده يستعين بها على الظهور على المشركين .

ومن خطبه الإدارية ماورد فى الثقات أنه قعد على بعير له وأخذ إنسان بخطامه أو بزمامه فقال أى يوم هذا . قال من حضر : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه . فقال : أليس يوم النحر : قلنا : بلى . قال : فأى شهر هذا . قال : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه . فقال : أليس بذى الحجة قالوا : بلى . قال : فأى بلد هذا . قال: فأمسكنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه. فقال : أليس بالبلد الحرام . قلنا : بلى . قال : فان دماءكم وأعراضكم (وفى رواية وأموالكم) بينكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا فليبلغ الشاهد الغائب .

هذا جملة ما يقال فى تدبير الرسول فى الإدارة من بث دعوة ، وجهاد عدو ، وأخذ غنائم وصدقات وجزى وعشور ، وقسمتها بين المجاهدين وأهل البلاء من المهاجرين والأنصار ، ثم على فقراء االمسلمين ، وما كان من توزيعه العمل بين عماله ومعاملته لهم وللوفود والنساء الى غير ذلك من أسباب القوة واتخاذ الجند والمحاربين ، واشتداده فى الحق ولينه اذا دعت الحال

الى اللين ، واغضائه أحيانا لما يلحق به من الأذى ، يرقب الفرص لمن يكيد للمسلمين .

ومما يصح التمثيل به فى باب اللين أنه رضى يوم الحديبية أن يدخل وأصحابه مكة ثلاثة أيام فقط على أن يكونوا بجلبان السلاح وصالح سهيلا بن عمرو أخا بنى عامر بن لوى فدعا عليا بن أبى طالب . فقال ، أكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله . اكتب باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلا بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . ولكن اكتب إسمك واسم أبيك . فقال رسول الله . اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلا بن عمر اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه . وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه . ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه إلخ . فاستاء المسلمون من هذا العهد بعد أن فازوا على أعدائهم ؛ وأحب الرسول حقن الدماء فقبل من خصمه هذا العنت ، وكانت العاقبة له ولقومه .

إدارة الخلفاء الراشدين :

سار أبو بكر بسيرة الرسول فى الإدارة الإسلامية واحتفظ بالعمال الذين استعملهم صاحب الشريعة ، والأمراء الذين أمرهم ، ومن العمال من أبى أن يعمل لغير رسول الله فاعتزل العمل . . ولما وسدت الخلافة إلى الصديق قال له أبو عبيدة . أنا أكفيك المال . وقال عمر : وأنا أكفيك القضاء . فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان ، ولم يخاصم إليه أحد وذلك لأن الناس كانوا أول ظهور

الاسلام يرون من الطبيعى أن يعطى الحق ويأخذ الحق ، ويقف عند حدود الله لايقارف منكراً ولايسرف على نفسه ، ويبعد عن الزور وأكل أموال الناس بالباطل ، ويجعل رائده الصدق فى أقواله وأفعاله .

كان إذا نزل بالصديق أمر يريد فيه مشاورةً أهل الرأى والفقه ، ودعا رجالاً من المهاجرين والأنصار ، دعا عمر وعثمان وعليا وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وكل هؤلاء كان يفتى فى خلافة أبى بكرٍ ، وانما تصير فتوى الناس إلى هؤلاء . على أن أبا بكر كان جد عالم بالشريعة وأخبار الناس وأيامهم وأنسابهم وسياستهم ، إلى مارزق من صدر رحب يطاب من كل صاحب إدارة ، واختار من القضاة ما اختاره الولاة غالبا ، وكان ولاة المدينة هم الذين يختارون القضاة ويولونهم ، ويكتب لأبى بكر على بن أبى طالب وزيد بن ثابت .

ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان ويكتب له من حضر ومن عماله عتاب ابن أسيد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبى العاص والمهاجر بن أبى أمية وزياد بن عبيد الله الأنصارى ويعلى بن منية وأبو موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل والعلاء ابن الحضرمى وجرير بن عبد الله وعبد الله بن ثور وعياض بن غنم وأبو عبيدة ابن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وخالد بن الوليد .

ماتجاوزت رقعة الملك الاسلامى فى أيام أبى بكر أكثر من جزيرة العرب قسمت إلى ولايات أو عمالات وهى مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت وخولان وزبيد ورمع والجند ونجران وجرش والبحرين ، أما القواد الآخذون بفتح الشام والعراق فيولون عمالا من عندهم فى الأرض التى يفتحونها . بمعنى أن الحجاز قسم إلى ثلاث ولايات ، واليمن إلى ثمان ، والبحرين وما اليها ولاية .

ولما ولى أبو بكر قال : قد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن مؤونة

أهلى ، وقد شغلت بأمر المسلمين فى مالهم وسيأكل آل أبى بكر من هذا المال ، فجعلوا له الفين وفى رواية ثلاثة دراهم كل يوم من بيت المال . ثم قال : زيدونى فإن لى عيالا وقد شغلتمونى عن التجارة فزادوه خمسمائة . ولما مات ابنه فى خلافته ترك سبعة دنانير فاستكثرها أبو بكر ولم يفرض أبو بكر ولا الرسول من قبل عطاء مقرراً للجند وكانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم، وإذا ورد المدينة مال بعض البلاد أحضر إلى مسجد الرسول وفرق فيهم يصيب منه الأنصار والمهاجرون وكل مسلم بحسب غنائه فى نصرة الدين . جرى الأمر على ذلك مدة خلافه أبى بكر . وكان لأبى بكر بيت مال بالسنح من ضواحى المدينة إلى أن انتقل إلى المدينة فقيل له ألا تجعل عليه من يحرسه ، قالوا فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى منه شيء

ولما قضى نحبه ذهب عمر فى نفر من الصحابه لاستلام بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً . وجرى أبو بكر على كشف أحوال العمال ، وكان كصاحبه يختار أكثرهم علماً وعملا . ولما عزل خالد بن سعيد أوصى به شرحبيل بن حسنة وكان أحد الأمراء فقال : انظر خالد بن سعيد فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرف لك من الحق عليه لو خرج والياً عليك ، وقد عرفت مكانه من الإسلام وإن رسول الله (ص) توفى وهو له وال ، وقد كنت وليته ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيراً له فى دينه ما أغبط أحداً بالامارة . وقد خيرته فى أمراء الأجناد فاختارك على غيرك ، واختارك على ابن عمه ، فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأى التقى الناصح ، فليكن أول من تبدأ أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ، وليك خالد بن سعيد ثالثاً . فإنك واجد عندهم نصحاً وخيراً .

وإياك واستبداد الرأى عنهم أو تطوى عنهم بعض الخبر .

وشغل أبو بكر بقتال أهل الردة فوطد دعائم الدولة بإظهار قوة المسلمين لمن خالفهم ؛ فجمع الشمل الذى كان يخشى من انبثاثه ، وبدأ منه حزم عجيب وإدارة شديدة رشيدة ، وخالف جميع اصحابه فى قتال من اخلوا بشروط الإسلام فأصر على قتالهم .

ولقد قال عمر: ان العرب لما ارتدت وضعت شاتها وبعيرها أجمع رأينا كلنا أصحاب محمد ان قلنا لأبى بكر : إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يمده الله بهم ، وقد انقطع ذلك فالزم بيتك ومسجدك ، فإنه لا طاقة لك بقتال العرب . فخالفهم كلهم أبو بكر وأعلن هذه الحرب على المرتدين حتى أذعنت العرب بالحق .

استبد أبو بكر برأيه فكان رأيه الصواب ، وقضى بصادق عزيمته وبعيد نظره قضاء مبرماً على آخر أثر من آثار الوثنية فى الأرض العربية ، ولما أرسل الصديق الأمراء لقتال أهل الردة أوصاهم أن يقتصدوا بالمسلمين ، ويرفقوا بهم فى السير والنزل ، ويتفقدوهم ويستوصوابهم فى حسن الصحبة ولين القول ، وأمر قواده فى المرتدين أن لا يقاتلوهم حتى يدعوهم إلى الله ، فمن استجاب لهم وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعين عليه ، ومن أبى يقاتل على ذلك ، ولا يبقون على أحد منهم قد روا عليه ، وان يحرقوهم بالنار ويقتلوهم كل قتلة ، ويسبوا النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد إلا الاسلام . ومن وصايا أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان لما أرسله إلى الشام قوله :

«وإذا دخلت بلاد العدو فكن بعيدا من الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالادلاء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه. واحترس من البيات فإن فى العرب غرة ، وأقلل من الكلام فإن لك ماوعى عنك ، وإذا أتاك كتابى فانفذه فإنما اعمل على حسب انفاذه . وإذا قدمت عليك وفود

العجم فأنزلهم معظم عسكرك وأسبغ عليهم النفقة ، وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا تلحن فى عقوبة فإن أدناها وجع ، ولا تسرعن إليها وأنت تكتفى بغيرها، واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله فى سرائرهم، ولا تجسس عسكرك فتفضحه ولا تهمله فتفسده » . ولم يحدث أبو بكر فى ايامه احداثاً جديدة ، والفتوح لم تقف مع حروب الردة ووجه وجهته نحو الشام وكان آخر جيش جهزه جيش اليرموك، جهزه بكل حكمة وبذل فى تنظيمه أقصى الجهد ؛ وجعل فيه قاضياً وجعل أباسفيان بن حرب قاصاً يسير فى الجماعة ويقول : الله الله عباد الله انصروا الله ينصركم ، اللهم هذا يوم من ايامك ، اللهم انزل نصرك على عبادك ، يانصر الله يقترب يانصر الله يقترب وقصاص الجند يقصون عليهم أخبار الوقائع والفروسية ليقوا قلوبهم ، وقيل ان تميا الدارى كان أول من قص فى مسجد الرسول فى عهد عمر ، كان يذكر المسلمين بالله ويقص عليهم قصصاً وأحاديث عن الأمم الماضية وأساطير وحكايات .

* * *

ادارة عمر :

كانت أول خطبة خطبها عمر بن الخطاب لما ولى الخلافة : أيها الناس انه والله ما فيكم أحد اقوى عندى من الضعيف حتى آخذ له الحق، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه ، وما كان عمر ممن أولع بإلقاء الخطب كثيراً على بلاغة فيه مستحكمة وعلم غزيز ، ولا يرتقى المنبر إلا إذا قضت الضرورة وأراد بيان أمر ذهبت فيه نزوات النفوس مذهباً لا يرضاه . وكثيراً ما قال : إن هذا الأمر لا يصلح فيه إلا اللين فى غير ضعف ، والشدة فى غير عنف . وكذلك كان عمر يجمع بين اللين والشدة وهو إلى هذه ولاسيا على عماله أقرب . وإذا كان أكبر رجال الادارة تحصى عليهم عشرات من الأغلاط فإن عمر لا يستطيع أكبر الناقدين أن يحصى عليه غلطتين أو ثلاثاً ، وقد يجاب عليها بأن ذلك محض اجتهاد منه ، والمجتهد قد يصيب ويخطىء . والحكم الآن على مسائل لم

بتنجل كل التجلى بما نقله الناقلون ، وما أحاط بها من أحوال دقيقة غير مرئية يدعو إلى أن نمسك عن إرسال القول فى النقد ، ولا سيما نقد رجل عقمت أمم كثيرة أن تنجب أفضل منه وأعظم . وطريقة عمر فى الإدارة طريقة ابى بكر وصاحبه من قبل ؛ اطلاق الحرية للعامل فى الشؤون الموضعيـة ، وتقييده فى المسائل العامة ، ومراقبته فى خلوته وجلوته .

« وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته ، كعلمه بمن بات معه فى مهاد واحد ، فلم يكن له فى قطر من الأقطـار ولا ناحية من النواحى عامل ولا أمير جيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ماوجده ، فكانت الفاظ من بالمشرق والمغرب عنده فى كل ممشى ومصبح . وأنت ترى ذلك فى كتبه إلى عماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به فـكان كما قال المغيرة ابن شعبة أفضل من ان يخدع وأعقل من ان يخدع . كان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول: إنى لم ستعملـكم على أمة محمد على اشعارها ولا على ابشارها ، وإنما استعملتـكم عليهم لتقيموا بهم الصـلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل ، لا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموهـا ، جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريكـكم . وكان يقص من عماله ، وإذا شكى إليه عامل جمع بينه وبين من شكاه ، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به اخذه . وكان إذا بعث أمراء الجيوش يوصيهم بتقوى الله وأن لا يعتدوا ولا يجبنوا عند اللقاء ولا يمثلوا عند القـدرة ولا يسرفوا عند الظهور ولا يقتلوا هرماً ولا امرأه ولا وليداً وأن يتوقوا اقتلهم إذا التقى الزحفان وعند زحمة النهضات وفى شن الغارات وأن لا يغلوا عند الغنائم وأن ينزهوا الجهاد عن غرض الدنيا . وكان عمال عمر عرضة لـكشف احوالهم مهما بلغ من منزلتهم ، وكان إذا شكى إليه عامل أرسل محمد بن مسلمة يكشف

بالحال ، وله عـدة طرق فى كشف سيرة عماله ، منها أن يأمر عمـاله أن يوافوه بالموسم فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إنى لم أبعث عمـالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالـكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينـكم ، وليقسموا فيئكم بينـكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم ، فما قام إلا رجل واحد فقال : إن عاملك فلاناً ضربنى مائة سوط ، قال فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه .

فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك . فقال أنا لا أقيد . وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال : فدعنا فلنرضه قال : دونكم فارضوه ، فافتدى منه بمائتى دينا كل سوط بدينارين . وقال من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه . فقيل له : أرأيت ان أدب أمير رجلا من رعيته انقصه منه فقال : ومالى لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه . وكان يستدعى عماله ليطلع على مطاوى نفوسهم ويكشف بنفسه ان كانوا أخذوا أنفسهم بأسباب التعليم لأن عمر يؤثر الخشونة ويريد عماله أن يتبعوه فى سائر أفعاله وشيمة وأخلاقه فـكان كل يتشبه به من غاب أو حضر ، وهو يلبس الجبة الصرف المرقعة بالأديم وغيره ، ويشتمل بالعباءة ويحمل القربه على كتفه مع هيبة قد رزقها ، وكذلك كان عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال . وكان ينهى عماله عن جيد الملبوس والمركوب والمأكول ويلتف فى كسائه وينام فى ناحية المسجد فلما ورد بالهرمزان صاحب تستر عليه ، جعلوا يسألون عنه فيقال مر هنا آنفا فيصغر فى قلب الهرمزان اذ رآه كبعض السوقة حتى انتهى اليه وهو نائم فى ناحية المسجد فقال الهرمزان : هنا والله الملك الهنىء ، يقول لا يحتاج الى جراس ولا عدة فلما جلس عمر امتلأ قلب العلج منه هيبة لما رأى عنده من الجد والاجتهاد وألبس من هيبة التقوى . قالوا وكان أبا العيال يسلم على أبوابهن

ويقول ألكن حاجة وأيتكن تريد أن تشترى شيئا فيرسلون معه بحوائجهن ومن ليس عندها شيء اشترى لها من عنده ، واذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعه بنفسه فى منازلهن بكتب أزواجهن ويقول : أزواجكن فى سبيل الله وأنتن فى بلاد رسول الله ، اذا كان عندكن من يقرأو الافاقرين من الأبواب حتى أقرأ لكن ثم يقول : الرسول يخرج يوم كذا وكذ فا كتبن حتى نبعث بكتبكن ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول : هذه دواة وقرطاس فادنين من الأبواب حتى أ كتب لكن ويمر الى المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها الى أزواجهن . وكان اذا استعمل عاملا أوصاه بتقوى الله واصلاح الرعية وكتب عليه كتابا وأشهد عليه رهطا من الأنصار أن لا يركب برذوناً ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ثم يقول : اللهم اشهد . وكتب الى عماله : أما بعد فإياكم والهدايا فإنها من الرشا:اهتدى الى عظيم ضرر الهدايا مما بدر من رجل كان يهديه فخذ جزور فخاصم اليه رجلا فقال : يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاء فصلا كما يفصل الرجل من سائر الجذور ، فقضى عليه عمر ، ثم كتب الى عماله ان الهدايا هى الرشا . وكان عمر اذا قدم العمال يأمرهم أن يدخلوا نهاراً ولا يدخلوا ليلا كى لا يحتجنوا شيئاً من الأموال . وكان يعس بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم ، ويتعهد أهل البؤس والفاقة بنفسه .

كتب الى أبى موسى الأشعرى عامله على العراق يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعاً ، يريد أن يعرف حالتهم بعد أن تبنكوا فى النعيم وعهدت اليهم مصالح الناس ، فأدرك عامل البحرين من بين كثير من العمال أن عمر يرغب فى الخشونة وعرف أنه سيد عوهم الى طعامه فتجوع له واتخذ خفين مطارقين ولبس جبة صوف ولاث عمامته على رأسه فدعاهم عمر الى خبز بوأ كسار فجعلوا يعافونه لأنهم حديث عهدهم بلين العيش ، وعمر يلحظهم ،

ولفت عامل البحرين نظر عمر ، وتهافته على تناول الطعام ، فسأله عمر عن عمله ثم عن جعله فأجاب إنه يرزق ألفاً فقال له عمر : إنه كثيرا ما تصنع به قال : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لى فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين — فأمر عمر أبا موسى أن يستبدل بأصحابه ، وأبقى عامل البحرين فى عمله لأنه رآه مقلا متقشفاً لا يخشى أن يسرف فى المال . وولى عمر رجلا بلداً فوفد عليه فجأة فوجده حسن الحال فى جسمه عليه بردان فقال له عمر : أهكذا وليناك ثم عزله ، ودفع إليه غنيمات يرعاها ثم دعا به بعد مدة فرآه بالياً أشعث فى ثوبين أطلسين . وذكر عند عمر بخير فرده إلى عمله وقال . كلوا واشربوا وادهنوا فإنكم تعلمون الذى تنهون عنه .

وكان إذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم هل يدخل إليه الضعيف وهل يعود المريض ، فإن قالوا نعم حمد الله تعالى و إن قالوا الا كتب اليه أقبل . وكان من سنة عمرو سيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج كل سنة للسياسة وليحجزهم بذلك عن الرعية وليكون لشكاتهم وقت وغاية ينهونها اليه . كتب الى أبى موسى الأشعرى : أما بعد فإن للناس نفرة فأعوذ بالله أن تدركنى واياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة ، أقم الحدود ولو ساعة من نهار ، واذا اعرض لك أمران أحداهما لله والآخر للدنيا ، فآثر نصيبك من الله فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وأضيعوا الفساق واجعلوهم يداً يداً ورجلاً ورجلاً ، وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم وافتح لهم بابك ، وباشر أمورهم بنفسك فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أشغلهم حملا . وقد بلغنى أن فشالك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبدالله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بوادخصيب فلم يكن لها هم الا السمن وانما حتفها فى السمن ، واعلم أن العامل اذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقى الناس به والسلام . وهذا من كتبه الممتعة فى

الإدارة وطريقته فيها . وبلغ عمر أن أبا عبيدة عامله على الشام يسبغ على عياله وقد ظهرت شارته فنقصه من عطائه الذى كان يجرى عليه ، ثم سأل عنه فقيل له قد شحب لونه ، وتغيرت ثيابه ، وساءت حاله ، فقال : يرحم الله أبا عبيدة ما أعف وأصبر ، فرد عليه ما كان حبس عنه وأجراه عليه . ودخل عمر منزل أبى عبيدة فلم ير الا لبداً وصحفة وشناً ، وسأله طعاماً فأخرج له من جونة كسيرات فبكى عمر وقال : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة ، وأرسل اليه أربعمائة دينار ، وسأل من أرسله أن يقف على ما يفعل بها فوزعها أبو عبيدة كلها . وأرسل مثلها الى معاذ ابن جبل فوزعها الا أشياء قليلة سألته امرأته اياها لحاجتها.

فقال عمر لما أخبر بذلك : الحمد لله الذى جعل فى الإسلام من يصنع هذا . وكان معظم عمال عمر على غرار أبى عبيدة ومعاذ من التقشف والتبلغ باليسير ، وكان اذا لم تقنع نفسه بحسن سيرهم على الصورة التى لا يرى غيرها لا يتلكأ عن عزلهم . فقد شكى أهل حمص عاملهم سعيد بن عامر وسألوه عزله لأنه لا يخرج للناس حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله فى الشهر يوم لا يخرج فيه ، فلما أيقن عمر أن عامله يعجن كل يوم خبزه ويجلس حتى يختمر فيخبزه ثم يخرج للناس ، وأنه يجعل الليل كله للعبادة ، وأنه يشتغل مرة فى الشهر بغسل ثيابه بعث اليه عمر ألف دينار يستعين بها فوزعها على جيش من جيوش المسلمين .

وقدم سعيد بن عامر على عمر بالمدينة فلم يرفعه إلا عكاز أحمل عليه زاده وقدح يأكل فيه . وكان من عماله عمير بن سعد وفيه يقول عمر : وددت لو أن لى رجلا مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين . وعمير هذا هو الذى قال على منبر حمص : « لايزال الاسلام منيعاً ما اشتد السلطان وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل »

وهذا من أبعد مرامى الإدارة العادلة إذا أحس أهل عمل من عاملهم العدل لا يحتاج فى سياستهم إلى شيء من الشدة . كتب عمر إلى عمير أيام كان عامله على حمص أقبل بما أصبت من فيء المسلمين . فسأله عمر عما عمله قال : بعثتنى حتى أتيت البلد فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم ، حتى اذا جمعوه وضعته مواضعه ، ولو نالك منه شيء لأتيتك به . قال فما جئتنا بشيء .

قال : لا . قال جددوا العمير عهداً . فقال عمير : لا عملت ولا لأحد بعدك ، والله ما سامت بل لم أسلم لقد قلت لنصر أنى أى أخزاك الله . فهذا ما عرضتنى له ياعمر ، وإن أشقى أيامى يوم خلقت معك ياعمر . وكان إذا استعمل عاملا كتب عهده : « وقد بعثت فلانا وأمرته بكذا » فلما استعمل حذيفة ابن اليمان على المدائن كتب فى عهده أن اسمعوا له وأطيعوه وأعطوه ما سألكم فيما قدم المدائن استقبله الدهاقين ، فلما قرأ عهده قالوا : سلنا ماشئت . قال أسألكم طعاما آكله وعلف حمارى مادمت فيكم . فأقام فيهم ، ثم كتب اليه ليقدم عليه ، فلما بلغ عمر قدومه كمن له فى الطريق فلما رآه عمر على الحال التى خرج من عنده عليها أتاه ، فالتزمه وقال : أنت أخى وأنا أخوك .

فعمر إذاً لم يختر للأعمال إلا أفاضل الرجال ممن كانوا على سمته وزهده .

وكان كثيراً مايستعمل قوماً ويدع أفضل منهم لبصرهم بالعمل ويقول : اكره أن أدنس هؤلاء بالعمل . وكان يشاور فى كثير من الوقائع حتى قال يوماً لأصحابه : اشيروا على ودلونى على رجل استعمله فى أمر قد دهمنى فقولوا ماعندكم فإنى اريد رجلاً إذا كان فى القوم وليس اميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان اميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثى . فنشير على امير المؤمنين به . فأحضره وولاه ، فوفق فى عمله ، وقام فيه بما أربى على رجاء عمر فيه وزاد على عمله ، فشكر عمر من اشاروا عليه بولاية الربيع

كتب إلى عامله على البحرين العلاء بن الحضرمي ان سر إلى عتبة بن غزوان فقد وليتك عمله ، واعلم انك تقدم على رجل من المهاجرين الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وإني لم اعزله الا يكون عفيفاً صليباً شديد البأس ، ولكن ظننت أنك أغنى عن المسلمين في تلك الناحية فأعرف له حقه . ولما سير عمر عتبة ابن غزوان إلى البصرة ليقاتل من بالأبلة من فارس قال له انطلق انت ومن معك حتى تأتو اقصى مملكة العرب وأدنى مملكة العجم ، وأمره أن يشاور عرفجة بن هرثمة لأنه ذو مجاهدة للعدو وذو مكايدة . وعزل عن بعض ولايات الشام شرحبيل ابن حسنة واستعمل بدلا عنه معاوية بن أبي سفيان واعتذر على رؤوس الإشهاد وبأنه لم يعزله عن شيء هجنه به بل اراد رجلاً أقوى من رجل وبعث المغيرة بن شبعة عاملاً على الكوفة لأنه قوي مشدد ، وكان عمر سأله عن الضعيف والقوي فقال : أما الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين وفضله له ، وأما القوي المشدد فقوته لك وللمسلمين وشداده عليه . وعزل عامله على ميسان النعمان بن عدي لأنه بلغه أنه قال أبياتاً للتثبيت تشير الى أنه يتعاطى الراح ، مع أنه عارف ان ذلك لم يكن وإنما هو قول شاعر ، وعزل زياد بن أبي سفيان فقال زياد : أعن عجز عزلتني ياأمير المؤمنين أم عن خيانة ؟ فقال : لاعن ذاك ولا عن هذا ، ولكني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك . وكتب الى سعد بن أبي وقاص ان شاور طليحة الاسدي وعمرو بن معدي كرب في أمر حربك ولاتولهما من الأمر شيئاً ، فإن كل صانع هو اعلم بصنعته . وكتب الى النعمان بن مقرن ان قبلك رجلين هما فارسا العرب عمرو بن معدي كرب وطليحة بن خويلد فشاورهما في الحرب ولا تولهما شيئاً من الأمر . وبعث مع عبيد بن مسعود سليط ابن قيس لفتح العراق وقال له : لولا عجلة فيك لوليتك ولكن الحرب زبون لايصلح لها الا الرجل المكيث .

وسأل « عمر » «عمرو بن معدي كرب عن خبر سعد بن أبي وقاص نفسه

فقال : متواضع فى لحيائه ، عربى فى نمرته ، أسد فى تاموره ، يعدل فى القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد فى السرية ، ويعطف علينا عطف الأم البارة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة . ولما شكى أهل الكوفة سعداً عزله عمر ولم تأخذه به هوادة، لأن الغاية إنفاذ العمل النافع للناس على يد أى كان من عماله ، وأن لا يفتح للمسلمين باباً للشكوى. وخير دروب السياسة أن يكون عمل العاملين فيها أكثر من قول القائلين . « وسعد » هو الذى كان أجمع الصحابة على توسيد حرب العراق إليه فأوصاه عمر بقوله: ياسعد سعد بنى وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، ويتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت النبى منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر . هذه عظتى إليك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين .

وذهب سعد بهذه النصيحة فكان على يده فتح العراق . كان عمر على شدة فيه مع عماله إذا أحس باعتداء أو شبه إعتداء وقع على أحدهم، يشتد على المعتدين فى تلك الناحية ليبقى للعامل هيبة توقره فى الصدور ؛ ومهابة يلجم بها العامة والخاصة .

وقع له مرة أن حصب أهل العراق إمامهم ، وقد كان عوضهم إماماً مكان إمام كان قبله فحصبوه ، فغضب وقال لأهل الشام : تجهزوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفرّخ ، ودعا عليهم . ذلك لأن شكوى العراقيين عاملهم كانت باطلة ، وهو الذى يتحرى فى انتقاء عماله ولا يستسلم لأحد منهم ، بل يجعل بعضهم رقيباً على بعض ، وله عليهم سلطان دونه كل سلطان .

شكا عتبة بن غزوان تسلط سعد بن أبى وقاص عليه فسكت عنه عمر ،

فأعاد عتبة ذلك مراراً ، فلما أكثر على عمر قال : وما عليك ياعتبة أن تقر بالإمرة لرجل من قريش له صحبة مع رسول الله وشرف . فقال له عتبة : ألست من قريش والرسول يقول حليف القوم منهم ، ولى صحبة مع رسول الله قديمه لا تنكر ولا تدفع فقال عمر : لاينكر ذلك من فضلك . قال عتبة : أما إذا صار الأمر إلى هذا فوالله لا أرجع إليها أبدا . فأبى عمر إلا أن يرده فرده فمات بالطريق . وهذا من تأثير عمر فى عماله ومعاملته لهم كما تريد المصلحة لا كما يريدون . مثال آخر يخالف هذا — والإدارة تختلف باختلاف الأزمان والبلدان — خالف معاوية وهو أمير الشام عبادة بن الصامت فى شىء أنكره عبادة فأغلظ له معاوية فى القول فقال عبادة : لا أسا كنك بأرض واحدة أبدا ورحل إلى المدينة فقال عمر : ما أقدمك . فأخبره . فقال : إرجع إلى مكانك يفتح الله أو لست فيها أنت ولا أمثالك . وكتب إلى معاوية لا إمرة لك عليه ، ذلك أن عمر لم يكن يستغنى عن خدمة معاوية ولا عن فضل عبادة . كان عمر وهو خليفة لا يميز نفسه عن جمهور الناس بشىء فى لباسه ، ومركبه ،وحركته ؛ يختلط بالشعب كأنه واحد منهم ، ومع هذا كان الناس يخافونه ، ولووقع مثل هذا التواضع أو التبذل من أحد أفراد الناس لجسروا عليه وضعف سلطانه عليهم إن كان من أرباب السلطان . ولقد كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر فى أن يلين لهم فإنه قد أخافهم حتى انه أخاف الأبكار فى خدورهن فقال عمر : إنى لا أجد لهم الا ذلك إنهم لو يعلمون مالهم عندى لأخذو ثوبى عن عاتقى .وقال عمر : قد ولينا وولى علينا معناه قد ولينا فعلمنا ما يصلح الوالى ، وولى علينا فعلمنا ما يصلح الرعية .

وما أرانا نبعد عن الصواب إذا حكمنا أن شطراً عظيما من وقت عمر فى ولايته كان يصرفه فى سياسة العمال وكشف حالهم وانتقاء أصلحهم وتسليكهم فى الإدارة والسياسة والقضاء على أسلوب محكم لا تكاد تلحق به فى هذا القرن

أعرق الدول الحديثة فى المدنيّة وأفضلها بنظمها الإدارية والدستورية . ولعل فى الناس من يقول : إذا عرضنا هنا لمصادرات عمر ، وهذا أيضاً من باب الشدة المتناهية والحجر على حرية العمال ، وإدخال الخوف عليهم بالضرب على إيديهم على صورة تحرمهم متع الحياة ، ولا توليهم منه غير الجفاء والخشونة فى المعاملة . نعم هكذا كان عمر ، وهكذا وضع أساس الحكم الإسلامى ؛ هو لا يُجوِّز إغناء أفراد بإفقار أمة،ولا اسعاد فئةباشقاء مجموع.. كان ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الولاة ، فكان الوالى فى نظره فردا من الأفراد ، يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس ، فكان حبه للمساواة لا يعدله شيء فى أخلاقه . إذا اشتكى العامل اصغر الرعية جروه إلى المحاكمة حيث يقف الشاكى والمشكو منه يسوى بينهم فى الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه ، قبل العامل اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله . ومن عادة عمر ان يكتب أموال عماله إذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم.. مر ببناء يبنى بحجارة وجص فقال : لمن هذا ؛ فذكروا عاملا له على البحرين فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج اعناقها ؛ وشاطره ماله وكان يقول : لى على كل خائن امينان الماء والطين . ولقد صادر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص ، لأنه فشت له فاشيه من مناع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن له حين ولى مصر ، فادعى عمرو أن أرض مصر أرض مزدرع ومتجر وأنها اثمان خيل وسهام اجتمعت وأنه يصيب فضلا عما يحتاج إليه لنفقته ومع ذلك قاسمه عمر ماله . وصادر أباهريرة عامله على البحرين لأنه اجتمعت له عشرة آلاف وقيل عشرون الفاً وادعى إن خيله تناسلت وسهامه تلاحقت وإنه اتجر فقال له عمر : انظر رأس مالك ورزقك فخذه ، واجعل الآخر فى بيت المال ، يريد بذلك ان يحصر العامل وكده فى خدمة أهل عمله ، اما الاتجار وتثمير الأموال فهذا ليس من شأن عمال الدولة ، فإن لهؤلاء ما يتبلغون به من

رزق . وكان يرى فى مصادرة العمال وقهرهم ترويضاً لهم على الطاعة وترك التبجح والإدلال على الرعية وممن شاطرهم أيضاً النعمان بن عدى عامله على ميسان ، ونافع بن عمر والخزاعى عامله على مكه ، ويعلى بن مينه عامله على اليمن ، وسعد بن ابى وقاص عامله على الكوفة ، وخالد بن الوليد عامله فى الشام، وآخذ خالد ابن الوليد لأنه امره أن يحبس المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فأجاز الأعشى لشعره فغضب عمر، وكان أحد الشعراء كتب إليه يقول :

نحج اذا حجوا ونغزوا اذا غزوا فأنى لهم وفر ولسنا بذى وفر
اذا التاجر المندى جاء بفأرة من المسك راحت فى مفارقهم تجرى
فدونك مال الله حيث وجدته سيرضون ان شاطرتهم منك بالشطر

فشاطرهم عمر أموالهم وتولى ذلك منهم محمد بن مسلمة لثقته بهولم ينتطح فى عمله عنزان .. لقد شاطر عمر سعداً وعمراً وخالداً وهم ممن يفتخر بهم الإسلام ، استكثر عليهم أن ينعموا وان كان الأول فاتح العراق والثانى فاتح مصر والثالث فاتح الشام . وقيل لعمر : ان عياض بن غنم ، وهو من كبار الفاتحين ورجال الإدارة فى حكومته ، يتوسع كثيراً فى اعطاء المال بحيث لا يقل فى هذا المعنى عن خالد بن الوليد فقال : ان ذلك من شأن أبى عبيدة وعياض من أقرباء أبى عبيدة وعياض بن غنم هذا جلد دارا حين فتحت فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى غضب عياض ، ثم مكث ليالى فأتاه هشام فاعتذر اليه ، ثم قال هشام لعياض ألم تسمع رسول الله يقول: إن من أشد الناس عذاباً أشدهم للناس عذاباً فى الدنيا. فقال عياض . قد سمعت ورأيت ما رأيت ، أو لم تسمع رسول الله يقول من أراد أن ينصح لذى سلطان عامة فلا يبد له علانيته ولكن ليخلُ به فإن قبل منه فذاك والا كان قد أدى الذى عليه . وانك ياهشام لأنت الجرىء إذ تجترىء على

سلطان لله فهلا خشيت أن يقتلك السلطان فتكون قتيل سلطان الله. كان عمر بن العاص يبعث الى عمر بعد حبس ما كان يحتاج اليه والمال يجبى من اموال الجزية وما يؤخذ من الخراج ، والنصارى واليهود اقروا على مافى ايدهم من الأرض يعمرونها ويؤدون خراجها ، ووضع فى مصر عمر على كل حالم دينارين جزية الا أن يكون فقيراً ، والزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطين زيتا وقسطين عسلا وقسطى خل رزقاً للمسلمين تجمع فى دار الرزق وتقسم فيهم . وأحصى عمرو بن العاص المسلمين فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنساً أو عمامة وسراويل وخفين فى كل عام أو بدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً . واستبطأ عمر فى بعض السنين خراج مصر . فكتب الى عمرو : انى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيقة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة فى بر وبحر وأنها قد عالجها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم ، وعجب من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لاتؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدود الى آخر ماقال له ، وهز أعصابه بكلمات قاسية : فأجابه عمرو : لقد عملت لرسول الله ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً ، والعمل به سيئا ، وقال : فامض فى عملك فإن الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها . فكتب اليه انى لم أقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فإنما هو فىء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون ... فأجابه عمرو . ان أهل الأرض استنظرونى الى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق خيراً من أن نخرق بهم فيصيروا الى بيع مالا غنى بهم عنه .

ومع هذه الهينمة من عمر على عماله نراه يشهد لعمرو ابن العاص بحسن السياسة دليلاعلى تقدير عامله قدره .

وكان من رأى عمرو بن العاص فى سياسة مصر أن الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، ولا يستأدى خراج ثمرة الا فى أوانها . وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وتربتها . وكان عمر يقول ، اذا رأى رجلا يتلجلج فى كلامه : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وعمرو بن العاص المثل السائر فى حسن السياسة بين رجال العرب ، واحس قبط مصر بجميل عمله ، فدخلوا فى الإسلام كثيراً . وأدى بهم التسامح أن رفع نصرانى إليه أن غرقة بن الحارث الكندى من أصحاب الرسول الذين سكنوا مصر ضربه فوق أنفه . فقال عمرو للصحابى : إنا قد أعطيناهم العهد ، كأنه يريد أن يؤاخذ الصحابى بما فعل فقال غرقة : معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبى وانما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدالهم ، وأن لا نحملهم ما لايطيقون وان أرادهم عدو بسوء قاتلنا دونهم ، وعلى أن نخلى بينهم وبين أحكامهم الا أن يأتونا راضين بأحكامنا فنحكم بينهم وأن غيبوا عنا لم نتعرض لهم . فقال عمرو : صدقت .

خطب يوما فى الجابية من حوران فكان مما قاله : ألا وإنى ما وجدت صلاح ما ولانى الله الا بثلاث : أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ، ألا وإنى ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخذ من حق ويعطى فى حق ويمنع من باطل . وكتب معاوية إلى عمر يصف له سوء حال الشام فكتب إليه فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظيرها واتخاذ المواقيد لها . ثم جاء عمر الشام مرات أربعة يكشف حال عمالها ويعنى بقسمة

الأرزاق ويسمى الشواتى والصوائف أى غزوات الشتاء والصيف ويسد الفروج والمسالح فى كل كورة ويستعمل أناسا لهم غناء على السواحل من كل كورة أو يقسم المواريث بعد طاعون عمواس ، وكان هلك فيه من المسلمين خمسة وعشرون ألفا .

وقيل ان عماله استقبلوه مرة بأبهة فنزل وأخذ بالحجارة ورماهم بها وقال ما أسرع مارجعتهم عن رأيكم إياى تستقبلون فى هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين وبالله لو فعلتم هذا على رأس المثتين لاستبدلت بكم غيركم . واعتذر له معاوية عامله فى الشام عن الموكب الثقيل الذى كان له قائلا . انا فى بلاد لا تمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم من السلطان فإن أمرتنى فى ذلك قمت عليه ، وان نهيتنى عنه إنتهيت . فلم يامره به ولم ينهه عنه . فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر . لحسن ما صدر من هذا الفتى عما أوردته فيه فقال : لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه .

وقيل إنه قدم معاوية على عمر من الشام وهو أبض الناس فضرب عمر بيده على عضده فأقلع عن مثل الشراب أو مثل الشراك . فقال : هذا والله لتشاغلك بالحمامات وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حسرات على بابك . وقال عمر : لئن عشت إن شاء الله لاسيرن فى الرعية حولا فإنى أعلم للناس حوائج تقطع عنى ، أما هم فلا يصلون إلى ، وأما عيالهم فلا يرفعونها إلى ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الكوفه فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين .

وخصلة أخرى أيضاً لعمر ، تعتبر من بدائع إدارته الحسنة ، وهو أنه ما كانت تفوته مسألة فيها تقوية قلوب الأمة والاعتماد على نفسها ... خطب مرة فقال : أعطو الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تتحاكموا إلى فإنه

ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلى صلاحكم ، عزيز على عتبكم ، وأنتم أناس عامتكم حضر فى بلاد ، وأهل بلد لازرع فيه ولاضرع إلا ما جاء الله به إليه .

يريد أن يعلم الناس أن لا يكثروا من الرجوع إلى الحاكم للفصل بينهم فى خصوماتهم ، ليصرف وقته فى التفكير فى أمورهم الخطيرة ، وأن يعتمدوا على أنفسهم لا على صاحب السلطان ، وأن يعرفهم حالة الحاضر والبادى منهم ، ويعلمهم أن يعملوا ولا يسرفوا لأنهم فقراء . وطالما قال لقومه أصلحوا أموالكم التى رزقكم الله ولقليل فى رفق خير من كثير فى عنف . يريد أن يسوق الناس إلى المدنية بتؤدة على صورة فيها تدريج . وكان يقول: من كان له مال فليصلحه ومن كانت له أرض فليعمرها وانه يوشك أن يجىء من الا يعطى إلا من أحب . ونظر الى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدرة وقال له : لا تمت علينا ديننا أماتك الله . وكان يقول : ليس قوم أكيس من أولاد السرارى لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم .

وكان عزام عمر أبداً أن يلقن قومه العمل ويبعد بهم عن حياة الكسل ، ولطالما قال لكتابه وعماله ان القوة على العمل أن لا تؤخروا عمل اليوم لغد فإنكم اذا فعلتم ذلك تداءبت عليكم الأعمال فلا تدرون بأيها تبدأون ولا بأيها تأخذون . وما كان يرى ابعاد العامة عن المجالس العالية لئلاتفوتهم الفوائد وليتربوا على أيديهم بما يسمعون وينقلون عنهم . ويوزع الأعمال بين الكفاة وأرباب التخصص ويقول : أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ، فإن الله جعلنى له خازناً وقاسماً .

وكتب عمر الناس على قبائلهم أى أحصاهم ، ففرض الفروض وأعطى العطايا على السابقة ، بدأ بالأقرب فالأقرب من الرسول وفرض لأهل بدر ولمن بعدهم الى الحديبية وبيعة الرضوان ثم لمن بعدهم ولأهل القادسية واليرموك وأعطى نساء النبي وغيرهم ورزق الصبيان والأئمة والمؤذنين والمعلمين والقضاء والشعراء. وحلف على أيمان ثلاث فقال : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد وما أنا أحق به من أحد والله ما من المسلمين من أحد الاوله فى هذا المال نصيب الا عبداً مملوكا ولكننا على منازلنا من كتاب الله تعالى، وقسمنا من رسول الله، فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الاسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه .

جمع عمر المسلمين لأول عهده وقال ما يحل للوالى من هذا المال فقالوا جميعاً أما لخاصته فقوته وقوت عياله ، لاوكس ولاشطط وكسوتهم وكسوته للشتاء والصيف ودابتان إلى جهاده وحوائجه وصلاتة وحجه وعمرته ، والقسم بالسوية وأن يعطى أهل البلاد على قدر بلائهم ويرم أمور الناس بعد ، ويتعاهدهم عند النوازل ، حتى تنكشف ويبدأ بأهل الفيء . وكان عمر إذ احتاج أتى صاحب بيت المال فاستقرضه فربما عسر فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه فيلزمه فيحتال له عمر ، وربما خرج عطاؤه فقضاه .وطلق أحد أصحابه أن يقرضه ما لا فقال له ما يمنعك أن تقترض من بيت المال فأجابه إذا مات وهو له مدين ربما غفلوا عن تقاضى ما اقترض ، أما صاحبه فإنه لحرصه ماله يطالب الورثة بماله فيستوفيه وتبرأ ذمة عمر .

ومما تعلقت به همة عمر إحداث أوضاع جديدة تقتضيها حالة التوسع فى الفتوح فهو أول من حمل الدرة وهو أول من دون الدواوين على مثال دواوين

الفرس والروم ، دونهـا له عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نبهاء قريش لهم علم بالأنساب وأيام الناس . والديوان الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية. وعرفوا الديوان بأنه موضع لحفظ ما تعلق بحقوق السلطة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال ، وأطلق بعد حين على جميع السجلات والأضابير والطوامير . وثبت أنه كان له سجن وأنه سجن الحطيئة على الهجو وسجن ضبيعاً على سؤاله عن الذاريات والمرسلات والنازعات وشبههن وضربه مرة بعد مرة ونفاه إلى العراق ، وكتب أن لايجالسه أحد فلو كانوا مائة تفرقوا عنه حتى كتب إليه عامله أن حسنت توبته ، فأمره عمر نخلى بينه وبين الناس. وكانت أعمال عمر جداً كلها لا يجوز لأحد أن يجلس فى المسجد فى غير أوقات الصلاة ، وبنى فى المسجد رحبة تسمى البطيحا ، قال من كان يريد أن يلغط أو ينشد شعراً أو يرفع صوته فليخرج إلى الرحبة . وما كان المسجد فى أيامه لغير الصلاة والقضاء . وكان الخلفاء الراشدون يجلسون فى المسجد لقضاء الخصومات . ولما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادى وكثر الولدان أمر عمر ببناء بيوت المكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم .

وضع عمر أول ديوان فى الإسلام للخراج والأموال بدمشق والبصرة والكوفة على النحو الذى كان عليه قبل. وقيل إن أول ديوان وضع فى الإسلام هو ديوان الإنشاء ودواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين العراق بالفارسية ودواوين مصر بالقبطية ، يتولاها النصارى والمجوس دون المسلمين ، والسبب فى تدوين الدواوين أن عامل عمر على البحرين أتاه يوماً بخمسمائة ألف درهم فاستعظمها وجعل عليها حراساً فى المسجد فأشار عليه بعض من عرفوا فارس والشام أن يدون الدواوين يكتبون فيها « الأسماء وجعل الأرزاق

مشاهرة » وجعل عمر تابوتا أى صندوقا لجمع صكوكه ومعـــاهداته .
وجند الأجناد أى ألّف الفيالق، فصير فلسطين جنداً أو الجزيرة جنداً ، والموصل جنداً وقنسَّرين جنداً ، وأصبح كل جند فى الشام والعراق يتألف من مقاتلة المسلمين ويسير الناس بقضهم وقضيضهم إلى الزحف عند الحاجة حتى النساء والأولاد . وما كان الجند يجعلون كلهم فى المسالح بل يترك بعضهم فى البلاد يكونون على استعداد للوثبة عند أول إشارة ، والغالب أنه كان يُترك فضل فى بيوت الأموال خارج الحجاز يستخدم فى طارىء إذا طرأ وما كانت الصوافى تحمل كلها إلى الحجاز ، بل يدخر بعضها فى بيوت الأموال فى الشام والعراق ومصر ، وجزء عظيم من دخل الدولة يصرف فى الوجوه التى أشرنا إليها .

وعمر هو أول من لقب بأمير المؤمنين ، وأول من استقضى القضاة ، وأول من أحدث التاريخ الهجرى فأرخ سنة ست عشرة بهجرة رسول الله من مكة إلى المدينة ، فكان أول من أرخ الكتب وختم على الطين . قال اليعقوبى وأمر زيد بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم وأمره أن يكتب لهم صكا من قراطيسه ثم يختم أسافلها ، فكان أول من صك وختم أسفل الصكاك وغير أسماء المسلمين بأسماء الأنبياء . وكان أول من مصر الأمصار ، مصر المصرين البصرة والكوفة وكان إذا جاءته الأقضية المعضلة قال لعبدالله بن العباس : انها قد طرأت علينا أقضية وعضل فأنت لها ولأمثالها ، ثم أخذبقوله . وما كان يدعو لذلك أحداً سواه ، وكان فى المسائل العامة يسأل الناس فى المسجد عن آرائهم ثم يعرض رأيه ورأيهم على مجلس شوراه وهم من كبار الصحابة ، فما استقر عليه رأيهم أمضاه ، فكانت أعماله ثمرة ناضجة من الآراء الصائبة ، ولذلك ندرت هفواته فى الإدارة بالقياس إلى غيره لأنه يتروى ويعمل بآراء أهل الرأى ولما أرسل عبد الله بن مسعود الى العراق وزيراً ومعلماً مع عمار بن ياسر الذى ولاه الامارة كتب إلى أهل العراق « وقد جعلت على بيت مالكم عبد الله

ابن مسعود وآثرتكم به على نفسى » وقد يبعث إلى بعض الأقطار عاملاً على الصلاة والحرب ويسميه معلماً ووزيراً كما فعل فى العراق أو يجمع للعامل بين الصلاة والخراج كعامل مصر . وتقسيم العمالات فى الشام يختلف عن اليمن وعامل البحرين لايكون كعامل اليمامة وقد يبعث أناساً لمساحة الأرض، وأناساً لتقدير الخراج ، وآخرين لاحصاء الناس ، وقال لعاملين له توليا مساحة العراق ووضع الخراج على سوادها : أخاف أن تكونا حملتما الأرض مالاتطيقه ، لئن سلمنى الله لأدعن أرامل العراق لايحتجن إلى رجل بعدى أبداً . وقال : اللهم إنى أشهدك على أمراء الأمصار فإنى انما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ويعدلوا عليهم ويقسموا فيئهم بينهم ويرفعوا إلى ما أشكل عليهم من أمورهم. وكان يرزق العامل بحسب حاجته وبلده ولما استعمل زيد بن ثابت على القضاء فرض له رزقا ، وكان يرزق عامله على حمص عياض بن غنم كل يوم ديناراً وشاة ومداً . وبعث إلى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حنيف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال . وأمر هذا أن يعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين ، وفرض لهم شاة كل يوم ، وجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر ، والشطر الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف.. كان أبو بكر يساوى الناس فى العطاء ولايفضل أهل السابقة ويقول إنما عملوا لله فأجورهم على الله . وإنما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر وليس ثمناً لأعمالهم . وكان عمر يقول لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ولم يقدر عمر الأرزاق إلا فى ولاية عمار فأجرى عليه ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلى معه فى كل شهر.

وكان عطاء عثمان بن حنيف خمسة آلاف درهم فى كل شهر وربع شاة فى كل يوم ، وأجرى على شريح القاضى مائة درهم فى كل شهر وعشرة أجربة ، وإنما فضل عمار لأنه كان على الصلاة . قال الحسن وكان عطاء سلمان خمسة

آلاف وكان على زهاء ثمانين ألفاً من الناس . وأتاه عبد الله بن عمر السعدى فقال له عمر : ألم أحدث أنك تلى من أعمال المسلمين أعمالا فإذا أعطيت العمالة كرهتها؟ فقال : بلى . فقال عمر : ما تريد إلى ذلك . قال : إن لى أفراساً وأعبداً وأنا بخير وأريد أن تكون عمالتى صدقة على المسلمين . فقال عمر : لا تفعل فإنى كنت أردت الذى أردت ، وكان رسول الله يعطينى العطاء فأقول : أعطه أفقر اليه منى . فقال النبى (ص) خذه فتموله وتصدق به ، فما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك .

كان عمر يأمر الناس بالتفقه فى الدين ويجد فى إرسال الفقهاء إلى الأمصار يفقهون المؤمنين ويعلمونهم دينهم وقد لا يرسلهم إلا بعد أخذ رأيهم ولما أراد أن يرسل سعد بن عبيد ، وكان لا يسمى القارىء من الصحابة غيره قال له : هل لك فى الشام فإن المسلمين نزفوا وإن العدو قد ذئروا عليهم وذلك بعد طاعون عمواس . وكان يقول حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام : لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها بالفقه ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس إليه فأبى على وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أحبسه . وفى كتب عمر إلى قضائه وعماله كأبى موسى الأشعرى والقاضى شريح وأبى عبيدة ومعاوية وغيرهم قوانين فى التشريع والإدارة سنها للمسلمين لا تزال إلى يوم الناس هذا هى المعول عليها . ورسالته فى القضاء الى أبى موسى الأشعرى جمع فيها «جمل الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً ، ولا يجد محق عنها معدلا ، ولا ظالم عن حدودها محيصاً » ولقد قالوا : «اذا اختلف الناس فى أمر فانظر كيف قضى عمر ، فإنه لم يكن يقضى فى أمر لم يقض فيه قبله حتى يشاور » وكان أبداً يأخذ آراء أصحابه لا يقطع أمراً عظيما من دون استشارتهم . ويقول : الرأى الفرد كالخيط السحيل ، والرأيان كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض . هذا ولو وضع علم عمر فى كفة كما قال ابن مسعود ، ووضع علم أحياء العرب

في كفة لرجح بهم علم عمر .. وأنشد عمر ذات يوم شعر زهير بن أبي سلمى فلما بلغ قوله :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

جعل يتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ويقول : لا يخرج الحق من إحدى ثلاث ، اما يمين أو محاكمة أو حجة .

وكانت المدينة في أيام عمر أشبه بمدرسة يتخرج فيها القضاة والعمال والقواد والأمراء فلا يبعث الى الأمصار إلا من اختبره في الجملة ، وقلما أخطأت فراسته في الناس ، وهو المثل الأمثل في جده . كان كعب بن سور جالساً عند عمر فجاءته امرأة تشتكي زوجها فقال لكعب : اقض بينهما فلما قضى بما أعجبه وما لم يخطر له ببال قال لكعب : إذهب قاضياً على البصرة . ساوم عمر بفرس فركبه ليشوره فعطب فقال للرجل : خذ فرسك . فقال الرجل : لا . قال : اجعل بيني وبينك حكماً . قال الرجل : شريح . فتحاكما اليه فقال شريح : يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت . فقال عمر : وهل القضاء الا هكذا ، سر الى الكوفة فبعثه قاضياً عليها . قالوا وإنه لأول يوم عرفه فيه . وبقي شريح قاضياً هناك ستين سنة .

ومن الفقهاء في أيامه أبو موسى الأشعري ، وسلمان بن ربيعة الباهلي ، وأبو قرة الكندي ، وأبو الدرداء ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن عباس . ومن عماله نافع بن عبد الحارث الخزاعي ، وسفيان بن عبد الله الثقفي ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، وعبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وقتادة بن النعمان ، وعمير بن وهب بن خلف الجمحي ، وعتبة بن مسعود ، وعدي بن أبي الرعناء الجهني ،

وعويم بن ساعدة ، وسهيل بن رافع ، ومسعود بن أوس بن زيد الأنصارى ، وواقد بن عبد الله التميمى ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم . من كل من هو فرد فى علمه ، متميز بحسن سياسته وادارته . كتب الى أبى موسى الأشعرى : انه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائج الناس فأكرم وجوه الناس ، فبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف فى الحكم والقسمة يعنى أن عمر أوصى بالأخيار ، وإن كان يكره الشفاعة والوساطة فقد توسط مولى عمر بأن يكتب كتاباً الى عامل فى العراق ليكرم أحدمن قصدوا اليها فلنتهره عمر وسبه وقال : أتريد أن يظلم الناس وهل هو الا رجل من المسلمين يسعه ما يسعهم ؟

كان ابن الخطاب يفحص أموراً لا تخطر ببال أحد . كتب إلى أبى موسى الأشعرى « إنى قد بعثت اليك مع غاضرة بن سمرة العنبرى بصحف فإذا أتاك لكذا وكذا فأعطه مائتى درهم وإن جاءك بعد ذلك فلا تعطه شيئاً وا كتب إلى فى أى يوم قدم عليك » يريد بذلك أن يعلم من يستعملهم الجد والاهتمام والحرص على الأوقات وضبط المواعيد ، هو يعطى من أرسله بالصحف مائتى درهم إذ اجد فوصل البلد الذى عين له فى الأجل المضروب وإلا فيحرم أجرته . وكتب إلى أبى موسى الأشعرى أيضاً إذا أتاك كتابى هذا فاضرب كاتبك سوطاً واعزله عن عمله . وذلك أن كاتب أبى موسى كتب إلى عمر (من أبوموسى) وكان عليه أن يقول (من أبى موسى) . ودبر علم الرمادة (١٧ — ١٨) تدبيراً إدارياً ناجعاً عندما رأى الناس يهلكون من المجاعة ، فكتب إلى أمراء مصر والشام والعراق أن يوافوه بالميرة فأتته القوافل تحمل طعاماً كثيراً وغيره ، فوسع على الناس ، وكان قطع الطعام عن نفسه وأطعم الجياع ، ولولا تدابيره هذه لهلك أهل الحجاز جميعهم .

ومن جملة تدابيره الإدارية أنه « حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من البلدان إلا بإذن وأجل فشكوه فبلغه فقام فقال: ألا إنى قد سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جذ عاثم ثنياً ثم رباعياً ثم سداسياً ثم بازلا ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ، ألا فإن الإسلام قد بزل ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا أمال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حيٌّ فلا . إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار » . هذا مجمل من ادارة عمر ، وقد كان شديداً فى اقامة الحدود يقيمها على أقرب الناس اليه : حد فى الخمر ابنه ، وعاقب ابن عمرو بن العاص عامل مصر ، لأن أحد قبطها استعداه عليه . قال السائب بن يزيد كنا نؤتى بالشارب على عهد رسول الله وامارة أبى بكر وصدر من خلافه عمر ، فنقوم اليه بأيدينا ونعالنا وأرجلنا وأرديتنا ، حتى كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين ، حتى اذا عتوا وفسقوا جلدوا ثمانين . ولما ضعف نصاب الشهادة على المغيرة بالزنا سرى عنه لأنه ما أراد أن يرجم أحد من الصحابة وأراد أن يحد جبلة بن الأيهم من ملوك غسان لان رجلا فزارياً فى الحج وطىء على ازاره فلطمه جبلة فهشم أنفه ، وشكاه الفزارى فأراد عمر جبلة على أن يفتدى نفسه أو يأمر الرجل بلطمه ، فقال جبلة : كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : ان الإسلام جمعكما ، وسوى بين الملك والسوقة فى الحد . ففر جبلة والتحق بالروم . وكان يساوى بين الناس فى القضاء مهما علت منزلتهم ، وبلغه عن بعض عماله وهو فى دار الحرب أنه تعدى حداً من حـــدود الله فأغضى عنه لئلا يعتصم ببلاد الروم .

وكان إذا أراد أن يأمر المسلمين بشىء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله وتقدم إليهم بالوعظ لهم ، والوعيد على خلافهم أمره . وما كان يميز أحداً من آل بيته فى شيء ، وربما هضم بعض حقهم وأعطاه من هو أجدر منهم . . قسم عمر مروطاً بين نساء المدينة فبقى فيها مرط جيد فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين ، أعط هذا ابنة رسول الله التى عندك فقال : أم سليط أحق به فإنها ممن بايع رسول الله ، وكانت تزفر لنا القرب يوم أحد . وقال أحدهم لعمر اتق الله يا أمير المؤمنين فقال : لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم وردت عليه امرأة فرجع إليها وقال: رجل أخطأ وامرأة أصابت .

وكان لا يقرب الشعراء ولكنه يجرى عليهم رزقا يكفيهم . كتب مرة إلى المغيرة بن شعبة أن استنشد من قبلك من الشعراء ماقالوا فى الجاهلية والإسلام فأرسل إلى الأغلب العجلى فقال إنه على استعداد لأن ينشده ، ثم أرسل إلى لبيد ابن ربيعة فقال أنشدنى فقال : إن شئت أنشدتك مما عفى عنه من شعر الجاهلية قال : لا .. أنشدنى ما قلت فى الإسلام ، فانطلق إلى أديم فكتب سورة البقرة فقال : أبدلنى الله مكان الشعر هذا . قال فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : إنه لم يعرف أحد من الشعراء حق الإسلام إلا لبيد بن ربيعة فأنقص من عطاء الأغلب خمسمائة واجعلها فى عطاء لبيد .

نهج عمر بن الخطاب لمن يخلفه النهج الذى يجب السير عليه فى تدبير الدولة . وأوصى الخليفة بعده أن يقر عماله سنة فيما قيل ، وأوصاه بتقوى الله لا شريك له وبالمهاجرين الأولين خيراً وأن يعرف لهم سابقتهم ، وأوصاه بالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأوصاه بأهل الأمصار خيراً فإنهم

رد العدو وحياة الفيء ، وأن لا يحمل فيئهم إلا عن فضل منهم ، وأوصاه بأهل البادية خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشى أموال أغنيائهم فيرده على فقرائهم ، وأوصاه بأهل الذمة خيراً وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا أوعن يد وهم صاغرون ، وأوصاه بالعدل فى الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم وأن لا يؤثر غنيهم على فقيرهم ، وأن يشتد فى أمر الله وحدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذه فى أحد رأفة حتى ينتهك منه مثل ما انتهك من حرم الله ، ويجعل الناس عنده سواء لا يبالى على من وجب الحق ، ثم لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وأوصاه أن لا يرخص لنفسه ولا لغيره فى ظلم أهل الذمة ، وأنشده الله أن يرحم جماعة المسلمين ويجل كبيرهم ويرحم صغيرهم ويوقر عالمهم ، وأن لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالفيء فيغضبهم ، ولا يحرمهم عطاياهم عند محلها فيفقرهم ، ولا يجمرهم فى البعوث فيقطع نسلهم ، ولا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا يغلق بابه دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم .

ولما أفضى الأمر إلى عثمان بن عفان حافظ على الأوضاع التى وضعها عمر ، وكان أول كتبه إلى أمراء الأجناد : « قد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملأ منا ، ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم » وكان أول كتبه إلى عماله : « فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وان صدر هذه الأمة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وان أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم وتأخذون بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذون بالذى عليهم » وكتب إلى عمال الخراج : « أما بعد فإن الله تعالى خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا

الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم،والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولاالمحروم فإن الله خصم لمن ظلمهم» وكتب فى الأمصار أن يوافيه العمال فى كل موسم ومن يشكوهم ، وكتب إلى الناس فى الأمصار أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه فإنى مع الضعيف على القوى مادام مظلوماً إن شاء الله. » واعتمد عثمان لأول ولايته فى مشورته على من اعتمد عليهم الشيخان من قبل ، وفى الولايات على بعض من كانوا عمالا لعمر ثم على أناس من أهله وعشيرته وممن اعتمد عليهم مروان بن الحكم . وكان مروان فى ولايته على المدينة يجمع أصحاب الرسول يستشيرهم ويعمل بما يجمعون عليه . ولم يكن عثمان مبتدعاً بل كان متبعاً اتبع سيرة العمرين فى الحكومة . وما عزل أحداً إلا من شكاة أو استعفاء من غير شكاة . وكثر المال فى أيامه فكان لا يتوقف فى إنفاقه . قيل انه باع غنائم أفريقية بخمسمائة ألف دينار وأعطاها مروانا ولم يطالبه بها، ولم يزل المال متوفراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف . وأعطى عبد الله بن الأرقم وكان عمر استعمله على بيت المال ثلثمائة ألف درهم فأبى أن يقبلها وقال : عملت لله وإنما أجرى على الله .

وكان عثمان جواداً ويحث عماله على الجود . قدم المدينة ابن خاله عبد الله بن عامر فاتح خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان وهى أعمال غزنة فقال له عثمان : صل قرابتك وقومك. ففرق فى قريش والأنصار شيئاً عظيما من الأموال والكسوات . وأرسل إلى على بن أبى طالب بثلاثة آلاف درهم وكسوة ، فلما جاءته قال : الحمد لله انا نرى تراث محمد يأكله غيرنا. فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر : قبح الله رأيك أترسل إلى على بثلاثة آلاف درهم . قال : كرهت أن أغرق ولم أدرما رأيك قال : فأغرق . قال : فبعث إليه بعشرين

ألف درهم وما يتبعها. قال: فراح على إلى المسجد فانتهى إلى حلقة وهم يتذاكرون صلات ابن عامر، هذا الحى من قريش. فقال على: هو سيد فتيان قريش غير مدافع. وكان ذلك من سياسة عثمان وحسن إدارته.

ومن ذلك أن عامله على الكوفه كتب إليه أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ماينفر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها فكتب إليه عثمان:

أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم. إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، واحفظ لكل منزلته، فأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل. اهـ.

وكانت مغازى أهل الكوفة فى زمنه الرى وآذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بآذربيجان وأربعة بالرى وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف فى كل سنة فكان الرجل يصيبه فى كل أربع سنين غزوة. وضعفت الإدارة فى النصف الأخير من عهد عثمان لشيخوخته، ولأنه لا يستطيع من كان فى سنه أن ينظر فى جميع المسائل. واشتغل بعض كبار العمال بأطماعهم فى الولايات، وشاغب المحرومون على المنصوبين، وكثيراً ما كان يصر على تنفيذ أوامره لا يبالى كثيراً بالشكاوى لعلمه بأنها صادرة على الأكثر من أغراض شخصية، وما نفع اللين ولا الشدة يوم حم القضاء فكان من قتله ما كان. ومن أهم الأسباب فى مقتله غلطة إدارية بدرت منه ساق إليها الغضب والعجلة. قالوا انه اجتمع اناس

من أصحاب النبي كتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله، وما كان من تطاوله فى البنيان ، وما كان من إفشائه العمل والولايات فى أهله وبنى عمه من بنى أمية وهم أحداث وغلمة ، لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور ، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها أربع ركعات ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم ، وتعطيله الحد عليه وتأخيره ذلك عنه « جلده حين شهد عليه بشرب الخمر وأنه تعاطاها » وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ، ولا يستشيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم ، وما كان من الحمى الذى حمى حول المدينة ، وما كان من إرادة القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي ثم لا يغزون ولا يذبون ، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وإنما ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران . ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب فى يد عثمان ، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة ، فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب فى يد عمار ، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقى وحده ، فمضى حتى جاء دار عثمان فاستأذن عليه فأذن له فى يوم شات ، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بنى أمية فدفع إليه الكتاب فقرأه فقال له : أنت كتبت هذا ؟ قال . نعم . قال : ومن كان معك ؟ قال : كان معى نفر تفرقوا فرقاً منك قال : ومن هم ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : فلم اجترأت على من بينهم ؟ فقال مروان : يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعنى عماراً) قد جرأ عليك الناس وانك إن قتلته نكلت به من وراءه . قال عثمان : اضربوه فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه ، فغشى عليه فجروه حتى طرحوه على باب الدار . وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم . ذلك لأن عماراً كان من أعظم الصحابة ومن النقباء فى مجلس شورى الرسول ، ومناقبه كثيرة فى الإسلام ،

فثل هذا لا يضرب على هذه الصورة البشعة ، ومكانته مكانته بين المسلمين .
والمثل العربي يقول : « العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة أو الإشارة » .
ومعاملة عمار بهذه القسوة ساقته إلى أن كان من أعظم من ألب الناس على عثمان .
وخدم علياً ضروب الخدم حتى قتل فى صفين . ومن عمال عثمان عبد الله بن
الحضرمى ، والقاسم بن ربيعة ، وعبد الله بن عامر ، وحبيب بن سلمة الفهرى ،
وأبو الأعور الأسلمى ، وعلقمة بن حكيم ، وجابر بن فلان المزنى ، وسماك الأنصارى ،
والقعقاع بن عمرو ، وجرير بن عيلان . والأشعث بن قيس ، وعتيبة بن النهاس ،
ومالك بن حبيب ، وسعيد بن قيس ، والسائب بن الأقرع ، وعقبة بن عامر ،
ومعاوية بن أبى سفيان ، والغالب عليه مروان بن الحكم ، وكان عثمان ست سنين
فى ولايته وهو أحب الناس من عمر بن الخطاب وكان عمر رجلا شديداً وقد ضيق
على قريش أنفاسها لم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً إعظاماً له وإجلالا وتأسياً به
واقتداء ، فلما وليهم عثمان وليهم رجل لين ثم أنكر الناس عليه أشياء أثراً وبطراً .
قال ابن عمر : لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه .

أما طريقة على بن أبى طالب فكانت أيضا فى الإدارة طريقة من سبقوه
إلى الامامة : يولى العامل ويطلق يده على الجملة ويكشف حاله ، ويدعو عماله
إلى التبلغ بميسور العيش والرفق بالرعية ويضع لهم المنهاج الذى يسيرون عليه .
أوصى أحد عماله بأهل عمله فقال : إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء
ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب أحداً منهم
سوطاً واحداً فى درهم ، ولا تقمه على رجله فى طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم
عرضاً فى شىء من الخراج ، فإنما أمرنا أن نأخذ العفو منهم . ومما كتبه إلى الأشتر
النخعى وهو مما لم ينفذ وبقى فى حيز الأقوال ، لمقتل الأشتر قبل أن يبلغ مصر
قوله : وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى إصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن
سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم . لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله .

وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أضربا البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا . . . وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر.

ومما جاء فى هذا الكتاب : ثم انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة ، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوج منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام . فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل فى المطامع اشرافاً ، وابلغ فى عواقب الأمور نظراً ، ثم اسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أوثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، اكتف بذلك شاهداً فابسط عليه العقوبة فى بدنه .

وجاء فى هذا الكتاب أيضاً : ثم إن للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف فى معاملة ، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة ، ولا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم .

ومن وصية لعلى بن أبى طالب كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وهى أشبه بالأوامر العامة : « انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا

تروعن مسلماً ، ولا تجتازن عليه كارهاً ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله . فإذا قدمت على الحى فانزل بمائهم : من غير أن تخالط أبياتهم . ثم امض إليهم ، بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدج[1] بالتحية لهم، ثم تقول : عباد الله أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه . فان قال قائل : لا. فلا تراجعه وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير ان تخيفه، أو توعده، أو تعسفه أو ترهقه . فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة . فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثر هاله ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ، ولا تسوأن صاحبها فيها ، واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله فاقبض حق الله منه ، فإن استقالك فأقله ، ثم اخلطها ثم أصنع مثل الذى صنعت أولا حتى تأخذ حق الله فى ماله . ولا تأخذن عوداً ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عوار . ولا تأمنن عليها إلا من تثق بدينه. رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً . غير معنف ولا مجحف ولا ملغب ولا متعب ثم أخدر إلينا ما اجتمع عندك نصيره حيث أمر الله ، فإذا أخذها أمينك فاوعز إليه أن لا يحول بين ناقة وبين فصيلها ، ولا يمصر لبنها فيضر ذلك بولدها ولا يجهدنها ركوبا ، وليعدل بين صواحباتها فى ذلك وبينها ، وليرفه على اللاغب ، وليستأن بالنعب والظالع ، وليوردها ما تمر به من الغدر ، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق وليروحها فى الساعات ، وليمهلها عند النطاف[2] والأعشاب، حتى تأتينا باذن الله بدناً منقبات غير متعبات ولا مجهودات لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله فإن ذلك أعظم لأجرك وأقرب لرشدك إن شاء الله . »

---

(١) تنقص (٢) الماء الصافى

ومن كتاب له إلى بعض عماله وفيه جماع سياسة المخالفين والموافقين إذا جعله كل عامل دستوره فى عمله قال : أما بعد فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة ، ونظرت فلم أرهم أهلا لأن يدنوا لشركهم ، ولا أن يقصوا ويجفوا لعهدهم ، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة ، وداول لهم بين القسوة والرأفة ، امزج لهم بين التقريب والإدناء،والإبعاد والإقصاء إن شاء الله . وكتب إلى زياد وكان عامله على فارس : أما بعد فإن رسولى أخبرنى بعجب ، زعم أنك قلت له فيما بينك وبينه إن الأكراد هاجت بك فكسرت عليك كثيراً من الخراج وقلت له : لاتعلم بذلك أمير المؤمنين . يازياد وأقسم بالله إنك لكاذب ، ولئن لم تبعث بخراجك لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ، إلا أن تكون لما كسرت من الخراج محتملا . وكتب إلى كعب بن مالك : أما بعد فاستخلف على عملك واخرج فى طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض كورة السواد فتسأل عن عمالى وتنظر فى سيرتهم فيما بين دجلة والعذيب . قال اليعقوبى إن علياً حكم بأحكام عجيبة حتى إنه حرق قوماً ودخن على آخرين ، وقطع بعض أصابع اليد فى السرقة ، وهدم حائطاً على اثنين وجدهما على فسق ، وكان يقول: استتروا ببيوتكم والتوبة وراءكم ، من أبدى صفحته للحق هلك ، إن الله أدب هذه الأمة بالسوط والسيف ، وليس لأحد عند الامام هوادة . قالوا فى القرآن أربعة سيوف : سيف على المشركين حتى يسلموا أو يؤسروا فإمامنا بعد وإما فداء ، وسيف على المنافقين وهو سيف الزنادقة ، وقد أمر الله بجهادهم والإغلاظ عليهم فى سورة براءة وسورة التحريم وآخر سورة الأحزاب . وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، وسيف على أهل البغى وهو المذكور فى سورة الحجرات ، ولم يسل الرسول هذا السيف فى حياته وإنما سله علىّ فى خلافته . وكان يقول : أنا الذى علمت

علمت الناس قتال أهل القبلة ، وله صلى الله عليه وسلم سيوف أخرى منها سيفه على أهل الردة وهو الذى قال فيه : من بدل دينه فاقتلوه ، وقد سله أبو بكر من بعده فى خلافته على من ارتد من قبائل العرب . ومنها سيفه على المارقين وهم أهل البدع كالخوارج .

وروى عن على أن النبى أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين . وقد حرق على طائفة من الزنادقة فصوب ابن عباس قتلهم ، وأنكر عليه تحريقهم بالنار فقال على : ويح ابن عباس لبحاث عن الهنات . وقالوا إن علياً كان يقسم مافى بيت المال كل جمعة حتى لايترك فيه شيئاً . ودخل مرة إلى بيت المال فوجد الذهب والفضة فقال : ياصفراء اصفرى . ويابيضاء ابيضى وغرى غيرى ، لاحاجة لى فيك . وانتهى إليه أن أحد عماله يفرق وبهب الأموال وكان عليها . ولامه أن قسم فىء المسلمين فى قومه ومن اعتراه من السألة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء كما يقسم الجوز . فأجابه عامله إنه منذ ولى العمل لم يرزأ من عمله ديناراً ولادرهماً ولاغيرها وأن العزل أهون عليه من هذه التهمة .

وقال على : لئن بقيت لنصارى بنى تغلب لأقتلن المقاتلة ولأسبين الذربة ، فإنى كتبت الكتاب بينهم وبين رسول الله على أن لاينصروا أولادهم ،ورأى على داراً للقاضى شريح عمرها فقومت عليه بثمانين ديناراً فوعظه وبكته ضمناً مع أنه كان يرزق خمسمائة درهم . وكان يقبل الهدية ويكافىء بمثلها . وهو من أكبر قضاة الصدر الأول . ومن مجموع هذه الفقرات من كتب على بن أبى طالب عرفنا منزعه فى تدبير الملك ،وشدته على من يطيل يده بالأذى إلى الرعية وإلى أموال الدولة ، كان هديه هدى أصحابه الثلاثة من قبل، ولكن التوفيق أخطأه، استغرقت الفتن أيامه ، أكثر من التنظيم والإدارة . وفقد الاستقرار فى البلاد للنزاع الذى قام بينه وبين خصومه . قال الجاحظ :لايعلم رجل فى الأرض متى

ذكر السبق فى الإسلام والتقدم فيه، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الإسلام، ومتى ذكر الفقه فى الدين ، ومتى ذكر الزهد فى الأمور التى يتناحر الناس عليها كان مذكوراً فى هذه الخلال كلها إلا على .

ومما يعد من مآخذه الادارية مبادرته إلى عزل جميع عمال عثمان ولم يتربص بالأمر وصول البيعة إليه من أهل الأمصار ، ولم يصغ إلى تحذير المحذرين ولا نصح الناصحين بل أبى من الإبقاء عليهم أو أحد منهم إباء تاماً كأنه قد وقر فى نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد منهم يوماً كاملا نقص فى دينه ، ولو أنه اتأد فى الأمر ،وعالجه برفق وأناة واصطبر حتى استتب له الأمر وبايعه أهل الأمصار لما كان فى عزل الولاة شىء ، لأن الخليفة هو الذى يعطى الولاة سلطانهم ، فهو حر فى اختيار عماله . ولما طالبه أصحاب الرسول باقامة الحد على من شرك فى دم عثمان بين لهم أن القوم الذين فى أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة ولا يملكونهم ، وقد ثارت إليهم العبدان وفاءت إليهم الأعراب ، وبأيديهم الحول والطول بالمدينة ، وأهلها لا يقدرون منهم على شىء ، وطلب إليهم انظاره حتى تهدأ الحال ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم . ومن عماله ـ رضى الله عنه ـ عبدالله بن عباس وكان واليه على البصرة وإليه الصدقات والجند والمعاون وقثم بن العباس وعبد الله بن عباس وأبو الأسود الدوئلى وسهل بن حنيف وغيرهم.

(القرآن الكريم)

جمعه وتدوينه والدراسات العامة المنوطة بذلك

القرآن ، هو كتاب الله المنزل على محمد (ص) منجما من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده (ص) حيث أوحى إليه من غار حراء الذى كان يتحنث فيه . وأول آية نزلت هى (بسم الله الرحمن الرحيم . إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم) إلى تاسع ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، والثالثة والستين من ميلاده (ص) حيث أوحى إليه بآخر آية وهى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) . فالمدة بين مبدأ التنزيل ومختتمه اثنتان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوما .

والليلة التى ابتدأ فيها نزول القرآن هى ليلة القدر التى قال الله فيها (إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر . سلام هى حتى مطلع الفجر) وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان . يوم التقى الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمعين ، يوم التقاء المسلمين والمشركين ببدر . وهو يوم الجمعة ١٧ من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، ويوم الفرقان هو اليوم الذى ابتدا فيه نزول القرآن ، فهما متحدان فى الوصف ، وهو أنهما جميعا يوافقان يوم الجمعة ١٧ من شهر رمضان وان لم يكونا من سنة واحدة .

روى الطبرى فى تفسيره بسنده عن الحسن بن على قال : كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من شهر رمضان .

وقد حكى القسطلانى فى شرحه على صحيح أبى عبد الله البخارى ، خلاف العلماء فى تعيين هذه الليلة على أقوال كثيرة . ومنها القول الذى مال إليه ابن

إسحاق فى مغازيه وقال . إنه رواه ابن أبى شيبة والطبرانى من حديث زيد بن أرقم ، وأنا كالشيخ الخضرى فى محاضراته أميل إلى هذا الرأى ثقة منى بأن هذه الليلة على جلالة قدرها ورفعة شأنها ، يبعد أن يغفل القرآن تعيينها ولو بالإشارة . وقد أشار إليها فى أحسن موقع فإنه يتكلم عن غنائم بدر ، وهو اليوم الذى أعز الله فيه المسلمين وأراهم من أعاجيب نصره ما ضمن لهم عزة دينهم وارتفاع أقدارهم . وكان يوم تلك الموقعة ، هو اليوم الذى شرف الله فيه محمداً (ص) برسالته ، فحسن جداً أن يشير القرآن إلى ذلك فقال (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) وأما يوم الختام فقد قال الطبرى فى تأويل قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) قالوا : وكان ذلك يوم عرفة عام حج النبى (ص) حجة الوداع ، وقالوا لم ينزل على النبى(ص) بعد هذه الآية شىء من الفرائض ، ولا تحليل شىء ولا تحريمه ، وان النبى (ص) لم يعش بعد نزول هذه الآية إلا حدى وثمانين ليلة ، وروى ذلك عن ابن عباس والسدى وابن جريج .

وروى النيسامورى فى تفسيره عن ابن عباس ، أنه قرأ هذه الآية ومعه يهودى ، فقال اليهودى : لو نزلت علينا فى يوم لاتخذناه عيداً . فقال ابن عباس : إنها نزلت فى عيدين اتفقا فى يوم واحد. فى يوم جمعة وافق يوم عرفة.

تنجيم القرآن واعتراض المشركين :

وكان نزول القرآن منجما مثار الاعتراض من المشركين ، وقد ذكر ذلك الكتاب وأجاب عنه فقال : وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا .

السور المكية والمدنية

ويتميز عهد نزول القرآن بظاهرتين واضحتين وذلك أنه نزل كثير من

سوره وآياته قبل الهجرة والبعض نزل بعد الهجرة إلى المدينة . ومن ثم فقد أطلق الباحثون الإسلاميون اسم : المكى . على ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى على ما نزل بعدها .

السور المدنية والمكية

وها هى ذى السور بنوعيها

السور المدنية :

(١) البقرة (٢) آل عمران (٣) النساء (٤) المائدة (٥) الأنفال (٦) التوبة (٧) الحج (٨) النور (٩) الأحزاب (١٠) القتال (١١) الفتح (١٢) الحجرات (١٣) الحديد (١٤) المجادلة (١٥) الحشر (١٦) الممتحنة (١٧) الصف (١٨) الجمعة (١٩) المنافقون (٢٠) التغابن (٢١) الطلاق (٢٢) التحريم (٢٣) النصر .

أما باقى سور القرآن فإنها مكية

ومجموع القرآن أربع عشرة ومائة سورة . أولها الفاتحة وآخرها سورة الناس . والسورة — فى لغة العرب — المنزلة من منازل الارتفاع قال الشاعر النابغة

ألم تر أن الله أعطاك سورة　　ترى كل ملك دونها يتذبذب

يعنى بذلك أن الله أعطاك منزلة من منازل الشرف قصرت عنها منازل الملوك

والسورة مخففة ، وبعضهم يهمزها فيقول (سؤرة) وتأويلها فى رأى من يهمزها أنها القطعة من الكتاب الكريم تلى سورة أخرى . ومن ذلك قول أعشى ثعلبة يصف امرأة فارقته .

(١) انظر المصحف

فبانت وقد أسأرت فى الفؤاد صدعا على نأيهـــا مستطيراً

ولـكل سورة من هذه السورة اسم خاص . فمنها ما أخذ اسمهـا من مطلعها ، وهو أكثر السور مثل سورة الأنفال وسورة طه ، وسورة المؤمنون ومعظم سور القرآن .وفى الـكتاب خمس وثلاثون سورة سميت بأسمـــاء أشياء لم تذكر فىأوائلها ، كسورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها .

كان القرآن ينزل على النبى (ص) خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل . وقد صح نزول عشر الآيات فى قصة الإفك جملة .

وصح نزول عشر آيات كذلك من أول سورة المؤمنون . . وكان النبى (ص) أميا لا يقرأ ولا يكتب ، دل على ذلك القرآن فى قوله فى سورة الروم (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) فـكان — ص — يتحمله من الملك حفظا ، وإلى ذلك الاشارة فى قوله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه) وقوله سبحانه (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربى زدنى علماً) وقوله تعـــالى سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ، وقوله جل شأنه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

كان — ص — بعد نزول السور والآيات يأمر بكتابة ما نزل بين يديه على أى شىء تتيسر الـكتابة عليه مثل جريد النخل والأحجار الرقاق أو الرقاع أو غيرها . وكان له كتاب معروفون يكتبون له — ص — قيل أن عددهم نيّف على الأربعين ممن كان يلازمه ، عدا كثرة أخرى لم تساعدها ظروف حياتها على تلك الملازمة الـكريمة .

ومن أشهر هؤلاء الـكتاب : الخلفاء الأربعة ، وعامر بن فهيرة وكان

بكتب الرسائل للملوك وغيرهم ، ومنهم أبى بن كعب ، وهو أول من كتب له من الأنصار بالمدينة ، وكان فى أغلب أحواله يكتب الوحى وهو أحد الفقهاء الذين كانوا يكتبون فى عهده - ص — ومنهم ثابت بن قيس بن شماس ، وزيد بن ثابت وغيرهم هذا ولأن موضوع جمع القرآن وتدوينه وما يتعلق بذلك من الدراسات . من الأمور الحيوية فى المجتمع الإسلامى بوجه عام فقد آثرنا أن نسهب فيه بعض الشىء حتى نتم الفائدة من وراء نشره وإذاعته .

ومن ثم فقد أعجبنى هذا البحث الذى نشر فى بعض دوائر المعارف[1] العربية فرأيت من الخير أن أثبته هنا بنصه لعظم فائدته وذلك فيما يتلو .

القرآن

القرآن الكريم « كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » (١٥،١٦ — المائدة) .

بمثل هذا حدث القرآن عن نفسه ، فكان أبين وأدل من بيان أصحاب أصول الفقه له بمثل قولهم انه « اللفظ العربى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، للتدبر والتذكر ، المنقول متواترا وهو ما بين الدفتين ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس » . فإن ما يقولون من التدبر والتذكر لا يفى بمكان القرآن ، الذى هو فى العربية قاموس لغتها وتاج أدبها ، وهو فى الإسلام معجزة دعوته ودعامة شريعته ، وهو فى الانسانية دعوة خالدة إلى سبل السلام والخير .

اسمه :

اسمه « قرآن » مهموزا ، أو «قران» بغير همز ويقول القدامى الكثير فى

---

(١) انظر كتاب الشعب ٤٣ ط ١٩٥٩ نشر القاهرة

بيان أصل هذا الاسم الكريم: لغة ومعنى وتصريفا، وما الى ذلك فهو إذا همز — وهو الأكثر — من «قرأ» بمعنى تلا ، أو بمعنى جمع، أو بمعنى طرح : لأنه متلو ، أو لأنه يجمع السور بعضها الى بعض، أو لأن القارىء يلقى اللفظ ويطرحه.. وإذا لم يهمز ، فهو من «قرن» بمعنى ضم : لضمه السور والآى والحروف ، أو بمعنى المشابهة لأن بعضه يشبه بعضه ويؤيد بعضه ، أو يكون من « قرأ » وقد خففت همزته .

وقد يعبر عنه بأسماء أخرى : كالفرقان ، والكتاب . . . ويبلغون بهذه الأسماء الى نيف وتسعين اسما ، ويتحدثون عن معانيها واشتقاقها وقد يفردونها بالتأليف وهى فى الأغلب ليست إلا صفات للتنزيل: كالهدى، والرحمة ، والشفاء ، والموعظة ، والحكمة .

نزوله :

فى المدة التى مضى فيها الرسول عليه السلام يبلغ دعوة الاسلام. كان ينزل القرآن منجما مفرقاً فى المناسبات التى تطلب ذلك ، وقد استغرق هذا النزول بضعة وعشرين عاماً — منذ بعث عليه السلام الى أن لحق بربه — وهذا هو الزمان الذى أنزل فيه القرآن : أما المكان فهو فى جملته وأغلبه الحجاز ، حيث جال عليه السلام مبلغاً رسالته ، ومواجها أحداثها المختلفة التى ظهرت بها الأسباب المتطلبة لنزول آى القرآن الكريم ولعل العرب كانوا من الناحية العقلية والدينية ، ثم من الناحية الاجتماعية والحيوية ، فى حال لا تهيئهم كثيراً لتلقى كتاب كامل ، وصحف تامة ، فكانت الحكمة فى أن ينزل اليهم القرآن منجما مفرقا يتلقونه شيئا فشيئاً ، وقد احتفت به مناسبات نزوله ، وتوجهت النفوس الى تلقيه فكانت أكثر تهيؤاً لقبوله . . . وفى كل هؤلاء مسايرة لما ينال

مجتمعهم فى هذه الفترة الانتقالية الهامة من تغير وتدرج ؛ يسايره القرآن ويسيره.
فكان نزول القرآن المفرق خـــلال تلك السنين الطويلة أعون على حفظه ؛ وأثبت فى وعيه ؛ وابقى له على الدهر ؛ وأبعد له من شر التحريف. أو التشويه الذى منى به فى غيره .

وقد فهم أصول هذه المعانى من فسر آية « وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبّت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » (٣٢ — الفرقان) . فقرروا أن من أسباب النزول المتقطع أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئا . . كان بخلاف موسى وداود وعيسى ، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ ، فأنزله الله عليه منجما . . . ليـكون أقرب إلى الضبط ، وأبعد عن النسيان والسهو ، وأن نزول الشرائع متدرجا أسهل على المـكلف من نزولها دفعة ، وأن نزوله بحسب الوقائع والحوادث أوفق فى باب التـكاليف والاستبصار ، وأدل على الأخبار عن الحوادث فى أوقاتها (تفسير النيسابورى على هامش الطبعة الأولى للطبرى ، حـ ١٩ ، ص ١٢) .

ولعل هذه المعانى وغيرها فى سبب التنجيم وحكمتها يجمعها قوله تعالى : « كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » .

ولسعة زمن النزول واختلاف أماكنه ، نسبت سور القرآن وآياته إلى أزمانها وأماكنها ، فـكان من أشهر ما أطلق على الآيات أنها « مكية » أو «مدنية» . نسبة إلى مكة ، وهى المهد الأول للدعوة الإسلامية ، وإلى المدينة ، وهى مستقر هذه الدعوة كما قد ينسب منه شىء إلى غير هاتين المدينتين كالحديبية والجحفة والطائف ، لـكن النسبة إلى هاتين المدينتين هى أشهر نسبة ، وإليها وجهت العناية ببيان المـكى والمدنى من آى القرآن ، وتعيينه وترتيبه ووضعه وما إلى ذلك . ولهم فى ذلك اصطلاحات أشهرها : أن المـكى ما نزل قبل الهجرة

وإن كان بالمدينة ! والمدنى ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة . كما قيل ان الأقرب تنزيل قول من قال « مكى ومدنى » على أنه خطاب : المقصود به ، أو جل المقصود به ، أهل مكة ، وكذلك بالنسبة إلى أهل المدينة (الزركشى ، كتاب البرهان فى علوم القرآن ، حـ ١ ، ص ١٨٧ و١٩١ ، طبعة أولى) .

وقد كان من أثر ذلك وجود سور مكية وأخرى مدنية ، ووجود آيات مدنية فى السور المكية وآيات مكية فى السور المدنية .

وجميع مانزل بمكة من سور القرآن هو خمس وثمانون سورة ، وجميع مانزل بالمدينة تسع وعشرون سورة — على اختلاف الروايات فى بعض ذلك، كالخلاف فى فاتحة الكتاب : مكية أو مدنية .

وقد يذكرون خصائص تعبيرية للمكى والمدنى من القرآن ، كالقول بأن كل سورة فيها « يأيها الناس » ، وليس فيها « يأيها الذين آمنوا »،فهى مكية، أو أن كل سورة فيها « كلا » فهى مكية ، أو نحو ذلك . ولكن هذا فى الغالب والأكثر فقط ، وليس بعام مطرد .

ولعل أقوى من هذا فى تمييز المكى من المدنى فى القرآن ، ما يرجع إلى حالة الحياة الإسلامية فى العهدين ، وما كان يعنى به القرآن فى كل عهد : كالقول بأن كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهى مدنية ، وكل ماكان فى ذكر القرون الماضية فهو مكى ... إذ يمكن القول بجملة ان القرآن إنما عنى فى الدور المكى بالأسس الاعتقادية الكبرى: كتصحيح التوحيد ، وإبطال الشرك ، وتقرير الألوهية ، وشئون الرسل مع أممهم ، وجهاد أولئك الرسل فى سبيل دعواتهم . ومالى ذلك من أسس الرساله الإسلامية وأصولها الدينية العامة. وفى الدور المدنى، حين تميز وجود المجتمع الإسلامى، جعل القرآن يعنى بالشئون الحيوية التفصيلية ، والنظم العملية للمجتمع الجديد، من تنظيم الروابط والعلاقات الاجتماعية

بين الفرد وأمته ، والفرد وجماعته الصغرى وهى الأسرة ، وبين الجماعات بعضها مع بعض ، وما يكون من صلات ومعاملات، وعلاقات عملية، حربية وسياسية ، وما إلى ذلك .

وباختلاف الشئون التى يعرض لها القرآن فى كل دور من الدورين، يختلف — ولابد — موضوع الحديث وأسلوبه وجوه وطابعه ، ومن هذا يمكن تقرير خصائص فنية أدبية لكل أسلوب من الأسلوبين القرآنيين : المكى والمدنى ، يتميز بها كل واحد منهما بتميز حال المخاطبين ، فى كل عهد ، ومدى تهيؤهم النفسى لما يلقى إليهم ، وتقبلهم له ، أو مقاومتهم اياه . . . إلى جانب ماذكر من اختلاف مجال القول فى الدورين ، وأن أحدهما جدال واقناع ومناقشة ورد ، كما يكثر ذلك فى العصر المكى مثلا ، والثانى تلقين وتوجيه وترغيب وتفصيل ، كما هو الشأن الغالب فى العصر المدنى . وكذلك نجد هذه الخصائص المميزة للعصرين واضحة فى كل فن من فنون القول فيهما . وحسبنا على ذلك مثلا القصص القرآنى فى العصرين ، فإنه فن واحد بعينه من فنون القول : لاتتغير طبيعته فى عصر عنها فى آخر . لكن يتغير الهدف بتغير العصر . فإن يكن للعبرة دائما ، فإن حال المعتبرين به متفاوتة متغيرة وموضع العبرة من القصص يختلف كذلك باختلاف حال من يقص عليه . ومن هنا نجد القصص القرآنية قد عرضت فى العصر المكى عرضاً يختلف اختلافاً واضحاً عن عرضها فى العصر المدنى ، من حيث نظم الآية ، وقصرها وطولها . بل من حيث ألفاظها . ومعدن تلك الألفاظ ووقعها الصوتى ، ثم من حيث الإيجاز المختصر المركز : تسلط فيه الأضواء على مشهد واحد قصير من أحداث القصة فى مكة ، ثم الإسهاب المغاير لذلك فى المدينة . . . إلى غير ذلك من فروق يتبينها الدرس الأدبى المتخصص ، ويكشف عن روائع من الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم فى القصص وحده .

ولعل من الالتفات إلى هذا بعض قول الأقدمين : كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية (الزركشى ، البرهان ، جـ ١ ص ١٨٨). وقد يفسر ذلك أنها خاصة ، ببدء الخلق واتقاء نوازع الشر فى التكوين الإنسانى ، إلا أن هذه القولة القديمة لا يلبث أن يلحقها الاستثناء ، إذ يجدون سورة البقرة المدنية قد ذكرت فيها قصة آدم وابليس (المرجع السابق فى الموضع نفسه) .

وتنظر إلى النسج القرآنى لقصة آدم وابليس فى العصر المكى فتلمس ما أشرنا إليه من خصائص واضحة مميزة له عن تناول تلك القصة فى العصر المدنى بسورة البقرة . ومن هذا يجد الدرس الفنى البلاغى لهذا القصص القرآنى ناحية من نواحى الإعجاز القرآنى فى هذا القصص وحده كما ذكر آنفا .

أسباب نزوله

وهى ما يسميه العصريون من أهل الأدب « ماحول النص » من ملابسات ومناسبات وظروف محتفة بالنص الأدبى الذى يدرسونه ، ويرون فيها ما يلقى الأضواء القوية على معانى النص وأغراضه ومراميه ، ويهيىء السبيل لفهم نفسية القائل فيما يلفت إلى مافى عبارته من إيحاء واثارة معنوية تكشف عن معالم الصورة البلاغية التى يخرج فيها القائل معانيه . وقد أجملنا قريباً القول عن الخصائص الأدبية والمميزات البلاغية للسور المكية والمدنية بتميز الحياة الإسلامية فى كل دور منها وفى هذا الإجمال ما يكشف عن أهمية « ماحول » القرآن : فى فهمه الفهم الصحيح الدقيق ، وتقديره التقدير الفنى السليم .

ومن كل أولئك ندرك الأثر الواضح لمعرفة أسباب نزول القرآن ، الذى عرفنا أنه إنما نزل مفرقاً لمناسبات من واقعات حياة الإسلام والمسلمين اقتضت نزول ما كان ينزل منه عند كل مناسبة منها . وقد قدر القدماء هذه الأهمية ،

فكان منهم من قال : « بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معنى القرآن » (السيوطى ، الاتقان ، جـ ١ ، ص ٣٥ ، الطبعة الموسوية) .

ولم ينصف منهم من هون من أمر تلك الأسباب ،فزعم أنه لاطائل تحت هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ (المرجع السابق) .

وقد بدأت عناية القدمين المبكرة بالتأليف فى أسباب نزول القرآن ، وجعلوها نوعاً من أنواع الدراسات القرآنية التى سموا مجموعتها«علوم القرآن». واشتملت كتب التفسير على هذه الأسباب عند تفسير آياتها ، كما وضعت الكتب المفردة فى تلك الأسباب ، مثل كتاب « لباب المنقول ، فى أسباب النزول » للسيوطى ، وغير ذلك من كتب فى أسباب النزول . وبالدقة المعهودة لهم قالوا : « لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن عللها » . (اسيوطى ، نقلا عن الواحدى ، الاتقان ، جـ ١ ، ص ٣٨). كما قدروا مايقع من وهم الراوى للأسباب ، وأشاروا إلى بعض مسببات الوهم : « كأن تتلى الآية عند الحادثة، فيهم الراوى فيقول : فنزل عند ذلك كذا » . (المرجع السابق ، ص ٤٢) .

وبهذه الدقة يجب النظر فى أسباب النزول فهما للقرآن ، وتقريراً للتاريخ الدينى ، حتى يكون لأسباب النزول مالفتنا إليه من أهمية ما يسمى الآن « ماحول النص » .

أبحاث فى النزول

يعرض القوم لأبحاث فى النزول نرى هنا الاكتفاء بالإشاره اليسيرة إليها. فمن ذلك : أول ما نزل من القرآن ، وآخر ما نزل منه . والروايات فى ذلك مختلفة ، والاشتغال بالترجيح بينها ، أو الجمع والتوفيق،ليس من الأهمية بمكان ،

وهو كما قال الأولون : «ليس العلم به من فرائض الدين ، ولا رفع شيء من المروى عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم — فلا خوف من عدم الضبط فيه» . (البرهان ، جـ ١ ، ص ٢١٠) . ومن ذلك البحث فى « كيفية انزاله » ؛ ومن أى مكان فى السماء إلى أى مكان آخر نزل ؟ ومتى كان ذلك ، ووقته أو أوقاته ؟ — وليس شيء من ذلك يجب الوقوف عنده والانتهاء إلى قول فيه ، لأن المهم فى ذلك أن القرآن كلام الله المنزل ، ويجرى الاختلاف بعد ذلك فى معنى الانزال .

وقد قيل : إن معنى الانزال هو إظهار القرآن (البرهان ، جـ ١ ، ص ٢٩٩) . وهذا المعنى العام فى الانزال يعنى عما وراءه من تفاصيل وفى تعبير القرآن نفسه بالانزال فى مثل قوله : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » ما يؤيد إرادة المعنى العام من الانزال وهو الاظهار ، دون وجوب شيء مما وراء ذلك من تفصيل المكان الذى منه النزول ، أو المكان الذى إليه النزول ، وتحديد غير ذلك من وقت أو أوقات .

وفى بحث « الكيفية » يعرضون كذلك لشرح طريقة إبلاغ الملك المنزل ، وطريقة تلقى الرسول عليه السلام لما أنزل ، وهل كان ذلك بأن ينخلع الرسول من صورة البشرية إلى صورة الملكية ، فيتلقى عن الملك ، أو ينخلع الملك من الملكية إلى صورة البشرية فيلقى إلى الرسول ، وأى الحالين أصعب ؟ . . .

والاهتمام بهذا مما لا تبدو حاجة إليه ، ولا تطلب فيه عقيدة تفصيلية . وفيما عرف علم البشر — وما أوتوا من العلم إلا قليلا — ما يقرب إمكان التلقى والانفعال بغير الوسائط الحسية المادية المعروفة ، وفيما يتقدمون إليه من علم الكون ما يزيد هذا قربا وفهما . والمشهود منه اليوم يغنى عن الوقوف عند

مثل هذه التفاصيل التى لا يسلم القول فيها من مآذق ، ولا ينتهى تركها إلى شىء من نقص فى المعرفة أو العقيدة .

وعلى أخذ الانزال بمعناه الحسى – من عال إلى أسفل – فقد يكفى فيه عبارة مجملة كقول من قال . « إن الله أفهم كلامه جبريل وهو فى السماء ، وهو عال من المكان ، وعلمه قراءته . ثم جبريل أداه إلى الأرض ، وهو يهبط فى المكان » . (البرهان ، جـ١ ، ص ٢٢٩) . بل بأيسر من هذا يتسق الفهم ، ولا تبدو فيه غرابة . وأما على أخذ الانزال بمعنى الاظهار فلا يحتاج المعنى إلى شىء من تفصيل مكان ولا كيفية .

ومن تفصيلهم فى ذلك أن الذى نزل هو اللفظ نقله الملك ، أو أن الذى ألقى اليه هو المعنى ، وعبر الملك بتلك الألفاظ العربية ، أو أن الملك قد ألقى إلى الرسول المعانى ، وهو – عليه السلام – عبر عنها بتلك الألفاظ (المرجع السابق) .

وعلى كل حال فان فى الأمر معنى إلهياً روحانيا من اقراء الله للملك والرسول جميعاً ، دون حاجة فى مثل هذا الأفق الروحى إلى عقيدة بعينها ، أو فكرة بذاتها ، أو شرح خاص لكيفيته المعينة .

لغة النزول

القرآن — كقوله تعالى جل شأنه — عربى مبين . ولكن العربية لعهده لم تكن قد تهيأت لها الوحدة اللغوية . لأثر بيئة جزيرتها الطبيعية فى تفرقها ، واختلاف الحياة بعامة فى أرجائها النائية التى تقوم فى وسطها صحراء يقع على حفافيها من الخصب النسبى فى الجنوب والشرق والشمال والغرب — نوعاً ما — ما لا يتهيأ له التواصل المتماسك . وقد حفظت لنا اللغة ، بعد جمعها ،

مايمثل اختلاف القبائل العربية فى لغتها . والذى يحكيه النحويون مثلا ، من التميمية والحجازية ، فى عمل ما ؛ ليس إلا شاهدا للاختلاف اللغوى بين شرق الجزيرة وغربها فى مظاهر كثيرة .

وإذا كان العرب قد استشرفوا الشيء من التماسك الجامع لأمرهم قبيل الاسلام ـ كما تشهد بذلك شواهد اجتماعية وسياسية ودينية ـ فان الاسلام نفسه كان هو الحركة الدافعة إلى مثل هذا التوحد والتماسك لكن الدعوة الاسلامية تواجه بالفعل هذا الواقع الذى أشرنا اليه من الاختلاف اللغوى .

والقرآن — وهو كتاب هذه الدعوة وملاك أمرها — لابد أن يلقى إلى هؤلاء المدعوين على اختلاف مابينهم لغوياً . وكذلك ندرك الحاجة الماسة إلى معالجة هذا الأمر الواقع ، ومايحتاجه من تيسير على من يقبلون هذه الدعوة الجديدة ويسمعون كتابها ، ويأخذون أنفسهم بترديده أو حفظه أو التعبد به حسبما كلفوا به من التعبد وألسنتهم لن تطوع بهذا التحول المفاجىء مهما يكن إخلاصهم فى تقبل الدين الجديد . وهذا التيسير هو الذى كان فى إقراء الرسول عليه السلام القرآن لأصحاب هذه اللهجات بما تستطيعه ألسنتهم ، فاختلف هذا الاقراء فعلا باختلاف لهجاتهم كما تنقل الروايات الحديثية ذلك ، وكما أوردت تلك الروايات معنى نزول القرآن على سبعة أحرف ، بعبارات مختلفة ، ومن طرق متعددة ، وذكرت هذا التيسير على الناس فى هذا الوقت بتعدد الأحرف ، لأن كل ذى لغة كان يشق عليه أن يتحول عن لغته ، فأذن لكل منهم أن يقرأ على حرفه — أى على طريقته فى اللغة ومايستطيعه منها لسانه .

وقد كثرت الأقوال فى تفسير النزول على سبعة أحرف كثرة ، لحظها القدماء أنفسهم ، وعلقوا عليها مستكثرين حين وصلت بضعة وثلاثين رأياً ، فقال قائلهم : « أكثرها تداخلت . ولا أدرى مستندها ، ولا عمن نقلت . . . »

(الاتقان ، جـ١ ، ص ٦٣) . والذى يعنينا هنا من هذه الأحرف السبعة أنها ليست القراءات السبع المشهورة بهذا العدد ، والتى سيرد حديثها بعد ، وأن هذه الاحرف إنما هى لهجات مختلفة فى اللغة العربية ، وأنها وجدت فى القرآن جملة ، لأنها كانت سبع لهجات فى كل آية وكل موضع من القرآن ، وأنها كانت ضرورة حيوية اقتضاها ما أسلفناه من الواقع اللغوى للعربية ، وأن هذه الضرورة قد ارتفعت الحاجة إلى معالجتها بالقراءة على اللهجات المختلفة حين تغير حال المجتمع العربى الإسلامى ، بمثل مايقول القدماء أنفسهم : «عندما انضبط الأمر ، وتدربت الألسن ، وأكثر الناس والكتاب ــ فارتفعت تلك الضرورة (البرهان ، حـ١ص ٢١٣و٢٢٤و٢٢٧) . وقد ارتفعت هذه الحاجة إلى الأحرف المختلفة حين جمع عثمان « المصحف الامام » على ماسيذكر بعد . فكان مصحفه حرفا واحداً من تلك الأحرف المتعددة ، على ما هو المختار من الآراء الكثيرة فى معنى نزول القرآن على سبعة أحرف .

جمع القرآن

ما كان من نزول القرآن مفرقا يبين وجه الحاجة إلى جمعه ، وبخاصة إذا ما قدرنا أن فى السورة المكية منه شيئاً مما نزل فى المدينة ، وفى السورة المدينة منه شيئاً مما نزل فى مكة . على انا حين نقدر حال العرب الإجتماعية لعهد نزوله ، واعتمادهم إذ ذاك على حافظتهم والركون اليها فى تسجيل انسابهم التى كانوا يعنون بها عناية شديدة ، وفى تداول مفاخرهم وأيامهم ، ومثالب أعدائهم وما إلى ذلك مما تتطلب حفظه حاجة الحياة والمنافسة فيها . . . حين نقدر هذه الحالة الاجتماعية للعرب نفهم كيف كان فيهم ذوو القوة النادرة فى الحفظ ، ممن يتناقلون أخبارهم فى سرعة الحفظ وقوة الإحتفاظ بما تعى حوافظهم ، ثم ندرك من ذلك أيضاً أن حالهم هذه كانت دافعة لهم إلى نوع من جمع القرآن الذى ينزل منجما بحفظه السريع القوى كذلك فبقدر ما ناسبهم

النزول المنجم لما فيهم من بداوة لاتشيع القراءة والكتابة بين أهلها ، تهيأ لهم في الوقت نفسه أن يحفظوا مايلقى اليهم ويتلى عليهم . . . لهذه البداوة نفسها . وسنسمع فيمايلى من يسمى هذا الحفظ الشفوى جمعا للقرآن . وهو محق فى ذلك إلى حد كبير ، لأن الحفظ ــ كما رأينا ــ مما تقويه وتسعفه ظروف حياة العرب العملية ، والحافظة هى أولى الوثائق فى حياة الانسان .

على أنا حين نتذكر مع ذلك ما يقع فى المحفوظ مشافهة من قرب التغيير لبعض كلماته أحيانا ـــ وهو ماتنبه له القدماء من أسلافنا أنفسهم وحدثوا عنه ـــ ندرك الحاجة الماسة إلى تدوين الكتاب الكريم ، الذى له من الأهمية الجوهرية والأصالة الأساسية فى الدعوة الاسلاميةما لا يكون اكثرمنه ولاأقوى .

وقد كان تدوين آى القرآن موضع العناية الواضحة من الرسول عليه السلام منذ اللحظة الأولى ، فى صور من الاحتياط القوى ، أولها كتابة القرآن نفسه بالقدر الذى تسمح به الظروف الواقعة للحياة العربية الاسلامية . ولعل ذلك قد بدأ منذ العهد المكى نفسه ، إذ نسمع فى خبر إسلام عمر ـــ رضى الله عنه ـــ أن أخته وزوجها كانا يقرآن شيئا من القرآن فى صحيفة معهما حين دخل عليهما ، وكان بينه وبينهما ما كان مما أدى إلى اسلامه وإعلان ذلك الاسلام الذى اعتزت به الدعوة .

ومكة ، بما هى بلد تجارى ، كانت الكتابة فيها تجد من يعنى بها ، ضبطا للأعمال التجارية التى نعرف امتدادها إلى المناطق التى وصلت إليها رحلات قريش فى الشتاء والصيف .

ومن هنا مايروى من وجود رجال كاتبين فى مكة ، بل وجود نسله كاتبات . فإن السيدة حفصة بنت عمر ، زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، مثلا ، كانت تعرف الكتابة .

وتبدو عناية الرسول بنشر الكتابة فى مجتمعه الجديد مما نعرفه من جعل تعليم الكتابة للمسلمين بد لا يفدى به الأسرى أنفسهم من الأسر فى موقعة بدر. ثم ما هو إلا أن كان للرسول كتبة وحى يكتبون بين يديه القرآن ، ويكتبون رسائله ، وقد بلغ عددهم إلى بضعة وعشرين شخصا . ورأى عليه السلام لبعضهم أن يتعلموا من اللغات غير لغتهم العربية . . . كذلك كتب القرآن أولا بأول ، مع حفظ ماينزل منه كذلك أولا بأول .

ومن تمام الاحتياط أن الرسول حين يكتب كتابه الوحى ، ويدونون القرآن ، وحين يأمر أصحابه من غير هؤلاء المتخصصين بالكتابة أن يكتبوا القرآن لأنفسهم — حين يكون ذلك ينهى الرسول عن كتابة شىء آخر غير القرآن بما يسمعونه منه ، لئلا يختلط شىء من ذلك بالقرآن .

ونظل نجد أثر الانتباه إلى هذا المعنى من المحافظة على النص القرآنى من أن يشوبه شىء غيره . فيروى أن عمر بن الخطاب ، فى خلافته . يفكر فى كتابة السنة . ويستشير الصحابة فيشيرون عليه بالكتابة . فيمضى عمر شهراً فى الاستخارة حتى يصبح يوما — وقد عزم الله له — فلا يريد أن يكتب السنن . . . . إذ ذكر قوما كانوا قبلهم ، كتبوا كتبا ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله . وانه والله لا يشوب كتاب الله بشىء أبدا (ابن عبد البر ، جامع بيان العلم ، جـ ١ ، ص٦٤) . فالقرآن عند الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكتب شيئا فشيئا ، حتى يروى أن بعض كتابه كانوا يلازمونه للكتابة بين يديه فى الوحى وغيره : لاعمل لهم غير ذلك . يذكرون من هؤلا اللازمين معاوية بن أبى سفيان ، وزيد بن ثابت ، ثم الصحابة . كان الكاتبون منهم يكتبون القرآن ولا يخلطون به غيره من النصوص الدينية . ومن لا يكتب منهم كان يحفظ شفاها . وللقوم حافظتهم القوية ، حتى قيل ان العرب قد خصت بالحفظ وكان أحدهم يحفظ أشعار بعض فى سمعة واحدة .

وكان النزول المفرق، فى الوقت نفسه، عملا ميسراً لحفظ الحافظين مع مالهم من قوة هذا الحفظ، وعاملا ميسراً كذلك لكتابة الكاتبين، إذ كانت كتابتهم ليست بالقوية ولا بالسريعة أو الموفورة الآلات، فهم لا يكتبون إلا شيئا فشيئا. ثم ان الرسول فيهم يتلوعليهم هذا القرآن، وهم يتلونه فى تعبدهم وتدبرهم، وفى ملاقاة شئون الحياة وأحداثها بما واجهها به القرآن من تدبير وتصريف ... وكل أولئك جدير بأن يحقق مايروى من أن نفرا بأعيانهم حفظوا القرآن كله جملة، إلى جانب الآخرين الذين كانوا يحفظون منه ما يتهيأ لهم حفظه. وتنقل الرواية أسماء هؤلاء الذين كانوا يحفظون القرآن كله قبل أن يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم الدنيا. منهم أربعة فى رواية، وستة أو سبعة فى أخرى، وأكثر من ذلك فى روايات. وأشهر من تتفق الروايات على حفظهم للقرآن كله هم: عثمان بن عفان، وأبى بن كعب، وزيد ابن ثابت، ومعاذ بن جبل (الزركشى، البرهان، ج١، ص ٢٤١ — ٢٤٣).

والذى يعنينا هنا هو أن القرآن، حينما تم نزوله مفرقا، كان يحفظه نفر من أصحاب الرسول: منهم من حفظه كله بأجمعه ومنهم من حفظ ماتيسر منه. وكان قد كتب الكتابة التى مكنت منها الظروف على ما سيأتى. وهذا ما يمكن أن نسميه الجمع الأول من القرآن، وإذ اجتمع به فى صدور حفاظ أقوياء الحافظة: حفظه بعضهم كله، وحفظ بعضهم أبعاضه. واجتمع فى مكتوبات وإن لم تأخذ صورة الصحف أو الكتاب كما نفهمها اليوم، لتفرق المواد التى كانت عليها الكتابة، واختلاف أنواعها اختلافا يحول بينها وبين تماسك الصحف فى الكتب كما سنعرف بعد من أمر تلك الكتابة الأولى، وأنها كانت على مسطحات من مواد متعددة. خشبية أو عظمية أو خزفية، اختلفت مساحاتها كما اختلفت موادها.

وكان هذا الذى نسميه جمعا أول مناسبا لحال المجتمع الإسلامى حتى وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . إذ كان ، حتى هذا الوقت ، مجتمعا محدود المكان أفراده متعارفون متواصلون ، لم تتسع رقعته بعد إلى خارج وطنه ، بل لم يستوعب الجزيرة العربية نفسها بعد ولم يبعد عهده بسماع القرآن من بلغه الأعظم أناء الليل وآطراف النهار ، ولا عند الناس ما يشعرهم بعدم كفاية ما كان حتى الآن لحفظ القرآن ، بل لا يتجهون إلى شىء من ذلك لأن صاحب البلاغ قائم فيهم ، وعنده كل علم الكتاب ، وإليه وحده يرجع التفسير والتدبير والعمل لحفظ الكتاب وحفظ غيره من شئون خاصة بالدعوة الإسلامية فى أمورها كلها . وإنما جهد الواحد من أفراد هذا المجتمع أن يحفظ هو شيئا من هذا القرآن ، أو يكتبه أو يتلوه ليفقه شيئا من معناه ، ويرتاض بهديه الذى كانوا أقدر الناس على معرفة جلالته وأهميته .

جمع أبى بكر

فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا بعد ما دبر لحفظ القرآن ، فكتب الكتابة الممكنة إذ ذاك ، وحفظ أصحابه منه ما استطاعوا حفظه ، وبعضهم قد حفظه بأسره كما سبق . . . وذلك كله مما يمكن أن نعده ضربا من جمع القرآن ، وأن نسميه الجمع الأول للقرآن . وبوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم واجه المجتمع الجديد هزة عنيفة بحركة الردة ، وكان ما كان فيها من قتال بين الثابتين والمرتدين . وفى أواخر حركة الردة ، بعد واقعة اليمامة مع المرتدين ، نسمع أن أبا بكر أمر بجمع القرآن . وتستطيع أن تدرك التغير الذى طرأ على المجتمع الإسلامى بحرمانه قيادة الرسول ، وارتداد جمهرة كبيرة من أهله . . وهى حال تدعو بطبيعتها إلى التفكير فى صون دعامة وجود هذا المجتمع الجديد .

وكان يمكن أن يتجه تفكير ذوى النظر البعيد إلى الاحتفاظ بأصل مصون لهذه الدعامة ، بعد مفارقة الرسول صلى الله عليه وسلم . وسواء أكان هناك سبب مباشر قد نبه إلى العناية بصيانة القرآن كموت كثير من حفاظه فى واقعة اليمامة سنة ١١ هـ ، أم كانت النظرة البعيدة لمستقبل القرآن ، وأهميته الجوهرية فى حياة الإسلام ، هى التى دعت إلى هذا الجمع . . سواء أكان هذا أم ذاك فقد اتجهت العناية المبكرة إلى الظفر بأصل مكتوب للقرآن فى حالة أكثر تنظيما من حالة كتابته الأولى . وتم التفاهم أخيرا بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ـ وهما الزعيمان الكبيران فى هذه الجماعة ـ على أن يتحقق هذا الغرض ، ويوجد أصل مكتوب للقرآن . وعهد بذلك إلى أحد الصحابة الذين تحقق لهم جمع القرآن فى صدورهم حفظا ، وله سابقة مشكورة فى العمل لصونه هو اشتغاله بكتابته بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم . . فهو حافظ القرآن ، وهو أحد كتبته ، فهو بذلك أقدر الناس على تحرير نسخة منه مكتوبة فى مجموعة من الصحف — مهما يكن نوعها — بدل كتابته الأولى على مواد مختلفة ، من حيوانية ونباتية وجمادية .

واعتمد زيد بن ثابت فى تحرير هذه المجموعة على المصدرين اللذين حفظا النص القرآنى حتى الآن ، وهما : الحفظ المشافه من الحفظة الأقوياء فى ذلك ، والكتابة المدونة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . . وكذلك جمع ما كتب من القرآن على صحف من كاغد أو جلد أو من جريد النخل أو الحجارة البيض الرقاق أو ألواح عظام الإبل والغنم وما إليها

وتتحدث الأخبار عن خطة زيد فى جمعه هذا ، وكيف كان يتحرى ويتثبت مما يكتبه ، ليكتب من عين ما كتب بين يدى الرسول عليه صلوات الله ، وأنه اشترط لذلك دليلين أو حجتين . . وهل هما شاهدان انسانان ؟ أوهما شاهد

انسان ، وكتابة ؟ وتذكر أنه قد توافر له ذلك فى كل ما قيده من القرآن إلا فى آيتى آخر سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ... » وأنه اكتفى هنا بشاهد أو حجة واحدة فقط ، لأنها — فيما يروى — آخر ما نزل من القرآن .

ولا نشعر بحاجة للوقوف عند شيء من هذه الأخبار لغير سبب واحد يقضى بالانصراف عن ذلك ، فهى أخبار آحاد لا يسهل فحص أسانيدها ، وهى مع ذلك عرضة للتأثر بأهواء ذوى الهوى من أصحاب العصبية الدينية ، والخصومة الاعتقادية فى كل حين . روجها فى القديم من روجها من هؤلاء ، ويثير الغبار بها أشباه لهم فى هذا العصر ، من ذوى الأغراض السياسية والاعتقادية المحترفين ذلك . . وهى مع كل لا تمس القرآن من بعيد أو قريب لو تمثل الواقفون عندها الظروف والملابسات التى جمع فيها القرآن هذا الجمع الثانى زمن أبى بكر . فحال الناس إذ ذاك ، ومدى معرفتهم للقرآن ، وحال من قام بهذا الجمع ، وقدرته عليه ، وقدر الرقابة العامة على ما يتم من عمل فى ذلك ، والطاقة الإنسانية الممكنة فى مثل هذا الجمع ، وما تهيأ منها للبشرية ، كل حين ، فى حفظ مثل تلك النصوص الدينية أو الدنيوية ، وما يتصل بكل ذلك من معان واعتبارات كبرى — تعطى ضمانات لمثل هذا العمل يكون الوقوف بعدها عند مثل الأخبار المتناقلة عن طريق الجمع وأحواله ، مما يبدو عبثا لا طائل تحته . واعتبر ذلك بزمان جمع أبى بكر ، فهو بعد شهور من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لعلها لا تكمل عاما . فقد توفى عليه السلام فى ربيع الأول أو حوالى هذا من السنة الحادية عشرة ، وفى هذه السنة نفسها كان الأمر بالجمع ، وهو وقت قصير لعله لم تكد تنسى فيه آذان المسلمين أنغام قراءة الرسول التى كانت تتردد أصداؤها فى أنحاء الحجاز . فالعهد قريب جد قريب ، ولهذا القرب أهميته الكبيرة إذا ما تذكرنا ما كان من جمع لنصوص دينية أخرى بعد أجيال من حياة أصحابها ثم حال المجتمع الذى

يعرف هذا القرآن ، ويقدره ، ونظرته إلى القرآن فى هذا التقدير . فهو مجتمع متعارف متواصل ، متحد البيئة واحد النظام والروح ، متماسك ماديا ومعنويا ونفسيا ، لم يتعرض لهزات اجتماعية : من خروج لغزو أو هجرة ، أو من هجوم عدو ، أو أسر مفرق ، أو ما يشبه ذلك مما تعرضت له جماعات تاريخية عقودا من السنين ، جمعت بعدها نصوصا دينية ، من تفاريق ناس ، وبقايا أقوام .

وهذا المجتمع الإسلامى المتماسك ، المحدود المكان ، صاحب الأمر فى موطنه ، له من العناية الموفورة بالقرآن ما نعرفه من أنه مرجع دينه ، ومادة تعبده ، ومدار حياته . فهو يتلوه تدبرا ، وهو يتلوه تعبدا ، وهو يتلوه تفننا بما هو معجزة لغته البلاغية ، التى تحدت نهضته العربية الأدبية فى عصره كما هو معروف . وهو مأمور منذ الدهر الأول بكتابته ، وهو مأمور مع ذلك بعدم كتابة شيء آخر ذى صفة دينية غيره . وهو قد كتبه فعلا ، على قدر ما استطاع وأطاق ، فى حياة مبلغه عليه السلام . وهو يتابع عنايته بالقرآن فى هذا الجمع المبكر الزمن ، بعد شهور من أول تغير طرأ على وجود هذه الجماعة بانتقال الرسول ، وظهور حدث ضخم كحروب الردة .

وفى هذه الظروف المواتية كلها يعهد بالجمع إلى رجل هو ممن حفظوا الكتاب كله كما هو معروف ، وحوله بضعة نفر يحفظونه كله مثل حفظه له ، وحوله مئات أو آلاف يحفظون متفرقات منه تصلح بمجموعها مرجعا لرقابة كل منهم على ما يحفظه . وهذا الرجل الجامع كاتب يعرف القراءة والكتابة . وقد مارس كتابة هذا القرآن مع الرسول نفسه صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا ما تمثلت هذه الظروف كلها ، واستكملت الصورة الوافية لها ، فهل تجد غرابة فى أن يكلف زيد بن ثابت وحده ، بظروفه الخاصة وظروف الحياة العامة ، أن يفرغ لكتابة مجموعة من القرآن الذى يحفظه فى صحف من الورق

سهلة التضام ، ممكنة الحفظ ، تكون أصلا محفوظا مكتوبا لكتاب الدين الذى يوجد منه ما يوجد من المكتوب المدون ، والذى تضبطه ذاكرة حافظة قوية الحفظ لأتباع هذا الدين ؟ . . ما أحسب أن شيئا من الغرابة فى أن يكتب زيد ابن ثابت ، حتى من حافظته هو وحده ، نسخة من القرآن . فكيف إذا رجع إلى المكتوب ، ورجع إلى حفظ الحفاظ الآخرين ، على أى وجه كان هذا الرجوع ؟ .

ما أرى إلا أن تمثل حال المسلمين عند هذا الجمع سنة ١١ هجرية ، وحال القرآن فيهم ، أولى للمعتقد والباحث جميعا من الوقوف عند منثورات أخبار آحاد أكثرها معلقة لاسند لها ، وهى خليقة باضطرابها أن تخفى الصورة الصحيحة المشرقة للحياة والناس ، والظروف التى جمع فيها القرآن جمع أبى بكر الثانى ، بعد جمع الرسول الأول قبله . ومن أجل ذلك عنينا هنا باللفت إلى هذه الحالة ، وآثرنا ذلك على الحديث فى شىء من تفصيل خطة الجمع أو أخباره ، لأن الحال التى تم فيها وبها هذا الجمع تهيىء من الاطمئنان إلى المجموع مالا يكاد يتوافر مثله على التاريخ لما حفظت البشرية من نصوص وأصول .

* * *

فى هذه الظروف المسعفة كلها كتبت نسخة كاملة من القرآن ، فى صحف ، وسميت « المصحف » .

وهى كلمة حبشية الأصل ، قربتها إلى المسلمين الأخوة اللغوية بين العربية والحبشية فى الأسرة السامية ، والصلة الطيبة بين طلائع المسلمين والحبشة حين وجدوها مهاجراً لهم ومنجاة من الاضطهاد.

كتبت هذ المجموعة — كما قلنا — لتكون أصلا محفوظاً يصون الكتاب الذى سمى كتابا قبل أن يتم ظهوره ، ويكتب فى صورة كتاب ، فوصف نفسه

بذلك منذ العصر المكى ، بمثل الآية : «تلك آيات القرآن وكتاب مبين» (آية ١ ، سورة النمل المكية).

هذا المصحف الأول لم يكن مرجعا للقراءة والمراجعة ، بل هو أصل محفوظ يقى النص الدينى من أن ينقص منه شىء ، أو يزيد فيه شىء ، أو يشتبه فى بعض لفظه حافظ يقع عادة فى مثل هذا الاشتباه على الرغم من قوة حفظه. إن هذا المصحف الأول أشبه شىء بالأصول التى تحفظها الدول الآن لأقدار يرجع إليها ويؤخذ عنها ولذلك يمكنك أن تفهم ما يقال من أن هذا المصحف الأول يشتمل على النص القرآنى فى أكثر من حرف واحد على ما عرفت من أمر الحروف السبعة التى يقرأ بها أصحاب اللهجات المختلفة من العرب تيسيرا عليهم وتسهيلا ومن المألوف فى هذا أن يحفظ هذا المصحف الأصل بصحفه التى أصبحت فى صورة الكتاب على وجه ما عند أصحاب الأمر فى المسلمين فكان عند أبى بكر فى حياته ثم صار إلى عمر بن الخطاب حين خلفه ثم صار إلى حفصة ابنته وزوج الرسول (ص) ولعل لهذه الزوجة من أمهات المؤمنين صفة أو ميزة خاصة إلى جانب بنوتها للخليفة وزوجيتها للرسول هى أنها كانت تقرأ وتكتب فهى أهل لحفظ الكتاب.

هذا الجمع الذى تم فى عهد ابى بكر كان الجمع الذى يحقق المعنى المادى للجمع والضم إذا ضمت الصحف ما كتب فلا يند منه شىء ولا يدخل فيه شىء خارج عنه مما جمعت المحفوظ قطعا متفرقة عند حفظه لبعض القرآن واحتفظت بأصل رسمى لما حفظ الحفاظ من جمع القرآن فهذا الجمع قد مثل حاجة الحياة الإسلامية لعهده وساير التطور الذى طرأ عليها بانتقال الرسول (ص) وما جرى بين المسلمين بعده وتتقدم الحياة فتكون ظروف وحاجات أخرى .

جمع عثمان :

إن المجتمع الجديد الذى بلغ أشده ، وأقر وجوده بعد حركة التطهير الداخلية،

قد جعل يتفاعل مع ما حوله من الجماعات داخل الجزيرة وخارجها ، بل كان هذا التفاعل الواسع الدائرة قد بدت طلائعه فى الفترة الأخيرة من حياة الرسول بتجهيزه جيش « أسامة » للقتال فى الشمال ، حيث يمتد نفوذ الروم ، ويواليهم من يواليهم .

بدأت حركة الفتح الإسلامى فى عهد أبى بكر وعهد عمر بعده ، وتهيأ لهامن النجاح السريع ما تهيأ وكان رجال هذا الجيش الزاحف إلى كافة الجهات حول الجزيرة العربية ، والمستقر فيما يفتح عليه من جديد البلاد ، هم أفراد ذلك المجتمع الإسلامى الذى راضه الرسول ، ولقنه القرآن فى اليسر والسهولة التى يطوع بها لسانهم — على اختلاف لهجاتهم — كما أشرنا إلى شىء من أمره قريبا . ولئن كان يقرأ كل بحرفه فى قومه ومنطقته فلايلقى غير أهلها من أصحاب حرف آخر للسبب الطارىء . فالآن حين تكتب الكتائب من مختلف المناطق ، ومتفرق القبائل ، ويوحد بينهم الصف فى الميدان ، كما يؤلف منهم الصف فى المسجد ، ويؤم امام ، ويأتم مؤتم ، وتتلاقى اللهجات فى معترك الحياة ، ومعارك الفتح ... ويمضى على هذه الحال المشتركة غير قليل من الزمان ، وأهل هذه الحروف المتغايرة — نوعا ما — يقرأون بها القرآن ، فيما بينهم ، ويقرئون الناس الحديثى العهد بالاسلام ، ممن يدخلونه من مختلف الألسنة والألوان الذين لا بد لهم من معاناة شىء من العربية ، وحفظ أى شىء من القرآن لإقامة عبادتهم .

كانت هذه التجربة الاجتماعية للحركة الإسلامية فيما تجمع وتمزج بين العرب على اختلاف منازلهم وتفاوت ألسنتهم ، وبين العرب وغيرهم من ذوى الألسنة الأخرى ، فى أنحاء الدنيا القديمة . . . كانت تجربة ذات أثر بعيد فى ألوان النشاط المختلفة لتلك الأمشاج التى يتم الزمن تجربته عليها جمعا ومزجا ، تلاقيا وتنافرا . ولمثل هذه التجربة نتائج كثيرة يطيب لأصحاب الاجتماع أن يشهدوها ويصفوها . أما نحن — والحديث ليس إلا عن القرآن — فانا نقدر

أن هذا التلاقى ، والاختلاط ، والتعاون والتصارع ، لابد أن يحدث أثره فى الحياة اللغوية ، ويعنينا منها بخاصة حياة العربية .

فتقول : إن هذا المختبر الكبير الذى تم فيه هذه التجربة البشرية خليق بأن يقرب بين العرب المختلفى اللهجات ، إذ لابد لكل منهم أن يتفاهم مع جاره فى الميدان وقسيمه فى التجربة ، وذلك مما يقرب ، ولابد ، من مسافة الفرق بين تلك اللهجات ، فيكون شىء مما أشرنا إليه فى حديث نزول القرآن على سبعة أحرف ، وهو ما قال القدماء أنفسهم عنه : « إنه تدرب الألسن ، وتمكن الناس من الاقتصار على طريقة واحدة[1] ». أو قالوا عنه حينا (أنه كثرة الناس والكتاب وارتفاع الضرورة)

وقد كانت تلك التجربة الكبرى فترة ما لتدرب الألسنة والقرب بينها بما يمكن من الاقتصار على طريقة واحدة ، وإمكان أدائها وفهمها . كما كانت تلك التجربة فرصة عظمى لكثرة الناس من فجاج الأرض ، ومتباعد الأقاليم ، تبسط عليهم دولة الإسلام جناحها ، وتمد سلطانها .

هذا جانب من أثر الفترة التى مضت على كتابة المصحف الذى جمع من طرائق نطق القرآن ما يمكن أن يكون قد جمع ، وحفظ — كما قدمنا — أصلا ينتهى إليه حفظ الحافظ للقرآن كله أو بعضه ، كما تنتهى إليه كتابة من يكونون قد كتبوا من هذا القرآن لأنفسهم كلا أو بعضا ... ولهذا التغيير اللغوى الذى أتمه العمل الهائل الواسع المدى فى الفتح الإسلامى أثره الذى لابد أن يقدر .

وثمت جانب آخر للوضع ، هو أن هؤلاء المجتمعين من أقطار الجزيرة ، ومختلف حروفها اللغوية، لابعد فى أن يثور بينهم شىء مما كان يثور أول الزمن، فى حياة الرسول (ص) ، حين كان يقرأ واحد منهم بحرف لم يقرأ به رفيق له ، فيفزع من ذلك ، ويخف إلى الرسول ملببا صاحبه الذى يغير القرآن .

ويقول أهل التاريخ :ان شيئا من هذا الخلاف قد ثار ، وأصحاب الأحرف

(١) انظر البرهان للزركشى ح١ ص ٢١٣ — ٢٢٤

العربية المختلفة فى منأى من الأرض بأرمينية،وفيهم أهل الشرق ، وأهل الشمال . وكان ما يكون من تفاضل ومقابلة بين قراءة وقراءة ، ومثل هذا ينتهى إلى خلاف يكون شجارا ، ففرقة وفتنة ، حيث تجب الوحدة والألفة بين أعضاء جسد واحد ، يؤدون عملا لا ينجح إلا بتساند وتكامل .

ولك أن تحسب هذا الخلاف المفرق ، فى الوقت نفسه ، التفاتاً إجتماعياً إلى ما تهيأ له المجتمع من اتحاد وقلة فرقة ، وعلى أى حال نظرت إلى الأمر فعلى عهد عثمان مست الحاجة الإجتماعية إلى معرفة بالقرآن تلائم التطور الجديد للمجتمع الإسلامى ، الذى كتاب وحيه هو القرآن.مست الحاجة إلى ذلك لدى العناصر الجديدة التى تتعرب لسانا وتدينا ، ومست الحاجة إلى ذلك لدى العناصر العربية القديمة التى تمازج وتتخالط فى الغزو والهجرة ، والمستقر الخارجى وانتهى الأمر إلى الخليفة عثمان طلبا للوحدة، وتلافيا للفرقة ، إذ اختلف العراقيون والشاميون من جيش الفتح فى أرمينية على القراءة وتشاجروا . كما أشرنا فى عهد عثمان وخاف قائدهم أن يصير الأمر بالمسلمين إلى مثل ما صار إليه من انقسام أصحاب الديانات الأخرى على كتبهم .

هكذا تقول الرواية المنقولة ، وهو ما يمكن أن يقول التفسير الاجتماعى التاريخى : إنه حاجة إلى الوحدة فى صورتها الشاملة، وانه رغبة فى توحيد المسلمين الغازين والمتلقين لدعوتهم الجديدة . كما يستطيع التفسير التاريخى أن يقول : انها وحدة تهيأت أسبابها وآذنت بها الأحوال .

ويدرك الخليفة عثمان هذه الحاجة ، ويستجيب لتلك الدعوة ، ويدرك ذوو السن والخبرة حوله من أصحاب الرسول هذه الحاجة،ويستجيبون لتلك الدعوة وسواء أكان إدراكهم لهذه الوحدة إدراكا بعيد المدى يقدر حاجة العرب وغير العرب من المسلمين إلى مرجع قرآنى للاتصال بكتاب وحى الدين الجديد ،

أم كان إدراكا قريب المدى يخشى أن تكون لهجات العرب فى قراءة القرآن سبباً لاختلافهم واقتتالهم بسببه . . . انها جميعا فى المآل شعور بالوحدة،وعمل من أجلها . . . فى أى صورة صورت .

ومن هذ أدركت ماذا تريد الحياة من المسلمين أن يفعلوا بالنص المحفوظ مرجعاً : إنهم محتاجون إلى أن يقدموا منه أصولا للقراءة ، يرجع إليها و يأخذ عنها المسلمون على اختلافهم ، من أصحاب لهجات عربية كانت لهم أمس استطاعة القراءة بها تيسيرا عليهم ، وقد غدوا بعد جيل تغيرت فيه الحياة تغيرا جوهرياً كبيراً ، لا ضرورة تقضى عليهم باستعمال حروفهم ، لئلا يختلفوا ، فقد صاروا بحيث يستطيعون الاتفاق . وإلى تلك الأصول من المصاحف يرجع المسلمون من غير العرب وعنها يأخذون ، وما بهؤلاء حاجة إلى شىء من خلاف ، لأنهم يأخذون العربية أخذا كسبيا جديداً ، فلتكن بحرف دون سواه . . . فكله لديهم سواء .

وكذلك كان عمل عثمان: هو تقديم هذه المصاحف الأصول لتكون مرجعاً لقراءة القرآن ينتهى إليه كل عربى ، مهما تكن لهجته ، وينتهى إليه كل من عدا العربى من المسلمين .

وهذا الذى يصنعه عثمان إذا ماسميناه جمعا ، فإنه لجدير بأن يسمى جمع المسلمين ، لاجمع القرآن . . فإن جمع القرآن — بمعنى ضم أجزائه — قد كان فى عهد الرسول بما يلائم نزوله منجما ، ثم كان هذا الجمع — بمعنى الضم — فى عهد أبى بكر ، بما حفظ أصلا رسميا يكون مرجعا . وعمل عثمان هو تهيئة هذا الأصل الرسمى للتداول العملى ، على حال تلائم الدعوة الإسلامية التى امتدت وتمتد .

تألفت لجنة لذلك كان فى طليعتها زيد بن ثابت . وعلينا أن نتصور الوضع

الاجتماعى ، والهدف العملى الذى أحوجت إليه الحياة ، وكيف عمل لتحقيقه أولئك الذين وجهتهم الأحداث إلى تحقيقه .

أما الهدف فهو مصحف موحد ، قدر المستطاع ، يأخذ عنه الناس فى أنحاء الدولة الجديدة ، كتاب الوحى الإسلامى ، القرآن فالمهمة فى جوهرها إخراج كتابى للنص القرآنى فى حرف واحد موحد من الحروف التى أنزل بها القرآن ، وتركت إباحة القراءة بها إلى حين ثم .. أى حرف تظن أن توجه الحياة إليه من أحرف النزول ؟ سيعطيك أصحاب تاريخ اللغة العربية الجواب عن هذا ، بما يرقبون من سير اللغة العربية فى طريقها التطورى : إنهم رأوا القحطانية اليمنية الجنوبية تتفاعل مع العدنانية الشمالية ، وينتهى الأمر بهما إلى لغة موحدة ، عدنانية تستبقى من آثار القحطانية ما شاء الزمن أن يبقيه ، ثم رأوا العدنانية الأخيرة يتفاعل بعضها مع بعض ، من شرق الجزيرة وغربها ، بعد التفاعل بين شمالها وجنوبها . والغرب فيه الحجاز ، بمعبده الأكبر ، محج الجموع ، وفيه الدعوة الجديد — ففيه بذلك تفاعل لغوى وشيك أن ينتهى بلغة قوامها القرشية السائدة فى المنطقة قبل الإسلام وبالإسلام .

وهذا التفاعل اللغوى ، كما نعرفه ، إنما هو انتخاب لسانى يستبقى الأصلح الأمثل ، فيما تقدر سنن الحياة العاملة . وإذا ما عرفت فى إجمال اتجاه التطور اللغوى للعربية على هذا الوجة ، فانك قدير على أن تجد الإجابة عن السؤال السابق وهو : أى أحرف النزول توجه إليه الحياة ؟ إنه القرشية الانتخابية التى تعمل العوامل الاجتماعية اللغوية على ايجادها ، بدفع حوادث كبرى ، وموجهات عظمى ، لا بمحض رغبة فرد أو أفراد ، أو محاولة سيطرة تفرض ذلك .

وإذا ما قال الخليفة عثمان للرهط القرشيين فى لجنة المصحف الموحد : « إذا اختلفتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فا كتبوه بلسان قريش » — فذلك

لأن زيد بن ثابت أنصارى خزرجى ليس قرشيا ، وقريش هى التى تتجه الأحداث الاجتماعية إلى تغليب لهجتها وحرفها ، فليكتب المصحف العام الجديد بهذا الحرف ، وليكتب بمثل منطوق هذا الحرف .

وإذا ماتمثلنا الوضع الاجتماعى الدينى واللغوى والسياسى كذلك تمثلنا بكل وضوح مهمة اللجنة العثمانية التى تعمل لاستخراج صور من الأصل المحفوظ بدار الدولة للمصحف الجامع الذى كتب فى صحائف تؤلف كتابا على عهد أبى بكر .

إن على القوم أن يكتبوا مصاحف تحفظ ما فى المصحف الأصل من حرف قريش أو تكتب لسواه كما تنطقه قريش . وهذا هو العمل الذى أتمته اللجنة على هذا الدستور ، فأخرجت بضع نسخ . وجهت كل نسخة منها إلى مدينة كبرى من المدن الإسلامية ، وأبقيت واحدة منها بالمدينة عاصمة الدولة إذ ذاك .

وما أدركته من الهدف الأكبر لهذا العمل يستتبع الخطوة المقررة للوحدة ، وهى إلغاء الاعتبار الرسمى لكل ما عدا هذه النسخة المأخوذة عن الأصل المحفوظ. وإذا ما أدركت كذلك أن الأصل المحفوظ ، وإذا ما أدركت كذلك أن الأصل كان بحال من حفظ آثار حروف ولهجات لم تبق إليها حاجة ، فكذلك يؤمر بما سوى المصحف الإمام الموحد من كل صحيفة أو صحف أن يحرق ، وصحف الأصل كذلك تغسل غسيلا . وعن المصحف الامام أخذت المصاحف جميعا وصار هذا المصحف برسمه وخطه هو موضع كل حديث للناس قديما أو جديداً عن بحث أو درس أو تاريخ للقرآن .

كتابة القرآن :

تحدثُ المصادر العربيـة عن قلة الـكتابة فى العرب جداً ، وتحدث عن

أوليات فى ذلك لا ترجع فى الحجاز إلى أبعد كثيرا من جيل الرسالة الاسلامية نفسها ، كالقول بأن الذى تعلم الخط من الانبار قدم مكة فتزوج بنت حرب ابن أمية أخت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية ، فعلمها لأصهاره : لأبى زوجته ولأخيها ودون أن نؤرخ الكتابة العربية فى الحجاز، نستطيع الاطمئنان إلى ما تدل عليه الشواهد الكثيرة من قلة انتشار الكتابة فى هذه المنطقة ، ومن بدائية هذه الكتابة فى طريقتها ، ومن ندرة مواد الكتابة أيضاً . . . . ومن هنا ما كان من الكتابة الأولى للقرآن على تلك المواد غير الصحف ، من الرقاق واللخاف والعسب . . . فهى كتابة لم تحكم إذ ذاك جيداً .

وبهذه الكتابة فى مستواها كتب ما كتب أولا من متفرقات القرآن ، وكتب الأصل المحفوظ أيام أبى بكر ، ولم يصل إلينا شىء من ذلك وكتبت كذلك المصاحف الموحدة التى أرسلها عثمان إلى الأقطار ، وهى التى وصلت إلينا الأوصاف الواضحة المتصلة عن طريقتها وصارت معرفتها علما من « علوم القرآن» التى أشرنا إلى أنها اصطلاح خاص بالدراسات القرآنية فى مختلف نواحيها ... فعد من هذه الدراسات ما يخص كتابة القرآن الأولى ويسمى «علم مرسوم الخط» . وسنشير إلى شىء مما يتحدثون به فيه فقد صنفوا فى علم مرسوم هذا الخط وما تختلف فيه كتابة المصاحف فى وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة ولا تزال مسألة كتابة المصحف موضع النظر طوال العهود الماضية حتى اليوم ، كما أن الكتابة العربية كلها موضع للنظر اليوم بخاصة ، مما يدفعنا إلى اجمال وصف كتابة المصاحف ، وتطورها على الزمن ، وما يرشد اليه هذا التتبع التاريخى من حل لبعض ما يعرض للبحث اليوم من شئون الكتابة القرآنية الخاصة ، أو الكتابة العامة نفسها .

كتبت المصاحف الأولى ــ الأئمة - من القرآن بالخط الكوفى أو الحيرى ، المتولد عن الخط المصرى القديم ، فى حلقات من التطور من الخط الفينيقى ،

والخط الأرامى . . . وغيرها ولم يكن فى حروف هذا الخط نقط تميز ما يتشابه من أشكال حروفه ، كما لم تعرف الكتابة العربية الشكل الضابط . وظلت المصاحف زمنا غير منقوطة ولا مشكولة .

وقد حفظ الرسم الأول للمصاحف ضربا من كتابة الكلمات ، تطور بعده الخطوالرسم، فكان لرسم المصحف فروق عما اعتاد أهل العربية كتابته بالرسم الذى أقاموه على اعتبارات صوتية أو اعتبارات تصريفية للكلمات وما الى ذلك . وكانت معرفة ما تفرد المصحف برسمه فى صورته الأولى موضع عناية على الأجيال المختلفة ،منذ كتب القرآن الى اليوم، وعرف علم خاص بهذه الفروق بين علوم القرآن التى أشرنا اليها سابقاً ، وهو علم مرسوم الخط . أى علم رسم المصاحف أُلِّفت فيه الكتب المفردة ونظمت المتون ، حين ظهرت حركة نظم العلوم ، ولايزال من المشهور الى اليوم، فى عالم المتون. مانظمه الشاطبى فى الرسم باسم « عقيلة أتراب القصائد ، فى أسنى المقاصد » نظما لما فى كتابه « المقنع »، لأبى عمرو الدالى (توفى فى ٤٤٤ هـ) فى رسم المصحف .

ونجد اختلاف رسم المصحف عن رسم العربية العادى واضحا بزيادة حرف ونقص حرف ، ووضع حرف مكان حرف ، وما إلى ذلك من فروق جوهرية فكلمة «لأذبحنه » تكتب فى المصحف « لاأذبحنه » وكلمة « بأيد » تكتب « بأييد » ، وكلمة « الحياة » و « الصلاة » تكتبان «الحيواة » و «الصلواة».

وقد أدخلت على الخط الكوفى فى المصاحف تحسينات مختلفة على الزمن ، منذ القرن الأول الهجرى نفسه . ففى عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى كان الأمر بنقط المصحف وشكله ، فتصدى لذلك الحجاج ، وأمر الحسن البصرى ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك ، ويقال ان أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى ، وكان لمحمد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيى بن يعمر (ابن كثير ، فضائل القرآن) . ونعرف أن المصحف قد كتب بعد ذلك بالصور المتجددة

الأحرف العربية غير الكوفية . وأدخل على رسمه من التنسيق غير قليل ، فكانت فيه علامات للوقف ، وارشادات للنطق ، وإشارات لأقسام من أجزاء وأرباع وأحزاب ، ولمواضع معينة فيه كالسجدات . . . إلى غير ذلك .

ومع ما كان من هذه التحسينات الفعلية للخط الأول الذى رسمت به المصاحف ، فقد ظل الكلام يدور حول رسم المصحف من حيث تقدير عمل الصحابة الأول — رضى الله عنهم — ومدى وجوب التزامه فى كتابة المصحف أو إمكان التغيير فيه ، والحاجة العملية الماسة إلى تيسير تعلم القرآن على النشء الذين يتعلمون الكتابة بنظام الرسم العادى المخالف لرسم المصحف وحل ذلك أو عدم حله ، والفتوى فيه بل التصرف الفعلى فى كتابة القرآن لمن يريد تعلمه من الصغار أو أشباههم من العامة .

وبنظرة جامعة يتمثل لك تياران واضحان من التفكير الإسلامى فى هذه النواحى كلها ، ويتساير هذان التياران منذ القرن الأول الهجرى إلى القرن الرابع عشر . ومن الخير أن نجعل مسير التيارين لما أشرنا اليه من الأهمية الحيوية ، والمشكلة الفعلية حول كتابة العربية بعامة ، وما يتصل بها من كتابة المصحف .

ففى النظر إلى عمل كتاب المصحف الأولين وتقديره ترى التيار المحافظ المطمئن إلى سلامة ما كان ، بل المنتهى إلى تقديسه وإجلاله . فتسمع أن الخط توقيفى ، وأنهم يعرفون النحو والاعراب ، وقد كتبوا المصحف على الذى يعلله النحويون . . . . وأنهم أكثر علما ، وأصدق قلبا ولسانا ، وأعظم أمانة منا فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدرا كا عليهم . وما زيد فى خطهم على اللفظ ، وما نقص منه وما كتب على لفظه فلحكم خفية وأسرار بهية ، تصدى لها المؤلفون ببيان حكمها المعنوية أو الروحانية . كما تصدى المؤلفون لاحصائها وبيانها

فى القرآن [انظر « الصاحبى » لابن فارس ، و «سنن البيهقى» ، و « البرهان» للزركشى فى مواضع متفرقة] .

ويقابل هذا التيار المحافظ ، المسرف أحيانا ، تيار آخر يرد المسألة إلى الاعتبارات الاجتماعية ، فنسمع فى هذا الشأن أن : « الخط العربى لأول الاسلام غير بالغ إلى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ، ولا إلى المتوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع . وانظر ما وقع لأجل ذلك فى رسمهم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة فى الإجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها ، تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير الخلق من بعده ، المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه ، كما يقتفى لهذا العهد خط ولى ، أو عالم ، تبركا ، ويتبع رسمه خطأ أو صوابا . وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه ، فاتبع ذلك وأثبت رسما ، ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن فى ذلك إلى مايزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وأن مايتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل ، بل لكلها وجه ، ويقولون فى مثل زيادة الألف فى « لأذبحنه » انه تنبيه على أن الذبح لم يقع ، وفى زيادة الياء فى « بأييد » أنه تنبيه على كمال القدرة الربانية . . . . وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض .

« وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن فى ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص فى قلة إجادة الخط وحسبوا أن الخط كمال ، فنزهوهم عن نقص أو نسبوا اليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسم ، وذلك ليس بصحيح .

« واعلم أن الخط ليس بكمال فى حقهم . إذ الخط من جملة الصنائع المدنية

المعاشية والكمال فى الصنائع اضافى . وليس بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات . فى الدين ولا فى الخلال . وإنما يعود على أسباب المعاش بحسب العمران والتعاون عليه . لأجل دلالته على ما فى النفوس وقد كان صلى الله عليه وسلم أميا وكان ذلك كمالا فى حقه ، وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التى هى أسباب المعاش والعمران كلها وليست الأمية كمالا فى حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه ، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها ، حتى العلوم الاصطلاحية ، فإن الكمال فى حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا » . (ابن خلدون — المقدمة) .

وفى مدى التزام هذا الرسم الأول للمصحف يتساوق التياران أيضا إلى حدما ، فكره بعض العلماء ترك اتباع المصحف . وقال الإمام أحمد : « تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى باء أو واو ، أو ألف أو غير ذلك » وسئل مالك رحمه الله . « هل تكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ » فقال : « لا ، إلا على الكتبة الأولى » وينقل ذلك أبو عمرو الدانى ، وهو عظيم النشاط فى هذا الميدان ، ثم يقول . « ولا مخالف له من علماء الأمة » . وبازاء هذا لا تعدم أن تسمع مثل قول العز ابن عبد السلام الفقيه المصرى الشافعى ، ينقله الزركشى ، مقدما بقوله : « ... وكان هذا فى الصدر الأول ، والعلم حى غض ، وأما الآن فقد يخشى الالباس » . ولهذا قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام : « لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى ، باصطلاح الأئمه . لئلا يوقع فى تغيير من الجهال » . وتستغنى بهذا القول فى عدم جواز كتابة المصحف الآن بالرسم الأول عن آراء دون هذا فى جواز الكتابة بالرسم المتبع .

وتنظر فيما تم من ذلك التطور فى الرسم إن لم تقل التعبير ، فترى التيارين

أيضاً يتسايران فمنذ القرن الأول يسأل عن النقط ، فيكون الجواب بكراهته . وخشية أن يكون زيادة فى الحروف . وحتى الشيخين الحسن البصرى وابن سيرين ـ وقد سمعت خبرهما النشط فى نقط المصحف وشكله — بنقل عنهما : أنهما كانا يكرهان نقط المصحف . وتسمع السخط على عملية النقط فى مثل قول الأوزاعى وغيره عمن نقطوا المصحف : « وددت أن أيديهم قطعت » !

ومن التيار الثانى تسمع أن الناس فى جميع الأمصار من لون التابعين إلى وقتنا هذا ، على الترخص فى الشكل والنقط فى أمهات المصاحف وغيرها يقول هذا أبو عمرو الدانى صاحب « الجد والتأليف فى الرسم . ومنذ أول الزمن أحس الناس بحاجة طالب حفظ القرآن وقراءاته إلى التيسير عليه فى ذلك فيستفتى « مالك » فى نقط القرآن فيقول : « أما الإمام من المصاحف فلا أرى أن ينقط ولا يزاد فى المصاحف مالم يكن فيها . وأما مصاحف الصغار التى يتعلم فيها الصبيان ، وألواحهم فلا أرى بذلك بأساً » . والجزء المتمم للثلاثين من القرآن مطبوع بالرسم الاصطلاحى الآن فى المطبعة الأميرية منذ أكثر من خمسين سنة لمدارس الجمعية الخيرية الاسلامية وقد وضعت فتوى « مالك » هذه عليه .

ولا يزال الواقع على اختلاف الأزمنة يدفع إلى التفكير فى هذا الرسم ولأحد علماء المسلمين الروس فى القرن الرابع عشر الهجرى رأى عرضه فى شرحه لقصيدة الشاطبى فى الرسم يطلعنا على أهمية الأمر فى عامة الأقطار الاسلامية ، وصاحب هذا الرأى هو الشيخ « موسى جار الله روستو فدونى » أدلى به منذ أكثر من خمسين سنة (سنة ١٣٢٦ هـ) فى شرحه السابق المطبوع فى قازان لهذا العهد وخلاصته أن رسم الصحابة على نوعين :

١ — رسم الاحتمال كالحذف فى «ملك يوم الدين» فيحتمل قراءة القصر... وأمثال ذلك من كل ما يمكن فيه اختلاف القراءة ، فاتباع رسم الصحابة فيه واجب ، ليبقى الرسم محتملا لكل ماثبت من التلاوة .

٢ — رسم الاصطلاح ـ أى اصطلاح الصحابة ـ لأنه يعد رسمهم ضربا من الاصطلاح الخاص بهم ، لا أثراً لبساطة كتابتهم ـ كرسم « شركاء » : « شركؤ » ... من كل ماليس له وجه يظهر لنا علمى ، فاتباع رسم الصحابة فيه غير واجب .

ويعقب على ذلك بقوله : « والمسألة ذات شأن عظيم . وعسى الله أن يهدينى إلى وضع كتاب فى هذا الموضوع[1] » .

قراءة القرآن :

كان التلقى المباشر المشافه للقرآن عاملا هاما فى حفظه وتداوله . وعدم شيوع الكتابة فى البيئة الاسلامية الأولى قد هيأ لأهلها من قوة الحفظ طاقة كبرى ، ومستوى عاليا . ومع الانتفاع بالكتابة ـ فى أوسع نطاق ممكن ـ لصون القرآن قد عاون التلقى الشخصى الحافظ للقرآن ، فيحفظه كله غير واحد من الصحابة رضى الله عنهم ويحفظ كل واحد منهم ما لابد منه لتقويم عبادته . وما يتهيأ له علمه . وقد اتسق نظام كتابة القرآن منذ أول الرسالة إلى أن تم نسخ مصاحف أئمة تكون أصولا فى أنحاء العالم الاسلامى . ولكنا سنرى مع ذلك أن الحال دائما كان كما نراه حتى اليوم : هو حفظ القرآن تلقيا ومشافهة مع وجود المكتوب والمطبوع ، وسهولة التداول وإمكان الرجوع . فكانت القراءة دائما انما هى التلقى الناقل بالرواية المشافهة فَمًا لِفَمٍ ، وليس المقرىء إلا العالم بكيفيات الأداء ، الذى روى تلك الكيفيات مشافهة عمن شوفه بها .. بحيث لو حفظ كتابا فى كيفيات ذلك الأداء ، بعد ما وضعت الكتب فى ذلك ونظمت شعراً تيسيراً لحفظها ، فليس له مع ذلك الحفظ لكيفيات أداء الكلمات القرآنية ، أن يقرىء أحدا بما فى ذلك الذى حفظه مهما يكن تلقيه لمحفوظه هذا ، بل لابد له من أن يقرأ مشافهة على مقرىء تلقى بهذه المشافهة

---

(١) انظر شرح قصيدة عقيلة أتراب القصائد للشاطبى.

نفسها ، ويتسلسل ذلك التشافه متصلا ، حتى الرسول عليه السلام . وسبب ذلك التمسك بالمشافهة عندهم أن فى القراءة أشياء لايمكن إحكامها إلا بالسماع والمشافهة ... إن المنهج الاسلامى فى جملته لايقر أخذ العلم عن الصحف ويعيب العالم الذى لايتلقى عن أساتذة مبصرين ويأخذ العلم من الصحيفة ، بأنه صحفى وأنه عرضة للوهم والخطأ ... الى آخر مايقولون فى ذلك ، ولكنهم بعد هذا المبدأ العام يتشددون تشدداً خاصاً فى قراءة القرآن بنحو ماسمعت من قولهم فى المقرىء ، وعدهم القراءة علما بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة . ومن تم له هذا التلقى المشافه لقراءة أجيز بها من ملقنة المشافة ، أجازه تسلسل سند تلقيه للقراءة التى أتم تلقيها ، الى الصحابى القارىء لها ولايزال نظام أجازة القارىء متبعاً الى أيامنا ... ومن مراحل التعلم الدينى فيما شهدنا ، بعد حفظ القرآن وهو فى حقيقته ليس الا تلقيا مشافها ـ يصحح الحافظ فيه لوحة على مقرىء له هذا التلقى ولا ينقله من مكتوب فقط . وبعد هذا الحفظ المشافه ـ لكل قطعة قطعة على مدى أشهر عدة يؤديها المجود مشافهة على مقرىء مشافه يطمئن الى حسن أدائه لكلمات القرآن وكيفية ذلك عند تلاقى مختلف أصواتها ويحفظ هذا الأصل ـ وهو متن خاص فى ذلك أو متنان لمن استزاد ، ولا يزال مقرئه الذى يلقنه هذه المشافهة يعاوده بالسؤال بين الحين والحين عند اصطلاحاتهم فى تلاقى الأصوات المختلفة للحروف من مد وغن واخفاء وأقلاب وادغام وروم وأشمام ... الخ . بعد أن يروضه رياضة تدريبية عملية على أداء هذه الأصوات ، ويضبط له أصواتها وأوقاتها بضوابط عملية تحدد الوقت تحديداً موسيقيا رياضياً لهم أساليبهم فيه ، كما لهم أساليبهم فى رياضة الجهاز الصوتى للانسان ليخرج الأحرف من مخارجها على النحو الموصوف المقرر فى متون التجويد .

وإنما قدمنا هذا البيان بين يدى القول فى قراءات القرآن لندرك الاعتبارات العملية التى نشأت عنها قراءات القرآن ونعرف فى الوقت نفسه الجو الذى كانت

تنقل فيه تلك القراءات وأسلوب القوم فى ضبطها وحفظ صورها ووسائلهم فى ذلك وقد فهمت من حديث النزول ، ثم من الإشارة السابقة إلى القراءة أن المسألة فى جملتها وتفصيلها مسألة السنة تطوع بنطق ، وحناجر تؤدى أصواتا وأن ناطقى العربية الذين تلقوا هذا القرآن ذلك التلقى المشافه منذ اللحظة الأولى ، تختلف ألسنتهم ويشق عليهم أن يؤخذوا بغير حروفهم ، ولذلك يسر عليهم فى ذلك بأن يقرأوا بما يستطيعون وكانت فى القرآن صور للنطق المختلفة فى اللهجات العربية وقد عرفنا أن شيئاً من ذلك قد تيسر بعد جيل من الناس تقريبا ، حين كتب مصحف عثمان الذى عد أصلا يرجع إليه ، وتؤخذ عنه مصاحف الكاتبين . ويحتكم إليه القارئون والمقرئون بالمشافهة المقررة على ماوصفنا وعلى هذه الحال كان يجرى العملان معا فى تداول القرآن ، وهما : الكتابة المتدرجة : من متفرقات إلى صحف إلى مصحف كتاب.. والحفظ المتصل التسلسل بالتلقى المشافه . والقارئون يلوذ كل منهم إلى طاقته اللسانية ، ويقرأ ما وقف عليه بحرفه المستطاع وباتساع الرقعة الاسلامية فى هذا القدر الذى أشرنا إليه — من وفاة الرسول عليه السلام إلى خلافة عثمان — يتسع ميدان حفظ القرآن ويدخل الناس فى الإسلام من مشارق الدنيا ومغاربها وينشدون حفظ شيء من القرآن ويتلقون ذلك بالمشافهة الضابطة ، ممن يلقون من عرب لهم ألسنتهم ، وقراءاتهم . ويساير المحفوظ التوقيفى المكتوب الرسمى، الذى جعل أصلا للقرآن .

ونتمثل ما كان يتم تدريجيا من قرب مسافة الفرق فى النطق ، شيئاً فشيئا ، مع وجود هذه القراءات الميسرة للقرآن ، فنعرف كيف ولماذا اختلفت قراءات الناس للقرآن ، بما عرفنا من أحرف النزول التى عرفناها قبل ذلك ، ونقدر فى الوقت نفسه أن ما خلفته أحرف النزول فى السنة القارئين قد ضبط ونظم بنسخة رسمية من القرآن كتبت بتلك الكتابة التى أطلنا فى وصف خبرها قريبا ، وكانت

بغير نقط ولا شكل فكانت تحتمل صورا مما يحفظه الناس بالتلقى ، وكانت تلك الأحرف المتعددة تنضبط فى الوقت نفسه بما تقبله كتابة المصحف الذى هو مرجع رسمى فإذا كتبت [ملك يوم الدين] بلا الف ، قرئت « مالك » بالمد و« ملك » بالقصر ، وإذا كتب [فى المهد صبيا] قرئت بما يستطيعه اللسان من إظهار الدال أو طيها فى الصاد ، كما تحتمل الكلمة المكتوبة الترقيق والتفخيم التى تطوع بها السنة الناطقين ، ويحدد الباقى المقبول منها رسم المصحف .

ومن هذا البيان تدرك فى وضوح أن القراءات القرآنية المتغايرة الأداء ، إنما نشأت من اختلاف اللهجات العربية الذى أحوج إلى التيسير على أصحابها بما سمى أحرفا للنزول ، وأن هذه الأحرف قد تركت صورا مختلفة من القراءة للقرآن ، وأن هذا الاختلاف فى اللهجات قد ضاقت مسافته تدريجيا حتى بقى منه ما يحتمله رسم واحد للقرآن ، هو الذى كتب به المصحف الذى اعتمد حين كتب مجتمعا .

وإذا سمعت عدد السبعة فى الأحرف التى نزل بها القرآن ، وسمعت مع ذلك مايسمى القراءات السبع ، فلا يشتبه عليك أن القراءات هى الأحرف ، أو أن هذه السبعة هى تلك السبعة فإن القراءات ليست هى الأحرف وإنما هى بقايا الاحرف فى الألسنة بقدر ماسمح به رسم المصحف حين قرأ أهل كل قطر إسلامى بما لقنهم إياه مشافهة من جاءهم من حملة القرآن ونقلته فبقى فى السنتهم من صور النطق مابقى ، وحدد ذلك بما تقبله طبيعة خط المصحف الرسمى الامام .

ومن هذا البيان ندرك أن القراءات توقيفية تلقينية بالمشافهة السامعة ، وأنها أثر ما قضت به الحياة من التيسير على أصحاب اللهجات العربية المختلفة وان أصحاب هذه اللجهات حيث نزلوا من الاقطار الأسلامية خارج جزيرتهم قد أقرأوا بلهجات فأشاعوها ، وأن شيئا من التقريب بين تلك اللهجات كان يتم بفعل الزمن

وأن خط المصحف كان ضابطا لبقاء ما يبقى من أثار اختلاف تلك اللهجات وأن مالا يقبله الخط القرآنى من تلك اللهجات كان يهمل ويندثر .

وتتمة هذا الفهم أن تقدر أن السبعة عدد يذكر فى العربية ويراد به الكثرة لا الحصر فى سبعة معدودة لا أكثر منها وقدمضت الأحرف السبعة بما كان لها من كثرة ، وبقيت من آثارها القراءات التى ليست سبعا على سبيل الحصر أيضا ، كما يدل تاريخ هذه القراءات وواقعها وهو ما نشير إلى شىء منه بعد ما تبينت لك نشأة القراءات لغويا والظاهرة الاجتماعية التى قضت بوجود الأحرف وتخلفت عنها تلك القراءات... كانت القراءات المصورة للهجات القارئين من الصحابة الذين تلقوا القرآن عن الرسول (ص) عددا كثيراً بطبيعة الحال ولم تكن هناك حاجة إلى عدها وإحصائها وانما كان الاهتمام كما عرفنا بضبط أدائها ، ونقلها عن عارفيها وظل الأمر كذلك أجيالا عدة من حياة المسلمين حتى أوائل القرن الرابع الهجرى إذ قام أحد شيوخ القراء فى بغداد بعمل اختيار شخصى منه . هو وحده ، تخير فيه قراءات مختلفة لمقرئين من مختلف الاقطار الاسلامية الكبرى ومدنها التى كانت مستقر صحابة قارئين ، أخذ عنهم القراءة تابعون مقرئون معروفون وكان أن هذا القارىء الذى قام بعملية ذلك الاختيار الشخصى — وهو أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد ، المتوفى سنة ٣٢٤ هـ — قد اختار للسبعة القراء فبدأت فى القرن الرابع الهجرى فقط تظهر عليه (القراءات السبع) وإن كانت عملية الاختيار نفسها لا تحصر القراء المختارين أنفسهم فى سبعة قراء بل تختار لكل قارىء راويين من رواته الكثيرين أيضاً ونظل نسمع مع استعمال (القراءات السبع) (القراءات العشر) أيضا ، والقراءات الاربع عشرة كما نقرأ أن القراءات لا تحصر بسبع ولا بسبعات إذ عدد الرواة الموثوق بهم أكثر من أن يحصى (البرهان حـ ١ ص ٣٢٩) واللهجات العربية يختلف أداؤها لكلمات كثيرة فى القرآن على

ضخامته ، لحصر القراءات فى سبع ، شىء لا أثر فيه ولا سنة ولا وجه للتمسك بهذا العدد خاصة (المرجع السابق) وقد يفسر اختيار (ابن مجاهد) للقراء السبعة بتفسيرات مختلفة ، يبقى من بينها تفسير عمله فى هذا الاختيار بأنه قد تحدد بما عرفه من أوجه القراءات وهو لم يكن متسع للرواية والرحلة كغيره حتى أن عمله هذا لم يخل من لوم الأقدمين ، لما فى اختياره لسبع قراءات من ايهام أنها الأحرف السبعة وكان خير أن يزيد عن عدد السبعة أو ينقص . . ولكن الاختيار قد سار واشتهر ، وردده الناس ، وألف المؤلفون الكتب ونظموا المتون فى القراءات السبعية .

والسبعة الذين اختارهم (ابن مجاهد) تتوزعهم المدن الإسلامية فمنهم مدنى هو نافع بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٦٩ هـ ، ومنهم مكى هو عبد الله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، ومنهم شامى دمشقى هو عبد الله بن عامر اليحصبى المتوفى سنة ١١٨ هـ والباقون من العراق ومدنه ، فمنهم كوفيان هما : عاصم بن أبى النجود المتوفى سنة ١٢٨ هـ ومنهم بصرى هو أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ حمزه بن حبيب المتوفى سنة ١٥٨ هـ والرابع من العراقيين أبو على ابن حمزة الكسائى المتوفى سنة ١٨٩ هـ ويمكن أن يعد كوفيا ولكل واحد من هؤلاء السبعة رواة كثيرون لقراءات معتبرة ، إلا انه [ابن مجاهد] كما اقتصر اختياره على قراء سبعة اقتصر اختياره على راويتين لكل قارىء تلقيا منه القراءة مباشرة أو بالواسطة فلنافع راويان ، هما : قالون ، وورش المصرى . ولابن كثير روايان هما البزى وقنبل البزى ، وقنبل . . ولابن عامر راويان ، هما : ابن عمار ، وابن ذكوان ولعاصم راويان ، هما : حفص ، وشعبة ولحمزة راويان ، هما خلف ، وخلاد . . ولأبى عمرو راويان هما الدورى والسوسى وللكسائى روايان أحدهما هو الدورى ، أحد رواة أبى عمرو والثانى الليث . ويزداد فى الاختيار ثلاثة قراء مع السبعة فتكون القراءة العشرية . وأحد هؤلاء

الثلاثة المتممين للعشرة إنما هو خلف أحد راوى حمزة وتكثر القراءات للتيسير على الناطقين بلهجات العربية كما فهمنا ، وتنقل بهذه الرواية المشافهة ويرجع فى ذلك إلى المصحف الأصل المدون فتكون هذه الاعتبارات العملية الاجتماعية والواقعية المحددة هى ضابط القراءة المقبولة وتحدد قبولها ضوابط ثلاثة هى:

١ — موافقة لفظها لخط [المصحف الموحد] فكل قراءة لابد أن يساندها خط المصحف الأمام لكى تقبل .

٢ — أن تجىء على الفصيح من لغة العرب فلا بد فى القراءة لكى تقبل أن تستقيم من جهة العربية وهنا نفهم التعاون المتبادل فى حياة العربية وتاريخها اللغوى بين القراءات ، والرواية اللغوية فالقراءات القرآنية التى حفظت بالرواية الشفوية مادة للعربية بما هى أصداء للهجاتها . . واللهجات التى ضبطتها الرواية اللغوية ، وفحصها الدرس اللغوى الباحث تضبط قوة القراءة ، وتدل عليها وبعد هذين الضابطين ، الدينى واللغوى ، يكون النقل الصحيح المضبوط بنظام منهجهم النقلى الذى حرروه وأحكموا أصوله ، فيشترط بعد ما سبق فى القراءة المقبولة .

٣ — تصحيح سندها الراوى لها فلا بد فى القراءه المقبولة بعد شهادة الخط الرسمى واللغة — أن يسلم نقلها وإذا اختل ضابط من هذه المقومات الثلاثه كانت القراءة ضعيفة أو شاذة فى اصطلاحاتهم فالقراءة بلهجة لغوية ضعيفة قراءة شاذة . وإذا مانقلت فى مجال الدرس اللغوى للهجات العربية فما يكون لها اعتبار فى المقام القرآنى . وإذا وردت كلمات مفسرة لبعض ألفاظ القرآن ، وليست من متنه الذى سجله المصحف الامام ، فقراءتها على أنها قرآن شاذة والقراءه التى لا يصح نقلها بقواعدهم النقلية قراءة شاذة ، وليس شىء من هذه الأشياء التى تخرجها هذه المميزات الثلاث يعد من القرآن والقراءة به ممنوعة

منع تحريم لا منع كراهة (البرهان حـ ١ ص ٣٣٢) وإن كان الدرس اللغوى المستقصى قد أدرك ما بين القراءات واللهجات من الصلة الوثيقة ، فوجد القراءات الشاذة مادة لغوية تكمل معرفته بالعربية والف رجال الدرس اللغوى كتبا تجمع القراءات الشاذة وتبين وجهتها اللغوية ومن أشهر ذلك كتاب (المحتسب) لابن رجى .

وإذا ما كانت القراءات القرآنية المتنوعة قد أوجدتها منذ فجر الإسلام حاجة لسانية ، واعتبارات اجتماعية على ما أدركنا ، وقد جعلت تخف تلك الحاجة وتتغير تلك الاعتبارات . فإن هذه القراءات قد صارت صنفا من تتبع النص القرآنى فى مختلف كيفيات أدائه ومحافظة على هذا النص إلى حد ما ومن هنا كان الاقبال على علم (القراءات) تأليفاً فى مختلف صور الأصول العلمية فى الثقافة الإسلامية ولا سيما الدينية من وضع الأصول الضابطة التى تسمى المتون وتوليها بالشرح والتوسع فى خدمة ذلك الشرح بالحواشى الخ ، ومن جعل المتون منظومة ليسهل حفظها وجارى تلك العنايات بالتأليف عناية بالممارسة العملية لهذه القراءات ، ومعرفة ما تمكن معرفته من مروياتها المختلفة حتى أن القارىء عندهم لا يزال يحسب مبتدئا بعد أن يعرف ثلاث قراءت ويعد متوسطا وهو ينقل خمس قراءات وكلما زاد على العدد كان حقيقاً باسم القارىء وإن كان قد يمتد الأمر فى ذلك إلى جمع القراءات المختلفة فى القطعة الواحدة من القرآن وترداد ذلك ولاسيما مع القراءة بالصوت الحسن وليس فى هذا الذى يسمونه الجمع شىء من الأثر الطيب فى القراءة فلا هو تيسير على لسان لا يطوع ببعض النطق ولا هو متفق مع التدبر المطلوب فى قراءة القرآن وهو ما التفت إليه القدماء أنفسهم فكرهوا ترداد الآية بقراءات مختلفة على هذا الذى يسميه القراء الآن الجمع .

ترتيب القرآن

ما عرفناه من نظام نزول القرآن مفرقا يحوجنا إلى الاشارة إلى ترتيبه وترتيب الآيات بوضعها فى السور وتأليف وحدة منها وهو عمل قد تم فى حياة الرسول نفسه عليه السلام وبتوقيف منه هو ، وقرئت هذه السور كاملة فى حياته أما ترتيب السور فى المصحف فلم يكن للرسول فيه توقيف بل ترك دون تقييد فكتب الكاتبون من الصحابة لأنفسهم مصاحف يختلف فيها ترتيب الواحد منهم للسور فى مصحفه عن ترتيب الآخر لها ونقل طرف من ترتيبهم للسور فى مصاحفهم ولا بأس فى اختلافهم فى مثل هذا بوضع سورة قبل أخرى أو بعدها مادام قد ترك لهم ذلك .

هذا من حيث الترتيب الشكلى للقرآن. أما من حيث الترتيب الموضوعى ، فأنا نلحظ مما سبق أن القرآن الكريم لم ترتب آياته فى سوره ولا سوره فى جملته على ترتيب نزولها الزمنى بحيث وضعت المكيات قبل المدنيات مثلا وكل آية أو سورة من المكى أو المدنى قبل التى تلتها وهكذا... فليس فيه ترتيب على زمن نزوله وظهوره .. ثم ليس فيه ترتيب على حسب موضوعاته ومتناولاته : بحيث يكون فيه ما يخص العقائد مجتمعا وما يخص العبادات متجاورا ، وما يخص الأخلاق متصلا وهكذا ... فليس فيه هذا الترتيب الموضوعى أيضاً كما أنه إذا عرض لشىء من أمر الأمم السابقة وأنبيائهم وما إلى ذلك لم يعرض له فى ترتيب الأزمان والأحداث فتجد فيه مثل سفر التكوين فى التوراة ترتب فيه الأحداث من بدء الخليقة على أزمانها وتحدد تلك الأزمنة وتعين معها الأمكنة . . . كلا ليس فى القرآن شىء كهذا ولا يلتمس فيه إذ هو لا يحدد أزمنة ولا يعين سنين وفى أغلب الأمر لا يحدد الأماكن ولا يسمى الأشخاص وما ماثل ذلك فهو

ترتيب متفرد ينبغي أن يقدر ما فيه من القصد إلى أن يكون — أولا وقبل كل شيء ومع كل شيء — كتاب هداية نفسية خلقية اجتماعية . تتناسب مع عموم الدعوة الإسلامية وتوجيهها إلى الإنسانية جمعاء في كل زمان ومكان وتتناسب مع دوام الدعوة الإسلامية واستمرارها إلى آخر الدهر ، وعلى مدى الزمن مادامت على هذه الأرض حياة كما تتناسب كذلك مع ختم هذه الدعوة لرسالات السماء إلى الأرض واستطاعة الدنيا أن تكتفي بها وتلتقي عندها فهو يمس دائما الأصول الكبرى والأسس العامة والقواعد الكلية في اطار من الشعور الديني المؤمن والفضيلة الخلقية المصلحة لنفوس البشر ، المهيئة لهم أن يكونوا في نشاطهم العملي وجهادهم الحيوي أناسا أخيار أطهارا أبرارا غير متكالبين ولا متناحرين ولا متباغضين .

وإذا مامس شيئا من التفصيلات تطابها واقع الحياة فلتكون كذلك مثلا عامة يرجع إليها الناس فيما أمرهم به من التبصر والاعتبار بمثل قوله «فاعتبروا ياأولى الأبصار » وبذلك يمضون على تغير أحوالهم وتطور شئونهم واختلاف بيئاتهم وتنوع مشكلاتهم وهم دائما أولئك المراقبون لربهم المحكمون لضمائرهم المقدرون لمسئولياتهم يدبرون من أمورهم المتجددة ما تصلح به حياتهم في ظل تلك الخشية من قلوب وجلة ونفوس مطمئنة ، لا تنسى نصيبها من الدنيا وتذكر مع ذلك اليوم الآخر والحساب المرتقب ومن هذا الترتيب الذى توزعت في جميع أجزائه وآياته ، مواضع العبرة الهامة تجد الهداية المرجوة في كل قطعة منه وكل بيان وكل قصة وكل موعظة . وحسبنا هذا الإجمال لأهداف ترتيب القرآن .

تقسيم القرآن

نعرف الآن من المصحف أن القرآن يتألف من ثلاثين جزءا وكل جزء يتألف من ثمانية أرباع تتوزع بينها سور القرآن البالغ عددها مائة وأربع عشرة

سورة وقد بينا أن ترتيب هذه السور بآياتها المقدرة لها قد تم وعرف في عهد الرسول (ص) وعرفت سورة بأسمائها وروى أكثر من اسم للسورة الواحدة. وأما هذه التجزئة إلى ثلاثين فمن عمل العلماء ، مع ما عرف لهم من التتبع المستقصى لهذا القرآن يعدون آياته ، بل يعدون كلماته وحروفه كما يلحظون خصائص فى ذلك كله.

ومع هذه العناية المناسبة لمكانة القرآن فى حياة الإسلام والمسلمين كانت تجزئاتهم للقرآن وأشهرها هذه التجزئة إلى ثلاثين جزءا وقد يقسمون الجزء إلى قسمين يسمون الواحد حزبا ويتتبّعون ذلك كله بالبيان المفصل والآية التى تبدأ كل جزء وحزب وما إلى ذلك وهم يقصدون إلى توزيع الحفظ وتيسيره على القارئين لا أكثر مع رغبتهم فى المعرفة التفصيلية لكل ماحواه هذا الكتاب المبين .

وكتب سيد أمير على تحت عنوان : الخط العربى :

كان فن الخط العربى معروفا عند قريش قبل انتشار الإسلام بقليل ويقال إن الذى اخترعه هو « مورامير بن مراسا » من أهالى الأنبار قرب الحيرة ، ولما انتقل الخط إلى الحيرة تعلمه حرب بن أمية خلال زيارته لعاصمة المناذرة ثم علمه لجماعة من أهــــل مكة فانتشر بين قريش ، ويظهر أنه كان لسكان اليمن الحميريين أسلوب خاص فى الكتابة لعله كان صوتيا [1] .

ويقول ابن خلكان إن آل حمير كانت لهم كتابة خاصة تسمى بالمسند حروفها منفصلة غيرمرتبطة ، وكانوا يمنعون العامة من تعلمها ، ولم يكن ليجرؤ أحد على استعمالها دون إجازة ، فلما جاء الاسلام لم يكن فى اليمن من يعرف القراءة والكتابة .

وفى نهاية العهد الأموى تطور الخط الكوفى إلى عدة أشكال كان أعمها الخط النسخى ، وفى نهاية القرن العاشر ، ومستهل القرن الحادى عشر أدخل

(١) انظر مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ص ٤٠٢

الخطاطان العربيان المشهوران أبو الحسن المعروف بابن البواب وأبوطالب المبارك تحسينات جمة على الخط النسخى وفى عهد صلاح الدين الأيوبى ذاع خط عريض يسمى بالثلثى ، ويظهر أنه مأخوذ عن الخط النسخى والخط الفارسى [١] .

ذلك وقد أصبح اليوم ، وفى عصر النهضة الشاملة ، قدر كبير لفن الكتابة العربية والخط العربى ، كما أصبح لدى العالمين العربى والإسلامى علماء متخصصون فى الكتابة العربية ، وتطورها على مر العصور .

ولا يفوتنا فى هذه المناسبة ، أن نشير إلى تلك البدعة التى عرض لها مجمع اللغة العربية بالقاهرة بالبحث والدراسة وهى مسألة اختزال الحروف العربية وتجريدها من الشكل والحركة حتى تساير تقدم فن الطباعة — فيما زعموا — وكان من حسن الحظ أن يرفض أعضاء المجمع هذه الفكرة الجريئة الخطيرة على القومية ولغة القرآن ، ونرجو أن يفكر السادة الاجلاء من مبتدعيها ، ان نتيجتها الحتمية — لو نفذت — هى إعدام التراث العربى والإسلامى ، وقطع الصلة بين الأجيال التالية وبين مقوماتهم الذاتية لغة وتاريخا وحضارة .

---

(١) نفس المصدر

تراجم موجزة لأبطال الجهاد الاسلامى

فى عصر الراشدين

بطل القادسية

سعد بن أبي وقاص

سعد بن أبي وقاص ، بن وهيب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ، بن كلاب ، بن مره أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم .

ولد بعد ميلاد النبي بأربع وعشرين سنة تقريبا (سنة ٥٩٥ م) ومات رضي الله عنه سنة ٥٥ هـ وعمره ثلاث وثمانون سنة ، وكان من أغنياء قريش في الجاهلية .

أسلم وعمره عشرون سنة ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، قال سعد بن أبي وقاص : نزلت هذه الآية في (وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعمها وصاحبهما في الدنيا معروفا) قال : كنت رجلا براً بأمي ، فلما أسلمت قالت ياسعد ماهذا الدين الذي أحدثت ، لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي ، فقلت لها لا تفعلي يا أماه ، فإني لا أدع ديني . فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ولاتشرب فأصبحت وقد جهدت فقلت لها : والله لو كان ألف نفس فخرجت نفساً نفسا ماتركت ديني هذا لشيء . فلما رأت ذلك أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية . وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها ، ورمى في وقعة أحد المشركين بألف سهم ، وقاتل في يوم أحد قتال الأبطال ، وكان معه يوم فتح مكة احدى رايات المهاجرين الثلاث .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سهر رسول بالمدينة ليلة ، ثم قال : ليت رجلاصالحا من أصحابي يحرسني الليلة. فبينما نحن كذلك سمعنا شخشخة سلاح فقال : من هذا ؟ فقالوا : سعد بن أبي وقاص . فقال له رسول الله : ماجاء بك؟

فقال وقع فى نفسى الخوف على رسول الله فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله ثم نام .

وقد كان من حب رسول الله لسعد أن دعا له أن يسدد رميته ويجيب دعوته ، حتى لقد كان كبار الصحابة ، كعمر بن الخطاب ، وابن مسعود يتحاشون دعوته وقد روى المؤرخون كثيراً من الأخبار فى من اصابته دعوة سعد رضى الله عنه : قد كان سعد بن أبى وقاص من شجعان قريش وكماتهم . لهذا لما استشار الناس عمر فى من يوليه حرب الفرس أشاروا عليه بسعد وقالوا عنه: انه الأسد عاديا ، فانتهى عمر إلى رأيهم ، وسلم لهذا البطل الكبير قيادة الجيوش الإسلامية فى حرب الفرس .

إن فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية قد اعتبره المؤرخون الغربيون ابتداء عصر تاريخى ، وذلك راجع إلى مهاجرة بعض أهلها من الروم ، فنشروا علومهم فى أوربا الغربية ، الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى نهضة الغرب العلمية الحاضرة . وإنى أرى أن ما أحدثته وقائع (اليرموك) و (القادسية) و (جالولاء) (ونهاوند) كان أثره أعظم خطراً من فتح القسطنطينية لأن تلك الوقائع قد أخضعت مملكة الرومان والفرس لسلطان المسلمين ، وكانت السبب فى إستيلاء دولة الإسلام على سوريا ومصر ، بل الأناضول والقوقاز وجميع بلاد فارس ؛ وكانت هذه الوقائع سبباً فى نشر راية الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها . كانت سبباً فى إخراج مئات الملايين من بنى الإنسان من عبادة الأوثان والنيران وبعض من الناس كبوذا وبرهمه وغيرهما ، وكانت السبب فى هداية مئات الملايين من الناس لعبادة الله الواحد القهار ، وقد أتينا على ذكر واقعة اليرموك فى ترجمة خالد بن الوليد ، أما واقعة القادسية وجالولاء فأريد مستعيناً بالله عز وجل أن أصفهما للقارىء بإيجاز ، وبصفة جلية واضحة

بعد مراجعتى كتب التاريخ المطولة ، كابن الأثير ، والطبرى ، وفتوح البلدان ، والفتوحات الإسلامية ، وابن خلدون ، وغيرها من الكتب المطولة ، التى وجدت بعضها يذكر تلك الوقائع بتفصيل طويل ينسى آخره أوله ، وبعضها مختصراً اختصاراً لا يشفى غلة طالب المعرفة . لذلك لخصت وصفى لهذه الوقائع من هذه الكتب الموثوق برواياتها ، وقد وضعت هذا الوصف فى أسلوب أرجو أن يكون فيه نفع للقارىء ·

جيش سعد

كان جيش سعد أعظم جيش أخرجته بلاد العرب للفتح ، وكان هذا الجيش عندما ودعه عمر بن الخطاب بالمدينة ، أربعة آلاف مقاتل ، ثم أمده عمر بأربعة آلاف آخرين من أهل اليمن ونجد ، وكان جيش بطل الاسلام المثنى بن حارثة — الذى مات من جراحه فى إحدى الوقائع عند وصول سعد لزرود — ثمانية آلاف ، فانضم إلى جيش سعد ، ثم انضم إلى جيش سعد أيضاً ثلاثة آلاف من بنى أسد ، ثم انضم إليه كثير من مسلمى العراق ، وانضم إليه فى ثانى يوم وثالث يوم من واقعة القادسية الجيش الذى سيره أبو عبيدة مدداً لسعد اتباعاً لأمر أمير المؤمنين عمر ، وكان ذلك بعد فتح دمشق ، وكان أمير هذا الجيش هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمى فصار جيش سعد ثمانية وثلاثين ألف مقاتل وخمسمائة وكان به تسعة وتسعون من الصحابة ، وأبناء الصحابة وكان بالجيش كثير من ذوى الرأى والخطباء والشعراء ، وكان القضاء فيه لعبد الرحمن بن ربيعة الباهلى ، وكان رائد الجيش سلمان الفارسى ، فلما وصل سعد إلى القادسية عبأ جيشه تعبئة عظيمة ، فجعل على كل عشرة منهم رئيساً ، وجعل على مقدمة الجيش زهرة بن عبد الله بن قتادة بن حوية ،

وسواد بن مالك التميمى ، وجعل على الميمنة ، عبد الله بن المعتم ، وأمر على جند الميسره شرحبيل بن السمط الكندى ، وجعل عاصم بن عمرو التميمى على مؤخرة الجيش ، ثم جعل الرجالة (البيادة) تحت قيادة جمال بن مالك الأسدى ، وجعل على الركبان (الفرسان) عبد الله بن ذى السهمين ، وجعل خليفته على الجيش خالد بن عرفطة .

وكان جيش الفرس بساباط بقيادة رستم فسار رستم بجيشه وعدده ١٢٠ ألف مقاتل، حتى نزل القادسية ، ثم وقف بجنده مقابل جيش للسلمين ، وكانت معدات الفرس الحربية ، من سلاح ودروع وخيل ٠ أعظم جودة من أسلحة العرب ، وكذلك عددهم كان أكثر من جيش العرب ، باثنين وسبعين ألف مقاتل. ولكن جيش الفرس ما كان يحمل قلوباً كقلوب جند المسلمين ، وكان فى مقدمة جيش الفرس الجالينوس ، وذو الحاجب ، وكان بجيش رستم ثلاثة وثلاثون فيلا ٠ هذا وصف كل من الجيشين .

وقد أرسل سعد إطاعة لأمر الخليفة بعضا من المسلمين ليدعوا الفرس للاسلام ، أو لدفع الجزية قبل الحرب ، وكان آخر من أرسله إليهم المغيرة بن شعبة ، وكان عارفا باللغة الفارسية ، فأقبل حتى جلس مع رستم على سريره ، فوثب إليه بعض جند الفرس فأنزلوه من السرير ، فقال المغيرة : « قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تواسون قومكم « أى تساونهم بأنفسكم » كما نتواسى ، فكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ، ولا يصنعه أحد ، وإنى لم آتكم ولكن دعوتمونى ؛ اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » . فانتفض القوم لكلامه ، وقال عامتهم صدق والله

العربى فيما قال ، وأما أمراؤهم فبهتوا وقالوا : والله لقد رمى (يعنون المغيرة) بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه .

واقعة القادسية

ابتدأت معركة القادسية فى يوم الاثنين من المحرم سنه ١٤ هـ فدامت أربعة أيام ، أول يوم يسمى أرماث ، والثانى أغواث ، والثالث عماث ، والرابع ليلة الهرير ، وكان سعد قد أصابته دمامل وعرق النساء فلا يستطيع الجلوس. فوضع تحت صدره وسادة ، وأشرف على الجند من مكان مرتفع ، فعابه بعض الشعراء فى أحد أيام المعركة قائلا :

تقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيم

فبلغت أبياته سعداً ، فقال : اللهم إن كان هذا كاذباً ، وقال الذى قاله رياء وسمعة ، فأقطع عنى لسانه ، فما هى إلا لحظة حتى رماه أحد جنود الفرس بسهم أصاب لسانه . فما تكلم بكلمة حتى مات ، عفا الله عنه ، ثم نزل سعد فأظهر للجيش ما به من القروح ، فعذره الناس ، واستخلف سعد خالد ابن عرفطة .

يوم أرماث

حث سعد القوم على الجهاد ، وأرسل المغيرة وحذيفة وعاصما وصليحة وقيساً الأسدى وغالبا وعمرو بن معد يكرب وأمثالهم . ومن الشعراء الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعبيدة وغيرهم ، وأمرهم بتحريض الناس على القتال ، وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد وهى الأنفال . فلما قرئت هشت قلوب الناس

وعيونهم ، وعرفوا السكينة مع قراءتها . ثم قال سعد : الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم فإنى مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا ، فإذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم . ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ، ولينشط فرسانكم الناس ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعا حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا « لا حول ولا قوة إلا بالله » فما كبر سعد التكبيرة الرابعة حتى دارت رحى الحرب إلى غروب الشمس ، ولكن المسلمين قد جهدوا جهداً كبيراً فى هذا اليوم ، لأن خيولهم قد فزعت من الفيلة لولا أن عاصم بن عمرو التميمى وغيره من الأبطال قطعوا وضن الفيلة ففزعت ، وألقت من عليها من الجند وفرت هاربه .

يوم أغواث

ما أصبح القوم حتى ظهر القعقاع بن عمرو التميمى ، وكان على مقدمة جيش هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، وكان قد تعجل بالحضور إلى القادسية مع ألف من جند هاشم ، وقبل أن يصل إلى جند المسلمين أمر جنده أن يقفوا على مدى البصر ، ويحضروا إلى الجيش عشرة عشرة ، حتى يوهم جيش المسلمين بأن معه جنوداً كثيرة ، وقد حضر هو مع الشعرة الأول ،فبشر الجنود وحرضهم على القتال ثم ان هذا البطل العظيم القعقاع عندما رأى جند الفرس ، لم يلبث هنيهة حتى طلب المبارزة صائحاً ، يالثارات أبى عبيد وسليط وأصحاب الجسر . فخرج إليه ذو الحاجب أحد قواد الفرس ، فما كانت إلا لحظة حتى قتله، ففرح المسلمون ، ثم بارز الفيرزان وقتله، وقد كان أبو بكر رضى الله عنه يقول لايهزم جيش فيه مثل القعقاع، ثم ان القعقاع نادى يامعشر المسلمين باشروا الفرس بالسيوف، فإنما يحصد الناس بها، وبعد هذا تزاحفت الجنود العربية والجنود الفارسية فاقتتلوا حتى المساء،

وحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حملة على الفرس ، وقتل منهم كثيراً ، ولما رأى القعقاع شدة فزع خيل المسلمين من فيلة الفرس ، دعا بعض بنى عمه وأركبهم إبلا ألبسها كلباس الفيلة ، وبرقعها فقزعت منها خيل الفرس ، وممن اشتهر بالبسالة فى هذا اليوم أبو محجن ، وكان سعد قد حبسه وقيده فى القصر ، ولكن هذا البطل ضاق صدره لعدم مباشرته الحرب ، فقال لسلمى زوج سعد (وكانت زوج المثنى بن حارثة ، فلما استشهد رضى الله عنه تزوجها سعد) : « هل لك أن تخلى عنى وتعيرينى البلقاء (فرس سعد) فلله على ان سلمنى الله أن أرجع إليك حتى اضع رجلى فى قيدى فأبت فقال :

كفى حزنا أن ترتدى الخيل بالقنا　　واترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت　　مصاريع دونى قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة　　فقد تركونى واحداً لا أخاليا
ولله عهد لا أخيس بعهده　　لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فأطلقته سلمى وأعطته البلقاء ، فركبها حتى كان بحيال جيش المسلمين ، فكبر وحمل على ميسرة الفرس، ثم رجع خلف المسلمين، ثم حمل على ميمنة الفرس ثانية وكان يقصف الفرس قصفاً عظيما ، فتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه ، فقال بعضهم إنه هو هاشم ، وكان سعد يقول لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء وقال بعض الناس هذا الخضر ، فلما تراجع المسلمون والفرس عن القتال أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجليه فى القيد وقال :

لقد علمت ثقيف غير فخر　　بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعا سابغات　　وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنا وفدهم فى كل يوم　　فإن عموا فسل بهم عريفا

وليلة فارس لم يشعروا بى ولم اشعر بمخرجى الزحوفا
فإن أحبس فذالكم بلائى وإن أترك أذيقهم الحتوفا

فقالت له سلمى : فى أى شيء حبسك ؟ فقال ! والله ما حبسنى بحرام أكلته، ولا شربته ، ولكننى كنت اشرب الخمر فى الجاهلية ، وأنا أمرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى فقلت :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فإننى أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

فلذلك حبسنى .

فلما أصبحت أتت سعدا فصالحته ، وكانت مغاضبته ، وأخبرته بخبر أبى محجن فأطلقه ، مخاطبا له : اذهب ، فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله ، فقال : لاجرم لا أجيب لسانى إلى قبيح .

وانتهى هذا اليوم برجحان كفه المسلمين على الفرس .

يوم عماث

قد تقدم أن ذكرنا ما فعله القعقاع فى يوم أغواث ، من البسالة والحيلة ، فى حضور جنده إلى القادسية عشرة عشرة ، ليوهم جند المسلمين ، بأن جنده كثيروالعدد ، ومن إلباسه الإبل لباس الفيلة ، وقد فكر اليوم أيضاً فى حيلة يدخل بها الرجاء على قلوب المسلمين ، فسرب أصحابه فى الليل إلى المكان الذى فارقهم فيه أمس ، وقال : إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة ، فإن جاء هاشم ، فذاك و إلا جددتم للناس رجاء ، فما طلعت الشمس ، حتى أقبل أصحاب القعقاع ، فحين رآهم القعقاع كبر المسلمون ، وتقدموا للضرب والطعن ، وشدد

متتابع ، فما جاء آخر أصحاب القعقاع ، حتى انتهى إليهم هاشم ، فأخبره بعضهم بما صنع القعقاع ، فعبأ أصحابه سبعين سبعين ، وكان فيهم البطل العظيم قيس ابن هبيرة بن عبد يغوث . المعروف بقيس بن المكشوح المرادى ، فلما صار بجانب جند المسلمين كبر ، فكبر الناس، وقال : أول القتال المطاردة ثم المراماة. ثم حمل على المشركين يقاتلهم ، حتى خرق صفهم إلى العتيق ، ثم عاد .

وممن اشتهر بالبسالة فى هذا اليوم عمرو بن معد يكرب ، فإنه قاتل قتالا شديداً ، ثم التفت إلى بعض الجند قائلا لهم : « إنى حامل على الفيل ومن حول الفيل ، فلا تدعونى أكثر من جزر جزور ، فإن تأخرتم عنى فقد تم أباثور ، (يعنى نفسه) . وأين لكم مثل أبى ثور ؟ فحمل وضرب فيهم ، حتى ستره الغبار ، وحمل أصحابه ، فأفرج المشركون عنه بعد ما صرعوه ، وإن سيفه لفى يده .

وقد طعن فرسه ، فأخذ برجل فرس أعجمى ، فلم يطق الجرى ، فنزل عنه الأعجمى هارباً فركبه عمرو ، واشتد القتال بين المسلمين والفرس حتى أمسوا .

ليلة الهرير

اشتهر فى هذه الليلة بالقتال طليحة وعمرو والقعقاع ، فما صلى المسلمون العشاء حتى رأى القعقاع أن جيش الفرس زاحف على المسلمين . حتى زحف بقومه عليهم ، من غير إذن سعد . فقال سعد : « اللهم اغفرها وانصره ، فقد اذنت له ، وإن لم يستأذنى » . ثم قال سعد : « إذا كبرت التكبيرة الثالثة فخالطوا الفرس وباشروا القتال ، وما كبر التكبيرة الثالثة حتى تزاحفت الجيوش ودامت الحرب من بعد صلاة العشاء إلى ظهر اليوم الثانى ، وترك المسلمون

النوم والكلام . فما كان يسمع إلا صليل الحديد . حتى أتم الله النصر للمسلمين وهزمت جيوش الفرس شر هزيمة ، ثم ان هلال بن علقمة قصد قائد الفرس رستم فقتله ، ثم جز رأسه ونادى : قتلت رستم ورب الكعبة . وغنم المسلمون غنائم كثيرة من جيش الفرس المنهزم . وقد استشهد من المسلمين فى ثلاثة الأيام الأولى من المعركة ألفان وخمسمائة شهيد ، واستشهد فى ليلة الهرير ستة آلاف شهيد ، فرضى الله عنهم أجمعين ، وفتح لهم أبواب جنته . ثم فتح سعد ابن أبى وقاص عاصمة الأكاسرة (المدائن) وصلى سعد بإيوان كسرى — بعد أن فتح البرس ، وبابل ، وكوثى — صلاة الفتح ثمانى ركعات ثم قرأ (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين) وجمع سعد من الغنائم مايفوق الحصر ومنها ذخائر كسرى وسلاحه وناهيك بذخائر الأكاسرة وقسم الغنائم على الجند فأصاب الفارس اثنى عشر ألف درهم ، وبعث بأخماس الغنائم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجده ، فلما رآها عمر قال إن قوما أدوا هذا لذوو أمانة . فقال له على رضى الله عنه : إنك عففت فعفت الرعية .

معركة جالولاء

اجتمع الفرس ثانية بجيش كبير جداً بجالولاء . وكان قواد جيشهم من أكبر أبطالهم كمهران الرازى والفيرزان والزينبى وغيرهم . وأحاط الفرس مواقف جندهم بخندق عظيم . ووضعوا عليه أسلاكا من الحديد . وصنعوا بعض طرق على الخندق لعبورهم . فأمر سعد هاشما بن عتبة (ابن أخيه) على جيش يلغ رجاله اثنى عشر ألفا . وفى مقدمته القعقاع بن عمرو : فسار هاشم من المدائن حتى وصل إلى جالولاء . ومكث أمام جيش الفرس ثمانين يوما . ثم اختلف الفرس فيما بينهم فاقتتلوا . وسقط بعض فرسانهم فى الخندق فعبر

الخندق البطل المظيم القعقاع بن عمرو وتبعه هاشم وجنده . وقاتل المسلمون قتالا شديدا قيل أنه كان أشد من قتال ليلة الهرير . فهلكت خيول الفرس من أسلاكهم وبقيت رجالتهم (البيادة) فحصدتهم سيوف المسلمين حصداً مريعا . وقيل إن قتلى الفرس فى هذه المعركة بلغت مائة ألف رجل . جللت دماؤهم مكان المعركة فسمى جالولاء ثم سار القعقاع فاستولى على حـــلوان (بفارس) . وهرب منها يزدجرد . ثم استولى القعقاع وجنده أيضاً على خانقين وقتل الزينبي والفيرزان . فهرب يزدجرد إلى الرى وبلغت غنائم المسلمين فى جالولاء وحلوان وخانقين ثلاثين مليون درهم ، أى ثلاثة ملايين دينار، وبعد أن أرسل هاشم لسعد خمس الغنائم ليبعثها إلى الخليفة أصاب الفارس منهم تسعة آلاف درهم وتسعة من الدواب ، وكان فتح جالولاء فى ذى القعدة سنة ١٦هـ ، ثم اختط سعد الـكوفة فى محرم سنة ١٧هـ ، وأقام والياً عليها ثلاث سنين ونصف وكان حسن الامارة منصفاً بين المسلمين ، غير أنه قد سعى بسعد إلى عمر بن الخطاب أسامة بن قتادة ، قائلا أنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل فى القضية ، ولا يغزو فى السرية ، فقال سعد : اللهم إن كان قالها رياء وكذبا وسمعة فأعم بصره ، وأكثر عياله ، وعرضه لمضلات الفتن ، فأصابته دعوة سعد ، ثم دعا سعد على نفر قالوا إنه لا يحسن الصلاة فأصيبوا ، وكان ممن عابه الجراح بن سنان ، فدعا عليه فقطعته الناس بعدئذ بالسيوف عندما أراد اغتيال الحسن بن على رضى الله عنه بساباط ، وقدم سعد المدينة فقال له عمر : كيف تصلى ياسعد ؟ قال : اطيل الأولتين ، وأضعف الأخيرتين ، فقال هـكذا الظن بك يا أبا اسحاق ، وأراد عمر أن يرده إلى إمارة الـكوفة ثانية فأبى ، وقال كيف أتأمر على قوم يزعمون أنى لا أحسن الصلاة ، ولما أراد عمر بن الخطاب أن يشاطر سعد أماله كما كان يفعل ببعض العمال ، نظر اليه سعد مغضباً وقال : لقد هممت . فقال له عمر .

بأن تدعو على ؟ قال نعم . قال : إذن لا تجدنى بدعاء ربى شقيا : فسكت سعد عن الدعاء على عمر رأفة منه به .

ولما طعن عمر أوصى الخليفة بعده أن يؤمر سعداً .

ولما قتل عثمان بن عفان قال لسعد ابن أخيه هاشم إن مائة ألف سيف تريدك على الخلافة ، فأبى الخلافة وقال : إنى أريد سيفاً إذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئاً ، وإذا ضربت به الكافر قطع . ثم أبى المبايعة بالخلافة لأى كان مع حبه لعلى كرم الله وجهه ، فأرسل معاوية كتاباً يدعوه فيه إلى مبايعته بالخلافة .

فأجابه سعد بكتاب قائلا :

معاوى داؤك الداء العياء وليس لما تجىء به دواء
أيدعونى أبو حسن على فلم أردد عليه مايشاء
وقلت له أعطنى سيفاً بصيراً تميز به العداوة والولاء
أتطمع فى الذى أعيي علياً على ما قد طمعت به العفاء
ليوم منه خير منك حيا وميتاً أنت للمرء الفداء

ولما استتبت الخلافة لمعاوية دخل سعد عليه قائلا : السلام عليك أيها الملك. فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا إسحاق لو قلت يا أمير المؤمنين .

فقال سعد : أتقولها جذلان ضاحكا ، والله ماأحب أنى وليتها به (يريد أنه وليها بالمكر والخديعة وسفك الدماء لهذا لما صارت مغالبة صارت ملكا ، فقال له أيها الملك استخفافا بشأنه)[1] .

ومات سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه بالعقيق ، وهى على بضع عشرة أميال من المدينة ، فحمل على أعناق الرجال حتى دفن بالمدينة ، وأوصى وهو

---

(١) أنظر ابن الاثير والطبرى .

يحتضر أن يكفن في جبة عتيقة من الصوف قائلا . كفنونى فيها لأنى لقيت المشركين فيها يوم بدر هي على اليوم وإنما كنت أخبئها لهذا فرضى الله تعالى عنه.

قائد معركة نهـــاوند

النعمان بن مقرن

النعمان بن مقرن بن عائذ ، وينتهى نسبه إلى عثمان ، عمرو بن أد بن طابخة المزنى ، وولد عثمان هم مزينة نسبة إلى أمهم . قال مصعب : إن النعمان ابن مقرن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه سبعة إخوة له وأربعمائة فارس من مزينة فأسلموا كلهم ، وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن للإيمان بيوتاً وللنفاق بيوتاً ، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرن . وقد سكن النعمان بن مقرن البصرة ثم سكن بعدها الكوفة ، وكان النعمان رضى الله عنه من أكبر أبطال المسلمين وكماتهم ، فما كان يهنأ له عيش إلا تحت ظلال السيوف فإنه ما انتهى من فتح (جند نيسابور) و (السوس) حتى عينه عمر بن الخطاب أميراً (لكسكر) ، فكتب إلى عمر يطلب منه أن يعزله عن إمارة كسكر ويبعثه إلى جيش من المسلمين ، فأمره عمر على جند المسلمين بنهاوند.

أسباب معركة نهاوند

قد علم فيما سبق ما كان من انتصار المسلمين العظيم بمعركة القادسية ومعركة جالولاء ، وهروب يزدجرد ملك الفرس إلى الرى فمرو . فما كان يهنأ له بال . كيف لا وقد فقد أكبر قسم من مملكته ، فاجتهد حتى جمع جيشاً عظيما من الفرس بنهاوند ، وقد بلغ عددهم ١٥٠ ألف مقاتل ، وجعل أمير الجيش الفيرزان (قد ذكر قتل الفيرزان بمعركة القادسية ، وقتل الفيرزان بواقعة جالولاء والآن

يرد ذكر الفيرزان فى نهاوند فلابد أن تكون كلمة الفيرزان وظيفة من وظائف الجيش الفارسى الكبرى ، أو أن تكون لقب عائلة فارسية اشتهرت فى أمور الحرب وكانت تلقب الفيرزان) وكان على ميمنة الجيش الفارسى الزردق ، وعلى ميسرته بهن جاذويه ، ولما بلغ عمر بن الخطاب اجتماع جيش الفرس بنهاوند تكلم مع سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى هذا الأمر ، فقال له سعد : إن جند الكوفة يستأذنك فى الانسياح فى بلاد فارس وأن يبدءوا الفرس بالشدة ، ليكون أهيب لهم على عدوهم ، فجمع عمر بن الخطاب الناس واستشارهم فى أمر الحرب بنهاوند قائلا لهم : هذا يوم له مابعده ، وقد هممت فى أن أسير فيمن قدرت عليه فأنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين ، ثم استنفرهم ، وأكون لهم ردءا حتى يفتح الله على المسلمين ويقضى ما أحب ، فإن فتح الله عليهم صببتهم فى بلدانهم .

طلحة بن عبيد الله

فقام طلحة رضى الله عنه قائلا : (يا أمير المومنين قد أحكمتك الأمور وعجمتك البلابل ، واحتنكتك التجارب ، وانت وشأنك ورأيك لاينبو فى يديك ، ولا يكل عليك . إليك هذا الأمر فمرنا نطع ، وادعنا نجب ، واحملنا نركب ، وقدنا ننقد ، فإنك ولى هذا الأمر ، وقد بلوت وجربت واختربت فلم ينكشف شىء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيارهم) ثم جلس .

عثمان بن عفان

فقام عثمان بن عفان رضى الله عنه قائلا : (أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم ، وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ، ثم تسير

أنت بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرت قل عطنك ما قد تكاثر من عدد القوم ، وإنك يا أمير المؤمنين لا تستبقى بعد نفسك من العرب باقية ، ولا تمتع من الدنيا بعزيز ، ولا تلوذ فيها بحريز . إن هذا يوم له ما بعده من الأيام ، فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغيب عنه) وجلس .

على بن أبى طالب

فقام على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، فأبدى الرأى الصائب فقال :(أما بعد يا أمير المؤمنين : فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإن أشخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرفها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات ، أقرر هؤلاء فى أمصارهم ، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا ثلاث فرق : فرقة فى حرمهم وذراريهم ، وفرقة فى أهل عهدهم حتى لا ينتقض ، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم ، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا هذا أمير المؤمنين ، أمير العرب وأصلها ، فكان ذلك أشد لكلبهم عليك ، وأما ماذكرت من مسير القوم (الفرس) فإن الله هو أكره لمصيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر) ثم جلس. فقال عمر : « هذا هو الرأى ، كنت أحب أن أتابع عليه ، فأشيروا على برجل أوليه ، وليكن عراقياً ». فقالوا : أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك ، فقال : والله لأولين أمرهم رجلا يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً ، فقيل من هو ؟ فقال : هو النعمان بن مقرن المزنى ، فقالوا : هو لها . وكان النعمان يومئذ

أميراً لـكـسكر كما تقدم . فـكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى ماه لتجتمع الجيوش عليه ، فإذا اجتمعوا إليه سار بهم إلى نهاوند .

ثم كتب عمر بن الخطاب إلى المسلمين الذين بالأهواز أن يشغلوا الفرس عن المسلمين ، وكان أمراء جند الأهواز المقترب وحرملة ، وزر ، فأقام جند الأهواز بتخوم اصفهان وفارس وكان أهم عمل لهم قطع مدد فارس عن أهـل نها وند .

اجتمع الناس على النعمان ، وفيهم حذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عمر ، وجرير بن عبد الله البجلى ، والمغيرة بن شعبة . ولما بلغ جند النعمان رضى الله عنه ثلاثين ألفاً من المجاهدين أمرهم بالرحيل إلى نهاوند ، ثم عبأ النعمان جند المسلمين تعبئة عظيمة ، فجعل على مقدمة الجيش أخاه نعيم بن مقرن ، وأمير الميمنة حذيفة بن اليمان وأمير الميسرة اخاه سويد بن مقرن ، وجعل على المجردة القعقاع بن عمرو ، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود .

معركة نها وند

كانت معركة نها وند سنة ٢١ هـ . وكانت أكبر معركة قاوم فيها الفرس مقاومة عظيمة وتسمى العرب واقعة نها وند « بفتح الفتوح » إذ لم يقم للفرس بعدها اجتماع ، ودخلت مملـكتهم كلها فى حوزة المسلمين . . ابتدأ القتال فى نهاوند يوم الأربعاء ويوم الخميس بين العرب والفرس ، فلما رأت الفرس ما أبداه المسلمون من البسالة تحصنوا بخنادقهم مدة طويلة ، وكانت خنادق الفرس محمية بأسلاك من الحديد : فضاق صدر النعمان من نـكوص الفرس عن الحرب وهو يريد محاربتهم والانتصار عليهم ؛ فجمع النعمان قواد جيشه وقال لهم : قد ترون الفرس واعتصامهم بخنادقهم ومدنهم وأنهم لا يخرجون إلينا إلا إذا شاءوا ولا يقدر

المسلمون على إخراجهم؛ وقد ترون الذى فيه المسلمون من الضيق ، فما الرأي الذى به نستخرجهم إلى المناجزة وترك التطويل ؟ فتكلم عمرو بن سني ، وكان أكبر الناس سناً وكان العرب يحترمون شيوخهم ، فقال : التحصن عليهم أشد من المطاولة علينا ، فدعهم وقاتل من أتاك منهم ، فردوا عليه رأيه (أى لم يستصوبوا رأيه)، ثم تكلم عمر بن معد يكرب فقال: ناهدهم وكابدهم ولا تخفهم، فردوا جميعاً عليه رأيه . وقال طليحة أرى أن نبعث خيلا لينشبوا القتال فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطراداً فإنا لم نستطرد لهم فى طول ماقتلناهم . فإذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب ، فاستصوب المسلمون هذا الرأى . فلينظر القارىء كيف كان المسلمون يقدسون الشورى بينهم وعدم الاستبداد بالرأى فكان أمرهم شورى بينهم كما أمرهم الله تعالى . فما أعظم موقف عمر وهو يشاور المسلمين فى حرب نهاوند كما تقدم وما أكبر شأن النعمان وهو يستشير قواد جيشه فيما يصنع بالفرس ، فاللهم ارزق جميع المسلمين رجالا من ذوى الرأى والحصانة وارزقهم أمراء يجعلون الأمر شورى بينهم فيعيد الله مجد المسلمين لسابق عهده ، كما ندعو الله عز وجل أن يرزقهم رجال مثل هؤلاء الأبطال ، الذين لا يهنأ لهم عيش إلا تحت ظلال السيوف حباً فى إعلاء شأن دينهم ودولتهم .

تقدم أن الرأى قد استقر على أن تخرج فئة من جند المسلمين فيتظاهروا بالهجوم على جند الفرس، ثم يخدعوهم ويتقهقروا وبتلك الخدعة الحربية يتمكن المسلمون من محاربة عدوهم ، فأمر النعمان رضى الله عنه القعقاع بن عمرو أن يخرج ببعض الجند ، فخرج وهاجم الفرس ، وتظاهر بالتقهقر هو وجنده ، وكان ذلك فى يوم الجمعة . ثم ان النعمان رضى الله عنه قد ارتدى ثوبا أبيض ، ووضع على رأسه قلنسوة بيضاء ، ثم امتطى جواده واستعرض جيش المسلمين ، ووقف على كل راية يذكرهم ويحرضهم ويمنيهم الظفر ، وقال لهم إنى مكبر ثلاثا فإذا كبرت

الثالثة فانى حامل على الفرس فاحملوا عليهم ، وإن قتلت فالأمير بعدى حذيفة ، فإن قتل ففلان ، حتى عد سبعة آخرهم المغيرة ، ثم وقف رافعا رأسه ويديه إلى السماء وقال : اللهم إنى أسألك أن تقر عينى اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام ، واقبضنى شهيداً ، فبكى الناس ، ثم رجع إلى موقفه ، وعندئذ كانت الخدعة الحربية التى باشرها قد أثمرت ، فما رأى جند الفرس القعقاع وجنده يتقهقرون حتى خرجوا من خنادقهم ، وهجموا على جند المسلمين ، وكانوا فى خروجهم كأنهم جبال من حديد ، وقد أمر قائد الفرس بعض جنده أن يرموا أسلاكا خلف جند الفرس ليخيفهم من التقهقر .

ولما رأى النعمان هجوم الفرس على جند المسلمين كبر ثلاثا ، والمسلمون سامعون مطيعون مستعدون للقتال ، فحمل النعمان والناس معه على الفرس ، وانقضت راية النعمان انقضاض العقاب ، فاقتتل المسلمون والفرس قتالا شديدا لم يسمع السامعون بواقعة كانت أشد هولا منها ، وما كان يسمع إلا وقع الحديد ، وصبر لهم المسلمون صبراً عظيما ، وانهزم الفرس شر هزيمة ، وقتل منهم ماطبق أرض المعركة دما يزلق الناس والدواب . فلما أقر الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيداً ، زلق به فرسه فصرع ، وقيل بل رمى بسهم فى خاصرته فقتله فسجاه أخوه نعيم بثوب وأخذ الراية وناولها حذيفة . فأخذها وتقدم إلى موضع النعمان ، وترك نعيما مكانه . وقال لهم المغيرة اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفى أعدائنا . لئلا يهن الناس . فاقتتلوا فلما أظلم الليل تمت هزيمة الفرس . وتركوا القتال وكان وراء خندقهم نار فهوى بعض الفرس فيها فمات حريقا . وبعضهم قتل بالأسلاك التى وضعوها بينهم وبين خندقهم كما تقدم .

وقيل إن من مات من الفرس فى هذه الموقعة أكثر من مائة وعشرين ألف

مقاتل ، ثم هرب الفيرزان قائدهم مع نفر قليل نحو همذان . فاتبعه نعيم بن مقرن والقعقاع فأدركاه بثنية همذان . وهى إذ ذاك مشحونة بمؤونة الفرس ، فقتلاه ثم استولوا على بغال وحمير موقرة عسلا . فلما رآها المسلمون قال بعضهم إن لله جنوداً من عسل . ولما تم الظفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النعمان ابن مقرن . فقال لهم أخوه معقل . هذا أميركم قد أقر الله عينيه بالفتح . وختم له بالشهادة . فاتبعوا حذيفة . ودخل المسلمون نهاوند يوم المعركة . وأخذوا ما فيها من الأمتعة وغيرها وما حولها من الأسلاب والأثاث . ثم أمنوا كثيراً من الفرس . كخشر شنوم والهربز صاحب بيت النار على أن يخرج لحذيفة ذخائر كسرى التى ادخرها عنده لنوائب الزمان . فأمنه حذيفة على ذلك وأخذ منه ذخائر كسرى . وأرسل خمسها مع خمس جميع ما استولى عليه المسلمون فى هذه المعركة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

فتح الفتوح

أما أمير المؤمنين عمر فكان قد أرسل السائب الثقفى . وكان كاتبا حاسباً . إلى جيش نهاوند . وقال له . إن فتح الله عليك فقسم على المسلمين فيئهم . وخذ الخمس منه لبيت المال . وإن هلك هذا الجيش فاذهب فبطن الأرض خير من ظهرها . فلما فتح الله على المسلمين أخذ السائب خمس الغنائم لبيت المال . وفرق أربعة أخماس الغنائم على المجاهدين فى معركة نهاوند . فخص الفارس من المسلمين ستة آلاف درهم والراجل منهم ألفا درهم .

تقدم أن النعمان بن مقرن كان له سبعة إخوة . وفد بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد رأينا أن النعمان كان أميراً للجيش . وأخاه نعيم بن مقرن كان قائداً لمقدمة الجيش ، وكان أخوه سويد بن مقرن قائد ميسرة الجيش ، وأن أخاه معقل بن مقرن هو الذى أعلن الجيش بوفاة أخيه النعمان ، فيتبين من هذا

حسن فراسة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، إذ قال إن للايمان بيوتا وللنفاق بيوتا ، وإن من بيوت الإيمان بيت بن مقرن .

فمن لنا برجل يعلم خفايا القلوب ، فيخبرنا بما كان يدور فى خلد هذا البطل العظيم النعمان بن مقرن وهو خارج إلى ساحة القتال ، وقلبه مملوء بأمرين عظيمين ، يقينه بنصر المسلمين فى هذه المعركة العظيمة ، واعتقاده بأنه سيكون شهيداً بعد تمام النصر . ولم كان يتمنى نيله الشهادة فى هذه الساعة التاريخية التى فيها يفاخر المرء بنفسه ، والتى لا يجوز فى غيرها الخيلاء ، إذ صح أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى إحدى المعارك أحد أبطال المسلمين بعد أن قتل من المشركين كثيراً يمشى مشية الخيلاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذه مشية لا يغفرها الله لصاحبها إلا فى هذا الموقف » من لى برجل ماهر يأخذ على لوحة الصور المتحركة (السينما) صورة هذا البطل العظيم ، وهو مرتد رداءه الأبيض ، وقلنسوته البيضاء ، معتل صهوة جواده متقلداً سيفه بيمينه ، حاملا الراية بيساره ، يتفقد فرق الجيش فرقة فرقة ، ولواء لواء ، ثم وقوفه فى وسط الجيش وهو رافع يديه إلى السماء عند دعائه هذا (اللهم إنى أسألك أن تقر عينى اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام واقبضنى شهيداً) ، بمثل هذا البطل العظيم ، ومثل رجال جنده الظافرين تشيد الممالك . ويرتفع مجد الأمم . بمثل هذا البطل العظيم تنتصر عقيدة التوحيد بالله عز وجل ، عقيدة الإسلام التى يدين بها الآن سبعمائة وخمسون مليونا من الناس ، أما حبه لنيل الشهادة فى ساعة النصر فربما كان ذلك منه حباً فى التخلص مما سيلقاه من التعظيم والتكريم من الناس ، فإن ما أتاه فى سبيل نصرة الإسلام والمسلمين ما كان إلا حباً فى الله ، لا حباً فى العظمة والفخر ، بل كان يريد لقاء ربه فى هذه الساعة فيظلله الملك العلام من سماء عليائه بظلال رحمته ، وتقدم له الملائكة فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين أكاليل النصر ، وتنثر الحور العين بين يديه الزهور والرياحين فهنيئاً له .

ولنا فى المقام أن ندعو الله القادر على كل شىء. أن يهب للشرق والإسلام أبطالا مثل هذا البطل الكبير فيعيدون للاسلام مجده ، وان يمد فى حياة زائده الرئيس جمال عبد الناصر .

ثم رجع السائب إلى المدينة فقابل أمير المؤمنين عمر ، فقال عمر ما وراءك؟ فقال خير يا أمير المؤمنين فتح الله عليك أعظم الفتح ، واستشهد النعمان بن مقرن . فقال عمر ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم بكى بكاء شديداً وصعد إلى المنبر وأخبر الناس بفتح نها وند وانتصار المسلمين . ثم نعى النعمان بن مقرن ، ووضع يده على رأسه وبكى ، فرضى الله عنهم أجمعين .

عبد الله بن عامر

عبد الله بن عامر ، بن ربيعة ، بن حبيب، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأم أبيه عامر، هى أم حكيم البيضاء ، بنت عبد المطلب عمة النبى (صلى الله عليه وسلم) . وهو ابن خال عثمان بن عفان . ولد فى مكة بعد الهجرة بأربع سنين « ٦٢٦ م » ، وتوفى سنة ٥٧ هـ « ٦٧٨ م » وعمره أربع وخمسون سنة.

ولما فتح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مكة جىء له بعبد الله بن عامر وهو طفل ، فقيل : هذا ابن السلمية قال : نعم هذا ابننا ، وهو أشبهكم بنا، وهو مسقى . فكان عبد الله لا يمر فى أرض ليس فيها ماء إلا ويأمر بعض جنوده أن تحفر فيها عين من الماء الغزير، وكان شريفاً سخياً كريما ، كثير المال والولد . كانت مملكة فارس عند فتح المسلمين إياها مملكة كبيرة مقسمة الأرجاء ، وكان من بلدانها الشرقية الأفغانستان وعاصمته كابل ، وبلوخستان (أى السند التابعة لباكستان الآن) .

ومن بلدانها الغربية العراق العجمى ، وخوزستان ، ومن أشهر مدنه ، المدائن ، والنهروان على نهر دجله ، ونهاوند والسوس وجند نيسابور ، وكان من قسم فارس الشمالى أذربيجان ، ومن أشهر مدنه تبريز ، وقسمها الجنوبى كان يعرف بفارس ، وكرمان ، ومن أشهر مدنه اصطخر وقد فتحت أكثر هذه البلدان فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد واقعة القادسية وواقعتى جالولاء ونهاوند ، وبقى قسم كبير من فارس لم يفتح بعد . وكانت بتلك البلدان التى فتحت أو التى لم تفتح بعض من القرى الفارسية الكامنة الساخطة من تقويض ملك فارس فلما توفى الخليفة عمر ثارت على المسلمين أكثر البلدان الفارسية التى افتتحت ، وكان الوالى على البصرة أبو موسى الأشعرى ، وكان الوالى على عمان والبحرين وفارس ، عثمان بن أبى العاص الثقفى فعز لهما عثمان بن عفان ، وولى البصرة وفارس عبد الله بن عامر سنة ٢٨ هـ وعمره أربعة عشرون سنة ، فقال أبو موسى لأهالى البصرة ، يقدم عليكم غلام كريم الجدات والعمات يجمع له الجندان ، فما تولى عبد الله بن عامر هاتين الولايتين حتى أطفأ الثورة التى قامت بالبلاد الفارسية بحسن إدارته وحزمه فى قيادة الجيوش ، ثم افتتح الأفغانستان وخراسان وسجستان وكرمان ، وما زال يطارد كسرى يزدجرد حتى قتل ، وانقرضت بموته الدولة الساسانية ، وصار للمسلمين ملك الأكاسرة ، فخفقت أعلامهم على أقاصى بلاد فارس الشرقية ، كما بسط المسلمون جناح سلطانهم على فارس الغربية الجنوبية قبل ذلك . ألا يندهش الإنسان عندما يعلم كيف استطاع المسلمون فى ذاك الوقت وهم بعيدون عن عاصمة ملكهم (المدينة المنورة) أن يقطعوا هذه المسافات الشاسعة ويرتقوا هذه الجبال الوعرة ويمروا من المضايق المنيعة يستولون على سورية ومصر والأناضول وجباله والقوقاز وبلاد فارس وبلاد الأفغان ، مع أن بعض جبال الأفغان وما حولها كجبال هند وكوش تبلغ من الارتفاع أكثر من أربعة آلاف متر ، ولا تقل بعض جبال

الأناضول والقوقاز عن هذا الارتفاع الشاهق . وما كانت أسلحتهم تمتاز عن أسلحة أعدائهم ، بل كانت أسلحة الرومان والفرس أجود بكثير من أسلحة العرب ، وإن بطلا مثل عبد الله بن عامر فاتح خراسان والأفغانستان وغيرها من البلدان ، أو أمثاله من أبطال المسلمين كسعد بن أبى وقاص ، والقعقاع ابن عمرو ، والنعمان بن مقرن الذين أحرزا النصر فى وقائع القادسية وجالولاء ونها وند ، وخالد بن الوليد الذى هزم الرومان شر هزيمة فى واقعة اليرموك يكاد لا يلم بتاريخهم كثير من أفراد الأمة ، مع أن اللورد كتشنر مثـــلا يرن ذكره فى جميع أنحاء بلاده ، مع أنه ما حارب إلا بجنود مصرية ، وبأسلحة من أجود طراز من مدافع رشاشة ، (مترليوز) ، ومدافع كبيرة رجالا من من إخواننا السودانيين يكادون أن يكونوا عزلا من السلاح إلا بعض بنادق مهشمة لا قيمة حربية لها.

فهل ترضى هذه المقارنة أحدا ، من المنصفين ؟ .

لما قدم عبد الله بن عامر إلى البصرة ، وفقه الله إلى انتقاء قواده من أعظم القواد .

أولا ــ ولى عبيد الله بن معمر فارساً ، بعد أن كان والياً على خراسان ، فافتتحت جنود عبيد الله بلادا كثيرة ، حتى بلغت النهر .

ثانياً ــ عين عمير بن عثمان بن سعد ، على خراسان ، فافتتحت جنوده بلدانا كثيرة حتى بلغت فرغانة .

ثالثاً ــ ولى عبد الله بن عمير الليثى على سجستان ، فافتتحت جنوده كابل عاصمة الأفغان .

رابعاً ــ أرسل مجاشع بن مسعود السلمى لفتح كرمان ، فافتتحها وفتح بلدانا غيرها .

خامساً — أرسل الربيع بن زياد الحارثى وافتتح بلاداً كثيرة .

سادساً — أرسل عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس والياً على سجستان ، فافتتح (زرنج) و (الكشكش) بناحية الهند و (زابلستان) . هذا ما كان من أعمال قواده الستة الذين ذكرنا فتوحاتهم ، أما هو فما بلغه عصيان أهل فارس وثورتهم على عبيد الله بن معمر . وحربه إياها ، واستشهاده رضى الله عنه ، حتى سار بجيش كبير من البصرة ، وكان على مقدمة جيشه عثمان بن أبى العاص ، وعلى ميمنة الجيش أبو برزة الأسلمى ، وعلى ميسرة الجيش معقل بن يسار ، وعلى الفرسان عمران بن حصين ، فلقيه الثائرون بأصطخر ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفتح اصطخر .

وما كاد يفتتح بعدها (دارابجرد) و (مدينة جور) حتى ثارت ثورة ثانيه بأصطخر ، فحاصرها طويلا ، وافتتحها عنوة ، ففنى فيها أكثر البيوتات الفارسية ، لأنهم كانو لجأوا إليها . ولما عاد عبد الله بن عامر إلى البصرة ثارت أهار خراسان ، فأتاه الأحنف بن قيس وقال له : « أيها الأمير إن عدوك منك هارب ، ولك هائب ، والبلاد واسعة ، فسر فإن الله ناصرك ومعز دينه . فسار جنده إلى (نيسابور) ، وعلى مقدمة جيشه الأحنف بن قيس ، فافتتح (الطبسين) ، وهما قلعتان تحميان خراسان، فافتتحها عنوة ، وافتتح (نيسابور) بعد محاصرتها أشهراً . وأرسل ابن عامر جنده يضربون فى أقاصى البلاد ، وسار هو بجيش فافتتح (طوس) و (هراة) ، ثم افتتح الأحنف بن قيس (مرو) وكثيراً من بلدان التركستان الشرقى ، ثم افتتح (بلخ) وصالحت كثيرمن هذه البلدان عبد الله بن عامر على بعض المال بعد خضوعها له . فقد أخذ من (نيسابور) مليون درهم ، ومن (أبيور) أربعمائة ألف درهم ، ومن (طوس) ثلاثمائة

ألف درهم ، ومن (زرنج) مليونى درهم ، وأخذ من (قهستان) ستمائة ألف درهم .

ولما تم لابن عامر هذا الفتح العظيم ، قيل له : « ما فتح الله لأحد مثل ما فتح عليك » . فقال : « لأجعلن شكرى لله على أن أخرج محرماً من موقفى هذا » ، فأحرم من نيسابور ، وأدى فريضة الحج ، ثم زار الخليفة عثمان بالمدينة ، وأنفق كثيراً من المال على أهلها ، ثم لما قتل أمير المؤمنين عثمان ، كان عبد الله ابن عامر مقاتلا فى واقعة الجمل لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وما استتبت الخلافة لمعاوية حتى عين عبد الله بن عامر سنة ٤١ هـ والياً على البصرة وخراسان وسجستان . فولى عبد الله على خراسان قيس بن الهيثم السلمى ، وقد قامت بها ثورة فأطفأها وعادت إلى الطاعة . ثم ولى عبد الرحمن ابن سمرة على سجستان ، وكانت بها ثورة ، فأطفأها وأرجع إلى الطاعة (غزنة) و (كابل) .

وكان عبد الله بن عامر عالى الهمة ، جليل المـآثر ؛ محبا للعمران حتى انه عزم على أن يصل بين العراق والحجاز بالقرى العامرة والمياه ، لتذهب وحشة البادية ، من النفوس ، ويتمهد طريق القوافل ، فاحتفر ثلاثة أنهر: نهر البصرة الذى يخترقها ، والنهر المعروف إلى ذلك العهد بنهر أم عبد الله (وهى أمه) . ونهر الأبلة ، ثم غرس بقرب (البناج) كثيراً من الحدائق ، وفجر عيوناً كثيرة على طريق المدينة . وبنى قصراً بقرب (قباء) ، ثم بنى خياضاً بعرفة وأجرى إليها المـاء ، فازداد لذلك حب الأمة له حتى ان معاوية لما سأل قبيصة بن جابر: من ترى للخلافة بعدى؟ قال له قبيصة : وأما فتاها حباً وحلماً وسخاء فابن عامر ـ فخشى منه معاوية ـ فيما زعم الرواة ـ ثم استدعاه إليه وأكرمه إكراما عظيما ، وبعد أيام قال معاوية: ياعبد الله بن عامر ، إنى أسألك ثلاثاً ، فقال: هى لك ، وأنا ابن أم حكيم

(يعنى جدته أم حكيم عمة النبى صلى الله عليه وسلم) . فقال معاوية . ترد على على (أى ولاية البصرة) ولا تغضب . قال قد فعلت ، قال : وتهب لى مالك بعرفة . قال : قد فعلت . قال : وتهب لى دورك بمكة . قال : قد فعلت . قال معاوية : وصلتك رحم . فقال ابن عامر : وإنى سائلك يا أمير المؤمنين ثلاثاً ، فقل قد فعلت . قال معاوية : قد فعلت وأنا ابن هند ، قال : ترد إلى مالى بعرفة . قال رددت إليك مالك يعرفه . قال : وتزوجنى ابنتك هند . قال : قد فعلت . قال ولاتحاسب لى عاملا ، ولا تتبع أثرى. قال : قد فعلت . وفرح معاوية بمصاهرته ابن عامر ، لأنه كان يريد أن يكون تحت نظاره خوفاً من أن يتطلع للخلافة ، وأخباره فى الجود كثيرة . وقد توفى عبد الله بن عامر عن كثير من المال والولد سنة ٥٧ هـ ودفن فى الطائف بعد أن أتى هذه الأعمال العظيمة فى نصرة الإسلام ودولته فرضى الله تعالى عنه.

بطل اليرموك

خالد بن الوليد

خالد بن الوليد بن المغيرة ، بن عبد الله ، بن مخزوم ، بن يقظة ، بن مره ، أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمه لبابة الكبرى ، بنت الحارث بن حزن الهلالية ، وهى أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبى ، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم .

كان خالد بن الوليد فى الجاهلية أحد أشراف قريش ، وكانت إليه القبة (كانوا يضربونها ويجمعون فيها ما يجهزون به الجيش) ، وكانت إليه أعنة الخيل (أى كان خالد المقدم على خيول قريش فى الحرب) .

أسلم خالد فى السنة السابعة للهجرة ، فأعز الله الإسلام به ، فهو البطل

المشهور والفارس المأثور ، صاحب الفتوحات العظيمة ، لقبه النبى صلى الله عليه وسلم بسيف الله ، وقل أن يوجد قائد فى العالم وفق إلى النصر فى كل الوقائع كما وفق خالد بن الوليد ، فإن التاريخ لم ينبئنا بخذلانه ولا فى واقعة واحدة ، وذلك لأنه كان عظيم الحزم ، دائم اليقظة كثير المراقبة لحركات العدو حسن التدبير .

أعماله فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم

١ — شهد خالد غزوة مؤتة (وهى بالبلقاء بمشارف الشام) وكان أمير الجند زيد بن حارثة ، فقاتل المسلمون الروم بمؤتة قتالا شديداً وقتل زيد بن حارثة ، فتولى القيادة بعده جعفر بن أبى طالب فاستشهد أيضاً ، ثم تولى بعده القيادة عبد الله بن رواحة فقتل أيضاً فتولى إمارة الجند بعد استشهادهم رضوان الله عليهم ، خالد بن الوليد ، فقاتل الروم قتالا شديداً حتى اندق فى يده تسعة أسياف ، ثم مازال يدافع القوم حتى انحازوا عنهم ، ثم عاد بجيش المسلمين . وفى هذه الغزوة سماه رسول الله سيفاً من سيوف الله ؛ وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المدينة أوحى إليه بمن قتل من الأمراء ، فصعد يومئذ إلى المنبر وأعلم بقتل زيد وجعفر وابن رواحة وقال : (ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله : خالد بن الوليد ، وفتح الله عليه) ، سمى خالدا سيف الله . وكان خالد من حين أسلم يوليه رسول الله أعنة الخيل فيكون فى مقدمتها .

٢ — وشهد مع النبى صلى الله عليه وسلم فتح مكة من مكان يسمى الليط ، ومعه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب ، وهو أول يوم

أمر فيه رسول الله خالدبن الوليد ، فقاتل خالد عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان ابن أمية ، وسهل بن عمرو ومن معهم من بنى بكر وبنى الحـــارث بن عبد مناف ، وهزمهم بعد أن قتل منهم ثلاثة عشر رجلا .

٣ ــ أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة داعياً بنى جذيمة للاسلام، لامقاتلا ، فقاتلهم لأن صفات الجندية ، التى يلازمها فى الغالب خشونة الطبع ، كانت متمكنة من نفس خالد ولكن غير الإسلام بعد كثيراً من طباعه فلم تبد منه هذه الشدة فى حروبه للفرس والروم .

ولما انتهى خبر ما فعله خالد ببنى جذيمة إلى النبى صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء فقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » ثم أرسل علياً ومعه مال فودى لهم الدماء والأموال . ثم جاء خالد إلى النبى واعتذر [1] .

٤ ــ بعثه رسول صلى الله عليه وسلم إلى بطن نخلة ، وكان هناك هيكل الصنم الذى كانت تعظمه قريش وكنانة ومضر وهو العزى وكان كهان هـذا الهيكل بنو شيبان ، فهدم خالد العزى والهيكل وقال :

ياعز كفرانك لاسبحـانك إنى رأيت الله قـد أهانك

٥ ــ وكان خالد قائداً لبنى سليم فى واقعـة حنين ، فجرح خالد فعـاده رسول الله عليه وسلم . ونفث فى جرحه فبرىء .

٦ ــ وأرسل النبى خالداً إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومـة الجندل ، فأسره وأحضره عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحه على الجزية ورده إلى بلده .

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم فى سنة عشر هجرية خالداً إلى بنى

---

(١) فصلنا ذلك فى كتاب « ظهور الإسلام » فليراجع .

الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ، فإن أجابوا يقيم فيهم ويعلمهم شرائع الإسلام ، وإن أبوا يقاتلهم فخرج خالد حتى قدم عليهم وبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون الناس إلى الإسلام فأسلم الناس ، وأقام بينهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ، ثم عاد بوفد منهم إلى النبى (ص)، ولم يزل خالد مدة صحبته يجاهد بين يدى النبي ويحرص على رضائه .

أعمال خالد بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم

١ — أرسل أبو بكر رضى الله تعالى عنه خالداً بجيش لمقاتلة طليحة بن خويلد ومالك بن نويرة ، لادعاء أولهم النبوة ، ولامتناع ثانيهم عن أداء الزكاة ، فانتصر خالد على طليحة بن خويلد ومن معه من بنى فزارة ، ثم هرب طليحة إلى الشام ، ثم تاب وعاد إلى الإسلام فى خلافة عمر ، وشهد موقعة نهاوند ، وكان طليحة من الشجعان المشهورين ، واستشهد فى تلك الموقعة، ثم بعد ذلك سار خالد إلى البطاح فانتصر على مالك بن نويرة وقتله وتزوج امرأته أم تميم . وكان مالك قد أسلم ، فطلب عمر بن الخطاب من أبى بكر أن يعاقب خالدا ، فقال أبو بكر : ياعمر تأول خالد فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ، فإنى لاأشيم سيفاً سله الله على الكافرين ، ودخل خالد على أبى بكر فاعتذر ، فقبل الخليفة عذره وودى مالكا من بيت مال المسلمين .

٢ — أرسل أبو بكر خالد بن الوليد إلى حرب مسيلمة الكذاب باليمامة ، وكان مع مسيلمة بنو حنيفة ، وكان عددهم ٦٠ ألف مقاتل ، وكانوا قد انتصروا على عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة ، فنشبت الحرب بين جند المسلمين

وجند مسيلمة الكذاب ، واشتد القتال ولم يلق المسلمون حرباً مثلها قط ، فلما رأى خالد كثرة عدوه ، وخاف من هزيمة جنده ، أمر بأن تمتاز قبائل جيشه بعضها عن بعض فتستحى كل قبيلة منهم الفرار ، فلما امتازت قبائل جيش خالد قاتلت قتالا شديداً ، وتم انتصار خالد وجنده على مسيلمة ومن تبعه من بنى حنيفة وقتل مسيلمة الكذاب .

فتوحات خالد بن الوليد

أمر أبو بكر خالد بن الوليد أن يسير إلى فتح العراق فى المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة ، فانتصر خالد فى واقعة الحفير على الفرس (الحفير قرب خليج البصرة) ، وبارز هرمز صاحب الحفير واحتضنه ثم قتله ، وأخذ سلبه وقلنسوته ، ثم انتصر على الفرس فى عدة وقائع ، وهى واقعة الثنى والولجة والّيس (على الفرات) وبرقلى ثم فتح الحيرة عاصمة العراق ، ثم فتح الأنبار وعين التمر ودومة الجندل ، ومزق صفوف الفرس ومن معهم ، وخضعت كل هذه البلدان إلى دولة الإسلام ، وكان من أبطال جند خالد بن الوليد المثنى بن حلوثة الشيبانى وبشير بن سعد الأنصارى ، وحنظلة بن الربيع التميمى ، وجرير بن عبد الله البجلى ، والنسير بن دسيم بن ثور ، وضرار بن الخطاب ، وهزار بن الأزور ، والقعقاع بن عمرو ، وعتبة بن النهاس ، وغيرهم من أهل البأس ، والأربعة الأخيرون كانوا من أمراء الثغور .

جهز أبو بكر لفتح الشام أربعة جيوش جعل على أحدها عمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، وعلى الثانى شرحبيل بن حسنة ، ووجهته الأردن ، وعلى

الثالث يزيد بن أبى سفيان ، ووجهته البلقاء ، وعلى الرابع أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح ، ووجهته حمص ، وساروا جميعاً على بركة الله وقد ودعهم أبو بكر ماشياً وأوصاهم بما فيه صلاحهم ، فظلت الجيوش سائرة حتى نزلت حدود الشام ، ولـكن الروم جمعت جموعا كثيرة من الجند لملاقاة الجنود الإسلامية فأشار عمرو بن العاص على أمراء جنود المسلمين أن يجتمعوا بجنودهم باليرموك وكل واحد يبقى أميرا على جيشه ، وكان موقف الرومان باليرموك هكذا : نهر اليرموك على يمينهم وخلفهم ، ووادى الواقوصة على شمالهم (وهو وادى عميق) وقد حفروا خندقا أمامهم يحجز بينهم وبين جند المسلمين ، ووقفت الرومان والعرب هذا الموقف ثلاثة أشهر ؛ صفر والربيعين من السنة الثالثة عشرة هجرية فأرسل أمراء المسلمين إلى أبى بكر يستمدونه .

فـكتب إلى خالد بن الوليد أن يسير بنصف جنده لنجدة المسلمين باليرموك ويستخلف على نصف جنده الآخر المثنى بن حارثة الشيبانى ، فأطاع خالد أمر الخليفة ، وقال للمثنى بن حارثة ، (ارجع رحمك الله إلى سلطانك غير مقصر ولا وان) وكان المثنى غير كفء لحرب الفرس بعد خالد بن الوليد .

سار خالد فى ربيع الأول سنة ١٣ هجرية من الحيرة بنصف جنده ، وعدده تسعة آلاف مقاتل ، ينسف الأرض نسفاً حتى وصل إلى اليرموك فى ربيع الآخر وكان وهو عائد من الحيرة إلى اليرموك يفتح البلدان التى يمر عليها حتى افتتح بصرى من بلاد حوران ، وعند وصول خالد بن الوليد وجنده الظافر إلى اليرموك ، اكتمل عدد جنده مع جنود المسلمين الذين كانوا هناك ٣٦ ألف مقاتل ، ولـكن خالداً رأى كلا من أمراء الجيوش الأربعة التى كانت هناك يأبى التنازل عن إمارته ، وعلم أن حال جنود المسلمين مع هذا الإختلاف وهم

٣٦ ألف مقاتل أمام ٢٠٠ ألف مقاتل من جنود الرومان لايبشر بالنصر ، فجمع الأمراء وخطبهم . قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : (إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه البغى ولا الفخر ، أخلصوا جهادكم ، وأرضوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له مابعده ، ولاتقاتلوا قوما على نظام وتعبئة ، وأنتم غير متساندين فإن هذا لايحل ولا ينبغى) قالوا : فما الرأى ؟ فقال يؤمر على الجيش كله أمير واحد ، ويتعاونون الإمارة حتى يؤمروا كلهم ، وأن يؤمر هو فى اليوم الأول . فقبلوا مشورته .

خرج خالد فى تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك ، فجعل جيشه ٣٦ فرقة ، كل فرقة ألف رجل ، عليها قائد من الشجعان ، وجعل على فرق القلب أبا عبيدة ، وجعل على فرق الميمنة عمرو وشرحبيل ، وجعل على فرق الميسرة يزيد ، ثم انتشب القتال وتطارد الفرسان وأظهر خالد من الشجاعة والحمية الإسلامية ما أدهش العقول ، وحال خالد بين خيل المشركين ورجالتهم ، فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة (البيادة) فأفسح المسلمون لفرسان الرومان طريق الهرب ، واشتدوا على رجالة الروم فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً .

وانتهت هذه الواقعة بهزيمة الرومان شر هزيمة ، وكان من يريد الهرب من الرومان يقع فى وادى الواقوصة قتيلا أو فى النهر غريقا ، وكانت الرومان بقيادة تيودور أخى هرقل امبراطور الرومان ، وكان هرقل وقتئذ بأورشليم ، فعندما علم بانكسار جنوده فى اليرموك فر إلى حمص ، ثم هرب إلى أورفا ، ثم رحل عن سورية سنة ١٦ هـ بعد أن وقعت جميع الأنحاء السورية بيد العرب ، وقال قبل ركوبه البحر وهو واقف على إحدى الصخور : عليك السلام ياسورية ، سلاما لااجتماع بعده .

كانت واقعة اليرموك هذه سبباً فى إبادة الرومان من الشرق بل سبباً فى فتح الشام ومصر .

وكنت أتمنى أن أكون شاعراً مجيداً حتى يمكننى أن أصف واقعة اليرموك هذه بل وأنشد أنشودة حربية خاصة بها تحفظها الشبيبة من الأمة ينشدونها فتملأ قلوبهم جرأة وإقداماً ، وحباً للمجد ومعالى الأمور .

كنت أرجو أن أكون مصوراً ماهراً لأصف موقف الرومان فى واقعة اليرموك ، وعددهم مائتا ألف مقاتل ، وعليهم الدروع السابغة ، وعلى رءوسهم الخوذ اللامعة ، وبأيديهم الأسلحة المتنوعة ، وهم الطوال القامة ، الشديدو العضل أولئك الرومان أولو البأس الذين اكتسحوا أوربا كلها ، وشمال أفريقيا ، وتوغلوا فى آسيا ، وكأنى أسمع صليل سيوفهم ودروعهم وجلبتهم وضوضا هم بينما المسلمون أمامهم لايزيدون عن ستة وثلاثين ألفاً من المجاهدين لكن قلوبهم قد ملئت إيماناً وجرأة واعتقاداً بالنصر الذى وعدهم الله عز وجل إياه ، لايرهبون موتاً ، ولايخافون عدواً مهما كثر عديده ، يعتقدون أن أجسامهم ليست إلا ثيابا لأرواحهم الطاهرة التى عاهدوا الله تعالى أن تعيش فى الدنيا كريمة عزيزة ، أو تنتقل إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، فجدير بكل مسلم أن تتملك عواطفه الأحزان ، إذا ما أراد أن يوازن بين حال المسلمين يومئذ وحالهم اليوم ، فاللهم ابعث للمسلمين رجالا يهدونهم إلى العمل على إعادة مجدهم التليد ، وعزهم الأثيل ، آمين .

ولما انتهت موقعة اليرموك ، سار خالد بجنود المسلمين حتى حاصر دمشق وفى أثناء حصارها جاء البريد من المدينة بنعى أبى بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وتوسيد عمر لأبى عبيدة إمارة الجيش وعزله خالد بن الوليد ، فكتم ذلك أبو عبيدة

حتى تم فتح دمشق ، وكان لخالد فى فتح دمشق الأثر المحمود ، ومن أحسن مايروى عن خالد أن بعضهم قال له: كيف تجد فى فتح بلدان الشام والفتح منسوب لأبى عبيدة لالك وقد صنع عمر بك ذلك ، فقال : إنما أفتح الشام لله لالعمر ثم قال : لا أبالى أن يقال الفاتح أبو عبيدة أم خالد ، إنما يهمنى فتح الشام ، وقد فتحت) .

ثم أرسل أبو عبيدة خالداً لفتح قنسرين التابعة لولاية حلب ففتحها ، ولما انتهى الخبر بذلك إلى عمر بن الخطاب قال : « قد أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر ، هو كان أعلم بالرجال منى ثم استدعاه إلى المدينة فعاتبه خالد ؛ فقال له عمر : « ما عزلتك لريبة فيك، ولـكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس وتوفى خالد فى خلافة عمر سنة ٢٣ هـ بحمص وقبره على نحو ميل منها ، وقال خالد فى مرضه الذى مات به : « قد دق فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، وقد شهدت مائة زحف(حرب) أو نحوها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وبه ضربة أو طعنة ، أو رمية وها أنا أموت على فراشى فلا نامت أعين الجبناء ، ومالى من عمل أرجى من لا إله إلا الله ، وأنا متترس بها » .

وحزن عليه عمر والمسلمون حزنا شديدا وكان قد وقف فرسه وسلاحه فى سبيل الله ، ولما مات خالد لم تبق امرأة من بنى المغيرة إلا حلقت رأسها ووضعت شعرها على قبره ، فرضى الله تعالى عنه » .

أمين الأمة وبطل فتوح الشام

أبو عبيدة بن الجراح

أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ينتهى نسبه إلى النضر بن كنانة وهم آخر بطون قريش ، ولد بعـــد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم باثنتى

عشرة سنة (سنة ٥٨٣) وتوفى بعمواس سنة ثمانى عشرة هجرية وعمره ثمان وخمسون سنة ، وكان فى الجاهلية معروفا بالرأى والدهاء حتى قيل (داهيتاقريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح) وهو من السابقين إلى الإسلام ، أسلم قبل دخول ، رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم وكان رضى الله عنه قوياً فى دينه متفانياً فى حب نبيه ، قال أنس :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامعناه «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » شهد بدراً وأحداً ، والمشاهد كلها مع رسول الله وهاجر إلى الحبشة وإلى المدينة ، وفى واقعة بدر كان أبوه (وهو من المشركين) يتصدى له ، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر أبوه قصده قتله أبو عبيدة ، فأنزل الله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبناءهم . . الآية) وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وقال عمر بن الخطاب يوماً لجلسائه تمنوا ، فتمنوا ، فقال عمر بن الخطاب : لكنى أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح . ولما ولى عمر بن الخطاب أبا عبيدة إمارة جند الشام بعد عزله خالد بن الوليد ، قال أبو عبيدة : سمعت رسول الله يقول : إن خالداً لسيف من سيوف الله ، فقال خالد بن الوليد : ولى عليكم أمين هذه الأمة .

فتوحات أبى عبيدة

فتح أبو عبيدة دمشق بعد حصار دام سبعين ليلة ، ودخلها من أحد جانبيها صلحاً ، ودخلها خالد بن الوليد من الجانب الثانى عنوة ، فاستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبى سفيان ، ثم سار إلى فحل من أرض الأردن ، وهزم هناك جيوش الروم ، وأتى بيسان وطبرية وحاصرهما فصالحا على صلح دمشق ، وسار إلى حمص عن طريق بعلبك ، وقدم اليها السمط بن الأسود الكندى ، وقدم

خالد الى البقاع ؛ ونزل أهل بعلبك إلى أبى عبيدة فصالحوه ؛ ثم افتتح حمص ثم سار الى حماة فصالحه أهلها ثم افتتح حلب وحاصر أنطاكيا وفتحها صلحاً ثم سير جيوشه تضرب فى الشمال والشرق حتى أتمت فتح سوريا،وبلغت الفرات شرقاً ، وآسيا الصغرى شمالا ، وبسط على أهل سورية جناح الرأفة والعدل ، وعاملهم بما اشتهر عنه من الرفق حتى بات سلطان المسلمين أحب إليهم من سلطان الروم ، فكانوا عوناً لهم على الفتح ، ولما قدم عمر بن الخطاب الشام تلقاه أمراء الأجناد فقال عمر : أين أخى أبوعبيدة ؟؟ قالوا : يأتيك الآن . فجاء أبوعبيدة على فرس مخطومة بحبل ، فسلم عليه ، ثم قال عمر للناس : انصرفوا عنا . فسار معه حتى أتى منزله ، فلم ير فى بيته إلا سيفه وترسه وبعض كسيرات من الخبز . فقال عمر : لو اتخذت متاعا . قال ابو عبيدة : يا أمير المؤمنين إن هذا سيبلغنا المقيل . فبكى عمر .

وقد وفق الله أباعبيدة فى اختيار عماله من ذوى الهمة ، وبعضهم من يحاكونه فى زهده وورعه ، فإنه لما قدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حمص أمرهم أن يكتبوا له فقراءهم ، فرفع الكتاب فإذا فيه سعيد بن عامر ، قال : من سعيد ابن عامر ؟ قالوا . يا أمير المؤمنين أميرنا ، قالوا: أميركم فقير ؟ ! قالوا نعم ؟ ! فعجب وقال : كيف يكون أميركم فقيراً ؟ ! أين عطاؤه ؟ أين رزقه، قالوا يا أمير المؤمنين لايمسك شيئا . فبكى عمر ، ثم عمد إلى ألف دينار فصرها وبعث بها إليه ، وقال : أقرئوه منى السلام ، وقولوا له بعث بها إليك أمير المؤمنين فاستعن بها، فلما نظر سعيد الدنانير جعل يقول (إنا لله وإنا إليه راجعون)فقالت له امرأته ما شأنك ؟ أأصيب أمير المؤمنين ؟ قال أعظم ؟! ؛ قالت : فظهر آية ؟ قال أعظم من ذلك ! ، قالت : فما شأنك ؟ ، قال الدنيا أتتنى ــ الفتنة أتتنى ، دخلت على. فقالت : فاصنع فيها ما شئت فبات يصلى طول ليلته حتى أصبح ، فاعترض جيشاً

من جيوش المسلمين ففرق هذه الدنانير عليهم ، ورجع فرحـــاً ، فرضى الله عنه .

ومات أبو عبيدة بن الجراح الفاتح العظيم أمين الأمة فى طاعون عمواس سنة ١٨ هجرية ، بعد أن استخلف معاذ بن جبل فرضوان الله عليهم أجمعين .

بطل بابليون وفتح مصر

الزبير بن العوام

الزبير بن العوام بن خويلد ، بن أسد ، بن عبد العزى ، بن قصى احد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله وابن أخ خديجة أم المؤمنين زوج النبى ، ولد بعد ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم بإثنين وعشرين عاما (٥٩٣ م) ، وقتل رضى الله عنه فى يوم الخميس ١٠ جمادى الأولى سنة ٣٦ ﻫ وعمره ست وستون سنة . وأسلم وعمره ست عشر سنة ، وكان خامس من أسلم . وكان أسمر ، ربعة ، خفيف اللحية ، وقال على بن أبى طالب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لـكل نبى حوارى ، وحواريى الزبير ابن العوام » وهو أول من سل سيفاً فى الله عز وجل . وكان سبب ذلك أن المسلمين لما كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، وقع الخبر أن النبى قد أخذه الـكفار ، فأقبل الزبير يشق الناس بسيفه ، والنبى صلى الله عليه وسلم بأعلى ، مكة ، فقال له : مالك يازبير ؟ قال : أخبرت أنك أخذت ، فصلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا له ولسيفه ، وعن عبد الله بن الزبير بن العوام عن أبيه قال : لما نزلت (ثم لتسألُنَّ يومئذٍ عن النَّعيم) قال الزبير : يارسول الله وأى النَّعيم نسأل عنه ؟ وإنما هما الأسودان التمر والماء . قال رسول الله : « أما أنه سيكون » . فـكان للزبير بعد ذلك ألف مملوك ، وبلغت ثروته نصف مليون.

من الدنانير ، وبنى الزبير بن العوام قصراً له بالبصرة ، وقصراً بمصر ، وقصراً بالإسكندرية ، وقصراً بالكوفة ، وكانت أغلب ثروته من ربحه فى التجارة .

كان رضى الله عنه بطلا عظيما شهد المشاهد كلها مع رسول الله، ولما استعصى على عمرو بن العاص وجنده فتح حصن بابليون (وهو الحصن الذى بناه الفرس أيام تملكهم لمصر على الضفة الشرقية من النيل قرب الكنيسة المعلقة فى مصر القديمة) استنجد أمير المؤمنين عمر أن يمده بجيش، فأمده بجيش عدده ١٢ ألف مقاتل بقيادة البطل العظيم الزبير بن العوام ، ولما جاء الزبير بن العوام وجنده إلى مصر استقبله عمرو بن العاص ، فطاف الزبير بالخندق الذى حول حصن بابليون ، وكان الزبير رضى الله عنه من الذين لا يرهبون الموت ، فقال إنى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين ، فوضع سلماً على جانب الحصن، ثم صعد فأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ، ومعه السيف ، وتحامل الناس على السلم ، وكبر الزبير فكبرت الناس معه، وأجابهم المسلمون من الخارج، فأوهم عمل الزبير بن العوام الروم أن العرب قد اقتحموهم، فهربوا إلى الجزيرة (جزيرة الروضة) على مراكب أعدوها لذلك ، وعهد الزبير إلى باب حصن بابليون مع بعض جنده ففتحوه واستولوا على الحصن ، وكانت شجاعة الزبير بن العوام واستيلاؤه على حصن بابليون المنيع سبباً فى الاستيلاء على الديار المصرية كلها .

القائد والسياسى الداهية

المغيرة بن شعبة

ترجمته : هو المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود الثقفى، أبو عيسى ، وأبو محمد؛ وأبو عبد الله كان ضخم القامة ، عبل الذراعين ، بعيد ما بين المنكبين

أصهب الشعر جعده ؛ وكان لا يفرق شعره أسلم قبل عمرة الحديبية ، وشهدها ، وشهد بيعة الرضوان ، وله فيها ذكر ، وحديث عن النبى صلى عليه وسلم ، وكان صحابياً جليلا ، ومحدثاً أميناً ، وسياسياً بارعاً . يقول ابن سعد : كان يقال له مغيرة الرأى ، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق ، وقد ذكرنا فى القسم الاول من عصر الراشدين ، ماسفر به إلى يزدجرد ، فى خلافة عمر ، وكيف أفزع الامبراطورية الفارسية قبيل القادسية . يقول الشعبى ، كان المغيرة من دهاة العرب ، وقال قبيصة بن جابر : صحبت المغيرة ، فلو أن المدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر ، لخرج المغيرة من أبوابها كلها ، وولاه عمر البصرة ففتح ميسان وهمذان وعدة بلاد إلى أن عزله لما شهد عليه أبو بكرة ومن معه وقال البغوى ، كان أول من وضع ديوان البصرة ؛ وقال ابن حبان كان أول من سلم عليه بالامرة ثم ولاه عمر الكوفة ، وأقره عثمان ، ثم عزله ، فلما قتل عثمان ، اعتزل الفتنة ، إلى أن حضر مع الحكمين ، ثم بايع معاوية بعد أن اجتمع عليه الناس [1] . ويقول ابن الأثير ان دهاة العرب فى ذلك العصر كانوا خمسة ، عمرو بن العاص ، وقيس بن سعد ، وعبد الله بن بديل الخزاعى ، ومعاوية والمغيرة ، وقد ظل المغيرة معتزلا بالطائف منذ عزله عثمان ، حتى تنازل الحسن بن على فى سنة ٤١ هـ .

أمثلة من دهائه :

فى سنة ٤٠ هـ وبعد أن قتل على بن أبى طالب ، واشتبك الحسن مع معاوية فى نضال عنيف ، وأوشك الأمر أن يوسد إلى معاوية ، قام المغيرة ، وأم الناس فى الحج ، مع أنه لما يزل معتزلا عن النزاع وليس أميراً على إقليم من الأقاليم ، ولذلك يروى ابن الأثير انه افتعل كتابا على لسان معاوية وأنه عرف يوم التروية ، ونحر يوم عرفة خوفاً من أن يفطن لفعله ، وقيل فعل ذلك لأنه بلغه

(١) الإصابة جـ ٦ ص ١٣٢

أن عتبة بن أبى سفيان قد أوشك أن يصبح واليا على الموسم ، ومعنى هذا أن المغيرة قد رشح نفسه لإمارة المؤمنين إذ انقسم المسلمون إلى فريقين يتقاتلان على الخلافة ، وأضحى أمر الأمة بدون خليفة يلتف الناس من حوله(١) .

أما القصة الثانية التى تكشف عن دهاء الرجل ، فقد ساقها ابن حجر (٢) فيما يلى :

استعمل عمر للمغيرة على البحرين ، فكرهوه وشكوا منه ، فعزله ، فخافوا أن يعيده عليهم فجمعوا مائة ألف، فأحضرها الدهقان إلى عمر ، فقال : إن المغيرة اختان هذه فأودعها عندى ، فسأله عمر ، فقال : كذب . إنما كانت مائتى ألف. فقال : وما حملك على ذلك . قال : كثرة العيال ، فسقط فى يد الدهقان ، فحلف وأكد الإيمان ، أنه لم يودع عنده قليلا ولا كثيراً ، فقال عمر للمغيرة، ماحملك على هذا . قال : انه افترى على ، فأردت أن أخزيه .

ومن القصص المرحة التى تروى عن المغيرة أيضاً أنه قال : كنت آتى فأجلس على باب عمر أنتظر الإذن على عمر ، فقلت ليرفأ حاجب عمر : خذ هذه العمامة فالبسها ، فإن عندى أختها ، فكان يأذن لى أن أقعد من داخل الباب ، فمن رآنى قال انه ليدخل على عمر فى ساعة لا يدخل غيره .

لقد كان المغيرة بن شعبة ذا شأن فى الأمة الإسلامية ، قبل أن يعمل إلى جانب معاوية بن أبى سفيان ، يقول الطبرى : انه كان مع أبى سفيان فى هدم طاغية ثقيف بالطائف وبعثه أبو بكر إلى أهل الحيرة، وأصيبت عينه يوم اليرموك، كما كان رسول سعد بن أبى وقاص إلى رستم، ورسول النعمان إلى أمير الفرس،

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٢٠٧ .

(٢) نفس المصدر السابق .

ويقول بروكلمان[1] . لقد اضطر المغيرة فى شبابه إلى مغادرة مسقط رأسه الطائف بسبب من جريمة قتل ، ثم وفد على النبى (ص) فى المدينة ثم إنه حطم صنم آلهة البلدة بأمر من النبى (ص) وأظهر من التقوى ما جعله فى جملة الصحابة ، ولقد أدى أثناء الحروب ضد الامبراطورية الساسانية خدمات ديبلوماسية عديدة ، عن طريق معرفته باللسان الفارسى. من أجل ذلك كافأه عمر بالإمارة على البحرين. ليعهد إليه بعد ذلك بعمل أعظم خطراً ، أعنى الإمارة على البصرة ، ولكنه عزل بعد ذلك ، ولكنه لمع نجمه من جديد بفضل الحروب الأهلية التى أظهر فيها حكمة وكياساً ، فلما ولى الكوفة جعل من همه أن يفسد بدهاء بارع ، بين الخوارج والشيعة وبذلك استطاع أن يشغل الكوفيين عن معارضة الأمويين معارضة فعالة على الرغم من أنهم لم يكونوا يكنون كراهيتهم لأهل الشام .

هذا وقد مات المغيرة بن شعبة فى سنة ٥٠ فى أرجح الروايات ، وقيل فى سنة ٤٩ ، وقيل فى سنة ٥١ وقد كان المغيرة من فضلاء المسلمين رغم كل ماحيك حوله من أقاصيص .

المغيرة أمير الكوفة

أبنا فيما سبق ، كيف التقى معاوية بالمغيرة ، وكيف توافق الرجلان على نظام الحكم فى الكوفة والخطة التى يتبعها المغيرة مع أهلها من شيعة وأمويين ، وأشرنا إلى معاملة المغيرة لغلاة المتشيعة من أمثال حجر بن عدى ، وكيف انه اتسع صدره لمهاتراتهم التى لاتكاد تنتهى عند حد ، ومع هذا فقد ظل يلتزم موقف النصيحة المجردة .

والآن نضع أمامكم موجزاً مناسباً لطريقة الإدارة التى سلكها المغيرة فى

---

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية حـ١ ص ١٤٥ — ١٤٦ .

الكوفة وكيف انها كانت من ذلك النوع الرفيع الذى امتاز به هذا الرجل ولم يستطع محاكاته فيه أى وال من بعده . يقول المؤرخون : انسياسة المغيرة كانت أرفق وألين من أى سياسة أخرى ، فقد أحسن إلى الناس ، ولم يفتش أهل الأهواء والفتن عن أهوائهم ، وكان إذا ذكر له عن أى شخص أنه يرى رأى الشيعة أو الخوارج يقول :

قضى الله أن لايزالوا مختلفين ، وسيقضى الله بين عباده فيما اختلفوا فيه ، وبهذا أحسن أهل الكوفة جانبه ، واطمأنوا الى إدارته ، لولا أن الخوارج والشيعة كانت تساورهم الهواجس من جهة الأمويين ، فأما الشيعة ؛ فقد استطاع المغيرة أن يداريهم . وأن يتسع صدره لمثل الرجل الجامح منهم وهو حجر بن عدى ، فلم يشرعوا فى فتنة مسلحة تلجىء الوالى إلى الخروج عن طبعه . أما الخوارج فانهم لم يمكنهم أن يتخلوا عن جبلتهم فى إحداث القلاقل والاضطرابات . فاجتمع جماعة منهم إلى ثلاثة من زعمائهم ، وهم المستورد بن علفة التميمى ، وحيان بن ظبيان . ومعاذ بن جوين الطائى ، فولوا قيادتهم بعد الشورى ، المستورد بن علفة ، وخرجوا إلى دار حيان بن ظبيان ، واجتمعوا فى عددهم وعدتهم ، ولكن رئيس شرطة الكوفة ، أبلغ المغيرة بما حدث ، فأصدر إليه أمراً بالقبض عليهم وإحضارهم إليه ، فلما حضروا سألهم المغيرة عما حملهم على الفتنة ، فزعموا أنهم لم يفكروا فى الخروج ، وإنما جاءوا إلى منزل ابن ظبيان لكى يقرأوا القرآن عليه ، بحسبانه اقرأهم للكتاب ، ولكن المغيرة أمر بهم إلى السجن ، فلم يزالوا فيه حوالى سنة ، وقد سمع إخوانهم بما حدث ، فأخذوا يتجهزون للخروج مرة أخرى بيد أن المغيرة علم بحالهم ، فجمع أهل الكوفة وخطبهم ، فقال :

أما بعد فقد علمتم أيها الناس ؛ أنى لم أزل أحب لجماعتكم العافية ، وأكف عنكم الأذى ، والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهائكم ، فأما الحلماء

الأتقياء فلا وايم الله، لقد خشيت أن لا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقى بذنب السفيه الجاهل، فكفوا أيها الناس سفهاءكم؛ قبل أن يشمل البلاء عوامكم؛ وقد ذكر لى أن رجالا يريدون أن يظهروا فى المصر بالشقاق والخلاف، وايم الله لايخرجون فى حى من أحياء العرب فى هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم فلينظر قوم لأنفسهم قبل الندم؛ فقد قمت هذا المقام . إرادة الحجة والأعذار .

هذا وقد استطاع المغيرة أن يضبط ولايته؛ بمثل هذه السياسة الرفيعة؛ كما أنه لم يتهاون مع الخوارج؛ بل وضعهم تحت المراقبة؛ وفرض عليهم قيوداً شديدة حتى أمكنه القضاء على شوكتهم فضمن رؤساء العشائر والقبائل من قبلهم من أفرادها، وذلك بعد أن هددهم المغيرة قائلا : ليكفنى كل امرىء من الرؤساء قومه: وإلا فو الذى لا إله غيره؛ لأتحولن عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون؛ وعما تحبون إلى ما تكرهون؛ فلا يلومن امرؤ إلا نفسه، وقد أعذر من أنذر؛ وقد خرجت الرؤساء إلى عشائرهم؛ فناشدوهم الله والإسلام؛ إلا دلوهم على من يريد أن يهيج فتنة أو يفارق جماعة . . وبهذا الأسلوب الرفيع فى الحكم استطاع المغيرة أن يقضى على الفتن فى العراق، ونجتزىء بهذا عن المغيرة لنوجز جملة عن قيس بن سعد؛ حتى تكمل لكم الصورة عن رؤوس الشيعة الذين كانوا عصب القوى العلوية؛ ثم لانت عريكتهم لمعاوية؛ واندمجوا فى دولته حتى أصبحوا دعائم إيجابية فى نهوض الأمة؛ واستقرارها؛ وذلك بفضل سياسة معاوية ودهائه؛ ومرونته؛ وكياسته .

القائد والسياسى العظيم
قيس بن سعد

هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى؛ ويكنى أبا الفضل

وأبا عبد الله ؛ وأبا عبد الملك وقيل ان كنيته أبو القاسم ؛ وأمه بنت عم أبيه. واسمها فكيهة بنت عبيد الأنصارية وكان سعد ضخما حسنا طويلا ؛ كما كان سخيا كريما ، وكان من دهاة العرب الخمسة فى عصره — كما أسلفنا — يقول البغوى : كان قيس حامل راية الأنصار مع رسول الله ﷺ وكان من ذوى الرأى . وقد شهد فتح مصر واختط بها داراً ؛ وروى أنه كان يقول : اللهم ارزقنى مالا ؛ فانه لايصلح الفعال إلا المال ؛ ويقال انه كان لاينبت فى وجهه شعر ؛ حتى قالت الأنصار . وددنا أن نشترى لقيس بن سعد لحية بأموالنا ؛ ومع هذا ، فقد كان قيس بن سعد من النبى (ص) بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير ؛ وقد خدم رسول الله (ص) حوالى عشر سنين وقد عرف قيس بالشجاعة ، والنجدة ، والفروسية ، والمكيدة فى الحرب ، كما كان شريف قومه .

شارك قيس فى معظم غزوات الرسول (ص) وحضر جيش العسرة . فكان ينحر ويطعم حتى استدان بسبب ذلك . ونهاه أمير الجيش أبو عبيدة ولكنه ظل على سجية بيته الذى يقال ان النبى (ص) قال فيه : الجود من شيمة أهل ذلك البيت . ويروى أن رجلا استقرض من قيس بن سعد ثلاثين ألفا . فلما ردها عليه ، أبى أن يقبلها . وقد أخذ الرسول (ص) الراية من أبيه يوم الفتح . وسلمها إليه :

شهد قيس صفين مع على. وكان مع ابنه الحسن بن على حتى صالح معاوية . فرجع إلى المدينة وأقام بها — كما سنذكر ذلك بعد — ويروى ابن عيينة أن قيسا قال : لولا الإسلام لمكرت مكرا لاتطيقه العرب .

توفى قيس فى آخر خلافة معاوية سنه ٦٠ هـ بالمدينة . وقيل انه هرب من معاوية وظل حتى سنة ٨٥ فى خلافة عبد الملك حيث توفى هذا العام .

كان قيس من ولاة مصر قبل صفين . كما كان قائد جيش الحسن بن على ضد معاوية سنة ٤١ هـ.

موقف قيس بعد تنازل الحسن :

يقول ابن الأثير : فى سنة ٤١ هـ جرى الصلح بين معاوية وبين قيس بن سعد ، وكان قيس لمتنع من ذلك ، وسبب امتناعه أن عبيد الله بن عباس لما علم بما يريده الحسن من تسليم الأمر إلى معاوية ، كتب إلى معاوية ، يسأله الأمان ، لنفسه على ما أصاب من مال وغيره ، فأجابه إلى ذلك ، وأرسل عبدالله بن عامر فى جيش كثيف ، فخرج إليهم عبيد الله ليلا ، وترك جنده الذين هو عليهم بغير أمير ؛ وفيهم قيس بن سعد فأمر الجند عليهم قيس بن سعد وتعاقد وإياهم على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة على ، ولمن كان معه على دمائهم وأموالهم ، وقيل ان قيساً كان هو الأمير على ذلك الجيش فى المقدمة ، وكان شديد الكراهية لإمارة معاوية بن أبى سفيان فلما بلغه أن الحسن بن على صالح معاوية ؛ اجتمع معه جمع كثير وبايعوه على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة على ، على دمائهم وأموالهم ، وما كانوا أصابوا فى الفتنة ؛ فراسله معاوية يدعوه إلى طاعته ؛ وأرسل إليه بسجل وختم على أسفله وقال له أكتب فى هذا ماشئت فهو لك ، فقال عمرو لمعاوية : لا تعطه هذا وقاتله فقال معاوية ؛ على رسلك ، فإنا لانخلص إلى قتالهم حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام ؛ فما خير العيش بعد ذلك فانى والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بدا . وقد تسلم قيس كتاب معاوية . واشترط لنفسه ولشيعة على الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال ولم يسأل فى سجله ذلك مالا . وقد أعطاه معاوية ما سأل . ودخل قيس ومن معه فى طاعته وكانوا يعدون قيسا من أعظم الدهاة .

هذا ولعل فيما سبق ، ما يكشف عن نفسية قيس ، ومركزه فى الأمة ، حتى ان معاوية عامله كما عامل الحسن بن على نفسه ، بينما تقول الرواية ان

أقارب الحسن ، وبنى عمومته ، قد تخلوا عنه لأول بادرة ، وكان طلبهم من معاوية أن يتجاوز لهم عن الأموال التى أخذوها من بيوت أموال المسلمين .

ان هذه الروايات — ان صحت — تعتبر شديدة الحساسية ، ومجال أحاديث وتعليقات لا يمكن ردها . ولكن الذى يعزى المؤرخ عدم الجزم بتصديق مثل هذه الأخبار لأنها صالحة للتخريج والتأويل ، والله أعلم بمدى تمتع هذه الروايات بالصدق أو الافتراء . أما نحن ، فلا نملك إلا أن نذكرها على سبيل الشرح والتوضيح ، على مسئولية الذين أثبتوها .

ومع هذا ، فإن ما قدمناه عن قيس ، وتزكية المؤرخين ، والمحدثين للرجل ولعائلته يجعلنا نقدره ، ونجله ، ونقول كما قال الكثيرون — رضى الله عنه وأرضاه .

وإلى هنا نستطيع أن نقول : ان معاوية . قد نجح فى حل مشكلة الشيعة ، إذ ضم زيادا وقيس بن سعد ، كما تخلص من حجر بن عدى ، وبذلك لم يعد فى العراق والمشرق ، أو الحجاز واليمن ، من يناوئه من هؤلاء .

بطل اجنادين وفتح مصر

عمرو بن العاص

ترجمته :

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص السهمى القرشى . ولد حوالى سنة ٣٣ قبل البعثة المحمدية ، وتوفى سنة ٤٣ هـ على الراجح عن تسعين سنه على الأشهر ، وقيل توفى وله من العمر تسع وتسعون سنة .

وعمرو من الرجال القلائل الذين أوتوا حظا من سعة الأفق ، والدهاء ، وعذوبة الحديث حتى ان قريشا كانت تعتمد عليه فى السفارات بينها وبين ملوك الروم والحبشة ، والعرب ، وكان عمرو يكفيها هذه المسائل ، وكان من المخلصين للأمة العربية ، والعشيرة القرشية ، كما كان من أعرق بطون قريش ، وذوى المناصب الكبرى فى مكة ، وكان ذا رأى وفقه ، ولم يكن إمعة فى عقيدته أو ثقافته ، ولكن كان يغلب عليه ، الميل إلى موافقة قومه ، وترسم تقاليدهم ، ولعل ذلك من أهم الأسباب المباشرة فى تأخر دخوله فى الإسلام ، وإن كان يرصد التطورات فى وعى ، وتوثب ، وفحص ، وانتباه ، فلما أمكنته الفرصة ، أعلن رأيه ، ولم يخش فى الحق لومة لائم .

إسلام عمرو :

يختلف المؤرخون فى زمن إسلام عمرو بن العاص، فروى أنه أسلم فى شهر صفر من سنة ٨ ثمان قبيل فتح مكة ، وقيل انه أسلم بين الحديبية وخيبر..قيل لعمرو : ما ابطأ بك عن الإسلام وأنت فى عقلك قال : إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم ، فلما بعث النبى (ص) فانكروا عليه، فلذنا بهم،فلما ذهبوا وصار الأمر الينا نظرنا وتدبرنا ، فإذا حق بين ، فوقع فى قلبى الإسلام، فعرفت قريش ذلك منى من إبطائى عما كنت أسرع من عونهم عليه ، فبعثوا إلى فتى منهم فناظرنى فى ذلك ، فقلت : أنشدك الله ربك ورب من قبلك ومن بعدك أنحن أهدى أم فارس والروم . قال : نحن أقوى قلت : فنحن أوسع عيشا أم هم ،. قال هم . قلت . فما ينفعنا فضلنا عليهم إن لم يكن لنا فضل إلا فى الدنيا ، وهم أعظم منا فيها أمرا فى كل شىء . وقد وقع فى نفسى أن الذى يقوله محمد من أن البعث بعد الموت ليجزى المحسن بإحسانه ؛ والمسىء بإساءته حق ، ولا خير فى التمادى فى الباطل .

كذلك يروى أن عمرا أسلم فى الحبشة حينما أوفدته قريش إلى النجاشى ، لوقيعة بين مهاجرة المسلمين ، وبين امبراطور الحبشة ؛ وقد علم أصحاب عمرو بهذا فآذوه ، وسلبوه كل ما يملك ، مما دفعه لأن يشكو إلى جعفر ابن أبى طالب ، الذى أخذه إلى النجاشى لإنصافه ، فأمر برد كل شىء أخذ منـه .

لقد كان عمرو من القرشيين القلائل الذين يشار إليهم . ولذلك فقد كان الرسول يتمنى انضمامهم إليه ، فلما أسلم . فرح النبي به . وقربه . وعرف له شجاعته ، وولاه غزوة ذات السلاسل . وأمده بأبى بكر ؛ وعمر . وأبى عبيدة ابن الجراح . ثم استعمله على عمان ، وظل بهـا حتى قبض الرسول إلى الرفيق الأعلى . فلما كانت خلافة أبى بكر عقد له على أحد الجيوش التى وجهها إلى الشام . ثم أصبح من أمراء الاجناد فى عصر عمر بن الخطاب .

ونقف هنا قليلا لننظر فى تأمير عمرو فى ذات السلاسل . على جيش فيه أبو بكر . وعمر . وأبو عبيدة ثم فيما تم بعد ذلك من انتخاب أبى بكر أميراً لجميع المؤمنين . ثم فى عزل عثمان له عن امارة مصر ومع هذا . فإن موقف الرجل لم يتغير فى جميع الظروف . فلم يغضبه أن يكون جنديا فى جيش أبى بكر بعد أن كان رئيساً له . ولم تتغير أخـــلاقه . حينما عزله عثمان . بل ثبت فى مكانه هنا فى الوطن العربى ، وإلى جانب هؤلاء الأمراء جميعا ، وحتى عثمان بعد مقتله ، ، كان وفياله وغاضب علياً من أجل الاعتداء الذى أوقعه بعض المحيطين به بالخليفة عثمان .

إن هذه الشخصيات ، التى لاتـكاد تنفرج عنها الأرحام إلا فى فترات قليلة جداً من الزمن لتلقى علينا دروساً هادفة فى الثبات والصبر ، على المبادىء والمثل التى ندين بها ، مهما أساء بعض الناس فهمها أو تطبيقها ، ولـكن الذين يتابعون

أمثال عمرو بن العاص — بدون ريب — قليلون ، ولذلك . فإن تقديرنا ، وثقتنا بمثل ذلك الرجل ، لا تكاد تنتهى عند حد ، مهما حاول أدعياء العطف على آل محمد (ص) أن يحولوا بين الأمة . وبين هذه الثقة وهذا التقدير لأبطالها .

لقد أومأنا إلى ذلك الموقف الخالد لهذا البطل العبقرى ، فى معركة صفين وكيف انه أمسك بعصا السلم والقضاء على الفتنة،من وسطها حينما أشاربالتحكيم، محاولا وضع حد لإزهاق أرواح المؤمنين ، وتمزيق وحدتهم ، وللخلافات الحادة التى أنشبت الحروب بينهم ، وأطمعت الأعداء فى التربص بدولتهم . فنجح الرجل ، ووفق كل التوفيق ، وبخاصة بعد إصدار ذلك القرار التاريخى الذى رد الأمر فى خلافة النبى (ص) ، ورياسة الدولة ، إلى الأمة ، تولى من تشاء ، بعد أن حاول دعاة الفرقة ، والفوضى ، إعادة الحمية الجاهلية ، وإقامة نظام هرقلى قيصرى فى ربوع الأمة التى تدين بالشورى ، وتؤمن بحرية الفرد ، وإرادته واختياره ، كما تكفر بالطاغوت فى أى صورة من صوره ، وأيا كان شكله أو لون طغيانه .

إن عمرا بدون شك ليعتبر رائداً مثالياً فى تدعيم أرقى النظم السياسية والاجتماعية فى الأمة الإسلامية ، ولم يكن أبداً هازلا فى التحكيم ، كما لم يكن التحكيم قط مهزلة ، كما يصفه بعض الذين يحكمون على الأشياء فى غير تدبر أو عمق .

عمرو مع أبى بكر وعمر :

وعندما توفى النبى (ص) واستخلف أبو بكر ، اندلعت حركة تمردية عامة فى بلاد العرب وأطرافها ، فأرسل الخليفة حملة تأديبية ضد المتمردين ، فى مختلف المناطق ، وكان عمرو بن العاص قائداً لإحدى الفرق التى

بعث بها أبو بكر لقمع حركة الردة العربية فأبلى بلاءاً حسنا ، واستطاع أن ينتصر في أكثر من ميدان — كما أبنا ذلك فى موضعه .

وفى خلافة عمر ، كانت معركة اليرموك فى نهايتها الحاسمة ، وكان عمرو وخالد بطلى ذلك الإنتصار الذى تم للعرب ضد الروم وحلفائهم فى سوريا ، وفلسطين ، حتى ان بعض المؤرخين ينسب إلى عمرو وحده ، توجيه دفة الحرب التى نشبت بين العرب والروم فى الشام : يقول الواقدى : دعا أبو بكر عمرو بن العاص ، فسلم إليه الراية وقال : قد وليتك هذا الجيش ، فانصرف إلى أهل فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة وأنجده إذا أرادك . . . اتق الله فى سرك وعلنك ، واستحيه فى خلواتك ، فانه يراك فى عملك . وقد رأيت تقدمتى لك على من هم أقدم منك سابقة . وأقدم حرمة . فكن من عمال الآخرة ؛ وارد بعملك وجه الله واسلك طريق ايلياء حتى تنتهى إلى أرض فلسطين . وإياك والوهن ، وإياك أن تقول جعلنى ابن أبى قحافة فى نحر العدو ؛ ولاقوة لى به ؛ واعلم ياعمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر . فأكرمهم واعرف حقهم . ولاتتطاول عليهم بسلطانك : ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول إنما ولانى أبو بكر لأنى خيرهم ، وإياك وخدائع النفس ، وكن كأحدهم ؛ وشاورهم فيما تريد من أمرك . والصلاة . ثم الصلاة . أذن بها إذا دخل وقتها . واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحذر . ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم . وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك . وأقم بينهم . واجلس معهم . واتق الله إذا لاقيت العدو . وقدم قبلك طلائعك وإذا وعظت فاوجز . وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك . وإذا رأيت عدوك . فاصبر ولاتتأخر . فيكون ذلك منك فخراً . والزم أصحابك قراءة القرآن ، وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها . فإن ذلك يورث العداوة بينهم . واعرض عن زهرة الدنيا . حتى تلتقى بمن مضى من سلفك وكن من الأئمة الممدوحين فى القرآن إذ يقول الله تعالى : وجعلناهم أئمة يهدون

بأمرنا . وأوحينا إليهم فعل الخيرات . وإقام الصلاة . وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ! . . بارك الله فيك وفيهم .

ولعل من يتدبر هذه الوصية الجامعة . يراها آية فى حسن التوجيه . فى السلم والحرب . والدنيا والدين . وقد عمل عمرو بها . وترسمها بدقة وحزم فانتصر فى جميع حروبه . سواء فى الجزيرة العربية أو بادية الشام . أو فى مصر . فهل يدرك الخلف من هذه الأمة . الأسباب الحقيقية التى مكنت لهم فى الأرض وأخرجت منهم أعظم دولة ؛ وخير أمة ؟ .

موقف عمرو فى الفتنة :

مهما تقول البعض على الصحابى الفاصل ، والمجاهد العظيم عمرو بن العاص فإنهم لم يستطيعوا إخفاء مفاخره فى حروب الردة ، ثم فى قتال الروم سواء فى الشام أو فى مصر ، أو غيرهما من المعارك التى خاض غمارها ولكن الأعظم من ذلك — فى نظرنا — هو موقف الرجل إبان الفتنة التى قتل فيها عثمان ، ثم بويع فيها لعلى بن أبى طالب ، ثم انشقاق الأمة العربية ؛ والشجار الدموى بين على وطلحة والزبير وعائشة ثم الصدام الذى حدث بين على ومعاوية ؛ وبينه وبين الخوارج .

لقد كان موقف عمرو فى كل هذه الأحداث فى غاية السلامة والحزم فلقد كان عثمان قد استمع إلى الشكوى ضد عمرو ؛ فعزله عن إمارة مصر ، وولى بدله عبدالله بن سعد بن أبى سرح ؛ قبيل الحركة السبئية بقليل ، ومع هذا فإنه لم ينضم إلى أعداء عثمان ولم يحرض ضده ، بل كان من المتوقع من مثله أن ينضم إلى على بن أبى طالب . ولكنه لم يفعل . بل إن الرجل قد استجاب لضميره الشخصى وداس بقدمه القوية الثابتة على أمانى النفس ، وشهواتها .

ومطامعها . وظل مكانه يصدع بالحق ؛ ويحرص على التوحيد . وجمع الكلمة واستتباب الأمن . وسيادة النظام وكشف عن ذلك باعتزاله الفتنة . ثم باعتراضه على خلافة على . وانضمامه إلى معاوية عميد الأسرة الأموية التى عزلته من منصبه مما يدل على أن الرجل كان مؤمناً بضرورة الحيلولة دون تمزيق الوحدة العربية والإسلامية . وكان يرى فى معاوية أعظم شخصية جذابة للأمة . بحكم مركزه السياسى والاقتصادى والاجتماعى . إلى جانب خصائصه المفضلة فى خدمة الدين ورسوله وكتابه . ومواهبه الفريدة فى حسن الإدارة . وأدب الحكم . ومن ثم فقد أخذ عمرو يمهد عن هذا السبيل لإعادة الأمة إلى سيرتها الأولى فى عهد النبى (ص) وصاحبيه ؛ حتى إذا كانت معركة صفين انتهزها سانحة ؛ فدعا إلى التحكيم . وقد نجح فى الوصول إلى أهدافه كما أبناه فى الكتاب الأول من هذا البحث

عمرو فى مصر :

كانت مصر من أهم البلاد التى اهتم بها معاوية باعتبارها متاخمة للشام وتعتبر أيضاً مصدراً عظيما لمختلف المواد فى السلم والحرب . وكان على قد ولى عليها قيس بن سعد بن عبادة فى سنة ٣٦ هـ فساسها سياسة حكيمة واستقامت له الأمور حتى كاد يجمع عليه الناس . بيد أن معاوية أخذ يعمل على تشجيع العناصر الموالية لعثمان وللأمويين حتى استطاع أن يكون له بها أنصار كثيرون، ولكن الأمر لم يتمد هذا الوضع طوال مدة الفتنة .

فى هذه الأثناء عزل على قيس بن سعد عن مصر ، وولى مكانه محمد بن أبى بكر واشتبك هذا مع العثمانية من أهل مصر حتى لم يقو أمير مصر الشاب على السيطرة على الموقف وبلغ ذلك عليا فعقد بولاية مصر لمالك بن الأشتر . ولكن هــذا لم يكد يسير إلى مصر لضبط أمورها حتى وافته المنية قرب

السويس — وبذلك ظلت الأحوال فى مصر مضطربة ، وظل محمد بن أبى بكر لا يستطيع تسيير دفة الأمور بها .

ولكن بعد صدور قرار الحكمين وضعف مركز على قام معاوية بالتجهز لضم مصر إلى دولته فبعث بعمرو بن العاص فى ستة آلاف جندى دخل بها مصر فانضمت إليه العثمانية بها ، ثم اشتبك فى صراع دموى مع بن أبى بكر نائب على ، وانتصر عمرو على ابن أبى بكر . وبذلك أصبح عمرو أمير مصر وحاول على أن يستردها ففشل . وقد ظل عمرو يحكم مصر منذ سنة ٣٨ هـ حتى سنة ٤٣ هـ حيث توفى . فأسند معاوية إمارة مصر إلى ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص الذى حكم مصر نحواً من سنتين . وعلى ذلك يكون عمرو قد تولى إمارة مصر فى عهد عمر أربع سنين وفى عهد عثمان أربعا إلا شهرين ولمعاوية منذ افتتحها إلى سنة ٤٣ فكان فيها مثال الإدارى الحازم الذى تمكن من القضاء على الفتن القبلية والطائفية والمذهبية .

ولذلك فإن وجود هذا الرجل إلى جوار معاوية أكسبه قوة جبارة كانت من أهم العوامل فى نجاحه وانتصاره على على بن أبى طالب كما أوضحنا ذلك فيما سبق .

* * *

تعقيب

حول شخصية المقوقس

بعد أن مضت فترة على صدور هذا الكتاب وأوجزنا جملةعن المقوقس حسبما أسعفتنا به المراجع التى تحت يدنا ، نشرت دراسات مفيدة حول شخصية المقوقس رأينا من الأمانة العلمية ، أن نثبتها هنا ونحن بصدد نشر هذه الطبعة . يقول الباحثون[1] الجدد .

أنفق المؤرخون جهداً عظيما فى البحث عن حقائق هؤلاء الأعلام دون أن ينتهوا إلى نتيجة تطمئن إليها النفس وذهبوا يلقون ضوءاً فيما كتبه مؤرخو الأقباط مثل ساويرس أسقف الأشمونين المعروف بابن المقفع وسعيد بن بطريق المعروف بأوتيخا وأبى صالح الآرمنى وجرجس المكين فإذا بمعظم أخبارهم منقولةعن الأصول العربية نفسهاثم التمسوا المعونةمن مؤرخى البيزنطيين أنفسهم مثل سيبيسوس مؤرخ هرقل وتيوفانس صاحب المدونة المعروفة بالتاريخ فلم يجدوا لديهم إلا إشارات لاتغنى فعادوا إلىالخطوط الرئيسية الأولى التى وضعها أصحاب الروايات الإسلامية الأولى ووقف الأمر عند ذلك ولابدمن تحقيق شخصية المقوقس مثلا قبل المضى فى هذا البحث فهو فى رأينا مفتاح موضوع فتح العرب لمصر .. إذا عرفنا من هو وماهو دوره بدت لنا قصة الفتح تحت ضوء جديد وقد حاول الفريد بطلر فى كتابه المعروف عن الفتح العربى لمصر أن يحل بعض هذه المشكلات ، فلم يخرج إلا بنتيجة وحدة قبلها الناس زمانا ولكنها الآن موضع شك كبير ونعنى بذلك قوله ان المقوقس هو قيرس ولم يستند فى ذلك القول إلا إلى عبارات تحتمل أكثر من تفسير وجدها عند ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين .

وكل هذه النصوص — فيما عدا قصة صمويل القلمونى تذكر قيرس دون

---

(١) انظر تاريخ الحضارة المصرية عدد ٥ من المجلد الثانى ص ٣٢٥

أن تشير إلى المقوقس ، أو تذكر اسمه كأن المقوقس هذا خاص بمؤرخي العرب وحدهم ولم يعرفه الأقباط ولا البيزنطيون .

وحيث اننا لانجد مايقابله من الأسماء عند هؤلاء فإنه يغلب على الظن أنه لقب أطلقه العرب على شخص معين وليس ذلك بغريب فقد أطلقوا على رئيس حامية حصن بابليون لقب (الأعيرج) وسمو القائد البيزنطي في افريقية . (جرجر) مع أن اسمه الحقيقي (جريجوريوس) ولو أن المقوقس هذا كان قيرس بالذات لذكرت ذلك المراجع العربية أو واحد منها على الأقل . فإذا نحن مضينا في البحث وجدنا أولا : ان المقوقس يوصف بأنه عظيم القبط ولولا أنه كان عامل مصر من قبل البيزنطيين لما وصف بذلك كما نلاحظ أنه كانت له في مصر أسرة كثيرة الأفراد متفرقين في نواحيها . تذكر المراجع العربية منهم رجلا يسميه المقريزي « الهاموك » والواقدي « الهاميراك » ويقال انه كان من أخوال المقوقس وكان على دمياط وقاتل المسلمين مع واحد من أولاده فقتل واستأمن هو ولحق ابن آخر له اسمه شطا بالمسلمين وأسلم وخرج الى البرلس والدميرة وأشمون طناح فحشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مددا للمسلمين وسار بهم للفتح تنيسي وقاتل حتى قتل وقبره باق الى الآن في دمياط وهو معدود في أوليائها وصالحيها وذكر المؤرخون كذلك أخا للمقوقس يسمى أندراوس وبنتا تسمى لولية بل ذكروا له زوجة وقالوا انه كان لها شأن .. هذا بالإضافة الى ابنته أرمانوسا ذات الخبر المشهور .

* * *

كشـــاف الأعلام

كشاف الاعلام

(ب)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

كشاف البلدان والأماكن

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

مصادر الكتاب

١ — المصادر العربية

(١) القرآن الكريم

تيسير الوصول إلى « جامع الأصول »	لابن الديبع الزبيدى اليمانى
كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة	لابن حجر العسقلانى
« تاريخ الرسل والملوك	لابن جرير الطبرى
« الكامل فى التاريخ ـ أسد الغابة	لابن الأثير
« مروج الذهب	لأبى الحسن المسعودى
« الطبقات الكبرى	لابن سعد
« العبر وديوان المبتدأ والخبر	لعبد الرحمن بن خلدون
« البداية والنهاية	لابن كثير الدمشقى
« تذكرة الحفاظ، ميزان الاعتدال دون الإسلام	لشمس الدين الذهبى
« تهذيب الكمال	لأبى الحجاج المزى
« وقعة صفين	لابن مزاحم المنقرى
« فتوح البلدان	لأبى الحسن البلاذرى
« الإدارة الإسلامية	للأستاذ محمد كرد على
« محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية	للشيخ محمد الخضرى
« الخلفاء الراشدون	للشيخ عبد الوهاب النجار
« كتاب السيرة النبوية « بنى البر »	لمحمد بن إسحاق
« معجم البلدان	لياقوت الحموى الرومى
« مناقب عمر بن الخطاب	لجمال الدين بن الجوزى

كتاب صور وبحوث من التاريخ الإسلامى	لعبد الحميد العبادى
« الفهرست	لابن النديم
« فتوح مصر	لابن عبد الحكم
« الأخبار الطوال	لأبى حنيفة الدينورى
« الفصل فى الملل والأهواء والنحل	لابن حزم
« وفيات الأعيان	لابن خلكان
« النجوم الزاهرة	لأبى المحاسن الأتابكى

٢ — المصادر المعربة

كتاب مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى لسيد أمير على

« تاريخ الشعوب الإسلامية للمستشرق كارل بروكلمان

« العالم الإسلامى الحديث للمستشرق لو ثروب

« حياة محمد للمستشرق درمنغام

« فتح العرب لمصر للدكتور بتلر

« تاريخ العالم لوليم لانجر

« العالم والغرب لأرنولد توينبى

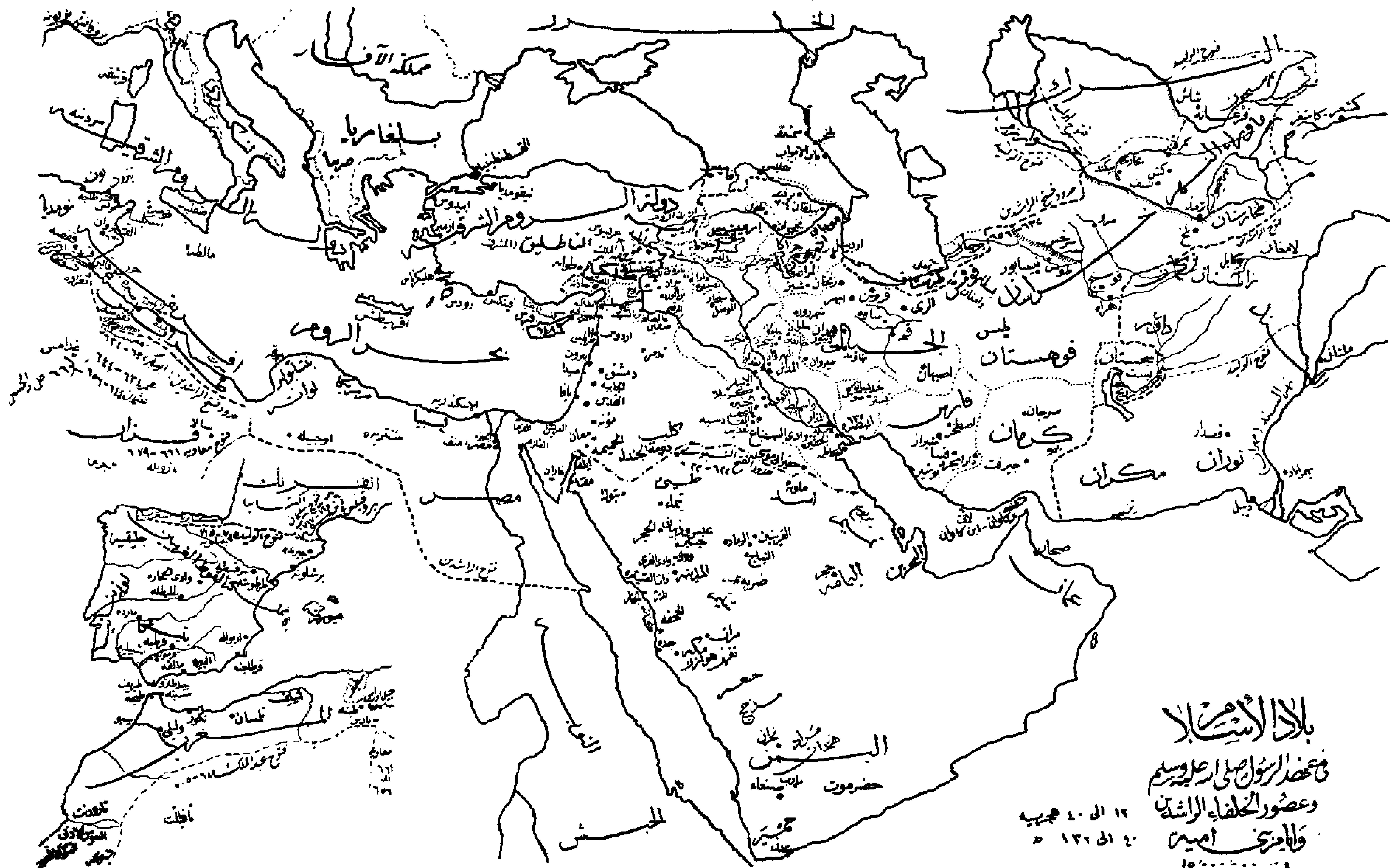
« شروط النهضة لمالك بن نبى

« تأملات فى المجتمع العربى « «

« السلطات فى الدولة لهارولد لاسكى

« حضارة العرب جستان لوبون

« تاريخ العرب للدكتور فيليب حتى



بلاد الإسلام
في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
وعصور الخلفاء الراشدين
وأيام بني أمية
١٢ الى ٤٠ هجرية
٤٠ الى ١٣٢ هـ
مملكة الآفار
بلغاريا
صربيا
دولة الروم الشرقية
بحر الروم
الجبال
فوهستان
فارس
كرمان
مكران
توران
خراسان
طبرستان
اصبهان
سجستان
مصر
اليمن
حضرموت
اليمامة
البحرين
عمان
الحجاز
المدينة
مكة
جدة
دمشق
القدس
طيء
كلب
أسد
الحبشة
فزان
برقة
المغرب
الفرنجة
الافرنجة
تلمسان
برشلونة
الاسكندرية
دومة الجندل
تيماء
صنعاء
الحبش